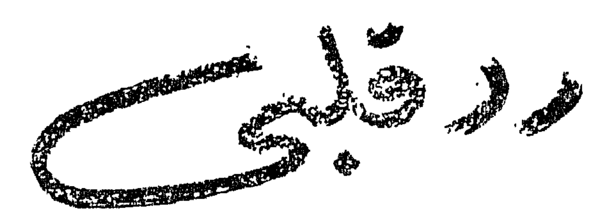
يوسف السباعي

رد قلبي

الجزء الأول



يوسف السباعي



الجزء الأول

يطلب من :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ...... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إلى راحلة	(رواية ...... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥١)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زغرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية ..... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية ..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ..... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ..... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ..... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ..... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ..... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ..... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ..... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ..... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ...... ١٩٧٣)

الإهداء

إلى سلاح الفرسان .

بخيوله وعرباته ودباباته وجنوده وضباطه وقواده وشهدائه ومحاربيه القدماء .

إلى سلاح « النصر أو الموت » .

أهدى قطعة من حياته .. وحياة مصر .

يوسف السباعى



مقدمة

أشعر وأنا أقدم هذه القصة براحة من رفع عنه عبء أثقل كاهله وأنقض ظهره .

لقد بدأت كتابتها فى أول هذا العام (١٩٥٤) وختمتها فى آخره .. ولست أزعم أنى قضيت العام كله فى كتابتها ، فقد تخللته أعباء أخرى كالكتابة للسينما وتحرير مجلة الرسالة الجديدة .. ومختلف شئون العمل والحياة التى تأخذ بتلابيب كل إنسان .

ومع ذلك ، ورغم عدم تفرغى لها طول العام ، ورغم ما تخلل كتابتها من مختلف المشاغل ، فإنى أستطيع أن أجزم أنى لم أنقطع عن التفكير فيها لحظة واحدة .. وأنها ألحت على ذهنى إلحاحاً .. دفعها إلى أن تشاركنى حياتى .. ودفعنى إلى أن أشاركها حياتها .. وملأنى إحساساً مفرطاً بأبطالها .. حتى باتت تربطنى بهم صلات الآدميين . وبت أشعر لهم بالحب والبغضاء ، والإعجاب والرثاء ، وأحزن لأحزانهم وأفرح لأفراحهم .

وأذكر أنى جلست ذات مرة إلى المائدة ومعى بعض المدعوين من الأقرباء ولمحت في يد إحداهن أسورة ذهبية عريضة مشغولة بنقوش دقيقة كأنها « التنتنة » وأعجبتنى الأسورة ولكنى وجدتها لا تناسب اليد الممتلئة التى حملتها ووجدتنى أتخيل مكانها يداً أخرى .. دقيقة جميلة .. لمخلوقة تلح على ذهنى .. وتملك مشاعرى .. هى « أنجى » بطلة « رد قلبى » .

وهكذا استطاعت المخلوقة الوهمية أن تتغلب على كل المخلوقات الحية وأن تلح على مشاعرى حتى تخرج بنفسها من نطاق أوراقى إلى نطاق حياتى .

وقد يرى الناس فى قولى هذا نوعاً من جنون « الكتّاب » ولكن ماذا تراهم .. قائلين .. إذا عرفوا أكثر من هذا .. أننى خلال العام الذى كتبت فيه القصة ..

كنت أرى كتابتها أهم ما فى حياتى .. وأن كل عمل يجب أن يتضاءل إلى جوارها حتى أنتهى منها ، وأننى لم أكن أخشى فى أوقات المرض أو التفكير فى الموت إلا أن أموت قبل إتمامها ، لقد كنت أخشى عليها أولا ثم على زوجتى وأمى وأولادى .

قد تكون القصة لا تستحق كل هذا .. وقد يرى البعض أنه كان من الخير أن أموت قبل إتمامها .. ومع ذلك أرانى لا أملك إلا أن أقرر واقع إحساسى لها .. ومشاعرى خلال كتابتها .

ويبدو لى سبب اهتمامى بهذه القصة .. هو يقينى بضرورة تسجيل الأحداث الخطيرة التى حدثت فى تاريخنا المعاصر . وثقتى بأنى — بصفتى العسكرية — أقدر الكتّاب على تسجيلها بحكم خدمتى فى الجيش وإحساسى بالمشاعر التى أدت إلى حدوث هذه الأحداث التى غيّرت وجه التاريخ فى مصر .

ولقد حاولت قدر ما أستطيع أن أدمج قصتى هذه فى قصة الأحداث الواقعية التى حدثت فعلا .. حتى تبدو القصة كتلة واحدة .. ولست أدرى إلى أى حد وفقت فى ذلك ، ولا إلى أى حد وفقت فى القصة كلها .

ولكن الذى أدريه وأوقن به .. هو أنى قد أديت واجباً كنت أشعر به يلح على نفسى وألقيت عبئاً كنت أحس به يثقل كاهلى .

ولا أنكر أنى أجهدت حقاً فى كتابة هذه القصة .

وكل ما أرجو ألا يضيع جهدى سدى وأن أكون قد كتبت شيئاً ناجحاً .

يوسف السباعى

(١)

ماء الوجه

كانت « السوبة » كأنها قوس قزح ، وقد صفت فى أرجائها الأصص التى تكدست بها الزهور المنمقة المزركشة .

ووقف « أفندينا » أمام ركن رصت به مجموعة من زهور « السناراريا » وأشار بعصاه قائلا :

ـــ هذه مجموعة جيدة .. أعتقد أنها خير ما عندنا .. من أين لك بذرتها ؟

ـــ لقد أحضرناها شتلة فى مواجير من القناطر .

ـــ خذ منها بذرة للموسم القادم .

وأحنى « الريس عبد الواحد » رأسه مجيباً :

ـــ حاضر يا أفندينا .

ـــ ومتى تنوى نقلها إلى المعرض ؟

ـــ فى الأسبوع القادم .. لقد جاء التأخير فى صالحنا .. حتى يتم تفتح بقية الأصص .. إذ أخرها برد هذا العام ، ولكن الجو قد أخذ فى الدفء .. وستتفتح كلها إن شاء الله خلال يومين على الأكثر .

كان الأمير « إسماعيل » يتفقد حدائقه الواسعة ، المحيطة بقصره المشيد وسط أراضيه فى إحدى الضواحى التى تقع على أطراف القاهرة .. فى ضحا يوم جمعة من ربيع عام ١٩٣٣ .

وبدا الأمير أو « أفندينا » كما تعوّد الكل أن ينادوه .. طويل القامة ، مهيب الطلعة ، أبيض الوجه ، أحمره.. وقد وضع « مونوكل » فى إحدى عينيه التى لا أظن سواها من عيون عباد الله من غير الأمراء بمستطيعة الإمساك به لحظة واحدة .

وقد منح الله عينيه ـــ غير القدرة على الإمساك بالمونوكل ـــ قدرة على إشعاع نظرات الكبرياء والترفع والتعاظم على نمط أصيل غير زائف ولا مفتعل . فهو بهذا الإشعاع ، والمونوكل ، والطربوش الأحمر الطويل ، المائل على أحد جوانب رأسه ، واللكنة الأجنبية الدخيلة على عربيته ، والجمل التركية والفرنسية المتخللة حديثه بين آونة وأخرى . يبدو نموذجاً للأرستقراطية والسمو ، وطيب الأصل ، ورفعة النوع ، كما تقاس بمقاييس ذاك الوقت !!

وسار الأمير متمماً جولته ، يتبعه « الريس عبد الواحد » رئيس بساتين القصر .. أو « الباشجناينى » بجلبابه الصوفى الطويل الفضفاض ، وعمامته التى التف حولها الشال الأصفر الذى يميز هذه الفئة .. وكان الرجل أسمر الوجه ، بارز عظام الوجنتين ، متين البنيان ، صلب الجسد ، ليس به ما يميزه كثيراً عن سواه من زملائه وأبناء طبقه .

وتوقف الأمير أمام مجموعة أخرى من الأصص ، وأشار بعصاه :

ـــ وهذه البرميولا ليست كما يجب .. أتنوى عرضها ؟

ـــ سننتقى بعضاً منها لعمل إطار حول مجموعة السنانير .

وعاود الأمير السير يتبعه « الريس عبد الواحد » ويليهما ركب التوابع والحواشى ، وتلفت الأمير حوله كأنما يبحث عن شيء ، وانتقلت عدوى التلفت منه إلى بقية الحاشية ، وبدت على وجوههم سيماء الحيرة والارتباك ، خشية أن يكون قد بدا للأمير نوع من التقصير فى ناحية من النواحى ، وأخيراً ، أفصح الأمير عما يبحث عنه فتساءل :

ـــ أين أنجى ؟

وأسرع بالإجابة رجل أسود ، أشبه « بالأغوات » قد ارتدى حلة سوداء ، « إدريس أفندى » الخادم الخاص لأفندينا فقال :

ـــ لقد بقيت خارج « السوبة » تتنزه فى الحديقة مع مربيتها « دلبار » .

وبدت الصبية الصغيرة تعدو وتتواثب فى الحديقة أمام المربية العجوز ،

وقطفت زهرة من زهرات الأنترهينم « حنك السبع » وأخذت تضغط عليها بإبهامها وسبابتها الصغيرتين ، محاولة إخافة المربية ، وهى تهتف بها ضاحكة :

ـــ سيأكل السبع ذراعك .. انظرى كيف يفتح فمه !!

ثم انطلقت مبتعدة تعدو على البساط الأخضر حتى وصلت إلى عربة التروللى الواقفة عند بداية القضبان ، فى منحدر الممر الضيق ، بجوار سور الحديقة الأخضر المرتفع ، وعادت تصيح بالمربية العجوز :

ـــ داده .. أريد أن أركب الترولى .

ـــ ليس الآن .. إن عامله فى عطلة اليوم .

ـــ ادفعينى أنت .. أريد أن أركب الآن .

وقالت المربية تنهر الصبية :

ـــ قلت لك ليس الآن .. أنا لا أستطيع دفعه .

ـــ سأدفعه أنا ..

ـــ إياك .

وكان ينصت إلى المناقشة صبيان صغيران متقاربان فى السن والشبه ، قد أخفتهما عن الأبصار دروة صغيرة من الغاب أقيمت لحماية بعض العقل والشتلات وراء « السوبة ».

كان الصبيان هما : على وحسين ولدا الريس عبد الواحد ، وقد انتهز الرجل فرصة عطلتهما من المدرسة ، ومرور الأمير على السوبة والمشتل فأحضرهما ، علّه يراهما فيغدق عليهما بعض منحه وعطاياه .

وكان « حسين » يتوق إلى مثل هذه الزيارات للقصر الكبير ، ويعتبرها نزهات مستحبة ، للهو واللعب ، والاستمتاع بالحديقة الغناء ، وبما ينفحه أهل القصر من عطايا يستطيع أن يحجز منها شيئاً لنفسه .

كان مرحاً طموحاً مندفعاً ، على النقيض من أخيه الأكبر « على »، الهادىء الصموت ، المتميز برزانة تفوق كثيراً الخمسة عشر عاماً التى بلغها من عمره .

كان « على » يكره تلك الزيارات ، إذ كانت تشعره بحقيقة موضعهم من الحياة . وكانت تبدى له بجلاء ، البون الشاسع بين طبقتين من عباد الله ، إحداهما فى السماء والأخرى فى الأرض .

كانت تجبره على أن ينظر إلى أعلى فيحس بمدى ضآلته وحطة دركه وهبوط مستواه ، ولم يكن شريراً ولا حسوداً للناس ، وربما كان أخوه أكثر منه حباً لنفسه ، ولكنه فى تلك الزيارات كان يشعر أن نفسه أعز عليه من أن يوردها موارد الهوان ، وأنها أكرم عليه من أن يضعها موضع العطف والإحسان .. حتى ولو جلب لها هذا العطف بعض الفائدة المادية ، فقد كانت الفائدة تذهب هباء ، وسط ذلك الشعور المرير بالمذلة والضعة .

كانت نفس الصبى كبيرة .. وكان يكره لها التضاؤل أمام سادتها ، والتضاؤل كان فرضاً واجباً .. يفرضه الواقع الذى لا مفر منه إذا حدثت المواجهة .. ووقعت المقارنة ، ولذا كان الصبى يعتبر الزيارات عبئاً كبيراً .. وهماً ثقيلا .. وكان يود فى كل زيارة لو خلفه أبوه يلعب مع رفاقة ، فقد كان يحس أنه بين أنداد له ، إن لم يكن خيراً منهم فهو مثلهم .

كان يحب أمه وأباه ، ويحب بيتهم البسيط وحياتهم المتواضعة .. كان يعتز بكل ما حوله ما دام بعيداً عن السادة من أهل القصر .. فقد كان يحس أن نفسه فى داره ووسط أهله ورفاقه .. لها قيمة ، ولها معزّة .. أما هناك .. فكانت نفسه العزيزة الأبيّة .. ضائعة فى ضباب من الهوان والتضاؤل .

وفى هذا اليوم بالذات ، حاول جهده التملص من الذهاب مع أبيه .. فقد طافت بذهنه صورة أبيه مطأطىء الهامة، يتبع الأمير ذليلا صاغراً، والرجل المتورد الوجه ، الأنيق الملابس . ذو العين الزجاجية يتحدث من طرف أنفه ويشير بعصاه هنا وهناك .

أجل .. إنه يمقت هذا المنظر .. ويمقت أكثر منه أن يهرول أبوه به وبأخيه إلى الأمير ، فيتساءل الأمير فى لكنته :

— هذان ولداك ؟ لقد كبرا .

— فى عزِّك يا أفندينا .

ويقبِّل أخوه يد « الأمير ».. ويصيح به أبوه وهو يرى تلكؤه فى التقبيل :

— قبِّل إيد أفندينا يا ولد .

ويود لو صاح فى وجه أبيه .. إنه لن يقبِّل يد أحد .. وإنه ليس « ولداً » ولكنه يحب أباه ويكره أن يسبب له قطع رزقه .. فيقبل على اليد فيلثمها .

إنه يكره كل هذا ، ويكره اليد الممتده بالورقة النقدية إلى أبيه وصوت « أفندينا » يقدمها بقوله :

— هات شيئاً للأولاد يا شيخ عبد الواحد .

— ربنا يخلى « أفندينا » .. ربنا ما يحرمنا منك .

ويكره أكثر من كل هذا أن تكون الصبية ابنة الأمير حاضرة لتشاهد هذا المنظر البغيض إلى نفسه .. منظر الإحسان ، والمذلة ، والهوان .

لشد ما كان يكره أن يرى الصبية رأى العين .. وهو لم يكن هناك أحب إلى نفسه من أن يراها بعين الوهم .

كان يكره أن يراها رأى العين لأن الواقع يكرهه على أن يبدو منها بحيث لا يحب لنفسه أن يبدو .. كان يكره أن يراها مستوية على عرشها فى أعلى القمة ، ويرى نفسه بعيداً بعيداً فى أسفل الحضيض ، لا يكاد يتطاول إلى ثرى أقدامها .

أما بعين الوهم فكان يراها كما يريد .. ويرى نفسه حيث يحب أن تكون . كان يضعها بجواره جنباً إلى جنب ، يسيران معاً ، الذراع فى الذراع ، واليد مطبقة على اليد .. و لم يكن يعدم فى تفكيره الوسيلة المنطقية التى تقودهما إلى مثل هذا الوضع .. من المساواة ، والتآلف ، والصداقة والحب .

كان يحلم ويحلم .. فى اليقظة .. وفى النوم .. كل أنواع الأحلام التى تؤدى فى النهاية إلى هذا التقارب بين اثنين : أحدهما فى السماء ، والآخر فى الأرض . فمرّة تهبط إليه .. ومرّة أخرى يصعد إليها .

تارة يشب حريق يودى بالقصر فيخوض هو وسط النيران ، ويحملها بين يديه لتعيش معهم فى بيتهم المتواضع ، وتاره أخرى يضحى ضابطاً وتقوم حرب يعود منها عودة البطل ، فيجدها توشك على الزواج مكرهة بمن لا تحب ، فيختطفها ، ويفر بها فى بهمة الليل إلى جزيرة نائية ، حيث يقضيان بقية العمر ، وحيناً يضحى مخترعاً كبيراً ، تطبق شهرته الآفاق ، ويحصل بأختراعاته على ثروة ضخمة ، يستطيع بها أن يبتاع ضياع أبيها وقصره ، ثم يقدم لها القصر عربوناً لحبه ووفائه .. وحيناً آخر يصبح زعيما لثورة يقوم بها الشعب على السادة من أصحاب الضياع ، والحكام ، ثم ينقذها هو من بين براثن الثوار ، ويضعها بجواره على مقعد الحكم .

كان يحلم بكل هذا .. ما جلس وحده وشرد ذهنه إلا وهى فيه .. بوجهها الأبيض ،وعينيها الخضراوين الصافيتين ، وشفتيها القرمزيتين ، وأنفها الدقيق ، وشعرها الذهبى المتطاير على كتفيها .. كانت شريكة أوهامه وحبيبة أحلامه .

أما فى الواقع .. فلم يكن هناك أكره إلى نفسه ولا أرهب ولا أخوف من أن يلتقيا .. أو بوجه أدق .. من أن تراه .. فشتان بين ما كانت تراه منه ، وبين ما كان يجب لها أن تراه .

واليوم قد حاول بشتى الحيل والوسائل ، أن يتخلف عن الذهاب مع أبيه ، فادعى أن لديه من الواجبات المدرسية ما يحتم عليه البقاء فى الدار ، ولكن أباه أنبأه أنه يمكن أداء هذه الواجبات بعد الظهر ، وأمره بارتداء ملابسه والاستعداد للذهاب .

وعاد مره أخرى يدعى المرض فنهره أبوه قائلا :

— « أفندينا » سيمر اليوم على المشتل ، وأريد أن تقابله أنت وأخوك علَّه يمنحنا شيئاً نسد به قسط المدرسة المستحق .

— يا أبى .. نحن لسنا وسيلة للتسوّل .. نحن لا نريد إحسانا من أحد.

وأطرق الأب وغامت على وجهه سحابة حزن، وقال فى صوت خافت:

— أنا أيضاً يا بني أكره أن أتخذكما وسيلة لذلك ، ولكن هناك فارقاً كبيراً بين ما يحب الإنسان .. وبين ما يجب أن يفعل .. لو تركت نفسي لما أحب لما استطعت أن أدخلكما المدارس .. إن الحياة تضطرنا إلى فعل أشياء كثيرة لا نحبها .

— خير لنا ألا نذهب إلى المدارس من أن تريق ماء وجهك .

— لا يا بني.. إذا كنت من أجلكما أرقت ماء حياتي.. أفلا أريق ماء وجهي؟! ماء الوجه أرخص من ماء الحياة ، ولا سيما عندما يتعوّد الإنسان إراقته .

— أنا يا أبت أفضل أن أعمل معك في الحدائق .. إذا كان ذهابنا إلى المدرسة سيسبب لك كل هذا .

— هذا كلام يسهل أن تقوله الآن ، ولكن عندما تمر السنون وتحصل على الشهادات التي ستجعل منك موظفاً محترماً ، ستدرك حق الإدراك أني لم أرق ماء وجهي عبثاً . فارق كبير يابني بين أن تكون « ريّس جناينية » وأن تكون مهندساً أو طبيباً أو ضابطاً .

— لا أظن هناك في الحياة ما يستحق أن تريق من أجله ماء وجهك .

— بل هناك ما يستحق .. إذا أرقت ماء وجهي الآن من أجلكما .. فربما استطعت أن أقيكما شر إراقته من أجل أبنائكما .. ألا تجد ذلك يستحق ؟ قم يا بني وارتد ملابسك . أنت صغير .. وعندما تكبر ستعرف الحياة خيراً مما تعرفها الآن .

ولم يجد بداً من الاستسلام ، فنهض لارتداء ملابسه .. وكان أخوه قد أتم ارتداء ملابسه .. وهو في غمرة من الطرب والمرح ، وأقبل عليه يريه قوساً من السلك قائلا :

— ما رأيك في هذا القوس يا علي .. سأركب له « الأستك » وأصنع منه نبلة هائلة .. وسأصطاد بها عصافير من الشجرة المجاورة « للسوبة ».. أتعرفها ؟! إنها ملأى بالعصافير ؟

و لم يجبه « على » فقد كانت عيناه مثبتتين على حجر بنطلونه فى دهشة شديدة وصاح بأمه يناديها :

ــ أمي .. ماذا فعلت بالبنطلون ؟

وأتى إليه صوت أمه من الحجرة المجاورة تجيب ببساطة :

ــ ركبت له حجراً .

ــ حجراً ؟ ومن طلب منك أن تركبى له حجراً ؟

ــ أكنت تريد الذهاب إلى « أفندينا » وبه ذلك « الدّوبان » الذى فى حجره !

ــ لقد كان فى موضع مختف ، وكان يمكن أن نذهب به « للرّفا » فيرفيه بطريقة لا تجعل الرتق ظاهراً .

ــ الرّفا ؟ ألديك نقود الرّفا ؟.. البس .. البس .. أبوك لا يكاد يجد قسط المدرسة .. وتريد أن نعطى البنطلون للرّفا ..؟ نقودك كثيرة !!

و لم تكن هناك جدوى من المناقشة ، فدس ساقيه فى فتحتى البنطلون ، وانتهى من ارتداء ملابسه ، وقذف بالطربوش على رأسه .

الأمل الوحيد الذى بقى له .. هو ألا تكون هناك ، وأن يبعدها القدر عن طريقه .. اليوم على الأقل .. حتى يستطيع أن يدبر مسألة حجر البنطلون .

ووضع أبوه عمامته على رأسه ، ودس قدميه فى حذائه البرتقالى ذى « الأستك »، ثم سحب ولديه ، كلا فى يد ، وأخذ يهرول من الدار المتواضعة .. المقامة فى العزبة بجوار الجامع ومحطة سكة الحديد ، وأخذ يخوض وسط المزارع حتى وصل إلى الطريق المجاور للترعة ، ثم عبر الكوبرى متجهاً إلى الطريق الموصل للباب الخلفى لحدائق القصر .

ووقفت الأم الطيبة تشير له هاتفة :

ــ مع السلامة .. حاسب على الأولاد .. ربنا يجعل لك فى كل خطوة سلامة .

(٢)

الفراشة الطائرة

بدا المكان فى أول الأمر مأموناً .. ليس به ما ينذر بالخطر .. إذ لم يكن هناك سوى البستانيين وصبيانهمايتشاغلون بقص الأسوار و « شقرفة » الأحواض وسقى الأصص .

وترك الرجل صبييه ، وأمرهما ألا يبعدا عن السوبة وحذرهما من إتلاف الأصص أو قطف الزهور ، ولم يكن « على » فى حاجة إلى مثل هذه النصائح ، فقد كانت رزانته الطبيعية تمنعه من إتيان كل ما يدخل فى باب العبث ، وكان لديه — فى هذا اليوم بالذات — سبب أهم كثيراً من الرزانة الطبيعية .. يمنعه .. لا من العبث والجرى والبعد عن السوبة فحسب ، بل من مجرد التحرك ، وهو حجر البنطلون الذى أبت أمه إلا أن تبتليه به .

وهكذا وضع نفسه فى ركن محدود من أركان « السوبة » لا يتجاوزه ، وأخذ يتشاغل بسقى بعض الأصص ، معاوناً العامل المكلف بسقيها ، رافضاً الانطلاق مع أخيه ، معرضاً عن إغرائه بصيد العصافير من الشجرة الكبيرة .

وأحس « على » بشىء من الأمن فى مكمنه حتى وجد أباه يهرول خارج السوبة ، وسمع صوت « أفندينا » يصيح متسائلا عنه :

— أين الريس عبد الواحد ؟

ولم يكن صوت « أفندينا » على مهابته ، وخشية الجميع منه — هو الذى ضيع أمنه وبدد طمأنينته ، بل صوت آخر كان — على رقته وعذوبته — آخر ما يود أن يسمع فى هذه اللحظة بالذات ، كان صوت الصبية الصغيرة تهتف بمربيتها مازحة :

— هل تستطيعين أن تقفى على قدم واحدة .. هكذا ؟

ولم يحاول أن يستمع إلى أكثر من هذا ، ولا أن يرى ما إذا كانت المربية قد استطاعت أن تقف على قدم واحد أم لا .. فقد كان مجرد سماع الصوت ، بمثابة إنذار بخطر .. يجب عليه أن يسرع بالهروب منه .

وبدأت طلائع « أفندينا » وموكبه .

وبات من المتوقع فى أية لحظة أن تبدو الصغيرة المخيفة بين آونة وأخرى ، ويصبح هو وحجر بنطلونه ، فى متناول بصرها .

خير له إذن أن يسرع بالفرار ، قبل أن يطبق عليه الحصار ، وتقع الواقعة .. إنه يعرف أنها حقيقة لن تهجم عليه وتطرحه أرضاً لترى حجر بنطلونه ، ولكن يعرف كذلك أن من المحتمل جداً أن تدفعه الظروف الخرقاء إلى أن يعرضه هو عليها ، فليس ببعيد أن يناديه أبوه كعادته ، لتقبيل يد الأمير ، وقد تكون الصبية واقفه بجوار أبيها ، أو فى أى مكان آخر فتراه فى إقباله وإدباره ، فتكون المذلة ويكون الهوان .

إنها قطعاً ليس لديها أيه فكرة عن البنطلونات ذات الحجر المرقع .. وستسبب رؤيتها له بذلك المنظر ، احتقاراً وازدراء .. وهو لا يقتله شيء كالاحتقار والازدراء .. ولا سيما منها هى .. إن هذه الحادثة ستكون عقبة كأداء ، لا فى سبيل صلته بها فى الواقع ، فهو يعلم أن ليس لها وجود فى واقعة ، ولكن فى أوهامه وأحلامه .. فكيف يستطيع أن يسير معها جنباً إلى جنب ، إذا ما أضحى قائداً أو زعيما وهى ما زالت تذكر حجر بنطلونه ؟

وفى سكون وضع الرشاشة بجوار الحوض ، وتسلل خارج السوبة من باب خلفى صغير أفضى به إلى دروة الغاب التى وضعت بها الشتلة والعقلة لوقايتهما من الريح والصقيع .

وكان المخبأ الجديد فى ظاهره مأموناً ، فقد هيأله الستر من جميع النواحى ، ولم يكن هناك احتمال لأن يمد الأمير زيارته إليه ، لا سيما وقد بدا المكان أشعث مهملا ، كومت فى أنحائه أكوام من الأصص والغاب والطمى « السبلة ».. وحتى لو دخل الأمير إليه ، فما يظنه يسمح للصغيرة بتلويث نفسها باللعب فيه .

وهكذا استقر المقام به على جذع ضخم ملقى فى أحد الأركان ، وأخذ يرقب من وراء السوبة الركب السائر يتقدمه الأمير بطربوشه الأحمر ، وعينه الزجاجية ، ويتبعه أبوه مطأطئاً صاغراً .

وسار الركب ينتقل من مكان إلى مكان ، والصغيرة المخيفة ، لم تبد بعد ، حتى سمع أباها يسأل عنها واطمأن إلى أنها باقية فى الخارج مع مربيتها ، وأن السوبة لم تعد بالمكان الخطر ، بل إنها خير مكان يمكن أن ينهى به مهمته الثقيلة التى جاء من أجلها وهى تقبيل يد الأمير .

واستقر به الأمر على أن يتسلل إلى داخل السوبة . فقد توقع أن يبحث عنه أبوه ، وعن أخيه ، ليقدمها للأمير .. وأخذ يلتفت حوله باحثاً عن أخيه ، حتى يصطحبه معه إلى الداخل لكى ينفض عن كاهله المهمة كلها .

ومن خلال فتحات الغاب أخذ يبحث عن أخيه ، ولكن شيئاً أهم من أخيه كثيراً استأثر بمراقبته .

لقد أبصر « أنجى » على بعد من السوبة تعدو أمام مربيتها كأنها الفراشة الحلوة ، وقد ارتدت بلوزة صوفية بيضاء ، مقفلة الياقة ، وبنطلوناً من القطيفة الكحلى — سليم الحجر بالطبع — وقد تطاير شعرها الذهبى .

وثبت بصره على الفراشة الطائرة ، بين خضرة الأرض وزرقة السماء ، المشوبة بقطع السحاب المنفوشة المتناثرة ، ولم يستطع بصره عنها حِوَلا .. فقد كانت فرصة لا يجود بها القدر كثيراً ، أن يراها دون أن تراه ، وأن يستمتع بجمالها وسموها ، دون أن يفضح فقره وهوانه .

تلك .. هى .. هى .. بلحمها ، ودمها ، بشعرها الذهبى ، وبشرتها النقية .. وقسماتها الدقيقة ، ووجهها الملائكى .. ليست صورة فى ذاكرته ..ولا شبحاً فى تخيلاته .

لو استطاع أن يحدق فيها هكذا مدى الحياة ! لو استطاع أن يجمد فى مكانه ، كتلك الأعواد من الغاب ، أو كهذه الأفرع من الشجرة ! لو كان شيئاً آخر ،

غير ما هو ، أى شىء ، مهما ضؤل ، لكان له من رؤيتها نصيب أكبر .

وأبصرها وهى تعدو إلى الترولى ، وسمع مربيتها تنهاها عنه ، وود لو استطاع أن يدفعها به .. ويعدو وإياها .. إلى أين ؟

بعيداً ،بعيداً .. إنه قطعاً لن يصيبه تعب ولا ملل .. أجل .. سيحملها إلى بقعة نائية ، ويعبر بها وهاداً ونجاداً ، وسيكون هو مخلوقاً آخر غير ما هو عليه الآن .

وفى تلك اللحظة كان الأمير قد انتهى به المطاف بركبه إلى مجموعة أصص الفوجير ، قد وضعت فى غرفة زجاجية ، ورفع عصاه مشيراً إلى لوح من الزجاج مكسور فى أعلى الغرفة ، وبدت على وجهه بوادر حنق .. وصاح بالريس عبد الواحد :

ـــ هذا اللوح لم يركب بعد ؟

ـــ سيركب إن شاء الله .

ـــ لقد رأيته فى المرة السابقة ونبهتك إليه !

ـــ لقد أبلغت إبراهيم افندى .. وقال إنه سيرسل لنا القمراتى .

وزاد الحنق بالسيد .. وهزّ عصاه فى حركة عصبية مهدداً :

ـــ ليس لى دخل بإبراهيم افندى ، وزفت افندى ، لقد قلت لك أنت أصلحه .

ـــ حاضر يا « افندينا » .

ـــ مافائدة حاضر .. أنت لا تعمل شيئاً !! مفروض فى هذه السوبة أن تبقى دافئة ، واللوح المكسور يدخل الهواء .. فيضيع التدفئة ، ويتلف الزرع .. إنى أرى بعض أوراق جافة صفراء .

ـــ معلهش يا « افندينا » إنها ستجدد غيرها .

ـــ مع هذا الإهمال لن تجدد شيئاً .. كل شىء لديكم .. علاجه معلهش . أنتم شعب متكاسل متراخ .. لا يعمل بغير الكرباج .

ووجم الجميع ، وأحس الريس « عبد الواحد » بعبء ثقيل يهبط على

كتفيه ، فقد أدرك أن اللوح الزجاجى اللعين قد غير دم « افندينا » وأفسد عليه مشروعه فى استدرار عطفه والفوز بمنحة يسدّ بها قسط المدرسة .

وسلم أمره لله .. ودعاه أن يفوت اليوم على خير .. وحمد الله أن أوقف غضبته عند هذا الحد ، ولكن غضبة الأمير لم تنته بعد .. بل كان بها حالة تجمع واستجمام ، عاودت الانفجار بعده ، فصاح :

ـــ سأخصم منك يومين ، جزاء لك على إهمالك .

وأحس « عبد الواحد » أن اليومين قد وقعا على ظهره كأنهما سوطان .. كان يرجو أن ينعم الأمير عليه بيومين زيادة .. وهو يشعر بأنه مظلوم .. فليس من عمله تركيب الزجاج .. وقد أبلغ الشخص المسئول الذى يستطيع أن يصلحه .. فأهمل فى إصلاحه .. فما ذنبه هو ؟

وبدا له أن كلمة استعطاف قد ترفع الجزاء ، فقال فى كلمات متقطعة ، وقد طأطأ إلى الأرض رأسه :

ـــ قلت لإبراهيم افندى ...

وقاطعه الأمير بصيحة غاضبة :

ـــ لا ترد .

وتدخل إدريس ، خشية أن يجر جدل الرجل عليه ما لا تحمد عقباه فقال :

ـــ اسكت يا ريس عبد الواحد ، اليوم يصلح الزجاج .

وأحنى عبد الواحد رأسه فى صمت واستسلام ، داعياً الله أن يعينه ، ويصلح ما أفسده اللوح الزجاجى ، ويذهب عن الأمير غضبه .

وعاود الأمير السير متجهاً إلى مجموعة من السلبجلوسز وقد بدت فى أزهارها الشبيهة بالنفير وبألوانها المختلطة الزاهية ، ونقوشها المنمقة الدقيقة ، معجزة من معجزات الخالق .

وكان عبد الواحد قد بذل أقصى ما يستطيع من جهد وعناية فى تلك المجموعة .. واستطاع أن يقضى على حشرة « المن » التى كانت تصيبها كل عام

فداوم على رشها بالنيكوتين وأحسن لها الخلطة عند الزرع والسقيا بمنقوع السماد خلال النمو ، وكان الرجل بستانياً بفطرته وسليقته .. يعتبر الزهور ذريته ، ويرى فى كل نبات يزرعه ولداً له .. وكان وفياً لعمله ولسادته ، ولكل من حوله .. وهو يرى فى النبات حياة ، وفى إهمالها خيانة للأمانه وإزهاقاً للروح .

ولذا شعر ببعض الهم يرفع عن كاهله ، وهو يقبل على مجموعة الأصص ، فقد أحس من الإقبال عليها فخراً واعتزازاً ، وأحس كذلك بأنها سترد له الجميل ، وترفع عنه الجزاء الذى أوقعه به السيد ، وتهدىء من ثورته التى سببها اللوح المحطم .

ولم يخب ظن الرجل ، فقد بدأت أسارير الأمير تنفرج وتجهمه يتبدد ، وهو يخطو مغادراً البيت الزجاجى متجهاً إلى مجموعة الزهور .

وفجأة .. وقع ما لم يكن قط فى الحسبان أن يقع .. وحدث آخر ما كان يرجى أو يتوقع أو يخطر على البال ، بال أى إنسان فى الركب ، وفى غير الركب .

لقد سمع الجميع صوت طرقة فى أعلى الغرفة الزجاجية ، وهوى بعدها لوح آخر .. تطايرت شظاياه قرب أقدام الأمير .

كان الطارق حجراً أصاب الزجاج .

من أين ؟! وكيف ؟! ومن الذى تجاسر على رميه ؟

ولم يطل بهم التساؤل ، فقد وضح الأمر لأعينهم عندما رأوا حسيناً ابن الريس عبد الواحد ، يطل برأسه فى حذر من وراء جدار السوبة ، وفى يده النبلة .

وأحس الشيخ عبد الواحد أن عمامته قد رفعها شعر رأسه الذى قَفَّ من هول الموقف ووقع المفاجأة !!

انتهينا .. لقد قضى عليه قضاء مبرم ، فلا عيش له فى القصر بعد ذلك ، ولن يجدى فى الشفاعة له سنانير ولا سلبجلوسز .. بل ولا كل أزاهير الجنة .

ونظر إلى رأس ابنه المطل من وراء الجدار ، وكاد أن يقول له فى مذلة ، لولا

انعقاد لسانه من الخوف :

— لماذا يا ابني يا حسين !! ماذا فعلت بك حتى تقطع عيشى .. الله يجازيك ؟

وكان الأمير أول من تكلم . فقد صاح فى غضب وقد احمر وجهه :

— من هذا ؟

وهمس الريس عبد الواحد فى صوت يكاد لا يسمع :

— ابنى يا « أفندينا » .

— ابنك !. وماذا يفعل هنا ؟

وارتبك الرجل و لم يعرف بم يجيب .

وصاح « الأمير » هادراً :

— انطق .. ماذا أتى به إلى هنا ؟

— أنا يا « افندينا » .

— و لم ؟

لم يجسر الرجل على أن يقول إنه أتى ليطلب به إحساناً فقال :

— ليتنزّه هو وأخوه .

— يتنزّه ؟.. كأن الحديقة قد أضحت متنزهاً خاصاً لك ولأولادك ؟

— إن اليوم عطلة .. وقد ..

— عطلة ؟! ولا بد أن يقضيا العطلة فى إتلاف حديقتى وتكسير زجاجها ؟.. لماذا لا يقضياتها بين القاذورات التى تعيشون فيها ؟

وكان عبد الواحد يعرف أن الأمير فى غضبه لا يوقف أذاه رجاء ، ولا يلينه استعطاف .. و لم يعد أمامه سوى الاستسلام للكلمة الغاضبة ، تخرج من شفتيه حتى يعود إلى بيته ، لا بقسط المدارس ، بل برزق مقطوع وعمل مفقود .

وطأطأ الرجل رأسه ، كمن يقف فى ساحة القضاء ينتظر حكماً بالإعدام ، و لم يدر أحد ماذا ينوى الأمير قوله .. إذ لم يكد يفتح شفتيه حتى انبعثت من

الحديقة صرخة حادة كان مصدرها المربية العجوز .

وأعقب الصرخة خليط من ولولة العجوز ، وصياح الطفلة ، وانعقد الكلام على شفتى الأمير ، واندفع والجمع وراءه إلى خارج السوبة ، ليقع بصرهم على التروللى ينحدر مندفعاً بالصبية الصغيرة ، بعد أن فكت الرباط الذى كان يربطه .

كانت العربة الحديدية تندفع بقوة الانحدار ، ولم يكن هناك من سبيل لوقفها ، فقد كانت المسافة بين الجمع وبينها ، أبعد من أن يستطيع أحد منهم اللحاق بها ، قبل أن تصل إلى نهاية الطريق الموازى للسور ، وكان أكثر ما يخشى أن تخرج العربة عن قضبانها عند المنحنى ، فتندفع من فتحة فى السور إلى الطريق العام ، ومنه إلى الترعة ، فإن لم تصدمها أية عربة قادمة تنهب الطريق ، سقطت فى الترعة .. وفى أى المصيرين ، نهايتها المحتومة .

كان المصير واضحاً للأذهان ، ولم يكن فى الإمكان أن تؤمر الصبية بأن تلقى نفسها من العربة ، فقد كان من العبث أن يصل إلى سمعها صوت أو أمر فى وسط صراخها واندفاعها .

وتسمر القوم فى أماكنهم وصرخ الأمير منادياً الصبية ، وهو يعدو لاهثاً ووراءه الركب المشدوه .

وفى تلك اللحظة أبصر القوم شبحاً صغيراً يندفع من « الدّروة » الغاب ، المقامة فى آخر السوبة والتى كانت لا تبعد كثيراً عن طريق « الترولى » .

اندفع الشبح الصغير من بين الغاب كأنه صاروخ .. فوصل إلى قضبان الترولى فى اللحظة الأخيرة ووقف بجسده الصغير معترضاً طريق العربة المندفعة .

وصدمته العربة ، واندفع جسده يطوى الطريق أمامها حاداً من سرعتها رويداً رويداً ، حتى توقف الجسد ووقفت العربة .

ووصل الجمع المندفع إلى حيث توقفت العربة قبل أن تصل إلى الطريق وهجم الأبوان كل يتحسس ولده ويرى ما أصابه .

ووجد الأمير ابنته سليمة .. ووجد البستانى ابنه راقداً على الثرى ، معفر

الوجه ، مخدوش اليدين والركبتين ، مرضوض الساق .

ورفع الأمير ابنته يوبخها ويؤنبها على فعلتها ، ثم نظر إلى الصبى الصغير وتساءل فى دهش :

ـــ من هذا ؟

وأجاب « عبد الواحد ».. وقد انحنى فوق ولده يمسح جراحة :

ـــ ابنى يا « أفندينا ».. ابنى على .

ونظر الأمير إلى الرجل وولده ، نظرة ملؤها الامتنان والتقدير ، وقال للأب :

ـــ إنه شهم ، شجاع ، مقدام .

وأحس الأب أن ساعة النحس قد ولّت ، فأجاب والدموع تملأ عينيه :

ـــ كتر خيرك يا « أفندينا » .

ثم وجه القول لولده الذى جلس على الأرض مطرقاً برأسه :

ـــ قم يا على .. قبل يد « أفندينا ».

ولم ينهض على ، بل استمر جالساً فى مكانه .. وانتظر الأمير أن ينهض الصبى ليأخذ يده ، حتى ينفحه بما يكافىء به خدمته الجلى .. وأحس الأب بحرج ، فعاد يستحثه فى لهجة ناهرة :

ـــ قم يا على .. قبل يد « أفندينا ».

وأجاب الصبى وقد طأطأ برأسه :

ـــ لا أستطيع .

وازداد الحرج بالأب ، وأصابه الغضب ، وصاح بالصبى ثائراً وهو يجذبه من ذراعه :

ـــ قم قلت لك .

ولم ينهض الصبى .. وعض شفته السفلى ، وغامت على عينيه سحابة دمع ، وأجاب فى همس :

ـــ لا أستطيع .

وانحنى الرجل على ولده وسأله :

ــ أيساقيك شيء ؟

وهز الصبي رأسه هامساً :

ــ لا .

ــ لم إذن لا تنهض ؟!

ورمق الابن الصبية الصغيرة ، الذهبية الشعر .. وقد وقفت ترقبه بجوار أبيها ، ثم همس في أذن أبيه بصوت يخنقه البكاء :

ــ لا أستطيع النهوض ، حتى لا ترى حجر البنطلون .

(٣)

العبيد والآلهة

لم يزد « الريس عبد الواحد » فى إلحاحه على الصبى ، فقد كان يعرفه جيداً .
وأنقذ الموقف ولده الآخر الذى يعدو بعد أن أخفى النبلة فى كوم « السبلة »،
وبعد أن أدرك أن القوم قد شغلهم عن حسابه ما هو أهم .

وتلقفه الرجل فأمره بتقبيل يد « أفندينا ».. وسرعان ما تناول الصبى يد الأمير ، تناول خبير مجرّب ، وقبلها فى سهولة ويسر .

ودفع الأمير يده فى جيبه ، فأخرج بعض النقود ، ودسها فى يد الرجل ، وهو يقول مشيراً إلى « على » الراقد على الأرض :

ـــ هل أصابه شىء ؟

ـــ لا يا أفندينا .. سليمة بإذن الله ، رضوض بسيطة ، الحمد لله على سلامة الهانم الصغيرة .

ـــ ضمد جراحه .. واعرضه على الطبيب إذا استدعى الأمر ، وإذا احتجت لشىء قل لإبراهيم أفندى .

ـــ أكثر الله خيرك يا « أفندينا » وأبقى لنا حياتك .

وكانت « أنجى » تقف متعلقة بثياب المربية العجوز .. التى أخذت تربت على رأسها فى حنان قائلة :

ـــ لقد نصحتك ألا تركبى العربة ، ولكنك لم تسمعى النصح .. هذه عاقبة الشقاوة .. إياك أن تعودى إليها مرة أخرى .

ولم تسمع الصبية نصيحة المربية ، فقد كان كل اهتمامها مركزاً فى الصبى الجالس على الأرض أمام العربة ، معفر الثياب ، مخدوش الركبتين ، وقد خفض

رأسه إلى الأرض حتى كاد يدفنه بين ركبتيه .

وبحركة لا إرادية ، اندفعت وأخذت تربت ظهره فى رفق قائلة :

ـــ أنا متأسفة .. متأسفة جداً لأنى سببت لك كل هذا .

ولم يرد عليها فقد محا إحساسه بخطورة اقترابها .. واحتمال اكتشافها بنطلونه .. كل إحساس سواه ، وكانت زجفته من مسة يدها رجفة خوف ، أكثر منها رجفة نشوة .

وأرتج عليه فلم ينبس ببنت شفة .

ولم يبد على الأمير كثير رضا عن اقتراب ابنته من الصبى . وتربيتها ظهره ، ودفعه إلى الضيق بها عامل الكبرياء والتعاظم المتأصل فى قرارة نفسه .. السارى فى كرات دمه ، والذى يأبى عليه إلا أن يضع هؤلاء الخدم والفلاحين فى مرتبة أدنى من مرتبة البشر .. مرتبة وسطاً ، بين البشر والحيوان .. أو مرتبة أعلى من مراتب الحيوان ، وفى حالة سخطه عليهم ، يكونون فى أدنى مراتب الحيوان .. أما إذا أصرّ القانون والعرف على أن يجعلاهم بشراً ، ويعترفا لهم بحقوق البشر .. فلا أقل من أن تكون مرتبته هو وآله وذريته أعلى من مرتبة البشر ، مرتبة وسطاً بين الآلهة والبشر ، أو فى أدنى مراتب الآلهة ، وفى حالات النشوة والغرور .. أعلى مراتب الآلهة .

ذلك هو الدافع الأول ، الذى دفع الضيق فى نفسه ، عندما رأى اقتراب ابنته ، ذات الدم الملكى من الصبى الفلاح .. أما الدافع الثانى فهو الخوف من أن تلوثها كومة القاذورات والحشرات والجراثيم الخفية والظاهرة ، المختزنة فى أجساد الفلاحين والسارية فى ثيابهم .

ولم يكن إحساس الرجل بالضيق مفتعلا ولا مقصوداً ، بل هو إحساس طبيعى ، لا إرادى ، ولم يكن وحده المسئول عن الدوافع التى يتركب منها إحساسه ، نحو هؤلاء الفلاحين .. بل كان الفلاحون أنفسهم يشاركونه معظم المسئولية .. كان الأصل مشوهاً ، والمرآة العاكسة فى نفسه أكثر تشويهاً .

أما المرآة ، فكانت مرآة عكرتها أنانية السلطان والجبروت وسطوة الأسياد على العبيد المتوارثة من الأجيال الماضية ، والتى علمتهم جيلا بعد جيل ، أنهم أصحاب الدنيا والأرض والمال ، وأنهم أصل الخليقة ، وغيرهم من المخلوقات كالخيل والكلاب والثيران والفلاحين ، قد خلقوا لمعاونتهم فى التمتع بنعم الأرض وللكد فى تقديمها لهم سهلة سائغة .

تلك هى مرآتهم .. لا تريهم الغير إلا بهذه الصورة .. أما أصل الصورة .. فقد شوّهته الحاجة والفقر والحرمان والعوز ، بمخلفاتها من جهل بسبل الصحة والحياة الطيبة ، والمظهر الحسن ، وعجز عن تحقيقها لو وجدت المعرفة بها .

وشوّهه أكثر من ذلك ، خلق الخضوع والخنوع ، المتوارث من الأجيال السابقة ، التى تعوّدت حياة العبيد جيلا بعد جيل ، وخلق الضعة والسرقة والطمع ، والخيانة والنميمة ، وغير هذا من مركبات سوء النفس التى خلقتها الحاجة ، والمذلة والجهل ، وانعدام وسائل تربية النفوس .

تلك كانت الدوافع التى دفعت الأمير إلى الضيق باقتراب ابنته من الصبى .. ضيقاً لم يستطع إحساسه بالجميل الذى أسداه الصبى أن يصدّه ولا أن يقاومه ، فصاح بالصبية :

ـــ أنجى .. عودى إلى البيت .. خذيها يا دلبار .

وتركت « أنجى » علياً ، وعادت متباطئة إلى مربيتها ، وعندما مرت بالريس « عبد الواحد » الذى وقف منكس الرأس أمام الأمير ، رفعت رأسها الصغير وتساءلت فى قلق :

ـــ ما له لا ينهض ولا يتحدث .. أبه شىء ؟

وهز الرجل رأسه بالنفى وافتر ثغره عن ابتسامة طيبة ، وأجاب فى صوت خفيض حتى لا يسمع على :

ـــ لا يا ست هانم ليس به شىء .. إن بنطلونه هو الذى به رقعة !!

ومدت المربية يدها فتناولت يد الصغيرة ، وسارت متجهة إلى القصر ، وما

لبث ركب الأمير أن أخذ يتفرق ، وذهب كل إلى سبيله .. وعندما اطمأن « على » إلى خلو المكان ، نهض تابعاً أباه وأخاه .. عائدين إلى الدار ، بعد أن غسل ساقيه ويديه ووجهه فى حوض السوبة .

وكانت إجابة الريس « عبد الواحد » ما زالت تلف فى ذهن الصغيرة ، دون أن تجد لها مستقراً ، ولم تجد غير مربيتها لتتباحث معها فى مسألة البنطلون والرقعة .. والصبى الطيب الشجاع اللطيف الذى يأبى أن يقوم أو يتحدث .

وسألت الصبية وهى تصعد السلم الرخامى الكبير :

— ما هى الرقعة يا داده ؟!

— رقعة ؟ أية رقعة تعنين ؟

— الرقعة التى فى البنطلون ؟

— آه .. إنها قطعة من القماش توضع فى حجر البنطلون .

— وهل هى ثقيلة إلى هذا الحد ؟؟

— أى حد تعنين ؟

— الحد الذى يمنع المرء من النهوض ؟

— بالطبع كلا .. بلا شك .

— وهل تمنع الناس من الحديث ؟

— لا .. لا ... إنها قطعة قماش عادية .

— ولماذا يضعونها فى حجر البنطلون ؟

— لسد الخروق التى به .

— ولماذا يضعون به الخروق ؟

— إنهم لا يضعونها .. هى التى تنشأ من تلقاء نفسها ، إذ يتآكل حجر البنطلون من كثرة الاستعمال .

— ولماذا لا يغيرونه بدلا من أن يضيفوا له رقعة ؟

— لأنه ليس لديهم سواه .

ـــ ولماذا لا يشترون سواه ؟

ـــ لأنهم لا يملكون نقوداً .

ـــ ولماذا لا يحصلون على النقود ؟

ـــ لأنهم لا يستطيعون .

ـــ ولماذا لا نعطيهم نحن ؟

ـــ من هم ؟

ـــ عم عبد الواحد الجناينى !!

ـــ إنه يأخذ قدر عمله .

ـــ ولكنه لا يستطيع أن يشترى بما يأخذ بنطلوناً جديداً لابنه ، بدل هذا البنطلون الذى يمنعه من النهوض والحديث .. لماذا لا نعطى الرجل ما يكفيه ؟ مادام عندنا نقود كثيرة .. لماذا لا يأخذ قدر حاجته ؟

ـــ لأن حاجته غير محدودة ، ولم يكن هناك ما يجبره على أن يلبس ابنه بنطلوناً ، ولا أن يذهب به إلى المدرسة . يجب أن يعيش هو على قدر ماله ، ويجب أن يأخذ من المال قدر عمله .

ـــ وهل نأخذ نحن من المال قدر عملنا ؟ إن لدينا النقود كثيرة .. ولكننا لا نعمل شيئاً !

ـــ لقد عمل أجدادك الكثير فى سبيل الحصول عليها ، ويعمل أبوك الكثير فى سبيل الاحتفاظ بها .. ولو كان يعطى النقود للناس على قدر حاجتهم لما بقى لكم شيء .. إن الناس طماعون .. لا تقف مطالبهم عند حد .

ـــ ولكننا نستطيع أن نعطيه بنطلوناً جديداً .. إن لدى أخى علاء بنطلونات كثيرة تصلح له ، ولست أظنه سيطمع فى أكثر من واحد منها .

وكانا قد عبرا الطرقة المستطيلة ، التى قامت الأعمدة الرخامية على جوانبها وفرشت فى منتصفها سجادة طويلة حمراء ، وبلغا الصالة الرحبة التى سويت فيها الأرائك الوثيرة ، والسجاجيد العجمية السميكة ، وعلقت على جدرانها الصور الزيتية الرائعة .. وتدلت من سقفها الثريات ذات الشطب البلورية البرّاقة ، وفى مواجهة الداخل سلم فخم من خشب « الأرو » وضع عند أوله تمثالان من

البرونز أحدهما للأمير والآخر لأبيه .

وهمت المربية والصبية بصعود الدرج متجهتين إلى حجرة الصغيرة ، عندما وقع بصرهما على علاء « الابن الأكبر للأمير » الذى يبلغ الرابعة عشرة ، وقد أمسك بقطة « أنجى » بعد أن ربطها من قدميها وساقيها ، وعلقها عند آخر الصالة ، وأمسك بقوس ركب فيها سهماً وأخذ فى شد القوس .

واندفعت « أنجى »إليه تجذب القوس من يده صائحة :

ــ إياك أن تطلقه .. ألم يكفك أن ألقيت « ميمى » من الشباك فقتلتها .

وضحك الصبى ذو الوجه الأصفر .. الحاد القسمات .. ورفع رأسه إلى الوراء ليزيح خصلة شعره الصفر المتهدلة على جبينه ، وأجابها وهو يجذب القوس من يدها :

ــ لا تخشى أيتها البلهاء .. إنى لن أصيبها .. فأنا أطلق السهام حولها .. إنى أستطيع أن أدع السهم يمر بجوار أذنيها دون أن يصيبها .. انظرى .

ولكن « أنجى » تعلقت بذراعه .. صائحه .. تستنجد بمربيتها :

ــ داده .. الحقى .. سأجعل بابا يقتلك إذا قتلتها كالأخرى .

ــ قلت لك لن أقتلها .. دعينى .

وقبل أن تتدخل المربية سمعت خطوات الأب تقترب من الطرقة فترك الصبى لها القوس .. وانطلق يعدو صاعداً السلم إلى حجرتــه .. ورمت « أنجى » القوس .. وأسرعت تفك قطتها وتضمها إلى صدرها فى حنان.ثم سارت تتبع مربيتها إلى أعلى .

ودلف الأمير إلى القاعة .. يتبعه إبراهيم افندى ناظر الدائرة ، واتجه إلى باب يقع فى يمين الداخل يفضى إلى حجرة مكتبه ، حيث رصت آلاف من المجلدات السميكة السوداء فى دواليب ركبت فى الجدران . وتوسط الحجرة مكتب أثرى ثمين من طراز « كوين آن » ابتاعه من أحد مزادات باريس منذ بضعة أعوام ، مواجهة المكتب مدفأة ، وضعت فوقها لوحة زيتية كبيرة لزوجته الراحلة .

وجلس الأمير إلى مكتبه ، ووقف الرجل الضئيل الجسد ، المغضن الوجه ، مطأطئ الرأس أمامه ، وقد أمسك بملف محشو بالأورق .

وقال الأمير :

ـــ ماذا تم فى التحصيل ؟

ـــ بطيء جداً يا « أفندينا » .

ـــ طبعاً .. ما دمت تتبع معهم تلك الطرق اللينة المائعة .. قلت لك ألف مرة إنهم طماعون لا ينفع معهم غير الكرباج .. إنهم سلالة العبيد الذين أخذوا على كرابيج المماليك .. سأعاملهم كما عاملهم أجدادى ، سأشوى ظهورهم واحداً واحداً ، وأنت على رأسهم .. أيها الحيوان النتن .

ـــ لو تنازلنا عن بعض ..

وصرخ الأمير حانقاً وقد اندفع الدم إلى وجهه :

ـــ لن أتنازل عن مليم واحد .. أنت تتآمر علىّ معهم .. تريدون أن تسرقونى .

ـــ يا « أفندينا » إن الأزمة عامة ، والمحاصيل مكدسة فى الأراضى لا تجد من يشتريها .

ـــ سآخذها كلها .. سأستولى عليها .

ـــ لن يفيدنا هذا .. إنها ستتلف عندنا ، ولن نستطيع تصريفها .. إن ثمنها لا يوازى مصاريف الشحن .. لا بد لنا من التضحية .

ـــ أجل .. لا بد لى أن أضحى من أجل هؤلاء الكلاب الطماعين الذين لا تجدى فيهم النعمة ، ولا ينفع المعروف ، لو استطاعوا أن يأخذوا الأرض بلا ثمن لأخذوها .. اسمع خفّض الإيجار عشرة فى المائة .. هذه المرة فقط .

وبدا التردد على وجه إبراهيم أفندى . وتمتم ببعض كلمات غير مفهومة فصاح به الأمير :

ـــ ماذا تقول ؟

— أقول . إن العشرة فى المائة .. لا تكفى .. إن « أفندينا » ليس لديه أية فكرة عن حالتهم .. لقد خربت بيوتهم .

— لتخرب بيوتهم .. وليذهبوا إلى الجحيم جميعاً .. ولكن بيتي لن يخرب .. سأسحب منهم الإيجارات جميعها وسأزرع الأرض بنفسي ، سأطردهم حتى يعرفوا أى جميل كنت أصنعه بهم .. لولاى لماتوا جوعاً .. هذا القطيع من المرضى والكسالى .. إن أى حيوان أصلح من أى آدمى فيهم ، وأنت على رأسهم .. أنت شيخ العصابة .

— إنى يا « أفندينا » أريد أن أعمل ما فيه الصالح .

— ومن أجل ذلك تريد تخفيض الإيجار ، وتريد سرقتي ونهبى .. تريد أن تضيع أملاكى وتبدد ثروتى ، ولكن أؤكد لك أنى لن أترك مليما واحداً ينهبه هؤلاء اللصوص .. أتسمع ما أقول ؟

— أجل يا « أفندينا ».

— أنا أكره أن يستغفلنى أحد ، ولا سيما أنت بالذات ، اذهب الآن ، وقل لهم إنى سمحت لهم بهذا التخفيض ، على أن يكون الدفع خلال مدة أقصاها آخر الشهر .

— حاضر يا « أفندينا » سأبلغهم هذا .. ولعلهم يستطيعون بيع المحاصيل خلال هذه الفترة .

— ليبيعوا أبناءهم .. إذا لم يستطيعوا أن يبيعوا المحاصيل .. أنا لا يهمنى غير الدفع .

— أمرك يا أفندينا .

— وكيف حال الحصان ؟

— البرق ؟

— أجل .

— ما زال فى الإسطبل .

— ألن يتمكن من الذهاب إلى السباق بعد غد ؟

— لقد سألت عليه « عبد العال » رئيس الإسطبل فأنبأنى أنه لا يستطيع أن يقدر بالضبط ، لأن سائسه مريض .

— يجب أن تعتنوا به العناية الكافية .. لا تبخل بالصرف عليه حتى يشفى .. يجب أن يشفى .. أتفهم ؟

— الشفاء من الله يا « أفندينا »، ولكنى سأبلغه أوامركم وأحاول أن أحضره من بيته .

— من هو ؟

— السايس يا « أفندينا » .

— أيها الغبى .. إنى أعنى الحصان .. لا السائس ، الحصان هو الذى يجب أن يشفى .. مفهوم ؟

— مفهوم يا « أفندينا ».

(٤)

كبرياء ضائعة

صعدت « أنجي » إلى حجرتها حاملة قطتها ، وهي تضمها إلى صدرها .. وقد أخذت تتحدث إليها وهي تربت ظهرها برفق قائلة :

ــ كان سيقتلك هذا الشرير .. لا تغضبي منه يانونا .. إن تلك هي طبيعته .. يميل دائماً إلى الأذى .. ولا يعبأ إلا بإرضاء نفسه .. ولكن أنت السبب فيما حدث .. ألم آمرك بالبقاء في الغرفة ؟! هذا جزاء الشقاوة .. كدت تموتين بسبب الشقاوة . أليس كذلك يا نونا ؟

ــ ...

ــ وأنا أيضاً كدت أموت .. ألا تعرفين ماذا حدث لي ؟

ــ ...

ــ لقد ركبت التروللي .. واندفع يجري بي .. وكاد يلقي بي في الترعة .. لقد دفعه الشيطان . أجل يا نونا .. إن الشيطان هو الذي يفعل بنا الأذى دائماً .. هكذا قالت دادة .. نصحتني ألا أركبه فلم أستمع لنصحها .. تماماً كما فعلت أنت معي .. وكدت أموت كما كدت تموتين .. لولا أن أنقذني كما أنقذتك .. أتعرفينه ؟

ــ ...

ــ إنه « علي » ابن الريّس « عبد الواحد » الجنايني .. ذلك الصبي اللطيف الهادىء .. لقد رمى بنفسه أمام التروللي .. ودفعه التروللي في صدره .. هكذا .. طاخ .. وألقى به على الأرض .. لقد صعب عليّ يانونا ، فذهبت إليه ، وربت على ظهره وسألته عما به ، ولكنه لم يرفع إليّ وجهه ولم يجبني .. أتدرين لماذا ؟

ــ ...

ـــ لا .. لا .. لقد ظننت أنا أيضاً هذا ، ولكننى عرفت السبب من أبيه بعد ذلك . ماذا تظنينه ؟

ـــ ...

ـــ حزرى ؟

ـــ ...

ـــ غلب حمارك .. إنه حجر البنطلون .. أجل والله يا نونا .. لقد كان بحجر بنطلونه رقعة ، وخجل أن أرلها ، وماذا يخجل من ذلك يا نونا ؟ إنه عبيط .. أليس كذلك ؟

ـــ ...

ـــ أنا أيضاً قلت هذا ، ولكنه مخلوق عجيب .. لقد كان فى بنطلونه المرقع ، أفضل عندى كثيراً من أخى « علاء » وهو فى بنطلونه السليم . على أيه حال ، لقد فكرت فى فكرة هائلة . هات أذنك حتى أسرّ لك بها .

وضعت شفتيها على أذن القطة ، وأخذت تهمس :

ـــ ما رأيك فى أن نسرق بنطلوناً من أخى علاء ونعطيه له ؟

ـــ ...

ـــ السرقة عيب ؟ ومن عمل الشيطان ؟

ـــ ..

ـــ لا .. لا .. يا عبيطة هذه ليست سرقة .. هذه سلفة .. سنقترض من أخى علاء بنطلوناً وسنسلمه له .. ما رأيك ؟

ـــ ...

ـــ اتفقنا إذن .. أنت قطة شريفة جداً يا نونا .. سننتظر حتى نتناول الغداء وينام أبى ، ويذهب علاء إلى الحديقة ليصطاد بالبندقية ، وتذهب دادة إلى حجرتها ، وأخبرها أنى سأجلس فى حجرتى لعمل الواجبات لأن إجازة (الإيستر) أوشكت على الانتهاء ، والمدرسة ستفتح يوم الاثنين ، ثم نتسلل إلى حجرة علاء ونسرق البنطلون .

ـــ ...

ـــ لا .. لا .. متأسفة يا نونا .. أقصد نقترض البنطلون .

ـــ ...

ـــ هل أعرف بيته ؟ أجل .. إنه يسكن فى بيت من بيوت العزبة وهى قريبة من هنا ؟ لا .. لا .. لن يرانا أحد وسنعود بسرعة قبل أن يستيقظ أبى أو يحس بنا أحد .

واستلقت الصبية على الفراش ، وأخذت تضم القطة فى فرح وتردف قائلة :

ـــ سيأخذ البنطلون ويرتديه .. ثم يقف ويتحدث .. إنى أحب أن أراه وأن أحدثه .. إنه لن يخجل منى بعد الآن .. أليس كذلك ؟

وحلّ موعد الغداء ونادت المربية « أنجى » لكى تهبط لتتناول الطعام .

وفى حجرة المائدة الفخمة .. جلس الثلاثة : الأمير على رأس المائدة ، وعلى يمينه « علاء »، وعلى يساره « أنجى »، وفى مواجهته كرسى خال كانت تجلس عليه الأم .

وعلى المائدة رصت الأطباق الصينية التى رسم عليها شعار الأمير ، والفضية التى نقش عليها نفس الطابع .. ودفع باب زجاجى مؤد إلى الأوفيس المتصل بالمطبخ ودخل إلى الحجرة خادم نوبى قد ارتدى سترة خضراء .. محلاة بالقصب .. وسروالا فضفاضاً عند القدمين .

وأخذ يوزع الطعام وقد أمسك « السرفيس » بيساره ووضع يمينه وراء ظهره .. وانحنى ببطء مقدماً صحفة الطعام بمهارة عجيبة .

وتناول الرجل وولداه نصيبهما من الطبق .. وقد شرد كل منهم بذهنه فيما يشغل باله .. الأب فى الإيجار الذى يطمع اللصوص السفلة من المستأجرين فى نهبه ، وعزمه على أن يحافظ على ثروته بكل ما يملك من جهد وقوة من أولئك الطامعين فيها .

والابن فيما يمكن أن يصيده من دقانيش وعصافير بالبندقية الجديدة التى ابتاعها .

والابنة فى البنطلون ذى الرقعة ، وفى البنطلون .. الذى ستسرقه .. أستغفر الله .. الذى ستقترضه .

وفى نفس اللحظة .. كانت مجموعة أخرى تجلس لتناول الطعام . على مائدة أقل تواضعاً .. مائدة أرضية .. أو باسم آخر « طبليّة »، كانت « أم على » زوجة « عبد الواحد » قد أتمت ترتيبها .. وهى لا بد أن ترتبها حتى لو كان الأكل « دقة »، وكانت المائدة فى هذا اليوم حافلة . فيوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذى يتناول الجميع فيه غداءهم معاً .

كانت تتوسط « الطبليّة » إوزة توسدت حشية من الثريد ، وقد تصاعد الدخان من كليهما .. وكانت « أم على » قد أمضت طوال الأشهر الثلاثة الماضية فى تربية الأوزة و « تزغيطها » حتى اكتنز لحمها وكسته طبقة سميكة من الشحم .. كانت لديها صفيحة من الملوخية التى جففتها من الصيف الماضى .. فاستغلت فى صنعها مرقة الأوز ، واستغلت بقيته فى عمل الثريد .

ولقد ارتاعت المرأة عندما أبصرت بالخدوش التى فى وجه ابنها .. والرضوض التى فى قدمه .. وضربت بيدها على صدرها فى فزع وصاحت :

ــ مالك يا بنى ؟!

وأجاب عبد الواحد :

ــ لا شيء .. خدوش بسيطة .. نتيجة سقوطة على الأرض .

ــ ألم أقل لكما .. كفّا عن الشقاوة .. وأنت يا على الذى أقول عليك هادئ تصنع بنفسك هذا ؟ تعال . أرنى ما بك !؟

ــ إنه لم يتشاق يا أم على .. لقد أنقذ حياة الهانم الصغيرة ابنة أفندينا .. وأنقذ مستقبلنا الذى أوشك أن يضيعه حسين .. ولولا هذه الخدوش والكدمات .. لما استطاع الولدان أن يذهبا إلى المدرسة .. بل لما استطعنا نحن أن نحصل على قوتنا غداً .

ثم أخذ يقص عليها القصة .. وختمها بأن أطلق ضحكة غبطة ورضا ،

وأردف قائلا :

ـ الحمد لله .. ماذا أعددت لنا للغداء ؟

ـ ذبحت الأوزة وعملت على مرقتها ملوخية ، والآن دعونى حتى أقدح السمن للتقلية ، وأعد لكم الفتة .

وألقت الأم نظرة أخيرة على « على » وهو يسير متثاقلا إلى داخل الدار وقد بدا حجر البنطلون الذى وضعته له ممزقاً وصاحت به :

ـ لقد تمزق حجر البنطلون الذى ركبته .. سأعيد خياطته ثانية !

وأجاب الولد فى يأس واستسلام :

ـ افعلى ما تشائين .

وجلست الأم فى مطبخها الضيق .. على كرسى منخفض وأخذت تدق فى جرن خشبى أسود صغير .. خليطاً من الثوم والكسبرا والملح ، وأمامها موقد الغاز يئز .. ومن فوقه طاسة سوداء أخذت كتلة السمن التى فى قاعها تنصهر فى بطء كما تذوب قطعة الجليد فى حرارة الشمس .

وذهب الأب إلى حجرته فأخذ فى إبدال ثيابه استعداداً للوضوء وصلاة الظهر بعد أن فاتته صلاة الجمعة ، وقد بدا راضياً قرير العين ناعم البال ، بعد أن ضمن قسط المدرسة ، واطمأنت نفسه إلى أن أمنيته الكبرى ـ هى أن يرى ولديه موظفين محترمين ـ فى طريقهما إلى التحقيق ، وأن الله لم يتخل عنه وأنه ما زال يدبر أمره .

واتجه الصبيان إلى حجرة صغيرة فرش فى أرضها حصير ، ووضع فى جانبيها سرير ذو أعمدة حديدية رفيعة ، ركبت عليها « ملة » خشبية فوقها حشية ولحاف قديم ، وفى ركن من الحجرة وضعت منضدة خشبية ، تناثرت عليها بعض كتب الكيميا والتاريخ الطبيعى وكتب الإنجليزية والترجمة ، ورواية العبرات ، ومجنون ليلى ، وقمبز ، وبضعة أعداد من مجلة الفكاهة .. والبلاغ الأسبوعى .. وورق نشاف ، ومثلث ومسطرة .. ومصباح غاز زجاجى ..

وحول المنضدة مقعدان من الخيزران .. وعلى الحائط علق مشجب خشبي وضع عليه جلبابان وطربوش .. وجاكتة صغيرة وفانلة كرة مخططة .. وفي مواجهة الحجرة دولاب خشبي قديم ذو مرآة مشدوخة مموّجة .. وقد ألقي أمامة حذاء كرة .. خرج من فوهته جورب مخطط بلون الفانلة .. و« دمبلز » حديدي صغير .

كانت الحجرة المتواضعة مأوى الصغيرين ، حيث يرقدان ويستذكران ويلهوان ويقرآن .. وحيث يختليان لتبادل الشكوى والأسرار والصداقة والعراك .

دخل « علي » الحجرة يجر ساقية ، وحملاً من الهم يرزح تحت وطأته ، وارتمى على الفراش مخفياً وجهه في الوسادة ، وبذهنه خليط مشوش مضطرب من الأفكار ، وبنفسه حشد من الأحاسيس المتناقضة ، والمشاعر المتباينه ، جعلته كالراقد في دوامة .

لم يكن يدري ما به .. أهي سعادة أم شقاء ؟! خوف أم طمأنينة ؟! فرح أم حزن ؟! استقرار أم هيمان ؟!

كان يجب أن يكون سعيداً لأنه أنقذ حياتها ، ألم يكن هذا هو ما يتوق إليه دائماً في أحلامه وأوهامه ؟! ألم يرها دائماً بعين الوهم وهي في خطر محدق بها يوشك أن يودي بحياتها ، وهو مندفع إليها لإنقاذها منه ؟

أجل .. أجل .. إن هذا هو ما كان ينعم به في أحلامه .. ومع ذلك لا يحس منه الآن كثير متعة ولا هناء .. بعد أن تجسد في واقعه .

لشدّ ما يكره هذا الواقع فليس أقدر منه على تشويه الأحلام .. إنه حقاً قد أنقذ حياتها .. ولكن لم تكن تلك هي الصورة التي يحلم أن ينقذها بها .. أين هذه الصورة من صورته على صهوة جواده يسابق الريح وهي بين ذراعيه ؟! أو صورته مفتول العضلات يطوي الموج وقد تعلقت بكتفيه !! أو صورته يذود عنها بسيف بتار وقد علق نظرها به في إعجاب وتقدير !

أين من كل تلك الصور البرّاقة الزاهية .. صورته وهو ملقى على الأرض معفر الوجه ، ملوّث الثياب ، مخدوش الساق ، خافض الرأس ، لا يجسر على النهوض خشية أن ترى حجر بنطلونه ؟

أين من صور أوهامه الجميلة ، صورة واقعه الذليل ، الذى تمت مذلته بحفنة النقود الذى مدّ بها السيد يده إلى أبيه ، ثمناً للإنقاذ .

ولم يكن هو يستطيع أن يمنع شيئاً مما وقع ، بل كان عليه أن يذعن لكل شىء ، وكان عليه أن يقبل الأمر قبول المستسلم الراضى .

لقد طوّح القدر بها فى سبيله ، ودفع بالعربة تلك الدفعة القوية التى كادت توردها حتفها ، ولم يحاول هو أن يفكر فى حجر بنطلونه .. بل اندفع لإنقاذها بلا إرادة ولا وعى .. ولم يستطع أن يمنع العربة من أن تدفع جسده الصغير ليتدحرج على الأرض فى الثرى والطين لتمحو منه كل سمات الآدميين .. وأخيراً لم يستطع أن يمنع أباه من أخذ النقود لأنه لم يكن يجسر على رفع بصره أو التحدث .. ولو استطاع لما فعل .. لانه يعرف قيمة هذه النقود ، التى يكره هو أخذها ، فى نفس أبيه .. وهو يذكر ما قاله له من أنه يريق ماء وجهه طائعاً مختاراً .. حتى يوفر عليه هو إراقة ماء وجهه من أجل أبنائه .

لقد أرضى الجميع بما فعل ، إلا امرءاً واحداً .. هو نفسه .

إنه يحس بأكداس من الحزن ترسب فى قرارتها .. لأن كل شىء يشعره أن البون بينهما شاسع .. وأنه حتى بعد أن حقق له القدر بعض ما حلم به .. قد وجد نفسه فى أدنى القرار .. وأنها ما زالت فى أقصى القمة .

لعن الله تلك الكبرياء الكامنة فى نفسه .. التى تأبى إلا أن تريه نفسه بأعظم وأكبر من حقيقتها .

إن مصابه فى أنه يأبى أن يضع نفسه .. حيث هى كائنة .. ويصر على أن يسمو بها إلى أعلى .. لأنه يراها عزيزة القيمة .. كبيرة القدر .. رفيعة المقام .. وكان يعزّ عليه أن يخفض من قدرها ، فى سبيل أى إنسان ، حتى ولو كانت

هى .

وهكذا كان يشعر ، بعد كل ما حدث ، وبعد كل ما وصفوه به من أنه رجل شجاع وهمام .. إلخ . وبعد كل ما أعطى للأمير ولأبيه ولأمه ولأخيه .. من جميل أزاح عنهم غمّة اليأس ، يشعر أنه قد عاد مهزوماً كسير القلب حزين النفس .

شىء واحد هو الذى كان يسبب له عزاء يكسر من حدة ذلك الحزن الذى يرزح تحته ، وهو إحساسه بأن كل ما حدث ، مهما أساء إلى كبريائه وتسبب فى مذلته ، قد انتهى بإنقاذ حياتها ، وأن النتيجة النهائية ، هى أنها تنعم بالحياة ، وكان محتمـلا ـ لولا ما فعل ـ أن تكون الآن ... .

وأغمض ذهنه حتى يبعد عنه صورة العربة مندفعة بها إلى الترعة .

أجل ! فى سبيل حياتها ! يستطيع أن يحتمل نتيجة كل ما حدث ، ولخير له أن تراه ببطلون ذى حجر من أن يفقدها كلية ، وهى بعد هذا كله لم تر حجر البنطلون ، أو هذا هو ما يرجوه ، وهو آخر أمل فى العزاء .

وانتهت معركة الأفكار المتصارعة فى ذهنه ، والمشاعر المتضاربة فى نفسه .. بعبرات أحس بها تسيل ساخنة من مقلتيه ، وتنحدر فى صمت على الوسادة التى أخفى بها رأسه .

وقطع عليه بكاءه الصامت صوت أخيه يدخل الحجرة ضارباً بقدمه أقرب الأشياء فى طريقه ، منقباً عن فردة حذاء كرة القدم صائحاً بأخيه :

ـ هل يمكن أن أستعمل حقيبتك فى الغد لأحمل فيها لبس الكرة ؟! إن لدينا مباراة مع الإبراهيمية .

ومد « على » يده يمسح دمعه خشية أن يبصره حسين ، وبلع ريقة حتى يسترد طبيعة صوته .. وحتى لا تبدو عليه دلائل بكاء .. ثم قال فى رد مقتضب :

ـــ إنها عندك تحت المنضدة .

ـــ هل تعلم أنى سألعب فى التيم الأول غداً ؟

ـــ حقاً ؟

ـــ إن عبد الرحمن مريض وقد أخبرنى زكى أفندى أنى سأقف باك شمال بدله .

ولم يجب « على ». واستمر حسين ثرثرته وهو يبحث عن فردة الحذاء :

ـــ ستكون مباراة حامية برغم أنها غير رسمية ، ولكنها ستظهر قوة الفريقين .. الإبراهيمية هذا العام من أقوى المدارس .. فقد حوّل إليها سنتر هاف جديد من طنطا يقولون إنه هائل .. سأخرج باكر بعد الحصة السادسة .. بل ربما لا نحضر الحصص التى بعد الغداء كلها .

وكان ذهن « على » قد شرد مرة أخرى ، ولكن أعاده من شروده سؤال أخيه :

ـــ أستشاهد المباراة ؟

وأجاب فى اقتضاب :

ـــ لا ..

ـــ يا غبى .. ألا تشاهد المباراة التى سألعب فيها لأول مرة فى الفريق الأول ؟ إن المدرسة كلها ستشاهدنى .. سأثبت لهم أن محسوبك خير من يصلح سنتر هاف بعد خروج سمبو .

وأخذ حسين يسير مختالا فى الحجرة الصغيرة وهو يردف قائلا :

ـــ تصوّر محسوبك سنتر هاف باك المدرسة على سن ورمح .. لا بد أن أطالبهم بزوجين من الأناكل وزوجين من الشناجير .. إنها تجعل منظر الساق وجيهاً .. ألا ترغب فى أن تجرّب لبس الأناكل والشناجير ؟

وأجاب « على » مرة أخرى فى اقتضاب :

ـــ لا .

و لم تعجب حسين تلك الطريقة المقتضبة فى الرد ، فقد كان يريد من يبادله الثرثرة ، فسأل أخاه :

— مالك يا على .. أما زالت الوقعة تؤلمك ؟

— لا .

— إذن ماذا بك ؟! .. لماذا تدفن رأسك هكذا فى الوسادة ؟! قم .

وأقبل عليه محاولا جذبه من كتفيه ، وكان الاثنان رغم عراكهما الدائم يحب كل منهما الآخر حباً شديداً .. فقد كانا أشبه بالتوءمين ، متلازمين فى المدرسة ، وفى الاستذكار ، وفى الفراش ، لا يفرق بينهما غير اللعب ، فقد كان لكل منهما هوايته التى تلائم طبعه .. كان « حسين » يهوى الألعاب الجسمانية العنيفة ككرة القدم وألعاب القوى . أما « على » فكان أميل إلى الهدوء ، محباً للقراءة ، كثير التفكير دائم التطلع إلى الطبيعة .

وحاول « على » أن يمسك بالوسادة التى دفن فيها رأسه . ولكن نداء أمهما عليهما لكى يقوما للغداء اضطره إلى النهوض . ولمح حسين آثار البكاء على وجهه فصاح فى فزع :

— ماذا بك يا على ؟! لا بد أن بك شيئاً .. إنك تبكى !!

— قلت لك ليس بى شىء .. لا تضايقنى بإلحاحك .

وكانت الأم قد أعدت « الطبلية » وانتهى الأب من صلاته ، وجلست الأسرة تتناول الطعام وقد أخذوا يتبادلون الثرثرة عدا « على » الذى بدا عليه الوجوم وتساءلت الأم .

— ما بك يا على ؟

وأجاب الأب بدلا منه :

— لا بد أنه متعب من الوقعة .. دعيه يرقد فى الفراش بعد الغداء .

وكان هذا هو أقصى ما يتوق إليه « على » .. و لم يكد يزدرد بضع لقمات حتى ترك « الطبلية » رغم إلحاح أمه .

ورقد فى الفراش .. ويبدو أنه راح فى غفوة قصيرة استيقظ منها على صوت عجيب .. بلغ من عجبه أنه أغمض عينيه مرة ثانية وهو يجزم أنه فى حلم .

كان صوت « أنجى »، ولم يستطع أن يدرك أية معجزة خارقة ألقت بها فى دارهم الحقيرة فى ذلك الوقت ، ولكنه أخذ ينصت مرهفاً سمعه محاولا التقاط الحديث .

وسمع صوت أمه تقول :

ــ أتكلفين نفسك مشقة الحضور إلى هنا ؟ لقد زارنا النبى .. الهانم الصغيرة بجلالة قدرها تزورنا .. تفضلى يا سيدتى .

ــ متشكرة .. لا أستطيع البقاء طويلا .. سأنصرف الآن قبل أن يسأل عنى أبى .. خذ يا عم عبد الواحد .. أعط ابنك هذا البنطلون ليرتديه بدل البنطلون المخروق .. ولا تصنعى له حجر عندما يخرق ، حتى لا يخجل منه ، بل اطلبى منى بنطلوناً آخر .

وأحس « على » كأن مطرقة هوت على رأسه .. لقد ضاع له آخر أمل كان يرجوه فى الاحتفاظ بكبريائه .. لقد عرفت إذاً سر بنطلونه ، وعرفت سر خجله .. كيف يستطيع أن يراها بعد ذلك ؟! بل كيف يجسر أن يراها حتى فى أوهامه وأحلامه ؟!

---

(٥)

سد منيع

مضت بضعة أعوام على واقعة التروللى ، ولم يكن « على » قد قبل ارتداء البنطلون الذى منحته إياه الأميرة الصغيرة ، إذ كان يحس كأن طعنه حادة سددت إلى كبريائه ، وآل البنطلون إلى حسين الذى ارتداه قريراً هانئاً .. واختال به بين إخوانه مزهواً فخوراً .. وفضل « على » أن يبقى منطوياً ببنطلونه القديم تضيف إليه أمه الرقعة تلو الرقعة ، وفى كل مرة كانت تنظر إليه ، وتمصمص بشفتيها ، ثم تطلق تنهيدة أسف وتتمتم قائلة :

— أصحاب العقول فى راحة .. كان أمامك البنطلون الذى أهدته إليك « البنيّة » جديداً فاخراً ، ولكن ماذا نعمل وأنت ترفض النعمة وتتمسك بأهداب الفقر .

وفى خلال تلك المدة لم يبصر « على » أنجى ، إلا لماماً ، وأقلع عن الذهاب مع أبيه إلى القصر .. بل لم يحاول أن يقترب من أسوار الحديقة . إذ كان يحس من المنطقة كلها خوفاً شديداً .. كأن بكل شبر منها لغماً .. سينفجر فيه إذا وطئتها قدماه .

لقد اعتبر ما وقع فى ذلك اليوم ، من اكتشاف الصغيرة أمر بنطلونه ، ومن اطلاعها على مظاهر الفقر والفاقة البادية فى دارهم ، سداً منيعاً قام بينهما ، ليس فى الواقع الملموس ، فقد كان السد قائماً بطبيعة أوضاع الحياة ، ولكننا نعنى أنه قام بينهما فى الأوهام اللذيذة والأحلام المشتهاة .

لقد جعلها السد الجديد ، أبعد من مرمى أحلامه .. وأنأى من منال أمانيه ، التى يؤنس بها وحدته ، ويجمل بها أفكاره .

استبعدها بتاتاً من ذهنه ، ووأد طيفها فى فؤاده ، وصلبه فى قلبه ، وكان عليه — لكى ينجح فى ذلك — أن يعلّم نفسه كرهها ، وأن يزيل عنها كل بريق وبهاء كان يحيطها به ويضفيه عليها .

ونجح الصبى فى عملية الصلب والوأد ، ومحا من نفسه كل أمل خلب ، وأمنية سرابيّة برّاقة .. واندفع يعدو من حياته فى طريق ضيق الجنبات ، مستقيم الاتجاه ، محدود المرمى ، واضح الهدف ، هو طريق الدراسة .

كان يدفعه قول أبيه ، إنه يريد أن يجعل منه موظفاً محترماً ، وإن الضابط أو المهندس أو الطبيب ، أفضل كثيراً من الجناينى ، ولقد أراق أبوه ماء وجهه لأجل أن يدفعه فى الطريق ، وحرام عليه أن يريق ماء وجه أبيه سدى .

سيكون موظفاً محترماً ، من أجل أبيه الذى أراق ماء وجهه ، ومن أجل أمه الصابرة ، الكادة الكادحة التى تعرف كيف توفر المليم من قوتها .. ومن ملبسها .. ومن عرقها .

ومن أجل نفسه الذليلة ببنطلون مخروق ، المهانة « بطبليّة » خفيضة وحصير متواضع ، وقرش غير كائن فى جيبه يجعله يفر من صحبه ، عندما يذهبون لشراء مرطب من « كنتين المدرسة ».. خشية أن يعرفوا أنه لا يملك مليما ، وخشية — شر من ذلك — أن يتطوّع أحدهم لدعوته ودفع ثمن ما يتناول ، ومن أجل قرش كائن ، ولكنه يحتفظ به لما هو أجل ، فيقطع المسافة من مدرسته إلى المحطة سيراً على قدميه حتى يوفر قرشه ولا يصرف فى العودة غير أجر القطار .

من أجل نفسه الذليلة بالصمت عند ما يتحدث الرفاق عن بيوتهم وذويهم .. ويطبق هو شفتيه عندما يجد أن المقارنة مخجلة مروعة .

ومن أجل نفسه الذليلة بالفرار عندما يسأله الصبية أين يسكن ، فيقول فى ضاحية كذا ، فيقولون إنهم سيحضرون إليه لمشاهدة الريف ، ولركوب الخيل ، وصيد السمك والعصافير ، وتناول الغداء .

الحمقى .. المخابيل .. من يظنونه !! ومن يظنون والده !! أى خيل ؟ وأى

سمك وعصافير ؟ وأى غداء ، غداء الدُّقّه على الطبلية ؟!

ويفر منهم ، وهل يملك إلا الفرار ، أو الفضيحة ؟

أجل ! سيكون موظفاً محترماً .. من أجل أبيه ومن أجل أمه ، ومن أجل نفسه ، ومن أجل ..!

لا .. لا .. لن يسمح لنفسه بهذا السخف فى التفكير ، لن يدعها مرة أخرى تتخطى السد المنيع لتطل على وادى الأحلام الزاخرة جنباته بالزهور الجميلة ، المكسوّة رباه بالخضرة اليانعة ، الشادية أطياره بالنغم الحالم ، الهاتفة ورُقه باللحن العذب .

لن يسمح لنفسه بالهيمان والضلالة ، والطريق أمامه بسيط مستقيم واضح .

ألا تكفى كل هذه الأغراض التى يسعى من أجلها ، لكى تدفعه فى طريقه ، حتى يعاود البحث عن غرض سرابى موهوم ، قامت دونه السدود المنيعة والحوائل الشائكة !

من أجل أبيه الكاد ، وأمه الكادحة ، ونفسه الذليلة الطموحة . من أجل هؤلاء يسير .

لا من أجل الموءودة فى قلبه .

الموءودة !! الموءودة !

ولكن أحقاً ، قد وأدها ؟

وبأى ذنب ؟!

وإذا الموءودة سئلت .. بأى ذنب وئدت ؟

أجل ! بأى ذنب وئدت .. بذنب القدر الذى وضعها فى القمة ووضعه فى الحضيض ، بذنب الفوارق الهائلة والمسافات الشاسعة التى تفصل بينهما ، بذنب رفعتها وحطته ، وكبريائها ومذلته ، بذنب معرفتها لكل ذلك .

ولكن لمن الإجابة .. والسؤال غير قائم .. وغير ذى موضوع ، من سائل الموءودة ، وهو وحده من بين خلق الله يعرف أنها موءودة .. إنها هى نفسها

لاتعرف .. لأنها لا تحس به ، كل ما تعرفه عنه أن جسده المتوضع أنقذ روحها السامية ، وقد ردّت الجميل ، ببنطلون سليم بدل البنطلون المخروق .

هذا هو كل ما تعرفه عنه .

حقيقة أنها سألت عنه بضع مرات ، أو هكذا قال له أبوه وأخوه ، ولكنه فيما يعتقد سؤال عابر ، عن ابن الجنايني الذى منحته بنطلوناً .

لا .. لا . يجب ألا يعطي الموءودة فرصة أخرى للحياة . يجب أن يكون استئصالها استئصالا .. قاطعاً بتاراً .. حتى لا تعود إلى التنفس والانتعاش فى فترات الحساسية وإرهاف الشعور من فرحة طارئة أو حزن عابر .

أجل .. يجب ألا يجعلها تتسرّب من وراء السد القائم .. لتتخذ مكانها من أوهامه كقوة دافعة .. أو هدف منشود ، فالقوى الدافعة معروفة ، والأهداف محدودة .

وإذا كان قد وصل بعد عامين من السير إلى مرحلة من مراحل النجاح فبفضل أبيه .. ومن أجل أمه .. ومن أجل نفسه .

أليس كذلك ؟!

انطق أيها الأحمق . مالك تتردد فى الإجابة ؟

أجل !! أجل !! إنه لكذلك ، ليس لها من نفسى مكان سوى مكان الموءودة . بعد زمن من السير ، والوصول إلى النجاح ، يجب أن تعطى الفضل لأصحابه .

قم وشارك أباك شكره لله ، وأملك فرحتها ، واضحك وامرح كما يفعل أخوك .

بدل أن تجلس هكذا واجماً شارداً ، تحاول بإنكارك لها أن تحييها من وأدها وتبعثها من مرقدها !

إنكار الشيء لا يكون بالتفكير فيه حتى ولو كان إنكارياً ، أو استبعادياً .. إنما تفكر فى الذى تحاول استبقاءه فى ذهنك ، حتى ولو بالتظاهر بطرده وإهماله

وإنكاره .. ولو وددت استبعاده ، لما شغل من ذهنك أكثر مما يشغله كوز الذرة في الحقل ، أو القلم على المنضدة ، أو الحشية على فراشك .

أفحتم عليك أن تجلس شارد الذهن ساعة نجاحك .. لتؤكد لنفسك أن كل هذه الأشياء مستبعدة من نفسك ولا تشغل من ذهنك أي تفكير ، كما تفعل مع الموءودة .

قم .. قم .. ما دمت قد وأدتها من زمن ، فلتدعها من تفكيرك جانباً .. ولتكن في نفسك كغيرها من الأشياء الجمة المهملة المحيطة بك .. لتكن قلماً على المنضدة ، أو حشية على فراش ، أو حتى جورباً في حذاء .

أتكره هذا التشبيه ؟

إذن فلتكن زهرة على القناة .. أيعجبك هذا ؟

أيها الأحمق الصغير

ما زالت للموءودة ، قيمتها في نفسك ، مهما أصررت على أنها موءودة .

قم إلى أبيك وأمك ، وافرح بنجاحك ، أنت الآن صاحب شهادة محترمة .

أنت رجل .. حامل بكالوريا .. تستطيع بها أن تكون طالباً في مدرسة عليا ، وتضع قدمك على أول درجات اللقب المحترم .. ضابط ، أو مهندس ، أو طبيب .. فإذا لم تشأ .. تستطيع بها أن تكون موظفاً .. نصف محترم .

ونهض « على » من مقعده أمام المنضدة ، وقد نفض عن نفسه غبار التفكير . وساعده على التخلص من شروده طرب أصاب نفسه برغمها من مجرد تذكره أنه أضحى حامل بكالوريا .. أي رجل له صفة رسمية في هذا البلد .

وكان اليوم أحد أيام يولية القائظة والوقت عصراً .. والشمس قد بدأت الانحدار ، وظلال الشجر قد طالت .. ودس « على » قدميه في قبقاب خشبي ، واتجه إلى الحمام للوضوء حتى يؤدى فريضة العصر .. ولمح في طريقه أباه وقد ركع في حجرته مستغرقاً في الصلاة وقد أسبل عينيه ونطقت ملامحه بأبلغ آيات الحمد .

كانت أمه قد قبعت على حشية فى مدخل الدار ووضعت أمامها سطلا نحاسياً كبيراً أخذت تذيب به بضع زجاجات من شراب الورد ، وجلس حسين بجوارها وقد مدّ يده بكوب فارغ وسألها راجياً :

ــ كوباً آخر .

ونهرته الأم صائحة :

ــ معدتك تنفجر .. هذا رابع كوب . ماذا سيتبقى للناس !؟ ألا تستحي ؟!

ــ آخر كوب .

ــ لن أعطيك نقطة واحدة .

ــ إنه شرباتى أنا .. أنا .. أنا الذى نجحت ولست أنت .

ــ خذ ولا ترنى وجهك .

ودخل « على » فى الحمام الذى لم تفلح الطاقة فى أعلاه فى تبديد الظلمة المخيمة عليه فى رابعة النهار ، وشمر أكمامه وبدأ الوضوء ، وعادت مناقشة أخيه وأمه تطرق أذنيه .

قالت الأم :

ــ لقد أرسلت « بهية » بنت خالتك لتبتاع لى ثلجاً من الصندوق الذى بجوار المحطة .. ومضى لها ساعة .. اذهب لتستعجلها .

ــ أنا أذهب لاستعجال بهية ؟

ــ أجل .

ــ أنا .. أذهب .. إلى صندوق الثلج !

ــ ولِمَ لا .. أعلى رأسك ريشة ؟

ــ لا .. على رأسي أفضل من ريشة .. على رأسي شهادة .. على رأسي بكالوريا .. عيبك يا أماه أنك جاهلة .. لا تعرفين قيم الناس .. أتعرفين من يكون هذا الجالس أمامك ؟

ــ لا أريد أن أعرف .. ليس هناك وقت للثرثرة .. اذهب يا حسين وأحضر الثلج بالتي هي أحسن .

ــ أولا ليس اسمي حسين .. اسمي حسين أفندى .. لأنى أستطيع أن أتوظف بالبكالوريا .. وظيفة محترمة .. وإذا أضحيت موظفاً فسينادونني حسين أفندى .. أفهمت ؟!

ــ اللهم طوّلك يا روح .. اذهب يا بني وأحضر الثلج .

ــ لأجل خاطرك سأذهب هذه المرة فقط .. إذا أعطيتنى كوباً آخر .

ــ كوب آخر .. أجننت ؟! تبتلع خمسة أكواب من الشراب .. إن معدتك تنفجر ؟!

ــ لا تخشى على معدتى إنها تبتلع الزلط .

ــ خذ .. واذهب بسرعة .

ــ سألبس البدلة أولا .. لأنى سأنزل مصر .

ــ ستنزل مصر ؟

ــ أجل .. لأنى سأذهب إلى السينما .

ــ من قال هذا ؟

ــ أنا .. لقد اتفقت مع أصحابى وأعطيتهم موعداً .

ــ هل معك نقود ؟

ــ سأذهب على حسابهم .

ــ استح من نفسك .. كفى تطفلا على الناس !

ــ هذا ليس شأنك .. لا تعطوننا نقوداً !! ولا تتركوننا نتطفل !! ما شاء الله .. لا منك ولا كفاية شرّك .

وكان « على » قد انتهى من الوضوء وعبر الصالة متجهاً إلى حجرته للصلاة ، ولمحه « حسين » فصاح به :

ــ على .. ألن تذهب إلى السينما ؟

— لا ..

— لِمَ ؟

— ليس معى نقود .

— سأقرضك .

— ومن أين لك النقود ؟

— سأقترض من عباس .

— لا .. لن أقترض منك .. ولن تقترض أنت من أحد .. عندما تكون النقود معنا ، نذهب إلى السينما .

وكان الأب قد أتم صلاته فاشترك فى المناقشة صائحاً من حجرته :

— اليوم ستبقيان معى لاستقبال الضيوف والمهنئين .. لقد أصبحتما رجلين .. ويجب أن تستقبلا الناس .. هذا عيد لدينا يجب أن نحتفل به سوياً .. أريد أن أفرح بكما .. لقد بيضتما وجهى .. لم يذهب تعبى فيكما سدى .

وتركت الأم المغرفة الكبيرة التى كانت تقلب بها الشربات ورفعت يدها إلى السماء داعية :

— الحمد لله .. ربنا يتمم نجاحهما .. ولا يخيب لهما أملا .. ربنا يقيهما شرّ العين .. ربنا يحبب فيهما خلقه .

واسترسلت الأم فى سلسلة الدعوات التى كانت لا تنفك تطلقها إلى السماء فى كل غدوة لولديها وروحة .

وبدت فى فناء الدار « بهية » ابنة أخت « زهرة » التى أحضرها أبوها لتعيش مع خالتها بعد أن توفيت أمها فى العام الماضى .

وتقدمت الصبية بوجهها الصبوح المستدير إلى الأم .. مادة يدها بقطعة الثلج .. وربتت المرأة ظهرها فى حنان قائلة :

— ربنا لا يحرمنى منك .. لقد عوّضتنى عن خلفة البنات التى طالما تقت إليها .

ثم نظرت إلى ولديها وأردفت متمتمة فى صوت خفيض .

ـــ ربنا يجعل لك نصيباً فى أحدهما .

وملأت كوباً من الشربات ومدت يدها به قائلة :

ـــ خذى .. هذا شربات نجاح « على » و « حسين » .. عقبالك فى فرحك . إن شاء الله .

وضحك « حسين » وربت رأس « بهية » وقال :

ـــ فى فرحك سأسترد كوبك هذا بالربح المركب .. أنت لا تعرفين الربح المركب .. ولا حتى الربح البسيط .. لا بأس .. ملخص القول سأسترد الكوب .. خمس كوبات .

وضحك أبوه قائلا :

ـــ هذا ليس ربحاً مركباً .. هذا ربا .

وبدا الاحمرار على وجه الصبية وقالت :

ـــ سأردّ لك الشربات دون زواج .. لأنى لن أتزوج ، سأبقى دائماً مع خالتى .

وضمتها الأم إليها قائلة :

ـــ ستتزوّجين .. وستبقين معى .. أو على الأصح أنا التى سأبقى معك .. إذا كنت ترضين بإبقائى فى بيتك .

(٦)

يقظة الموءودة

انتهى « على » من صلاته وارتدى هو وأخوه بدلتيهما ، وارتدى أبوهما جلبابه الصوفى وعمامته الصفراء ، وبدأت وفود الجيران والمعارف تتوافد مهنئة بعد أن ذاع فى البلد خبر نجاح الولدين وحصولهما على البكالوريا .. وانسابت ألفاظ التهنئة من الألسنة وانسابت معها أكواب الشراب فى الحلوق ، وتقبل الرجل أطيب التهانى فرحاً مغتبطاً .. مبعداً من ذهنه كل ما يحيط بها من نفاق أو حسد .. واجداً فيها مظهراً من مظاهر الود والوفاء والحب والإخلاص .

وأخيراً هدأت الضجة .. ونفد « سطل » الشراب .. وخلت دار عبد الواحد إلا من أهلها .. وأقبل الليل وجمعت « الطبليّة » العتيدة شمل الأسرة الصغيرة فى قاعة الدار ، وقد صفت عليها « زهرة » صحاف العشاء المكونة من الخضار والرز وطبق من « البصارة » وبعض « الخيار المخلل ».

وخلال العشاء .. شرد ذهن الرجل فى الخطوة الجديدة القادمة .. لقد قذف عن كتفيه عبئاً .. ليحمل عبئاً أثقل .. لقد قطع جزءاً من الطريق وبقى الجزء الأكثر وعورة والأشد مشقة .

ماذا ينوى أن يفعل بولديه بعد ذلك !. إن الثمرة يمكن الآن قطافها ولكنها ستكون بعد خضراء غير ناضجة ولن يكون لها فى فمه أو فمهما حلاوة المذاق .

إنه يستطيع أن يسعى لتوظيفهما .. ويحتمل جداً أن ينجح وسيساعدانه بأجرهما ، وسيوفران عليه المشقة الكبرى فى الحصول على المصاريف اللازمة لتكملة تعليمهما .. ولكن أهذا هو ما كان يرجو لهما أو ما كانا يأملان فيه لنفسيهما ؟!

إن « حسيناً » قد يوافق .. بل أغلب الظن أنه سيرحب بذلك أشد

الترحيب .. ولكن « علياً » .. ذلك الصامت الجدّ الطموح .. هل يرضى لنفسه هذه النهاية ؟

لقد قال له مرة .. إنه يفضل أن يعمل مثله بستانياً حتى يحفظ له ماء وجهه .. ولكن .. الآن .. وبعد أن دفعه إلى منتصف الطريق .. وأخذ يتعلق بالأمل العذب .. هل يرضيه أن ينكص على عقبيه ؟

ولكن هبه اعتزم السير فى الطريق إلى النهاية .. كيف يمكنه أن يدبر النقود ؟ إن المسألة ليست هينة .. فالمصروفات المدرسية أكثر مما تعوّد أن يدفعه فى المدارس الثانوية .. والصبيّان لاشك سيحتاجان إلى مبلغ أكبر لملابسهما ، ومصروفهما ؛ فارتداء البنطلون ذى الحجر أمر إن سهل عليهما فى المدرسة الثانوية ، فإن أمره فى المدرسة العليا جدّ عسير . وكلما تقدم بهما الزمن تفتحت أعينهما ، وسهلت عليهما مقارنة نفسيهما بأبناء الغير .. وأبناء الغير فى المدرسة العليا لا بد أن يكونوا من طبقة منتقاة تتمتع كثيراً بيسر العيش .

وهو يأمل من الأمير زيادة تسد مطالب العيش فى حالتهما الجديدة .. ولكن المصروفات .. كيف يدبرها ؟

إن لديه فدانين .. يمكن بيعهما بمائتين أو ثلاثمائة .. ولدى امرأته « كردان وأسورة » يساويان بضع عشرات من الجنيهات .. حقيقة إنه يعتمد على إيراد الفدانين فى سداد بعض المطالب السنوية من خزين وملبس .. وحقيقة أيضاً أنه يعتبر حلى زوجته كالا احتياطياً للطوارئ ، طوارئ المرض أو الوفاة .

ولكن ألا يستحق مستقبل ولديه أن يضحى بذلك كله ؟ إذا خرج من الحياة صفر اليدين إلا من ولدين محترمين .. ألا يكون قد أدى واجبه وجعل للحياة ثمناً طيباً ؟

وتناول الرجل لقمة من طبق « البصارة » وأخذ يلوكها وهو مستمر فى شروده .

لقد استقر رأيه عند هذه النقطة من تفكيره على أن يستمر فى السير .. مهما

كان الثمن .. لقد دفع فيما مضى ماء وجهه .. أكثير عليه أن يدفع الفدانين والحلى ؟! والله لو أدى الأمر إلى أن يدفع حياته .. ليدفعنّها راضياً . إنه يحب الولدين أكثر مما يحب نفسه .

وأخذ يرقبهما بنظرته الشاردة .. « علياً » بهدوئه ورزانته وكبريائه الصامتة ، و « حسيناً » بخفته ومرحه ، وطيبة قلبه ، واستهتاره . إنهما الآن فى مفترق الطرق ، وعلى الخطوة التى يوشك أن يخطوها يتقرر مصيرهما .

ترى ماذا يدور بذهنيهما الآن ؟

أغلب ظنه أن برأسيهما ما برأسه .. وما من بأس هناك فى أن يطرح الموضوع على بساط البحث خلال العشاء .

وبدأ الرجل الحديث مبدداً غيوم الصمت بقوله :

ـــ بيضتما وجهى أمام الناس .. لقد كنت أضع يدى على قلبى ساعة أن ناولنى الشيخ « معوّض » الصحيفة التى ظهرت بها نتيجتكما .. وكان أكثر ما أخشاه أن يضيع تعبكما سدى .. لقد أجهدتما نفسيكما كثيراً فى الشهر الأخير .. ولكن الله عوّض جهدكما ، وجاءت النتيجة خيراً .

وتمتمت الأم بصوت خافت :

ـــ الحمد لله ربنا يتم نعمته ويقيهم شر العين .

واعترض « حسين » ضاحكاً :

ـــ قبل أن يقينا شر العين .. يعطينا مجموعاً عالياً .. حتى تجد العين ما تحسدنا عليه .

وأردف « على »:

ـــ أجل .. المجموع هو المهم .. هذا هو ما سهرنا من أجله .. لقد كان النجاح مضموناً بنصف هذا الجهد ، ولكن النجاح فى البكالوريا ليس كل شيء ، بل يجب النجاح بمجموع يمكننا من أن ندخل المدرسة التى نأمل فيها .

وسأل الأب :

ــ وماهى هذه المدرسة ؟

ــ مدرسة المهندسخانة .. أو الطب .. وإن كنت أفضل المهندسخانة .

ــ كنت أتمنى أن أراك ضابطاً .

وقال « حسين » معترضاً :

ــ سأكون أنا ضابطاً إن شاء الله . فأنا لا آمل كثيراً فى أن أحصل على مجموع كبير ، وأعتقد أن الطريق أمامى لمدرسة البوليس معبّد .. وإنى لأستطيع الالتحاق بها بسهولة رغم الصعوبة التى يلاقيها بقية المتقدمين إليها .

وتساءل أبوه فى دهشة :

ــ ولِمَ

ــ لقد تبارينا فى العام الماضى مع مدرسة البوليس مباراة حبية فى كرة القدم .. ولقد أعجب بى ضابط الكرة الذى كان يصحب الفريق .. وسألنى عن اسمى وكتبه فى مذكرته .. وقال لى : عندما تأخذ البكالوريا سنرحب بالتحاقك عندنا .

ــ أتظنه ما زال يذكر ؟

ــ بالطبع .. فقد التقيت برئيس الفريق منذ شهرين ، وأكد لى قول الضابط وأنبأنى أنهم قد رتبوا فريقهم القادم وأنا فيه .

وضحك الأب وأجاب :

ــ وهكذا ستنفعك لعبة الكرة التى طالما نهيناك عنها . عجيبة !! لم أكن أظن أن لها عندهم مثل هذه الأهمية !

وتساءلت الأم فى استنكار :

ــ أستبقى طول عمرك « لعبياً » .. لاقيمة لك إلا فى اللعب .. حتى عندما تصبح ضابطاً .. لا بد أنك ستكون « هفيّة » بين الضباط .

ــ احذرى يا أماه .. أنت لا تعرفين من تكلمين .. بعد بضعة أشهر سآتى إليكم ، وأوقف البلد على قدم وساق . وسأجعل العمدة يقبّل يدى سأكون من

الحكّام . أتعرفين الحكام ؟

وضحك الأب قائلا :

ـــ اللهم قنا شرّهم .

ثم طوّح ملعقة « رز » فى فمه وأردف :

ـــ وهكذا قد صممت على أن تكون ضابط بوليس ؟

ـــ إن شاء الله .

ـــ إذن ليكن أخوك .. ضابط جيش .. ما رأيك فى الحربية يا على ؟

وضحك « على » ضحكة خفيفة ، وانفجر « حسين » مقهقهاً . ثم قال مجيباً على الدهشة التى ارتسمت على وجه أبيه :

ـــ الحربية .. مرة واحدة !

ونهره الأب بقوله مستنكراً :

ـــ أتدخل أنت البوليس .. وتستعصى الحربية على « على »؟! إنه خير منك مائة مرة .

وأردفت الأم قائلة :

ـــ ماله « على » .. أيجدون خيراً من قوامه ومنظره .. وخلقه ؟

وقال « حسين » :

ـــ طبعاً .. القرد فى عين أمه ..

ونهره أبوه بقوله :

ـــ لا تكن وقحاً .

وأنّبته أمه بقولها :

ـــ والله ما قرد لدىّ إلا أنت .

وضحك « على » ضحكته الخافتة وهو يرى الشتائم تنصب على أخيه وقال مدافعاً عنه :

ـــ يا أبى إنه على حق .. إن المسألة ليست مسألة شكل ولا قوام .. المسألة

مسألة وساطة ، لأن الإقبال على المدرسة شديد .. والعدد المطلوب ضئيل .. إنهم لا يقبلون كل عام من السبعمائة أو الألف الذى يتقدمون إلا عشرة .

ـــ قادر وكريم يكون لك نصيب ضمن العشرة .

ـــ المسألة ليست نصيباً .. والقادر الكريم لا أظنه يتدخل أبداً فى انتقاء الطلبة .

ـــ أستغفر الله .. لا تقل هذا يا « على » .

ـــ أنا لم أقصد الكفر بالله .. ولكن .. إن الذى ينتقى هم جمع من كبار الضباط .

ـــ ولماذا لا ينتقـونك إذن ؟

ـــ لأن هناك من هو أحق منى .

ـــ من هذا الذى أحق منك ؟

ـــ أبناء الضباط والكبراء .. إن الذين سيشغلون العشرة الأماكن المطلوبة ، يكادون يعرفون من الآن . لا .. لا يا أبتاه .. دعنا من الحربية فلا أمل لنا فيها .. إنها تحتاج إلى وساطة كبرى ، فكشف الهيئة بها صراع بين الوساطات والغلبة للوساطة الأقوى .

وشرد الأب بذهنه لحظة ثم قال ببطء :

ـــ إذا كان الأمر يحتاج إلى وساطة كبرى ، فلَم لا نلجأ إلى « أفندينا » ، فقد يقبل أن يعطينا بطاقة لأحد من أولى الأمر .

وفوجىء « على » بقول أبيه ، وتصاعد الدم إلى وجهه . فقد دفع ذكر أبيه المفاجىء لأفندينا ، شيئاً آخر فى ذهنه غير أفندينا ، شيئاً وطيد الصلة به .

لقد خيل إليه أن الموءودة فى قلبه .. تنفض عنها غبار اللحد .

وأجاب « حسين » ببساطة :

ـــ هذه والله فكرة طيبة ، فلا أظنهم يرفضون وساطة « أفندينا » .

ثم أردف مازحاً موجهاً القول إلى أمه :

— أبشرى يا أماه .. وهذا ضابط آخر .. سيحضر إليك إن شاء الله بالمدفع .. فيدك للك دار العمدة .. سنخربها ونجلس على تلها .

وكان « على » ما زال يقاوم رجفة قلبه التى أحدثتها الموعودة اليقظى .. وأخيراً تمكن من الرد قائلا فى لهجة قاطعة :

— لا يا أبتاه لا داعى لأن نلجأ إليه . إنه لن يقبل أن يتوسط لنا ، فهو يحتقر الناس جميعاً ، ومن بينهم نحن وهؤلاء الذين سنرجو وساطته عندهم .. ثم هو لن يعجبه كثيراً أن يكون ابنك ضابطاً .. فهو لا شك يعتقد أن الجيش يجب أن يقتصر على الطبقة الأرستقراطية .. وهو نفسه يفاخر بأنه كان ضابطاً فى الجيش التركى .. فلا مبرر لأن نريق وجهنا بلا فائدة . ولم كل هذا ، والمهندسخانة فى أيدينا ؟! إنى واثق إن شاء الله أنى سأحصل على مجموع ضخم ولا سيما فى مواد الرياضة ، وستكون المسألة فى غير حاجة إلى وساطة ولا رجاء .. أنترك ما بيدنا لنتأمل فيما يستحيل تحقيقه إلا بمعجزة ؟!

ولم يكن الأب ينصت إلى حديثه .. فقد أخذ يحدق فيه ويتخيله فى حلته الرسمية بجوار أخيه .

أيه سعادة تصيبه لو تحقق الحلم !

وعندما أجاب الرجل على قول ابنه .. سرد فى ذلك الحلم الذى يجول بخاطره قائلا :

— كم أود أن أراك ضابطاً يا « على » ستكون من خير الضباط شكلا وخلقاً ، ووسامة ورجولة .

وأردفت الأم وهى تشارك الرجل حلمه :

— إى والله .. ليت الله يحقق حلمك يا أبا على .

— الله يقول .. اسع يا عبد .. وأنا أسعى معك .. فيجب علينا أن نسعى .

وصاح « على » معترضاً :

— يا أبى لا داعى للسعى فيما لا يمكن تحقيقه .. أرجو منك ألا تذهب إلى

أفندينا ، وألا تسأله شيئاً .. لأنى واثق من رفضه ، وواثق من خيبه مسعانا .

وتدخل « حسين » قائلا :

ـــ يا أخى دعه يجرّب .. ماذا ستخسر أنت ؟

وهمس « على » كأنه يحدث نفسه :

ـــ سنخسر مزيداً من ماء الوجه المراق .

وأجاب الأب :

ـــ قلت لك إن ماء وجهه لا يراق سدى أبداً .. إنى أريقه لكى تحفظه أنت .. سأذهب إليه وأرجوه .. أو أرجو الله فى شخص .. والله لا يخيب لمؤمن رجاء ، ولا تنس أن مدة الحربية قصيرة ، ومرتبها مضمون فهى لا ترهقنا كغيرها من المدارس ، وستعوّضنا فيما بذلنا سريعاً ، وستكون أنت فى ثلاث سنوات ضابطاً محترماً يهابك الجميع ويحترمك الجميع .. عندما تعود إلى البلدة بحلتك فيها كما يسير الأمير .. إى والله .. لن تكون أقل منه .

ولم يجب « على » فقد أحس برجفة فى قلبه مرّة أخرى . هذه المرة كانت يقظة الموءودة تامة .. ولم يحاول أن يرقدها ، ولا حاول أن يهيل عليها الثرى ، بل تركها تشرئب بعنقها لتهتف به :

ـــ من أجلى أنا سر فى الطريق .. مهما وأدتنى ، ومهما أنكرتنى ، فأنا الدافع وأنا الهدف .. بعد أشهر سترتدى حلتك ذات الشريط الأحمر والسترة المغلقة « الياقة » .. ستكون وسيما .. حتى لا أكاد أميز فيك الغلام المعفّر الذى رقد أمام الترولى وأنقذ حياتى ، وبعد ثلاث سنوات ستكون ضابطاً ، كما كان أبى .. سنقف أنا وأنت على قدم المساواة .. لن يكون أحدنا فى القمه والأخر فى الحضيض .

وغادر الصبى « الطبليّة » ، وقد انهار السد القائم ، وتدفقت فى نفسه الأحلام الحلوة والأمانى العذبة .

---

(٧)

خطاب توصية

فى صبيحة اليوم التالى كان الأب يغادر الدار مغرقاً فى الصمت. . إلا من أنفاس هادئة تتردد فى حناياه ، وعبر بضعة الأكواخ المجاورة لداره ، وسار على الطريق المحاور للترعة متجهاً صوب القصر ، ووصل إلى الباب الخلفى المجاور للسوبة ، والذى تعوّد الدخول منه ، واتجه إلى كشك خشبى تجمع أمامه البستانيون والأنفار والصبية ، وحيا الجمع ، ثم أخذ يوزع الأعمال عليهم قائلا :

ــ لابد اليوم من إتمام تغيير الطمى ، سنبدأ بالأحواض الغربية .. خذ معك أربعة أنفار يا ريس عبد الظاهر .. أو خذ ستة حتى ينتهى العمل بسرعة ، وابدأ بنقل الطمى القديم من الأحواض ، وافرشوه فوق النجيل المجاور ، افرشوه جيداً حتى لا نضطر أن نعيد تسويته مرة أخرى ، وبعد ذلك انقلوا إليها الطمى بوساطة عربة الترووللى من الكوم الموجود عند الباب الذى بجوار الترعة .

ثم التفت إلى رجل آخر وقال :

ــ وأنت يا أبا خليل خذ نفرين وشقرف أحواض الداليا ، فقد تكاثر فيها السعد .

وأجابه الرجل :

ــ كنت أنوى أن أقص السور الشرقى ، فقد تكاثفت الدرنتة وتكاد أطرافها تقلع العيون .

ــ إذن فاذهب لقصّها واترك الشقرفة .

وهكذا استمر « عبد الواحد » فى توزيع الأعمال ، وانتشر رجاله بين أرجاء الحديقة المتسعة ، بفئوسهم وغلقانهم ومقصاتهم وشقارفهم ، والرّيس يجول

بينهم حتى استقر به المقام فى السوبة ، متنقلا بين أصص « القراولة » التى نقلها حديثاً من الكوبات الصغيرة إلى القصارى الكبيرة ٢٥ .

وعندما قربت الساعة من التاسعة .. اتخذ طريقه إلى مكاتب الدائرة ، وقد بدت عليه سيماء الجد والتفكير .

كان يدير فى رأسه الطريقة التى يحدث بها الأمير ، يجب أن يختار الوقت المناسب لكى يطلب طلبه .. إذ يتحتم أن يكون الأمير على حال من الرضا تسمح له أولا بالإصغاء وثانياً بالقبول ، ورضا الأمير عليه فى هذا الوقت من العام متعذر . إذليس هناك ما يسببه ، فمعظم الأحواض خالية من الزهور ، وليس لدى « عبد الواحد » ما يستطيع أن يباهى به ، أو يرضى به نفس الأمير ، بل إن لقاء الأمير فى هذا الوقت من العام أمر صعب ، فمروره على الحديقة لا يكون إلا فى أوقات متقطعة ، غير محددة ، ولا معروفة ، وهو وشيك السفر إلى قصره فى الإسكندرية ، ويعلم الله إن كان سيعود قبل موعد القبول أم سيبقى فى الإسكندرية حتى أكتوبر .

إن عليه أن يفعل شيئاً قبل سفر الأمير .. لا بد أن يقوم بعمل حاسم خلال هذا الأسبوع .. أو على الأصح خلال هذا اليوم .

وإذا كان لقاء الأمير متعذراً .. فعليه أن يوسط لديه أحداً ممن يلقونه بسهولة وفى أى وقت يشاءون .

ومن أقدر على ذلك سوى إبراهيم افندى ناظر الدائرة ؟ إنه رجل طيب وهو يحب « عبد الواحد » ، وكان من أول مهنئيه بنجاح ولديه ، وهو من أقرب الناس إلى الأمير ، ويستطيع أن يلقاه وقتما شاء وحيثما شاء .

ووصل « عبد الواحد » إلى مكاتب الدائرة ، وحيا الخفير ، وسأله عن إبراهيم افندى فأنبأه أنه فى حجرته .

وكانت مكاتب الدائرة تشغل بضع حجرات أرضية ، فى ركن قصى من أركان الحديقة المتسعة ، لها مدخل يفضى إلى الشارع وآخر يفضى إلى الحديقة .

ومرّ الرجل بمكاتب الموظفين محيياً حتى وصل إلى حجرة إبراهيم افندى ، فطرقها طرقات خفيفة مترددة ، وسمع صوت الرجل يصيح به من وراء الباب :

ـــ ادخل ...

ودفع « عبد الواحد » الباب ، وتقدم إلى مكتب الرجل الذى كوّمت عليه الدوسيهات والأوراق وشد على يده محيياً .

ورد « إبراهيم » على تحيته مرحباً :

ـــ أهلا .. أهلا .. كيف حالك يا ريّس عبد الواحد ، تفضل اقعد . خير إن شاء الله .

وجلس « عبد الواحد » ، وأخذ يفرك كفيه .. وقد أسقطهما فى حجره ، وصوّب نظره إلى قدمى إبراهيم افندى الباديتين من أسفل المكتب ، وبعد فترة صمت استعاد فيها رباطة جأشه قال :

ـــ لى رجاء عندك يا إبراهيم أفندى .. أخشى أن أثقل عليك به .

ـــ قله يا ريس عبد الواحد .. ليس هناك ما يثقل منك .. فأنت رجل طيب .. لاترجو إلا الخير .

ـــ كنت أود أن تتوسط لدى أفندينا حتى يكلم أحداً من ذوى الشأن لقبول ابنى فى الكلية الحربية .

ورفع الرجل وجهه عن الدوسيه الذى ثبت عليه بصره ، ولم يستطع أن يخفى الدهشة التى بدت عليه ، ومد يده فخلع منظاره وتشاغل بمسحه ، وأخيراً قال متسائلا فى استنكار :

ـــ الحربية .. الحربية .. هكذا مرة واحدة ؟!

وبدا الارتباك على وجه الأب ، المغالى فى تقدير قيمة ابنه .. وزاد من طأطأة رأسه ، ولم يعرف كيف يجيب .

وأردف « إبراهيم » فى صوت أكثر رقة وأقل استنكاراً :

ـــ الحربية يا ريّس عبد الواحد لا تقبل إلا عدداً محدوداً .. إنها ليست لنا ولا

لأبنائنا .. لماذا ترهق نفسك من أمرها عسراً .

ورفع « عبد الواحد » رأسه وازدرد ريقه وأجاب فى تؤدة :

ـــ نحن نحيا لأولادنا يا إبراهيم أفندى .. لا بد لكل نبت من تربة يمتص منها غذاءه ، ومادمنا أنبتنا نبتاً فلا بد أن نكرس أنفسنا لإنمائه ورعايته .. إن كل جهد نفعله يجب أن يكون من أجلهم .. ونحن لا نطلب منهم رد جميل .

وتمتم إبراهيم افندى فى اعتذار :

ـــ معك حق يا ريس عبد الواحد .. سيكون أولادك إن شاء الله .. رجالا كباراً ، ولكنى فقط أرى أن مسألة الحربية هذه تكاد تكون مستحيلة .

ـــ وما وجه الاستحالة فيها .. لو أن أفندينا رجا أى واحد من أولئك الذين بيدهم الأمر .. لما تأخروا فى قبوله .

ـــ أجل .. لو أنه رجا .. لو ...

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

ـــ و .. ولكنه لن يرجو .

ـــ لماذا ؟!

ـــ أنا أعرفه جيداً .. أعرف كبرياءه و « عنطزته » وأنانيته .. هو لا يرجو أحداً .. من أجل أحد . لا فائدة .

ـــ لنحاول .

ـــ لا فائدة يا ريس « عبد الواحد » لا تكن لحوحاً .. إنى واثق أنه سيثور لو عرف أنك تفكر فى هذا .. وأنك تود أن يكون ابنك ضابطاً . أنت لا تعرف كيف يحتقرنا هؤلاء الأمراء .. إننا فى نظرهم أداة لخدمتهم ، ولولا حاجتهم إلينا لما ارتضوا ببقائنا فى أرضيهم لحظة واحدة .. إنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً .. أننا نوع من الدواب التى لا تساق إلا بالكرابيج ، وهم يكرهون منا أننا نتخذ صفات الآدميين ، وأننا نفكر ونفهم .. وأن لنا مطالب فى الحياة ، ولهذا يفضلون علينا الدواب .. إن كلابهم وخيولهم أعز عليهم منا .. وأؤكد لك أنه أسهل علىّ

إدخال ابن الفرس الجديدة فى الكلية الحربية من أن أرجوه إدخال ابنك أنت ، مفهوم يا ريس ؟

وأطرق الريس « عبد الواحد » ، وأطلق تنهيدة أسى لم يستطع كبتها ثم قال وهو يهم بالنهوض :

ـــ مفهوم يا إبراهيم افندى .. أكثر الله خيرك .. لا تؤاخذنى فيما أثقلت عليك به .. متشكر جداً .

وتقدم إلى المكتب ماداً يده مودعاً .

وأحس إبراهيم أفندى ـــ رغم أنه لم يقل غير الواقع ـــ أنه أساء إلى الرجل ، وأنه كان جافاً فى صراحته إلى حد آلمه ، وأنه كان يستطيع أن يرده بخير من هذا ، وأن يفهمه بطريقة أرق .. وألا يقضى على آماله الطيبة ومطامحه السامية هذا القضاء القاسى ، ولم يجد بداً من أن يلاطف الرجل ويخفف من ألم الصدمة التى أنزلها به ، فقال وهو ما زال ممسكا بيده :

ـــ اجلس قليلا يا ريس عبد الواحد .. دعنى أطلب لك فنجاناً من القهوة .. لقد شغلنا عنها بالحديث .. اجلس .

متشكر يا إبراهيم أفندى .. لا بد لى من العودة السريعة . أنت تعرف الأنفار .. إن لم أقف على أيديهم أفسدوا كل شىء ، وقد تأتى الطوبة فى المعطوبة ويمر أفندينا .

ـــ اجلس برهة .. إن لدىّ طريقة يمكننى معاونتك بها فى مسألة الحربية .

ـــ كيف ؟

ـــ إنى أعرف عبد الجليل افندى باشكاتب المدرسة .. كنا زملاء فى السودان قبل نزول الجيش .. وما زال الود بيننا قائماً حتى الآن ، وهو رجل طيب جداً .

ـــ ولكن أتظن أن فى يده شيئاً ؟

ـــ من يدرى ! إنه باشكاتب المدرسة ، وهو بلا شك على صلة بمديرها وكبار ضباطها ، ويستطيع أن يساعدنا فى التوسط لديهم . اجلس حتى أكتب

لك خطاب توصية يقدمه ابنك إليه عند تقديم أوراقه ، وذكرنى يومذاك أن أحدثه بالتليفون .

وجلس عبد الواحد وهو يتمتم :

ــ أكثر الله خيرك .. ومد فى عمرك .

وأخذ إبراهيم افندى فى كتابة الخطاب ، ثم وضعه فى ظرف وألصق حافته ومد به يده وهو يقول :

ــ شيء خير من لا شيء يا ريس عبد الواحد ، وهو كل ما نستطيع .

ــ فيه القبول إن شاء الله .. كل شيء منك مبارك .

ــ من يدرى فقد يضع سرّه فى أضعف خلقه .

ــ بل أفضل خلقه .. إن أفضالك علينا لا تنسى .. السلام عليكم .

ــ وعليكم السلام ورحمة الله .

وغادر الرجل المكتب ، بعد أن وضع الخطاب فى محفظته بعنايه كأنه يضع تميمة مقدسة وهو يحدث نفسه :

ــ مقبولة بإذن الله .. مقبولة بإذن الله .

واتخذ طريقه يستحث الخطا عابراً الممر الخلفى المفضى إلى الحدائق وأخذ يلقى ملاحظاته على العمال فى هيئة صيحات استحثاث يوزعها يمنة ويسرة :

ــ شد حيلك يا ريس عبد الظاهر .

ــ الشد على الله يا ريس .

ثم يصيح بآخر :

ــ أخرج السعد من جذوره يا محمد .

ــ حاضر يا ريس .

ولثالث :

ــ رجالك نائمون يا عبد الجليل . الظاهر أننا سنقضى الموسم كله فى تغيير طمى الأحواض .

ـــ لا تخف يا ريس .

ـــ ما زالت عندنا الأحواض الشرقية .

ـــ كله يهون بنفسك .

وهمّ بإلقاء صيحة رابعة عندماأبصر جوادين قد برزا من منحنى الطريق وأقبلا نحوه ، وكان يمتطي أحدهما « علاء » ابن الأمير وتمتطي الآخر « أنجى » ، وكان الجواد الأول يتصبب عرقاً وقد ابتل جسده وبدت حول فمه رغوة بيضاء ، مختلطة بخيوط حمر ، هي آثار دماء تنزف من فم الحصان .

وسمع « أنجى » تحدث أخاها :

ـــ لقد كدت تقتله .

ـــ إنه عنيد يستحق القتل .

ـــ إنه عنيد لأنك تعانده .. لم يكن هناك داع لشكمه حتى يجرح فمه .

ـــ ليس هذا شأنك .. إنه ليس حصانك .

ـــ ولكنه مخلوق حي .. حرام عليك .

ـــ أنت لست قيّمة على الأحياء .

ـــ سأقول لأبي كيف عدوت به حتى جعلت جسده يتصبب عرقاً ، وحتى جرحت فمه ، وأوشك أن يسقط من فرط الإعياء .

ـــ قولي ما تشائين .. إنه حصاني .

واقترب الاثنان من الرجل وقد وقف على جانب الطريق بادي الخشوع ، وبدت « أنجى » كالزنبقة البيضاء في فجر ندى ، رقيقة السمات ، نبيلة الملامح ، وقد امتطت جوادها بسرج جانبي خاص بالآنسات ، وبنطلون ركوب « جدبور » من الكستور المضلع ، وحزام سماوي عريض في وسطها ، وقميص أبيض نمّ عن صدر به برعمين يوشكان على التفتح .

وسار الصبي في طريقه ، وتوقفت الصبية عندما وقع بصرها على الرجل الواقف في خشوع ، وافتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة وحيّته بإيماءة من رأسها

قائلة :

— صباح الخير يا ريس .

— صباح الخير يا فندم .

— كيف حالك ؟

— الحمد لله .

— وحال زهورك ؟

— طيبة بأنفاسك .

— لقد أبصرت زهرة من الداليا « تشانجا » بنفسجى مقلم بأبيض جميلة جداً .. ألديك منها كثير ؟

— الحوض المجاور للفراندا البحرية كله منها .. عندما تتفتح كلها سيكون منظرها رائعاً ، ولدينا أيضاً نوع بمبة مقلم بأبيض ولون ياقوتى صغير من الداليا « البومبون » .. لقد أحضرنا كمية كبيرة من البطاطس الطازجة من هولندا .

— إذن أستطيع أن أقطف ما أشاء للزهريات ؟

— طبعاً يا سيدتى .. الحديقة كلها تحت أمرك .

— أنت تقول هذا ، وأبى يحرّم القطف .. قائلا إنها أنواع نادرة والقطف يضعف العود .

— لا يا سيدتى .. تستطيعين أن تقطفى من الداليا ما تشائين .

— متشكرة يا ريس عبد الواحد .

وهمت بمعاودة السير ، ولكنها توقفت مرة ثانية متسائلة :

— وكيف حال أولادك ؟

— الحمد لله .. لقد نجحا فى الامتحان .. وحصلا على البكالوريا .

— حقاً ؟؟ مبروك .. لماذا لم تقل لى حتى أهنئك وأهنئهما ، لقد نجحت أنا أيضاً ، وأصبحت فى السنه الثانية فى كليه الأمريكان .

— مبروك يا سيدتى .. إن شاء الله نجاح دائم .. وماذا فعل سيدى « علاء » ؟

ـــ لقد رسب .

ـــ شيء يؤسف له .

ـــ من ناحيته هو لم يأسف كثيراً .. إنه لا يأسف لشيء أبداً ، وكيف حال ابنك « على » الذى لا يحدث الناس ؟

ـــ إنه بخير والحمد لله ، إنه يريد أن يدخل المهندسخانة ، وأنا أود أن أدخله الحربية .

ـــ معك حق .. إنى أحب منظر الضباط بملابسهم الرسمية ، وأعتقد أنه لا بد أن يكون وسيما .. إنى ما زلت أذكره .. يوم أن وقف فى طريق التروللى وأنقذنى من موت محقق .. أذكر شعره الأسود الملقى على جنبيه ورأسه المدفون بين كتفيه ، وساقيه المليئتين بالخدوش ، وثيابه المعفرة . لن أنسى منظره أبداً .. عندما رفض النهوض أو الرد علىّ ، أظنه لن يخجل من مخاطبتى وهو فى حلته الرسمية .. لأنى لا أعتقد أن ببنطلونه ثقوباً .

وضحكت الصبية وضحك الرجل ، ومرّ بخاطره أن ينتهز فرصة تلطفها معه فيلقى إليها برجائه لتوسط الأمير فى إدخال ابنه المدرسة الحربية ، وهمّ بالحديث عندما أبصر بأخيها قد عاد ، وعندما ألقت هى إليه التحية معاودة السير معه ، أحس بخيبة أمل شديدة كأن فرصة العمر قد ضاعت من يده .

(٨)

كلام ليِّن

مر شهران وأقبل سبتمبر .. وحل موسم التقديم للمدارس .. والاستعداد لبدء عام دراسي جديد . وانتهى « على » و « حسين » من إعداد أوراقهما المختلفة ، ما بين تحقيق للشخصية وشهادات لحسن السير والسلوك ، والجنسية وغيرهما .. وتقدم « حسين » بمجموعة أوراقه إلى كلية البوليس ، وتلقاه ضابط الكرة ورئيس الفريق بالترحيب الشديد .. وأكدوا له ضمان القبول ما دام ينجح فى الكشف الطبى .

وتقدم « على » بمجموعتين من الأوراق : الأولى إلى المهندسخانة .. وكان مجموعه يضمن له فيها قبولا مؤكداً .. والثانية إلى المدرسة الحربية .. وكان يشعر أن تقدمه إليها كان تقدماً أرضى به رغبة أبيه .. ورغبة أخرى خفية متوارية .. تلم به إلمام طيف بأحلام الدجى .. كلما احتواه المرقد وأغمض عينيه عن واقعه .. وعن أعمدة السرير الحديدية .. والسقف المشقق وأخيه المتقلب بجواره .. وأغفى ذهنه المادى ليوقظ ذهنه الحالم .. ويوقظ معه الموعودة فى القلب .. ويهيم وإياها فى عالم من صنع أوهامه .

كان يرقد ويغمض عينيه .. ويرى نفسه تقدم بخطاب التوصية إلى عبد الجليل أفندى .. ويصوّر نفسه كيف يبدو عبد الجليل أفندى .. ويتخيل مكتبه وكل ما حوله .. ثم يرى عبد الجليل أفندى وقد تقدم به إلى مدير المدرسة ، فأبدى هذا إعجابه به ، ويرى نفسه قد قبل فى كشف الهيئة ، وفى الكشف الطبى .. ثم أعلن بالقبول النهائى .

وكل هذا منطقى محتمل معقول .. نتيجة لما فعله فى الواقع .

وبعد!!

إنه يعود إلى بيته بعد غيبة ، وقد ارتدى الحلة الكحلية ذات الياقة المغلقة والبنطلون ذا السيبيا والشريط الأحمر .

وتراه هى .

ولكن أين !! ليس فى البلدة مكان ملائم لكى يلتقيا .

أين تراه ؟! تراه فى أحد المحلات العامة أو فى إحدى دور السينما .. أو فى الأوبرا !!

ويستمر فى أوهامه .. حتى يلم الكرى بجفنيه .

وبهاتين الرغبتين .. رغبته فى إرضاء مطامع أبيه .. ورغبته فى إرضاء مطامع أحلامه .. سار فى شارع الخليفة المأمون يحمل دوسيه أوراقه ، ومن بينها خطاب التوصية من إبراهيم أفندى ناظر الدائرة ، إلى عبد الجليل أفندى باشكاتب المدرسة .. خطاب التوصية الوحيد .. الذى كان يطلب منه أن يقاوم الحشد الهائل من خطابات التوصية الأخرى من الوزراء والكبراء والأمراء وكبار الضباط .

أجل .. كل عدته فى المعركة .. كان رجاء من كاتب إلى كاتب .

وهزّ « على » رأسه فى يأس .. وواصل السير .

كان عليه أن يقطع المسافة من مزلقان العباسية إلى كوبرى القبة سيراً على الأقدام ، فقد ركب الترام من المحطة إلى العباسية .. و لم يعد لديه من النقود سوى ما يعيده من العباسية إلى المحطة .. ومن المحطة إلى بيتهم .

إن مليمات الترام الأبيض ،قد تنفع فى اليوم الأسود ، فليوفرها ويمشى .

وكانت الساعة تبلغ الحادية عشرة .. والريح راكدة .. وأوراق الشجر ثابتة لا تهتز ، وكل ما فى الكون يبدو كأنه قد كتم أنفاسه ، عدا الشمس التى أرسلت أنفاسها الحارة فى سياط تلهب الوجوه والأقفية .

وبطريق الخليفة المأمون عند بدايته من العباسية صف من النخيل يحيط به

صفان من شجر الفيكس المغروس على شريط من نجيل ، والذى كان يمنح المارة فى هذا الهجير وقفات رقع من الظل أخذ « على » يلوذ بها ، القطعة تلو القطعة حتى بلغ مفترق الطرق أمام باب السوارى حيث ينقطع خطا الفيكس وينحدر خط الترام الأبيض السائر على اليمين بجوار الأسوار العالية لثكنات العباسية إلى منتصف الطريق بين صفين من نخيل ذى ظلال خفيفة متفرقة لا تقى من لسعة الشمس .

وكان عليه أن يقطع المسافة الباقية إلى المدرسة والشمس مسلطة على رأسه والعرق يتصبب من جبينه ، وقدماه تغوصان فى أتربة الرصيف الذى لم يمتد إليه أسفلت التنظيم بعد .

وأحس أن الشمس والتراب قد أتت على البقية الباقية من الوسامة الطبيعية التى وهبها الله له .. والتى يتغلب بها إلى حد ما على رثاثة ثيابه وعلى مظاهر الفقر البادية عليه ، وسار فى طريقه وقد ملأه اليأس وضاعت من نفسه الثقة ماراً بأول بناء عسكرى صادفه بعد السوارى كتب عليه « قسم القاهرة » ثم أخذ فى الاقتراب من باب المدرسة وأخرج منديلا جفف به عرقه ، ثم مسح حذاءه فى أسفل بنطلونه ، القدم تلو الأخرى ، كما كان يفعل فى المدرسة الابتدائية عندما كان ضابط المدرسة يقوم بالتفتيش على الأحذية .

ووقف أمام الباب الخشبى المنخفض الذى وضع أمامه مدفعان ضخمان علاهما الصدأ . وعلقت على أحد جانبيه لافتة نحاسية كتب عليها « المدرسة الحربية ».

ونظر إلى العسكرى الأسمر الخشن .. وأحس من هيبة المكان ومظاهر القسوة البادية فى كل حجر من حجارته بيأس شديد .. وود لو عاد أدراجه مسلماً ساقيه للريح .

ولكن قبل أن يأتى بأى حركة جديدة . سأله العسكرى فى صرامة وقد وجده مسمراً فى مكانه لا يدخل ولا ينصرف :

— ماذا تريد ؟

— عبد الجليل أفندى الباشكاتب .

ـــ إنه فى الداخل .. على يدك اليسرى .

وتقدم « على » محاولا طاقته أن ينفض عن نفسه غبار اليأس والتهيب . وعبر فناءً صغيراً قامت على جانبيه بضع أشجار عتيقة من شجر « الجوكورندا » ووقف فى شرفة أرضية مقبية الفتحات قائمة فى مدخل البناء ، فى نهايتها من الناحية اليسرى باب ذو مصراعين من السلك كتب عليه « المدير » ، يواجه بابا آخر فى الناحية اليمنى كتب عليه « الأركانحرب » .

وفى الناحية المواجهة ممر قصير يفضى إلى فناء رحب تطل عليه طرقة أرضية بطول البناء .

واتجه فى الطرقة إلى يساره ، كما أنبأه العسكرى ، ومرّ ببضعة أبواب أبصر على أحدها لافتة « الباشكاتب » .

وتردد أمام الباب برهة حتى مرّ به أحد الجنود فسأله :

ـــ أهنا حجرة عبد الجليل أفندى ؟

وهزّ العسكرى رأسه وهو سائر فى طريقه ، ووقف « على » برهة أمام الباب يلتقط أنفاسه اللاهثة ، ثم طرق الباب طرقات وجلة مترددة وأتاه صوت من الداخل يقول :

ـــ تفضل ..

وتفضل .. فى خطى متئدة .. ونفس هيابة .. وكانت النوافذ السلكية تحجب عن الحجرة ضوء النهار ، وكان مصباح الكهرباء المدلى فوق المكتب يعاون الضوء المتسلل من فتحات السلك فى تبديد الظلمة .

وكان قد وطن نفسه على تلقى كل ما يحتمل من خشونة المقابلة وجفوة الصد ، ولكن منظر الرجل وطيبته البادية بعثت الطمأنينة فى نفسه وأزالت عنها الكثير من الرهبة والخشية .

وتساءل الرجل فى صوت رقيق :

ـــ خير يا بنى ؟

وازدرد « على » ريقه ، وألقى بالتحية وهو يتقدم نحو المكتب ببطء :

— السلام عليكم .

— عليكم السلام ورحمة الله .. تفضل . أى خدمة ؟

ووقف أمام المكتب ومدّ يده بدوسيه الأوراق ..

و لم يمد الرجل يده لأخذ الدوسيه بل أشار إلى الحجرة المجاورة قائلا :

— سلمها لمكتب الكتبة .. لعبد القادر أفندى .. أو أى موظف تجده هناك .. فى أول مكتب على يدك اليسرى .

وعندما أبصر التردد البادى على وجهه أردف متسائلا :

— أليست هذه أوراق تقديم ؟

— أجل .

— اذهب بها إذن إلى هناك وسيفحصونها ثم يتسلمونها منك بعد التثبت من أن طولك لائق .

— ولكن !!

— لكن ماذا ؟

— إن معها رسالة إليك .

— إلىّ أنا ؟

— أجل .. من إبراهيم افندى .

— إبراهيم افندى مَنْ .

— إبراهيم افندى ناظر دائرة البرنس إسماعيل .

— آه .. إبراهيم جاد المولى .. أهلا .. وسهلا .. تفضل يا بنى .. اجلس .. كيف حاله ؟

— الحمد لله بخير .

— لقد مضى عامان على آخر مرة التقينا فيها .. فى القطار الذاهب إلى الفشن . والله زمان يا إبراهيم ، والله زمان .. كانت لنا أيام فى السودان سقى الله

عهدها .. إن أيام الصبا لا تعوّض .. وكيف صحته الآن ؟! لقد كان يشتكى من الكبد آخر مرة لقيته فيها .. لعله تحسن ؟

ولم يكن « على » واثقاً من أن الرجل قد تحسن لا كثيراً ولا قليلا .. بل لم يكن لديه أقل فكرة عن مرضه بالكبد ، ولكن كان عليه أن يجارى الرجل فى حديثه ، وأن يثبت له أن الرابطة بينه وبين إبراهيم افندى قوية متينة .

وعاد الرجل يواصل ثرثرته وقد وضع دوسيه الأوراق أمامه .

وفتح الدوسيه ثم أخرج المظروف الصغير المطبوع عليه أكلشيه « دائرة الأمير إسماعيل » والذى كتب عليه بالحبر : « حضرة المحترم محمد أفندى عبد الجليل باشكاتب المدرسة الحربية » .

وفضّ الرجل الرسالة ، ثم قرأ أسطر الترحيب التى سطرها إبراهيم أفندى والتى قال فيها إن « علياً » قريب له ، وإنه يرجو أن يفعل من أجله كل ما يستطيع ، وهزّ الرجل رأسه قائلا :

ـــ حاضر .. عينىّ الاثنتين .. قل له سأبذل كل ما فى وسعى .. إن القبول مسألة عسيرة جداً .. ولكن سنحاول ما نستطيع .. والله المستعان .. من حسن الحظ أنهم قد زادوا العدد المطلوب هذا العام ، لقد أخذنا فى العام الماضى عشرة ، ولكن من المحتمل أن يرفع الرقم فى هذه الدفعة إلى ثلاثين ، وأعتقد أن الفرصة حينئذ ستكون أكبر .

ودقّ الرجل جرساً أمامه ، وأحس « على » من كلام الرجل بسكينة عجيبة .. لقد أقرأه رداً جميلا ومنحه أملا أجمل ، ولو لم يفعل له شيئاً بعد ذلك .. لكن ما فعل براً به وعطفاً عليه .

وتذكر قولا قرأه فى كتاب أدب الدنيا والدين :

« بنــــى : إن البر شيء هين وجــه طلــق وكــلام لين »

أجل والله .. إن البر شيء هين .

وأقبل أحد الكتبة ، فسلمه الرجل الدوسيه بعد أن احتفظ بخطاب التوصية

وقال له :

ـــ فض هذه الأوراق وتسلمها منه بعد قياس طوله .. إنه يبدو فارع الطول وهو لا شك أطول كثيراً من الحد المطلوب ؟

ثم وجه القول إلى « على » :

ـــ أظن كشف الهيئة قد تحدد موعده فى الخامس عشر من هذا الشهر .

وقلب مفكرة أمامه ثم أردف :

ـــ أى يوم السبت بعد القادم ، والمقبولون فى هذا الكشف سيجرى عليهم الكشف الطبى .. إنه كشف أولى للتصفية .. إن العدد المتقدم كبير جداً .. بلغ الآن ما يربى على الستمائة .. وليس من المعقول أن يجرى الكشف الطبى على كل هؤلاء .. إن شاء الله يكون لك نصيب .

ـــ إن شاء الله .

ـــ أما الكشف الطبى فنتيجته عليك وحدك .. فشد حيلك حتى تتقدم لكشف الهيئة الأخير .

ـــ الشدة على الله .

هذا الرجل حسن النية جداً .. كأنما قد ضمن قبوله فى الكشف الأول حتى يرجوه أن يشد حيله فى الكشف الطبى .

ما كل هذه السدود والحوائل والكشوف المتعددة ؟ والله إن دخول الجنة أيسر سبيلا !!

كشف هيئة أول .. ثم كشف طبى .. ثم كشف هيئة آخر .. وفى النهاية رفض أكيد .

لماذا لا يوفر على نفسه التعب من أول الأمر ؟

أليس من الأفضل أن يخبر الرجل أنه قد عدل عن رأيه .. وأنه قرر سحب أوراقه والاكتفاء بالتقديم إلى المهندسخانة ؟

أجل .. أجل .

ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، بل سلم على الرجل الطيب الذى هز يده بشدة وهو يقول :

ـــ سلم لى على إبراهيم أفندى .. قل له إنى أود أن أراه فى أقرب فرصة .. إنى ما زلت أجلس فى مقهى شارع خيرت .. نفس جلستنا القديمة .. لقد أوحشتنى سهرتنا فيها .. قل له إنى سأجهز له كوباً مترعاً من عصير القصب الذى يحبه .

وغادر « على » المدرسة وهو يشعر أنه قد أدى فرضاً لا بد من تأديته .. ولم يكن من السذاجة بحيث يخدعه لقاء الرجل الهاش ولا حديثه الجميل ، كل ما هناك أنه حمد للرجل الطيب أنه فوّت المرحلة الأولى بسلام .. وأنه صان كبرياءه من الهوان ، ووقاها من المذلة ، فلم يهمله ، ولم يسىء استقباله ، وكل ما يرجوه أن تمر بقية المراحل على خير كما مرّت هذه المرحلة .

وعاد إلى البيت فنقل إلى أبيه كل ما حدث .. وكان حتما على أبيه أن يخدع بما يخدع به هو ، فقد وجد فى حديث الباشكاتب ما يدفع الأمل فى نفسه ، إذ كان شديد التفاؤل ، وكان يعتقد أن الباشكاتب هذا لا بد وأن يكون له فى المدرسة صولة وسلطان .

وحلّ يوم كشف الهيئة الأول ، ومن الفجر استيقظ كل من فى الدار وأحاط الجميع بعلى ، كأنه عريس فى ليلة عرس ، وكرّس كل ما فى الدار من ملابس لكسوته .. وكانت الأم قد ولفت له بذلة من خير الجاكتات وخير البنطلونات المنتقاة من ملابس أخيه ، وقامت بتنظيفها وكيها ، وكان « على » قد رتق الفتق الذى فى مؤخرة الحذاء .

ووقف « على » يربط الكرافتة التى قدمها إليه حسين ، وأخذت « بهية » الصغيرة تنظف الطربوش بكمها ، وانهمكت الأم فى تحضير لقمة يغير بها ريقه حتى لا يذهب إلى الكشف ـــ على حد قولها ـــ على لحم بطنه .

وأخيراً اكتمل لبسه ، ووقف أمام المرآة المشروخة يلقى على نفسه نظرة فاحصة ، ثم ابتسم لمن حوله مازحاً :

ـــ ما رأيكم ؟

وقال حسين وهو يضحك :
ـــ لا ينقصك غير المونوكل وتصبح أفندينا .
وقالت « بهية » فى براءة :
ـــ والله إنك لخير منه .
وقال الأب فى لهجة جازمة :
ـــ أعمى ليس عنده نظر .. الذى لا يقبلك فى كشف الهيئة .
وأقبلت الأم حاملة طبق الفول والأرغفة :
ـــ ربنا يقيك شر العين .. ولا يخيب لك رجاء .

وغادر « على » البيت وفى صحبته أخوه ، وذهبا إلى محطة سكة الحديد وفى وقفته على الرصيف ، بدت جدران القصر وراء أسواره العالية ، وقد تساقطت الأسهم الحمر عليها من وراء الأفق الشرقى ، وهبت عليه ريح الصباح رطبة ندية تحمل خليطاً من أعشاب الحقول وورود الحدائق .. وسرى به الذهن مع هبات النسيم وأشعة الشمس فأوصله إلى مضجع وراء الأسوار ، رقد عليه صدر يعلو ويهبط فى سكينة ، وأنفاس تسرى فى هدوء .. وأحس فى عبير النسيم السارى هبات الأنفاس الزكية .. وملأ به صدره كأنه يخشى عليه من التبديد والضياع .

أهذا هو كل حظه منها .. أوهام .. وأوهام .. وأوهام .. نسمات سارية .. وصور فى أحلام .. وإحساس لا ينى .. وشعور لا يخمد .. وكلما وأدها فى قلبه ازدادت منه تمكناً وفيه استحكاماً !

وعلا صفير القطار فاتخذ هو وأخوه محلهما على مقعدين متقابلين .. وأخذت أسوار القصر تمر به من النافذة وتتباعد .. وفى جوفها .. الشبح الجميل .. والأمنية العزيزة .

راقدة فى سكينة لا تكاد تحس به .. أو تشعر بوجوده .

ويحه وويحها !

أيكون نصيب أكثر الناس إحساساً بك .. ومعرفة لقدرك .. هو أن يبقى منك فى عالم الإنكار .. والجحود .. والإهمال .. والنسيان .

(٩)

الدرج يتناقص

وصل الأخوان إلى المحطة .. واستدعى كل منهما ذهنه من جولته الهائمة فى سماء الأمانى ، وأخذ ترام ٣ إلى العباسية ، وهناك افترق كل منهما ، فاتجه « على » إلى كوبرى القبة ، وذهب « حسين » إلى كلية البوليس للسؤال عن نتيجة الكشف الطبى ، على أن يعود لانتظار أخيه حتى ينتهى من كشف الهيئة ، ثم يعودان معاً إلى الدار ..

وصل « على » إلى المدرسة ، واجتاز الباب الذى وقف أمامه الجندى وتكأكأ حوله حشد من أهالى الطلبة الذين اصطحبوهم إلى الكشف ، وكان الطلبة قد بدأوا يفدون إلى المدرسة جماعات وفرادى ، وسار « على » مع جموعهم المتلاحقة ، فاجتاز الممر الذى أفضى به إلى الفناء المتسع والطرقة المقوسة الفتحات حيث مكتب الكتبة والباشكاتب ، وكان قطيع الطلبة قد احتشد فى الطرقة والفناء ، وبعد فترة أقبل أحد الكتبة ، وأخذ ينادى الأسماء ، وسار هو مع الطلبة الذين نودى على أسمائهم وأخذوا فى الصعود إلى سلم جانبى حجرى أكلت نعال الأقدام حروف حجارته فبدت مقوّسة منحوتة من الوسط . وفى نهاية السلم سار يميناً فى الطرقة التى تعلو الطرقة السفلى ، وأخذ يمر بنوافذ وأبواب عنابر النوم ، ومرت به أول لافتة كتب عليها : « الصنف الثالث » ولم يعرف ماذا يكون هذا الصنف ، ولكنه أدرك أنه لا بد أن يكون بلغة العسكرية كناية عن مجموعة أو جماعة . ثم مرت به لافتة أخرى كتب عليها « نادى الطلبة » ، أخذ القطيع ينساب إلى بابها ، ووجد بضعة طلاب من طلبة المدرسة بسترهم البيض ، ذات الأسبلايط القصب اللامع ، المثبت فوق أكتافهم ، وبنطلوناتهم الكحلية ذات الشرائط الحمر ، وطرابيشهم الطويلة ، وأجسادهم البادية الصلابة والشدة ،

وقد أخذوا يقودون الطلبة وينظمونهم فى محلاتهم .

وكانت الحجرة رحبة متسعة .. تتكوّن من قسمين يلتقيان بزاوية قائمة عند المدخل .. وفرشت الحجرتان بمقاعد ضخمة من النوع الأسيوطى غامقة الخشب ، بيضاء الفرش ، ذات طقطوقة معدنية وضعت فى فتحة مستديرة عند مسند اليد ، وفى أركان الحجرة وضعت مقاعد خشبية صلبة الحشيات ، غير مريحة الجلسة ، وعلى أحد المناضد وضع صندوق للشطرنج ، وعلى منضدة أخرى صفت مجلات إنجليزية عسكرية .. وعلى الحائط علقت فى الصدر صورة « الملك فؤاد » وصور أخرى متشابهة ، تمثل صفوفاً متراصة من طلبة المدرسة القدامى ، ببنادقهم وحللهم الكاكية ووجوههم المقطبة التى لا تميز منها وجهاً عن الآخر .

وفى وسط الحجرة صفت « دكك » خشبية ، أخذ طلبة المدرسة يصفون عليها القطيع المتدفق على الحجرة .

واستقر الطلبة أخيراً فى مقاعدهم ، داخل نادى الطلبة وخارجه فى الطرقة المستطيلة .. وجلس هو يرقب من حوله وقد خيمت على نفسه سحابة يأس وضيق .

لو كانت له إرادة لقطع حبال الأوهام ، ونفخ فى السحب واستقر على الأرض ، حيث هو كائن ، وحيث يجب أن يكون .. ولترك كل هذا الحشا البغيض ، والبناء الموحش الرهيب ، واكتفى بالأهداف الواقعية ، التى يبصره جلية واضحة أمام عينيه .

ولكنه لا يفعل ، لأنه ضعيف الإرادة ، أو لأن تعلقه بالأمنية الوهمية العذبة ، أقوى من إرادته ، بل أقوى من كل شىء فى حياته ، أقوى .. حتى من حبه لأمه وأبيه .. بل ونفسه .

إنها أعذب ما فى حياته .

أجل ! هذه الأمنية الوهمية ، التى لا طائل تحتها ولا أمل فيها .. هى ملاذه من

صخب الحياة .. وملجؤه من وحشتها ، ومتعته فى ضيقها وشقائها ، وحلاوته فى مرارتها ، والندى الذى يبلّ به روحه ، ويندى كبده .. فى جفافها وقفرها ويبابها .

إنه مخلوق غير طبيعى .. إنه لا يلهو كغيره من الصبية ، إنه لا يجرى ،ولا يلعب كأخيه « حسين » ، ولكنه يفكر .

والأمنية العذبة هى فكرته .. أو هى أجمل ما فى فكره وأحلى ما فى ذهنه .

أبعد هذا يبعدها عن ذهنه ويذودها عن قلبه !

لا .. لا .. يجب أن يتحمل من أجلها .. من أجلها .. كفكرة .. أووهم .. يجب أن يقبل .. حتى ما يثق فى أنه لا طائل تحته ، ولا أمل فيه .

أليست هى نفسها ، مجرد فكرة .. لا طائل تحتها .. ولا أمل فيها ؟

«على عبد الواحد » .

وانطلق الاسم فى أذنيه يصيح به أحد طلبة المدرسة ، فأخرجته الصيحة من شروده ، وصاح مجيباً :

ـــ أفندم .

ثم هرول متجهاً إلى خارج الغرفة ، حيث قاده أحد الطلاب إلى ضابط ضخم الجسد ، أحمر الوجه ، كثير الصخب ، عالى الصوت ، صاح به متسائلا :

ـــ على عبد الواحد ؟

ـــ أجل .

ـــ اعدل طربوشك .

وعدل طربوشه ، ثم تبع الضابط إلى حجرة فى نفس الطرقة كتب عليها «المكتبة » .

و لم يكن فى حالة تمكنه من فحص الحجرة ، فقد كان يشعر أن قلبه يدق دقات متوالية .. ووراءه منظر بضعة رءوس بيض ، استقرت على أكتاف حشدت فيها العلامات العسكرية اللامعة ، وياقات وضعت عليها العلامات الحمر .. التى

تبدى صاحبها كأنه قطة ربط عنقها بشريط أحمر .. ووسط هذه الرءوس البيض ، والوجوه المجعدة المتجهمة وجد وجهاً أحمر يرمقه من وراء المنظار بعينيه الزرقاوين ، ولم يستقر به المقام لحظة أمام مجموعة الوحوش الضارية .. حتى سمع صوت صاحب العينين الزرقاوين يصيح بعربية ركيكة :

ـــ بعده ..

وعند استدارته ليخرج من الحجرة ، لمح وجهاً أحس من نظراته بـرداً وسلاماً ، وجهاً أسمر طيباً ، منحه ابتسامة كانت أشبه بقطرة ماء لصاد فى حمارة قيظ .

كان وجه عبد الجليل أفندى باشكاتب المدرسة ، وقد وضع أمامه كوماً من الدوسيهات على منضدة صغيرة مجاورة للمنضدة الكبيرة التى التف حـولها الزبانية .

وخرج « على » من الحجرة ليتسلمه الضابط الضخم ، الأحمر الوجه ، ويدفعه إلى طالب من المدرسة يقوده فى الاتجاه الآخر من الطرقة ويأمره بالانتظار فى أسفل حتى ينتهى الكشف وتعلن النتيجة .

وهبط إلى أسفل من سلم قبلى مشابه للسلم البحرى الذى صعد منه واستقر به المقام فى الممر السفلى مع بقية الطلبة الذين أتموا الكشف .

ومرّ الوقت بطيئاً مملا ، وأخذت تعاوده نوبات اليأس ، وهمّ بالتسلل من وسط الطلبة والعودة إلى داره حتى أخرجه من وحدته ويأسه رفيق من رفقاء مدرسته الثانوية يدعى « سليمان زكى » ، طويل القامة ، طيب النفس ، أخذ يسرّى عنه قائلا :

ـــ ومن منا عنده أمل ، إنها مجرد محاولة يائسة .. أو تحصيل حاصل .. حتى لا يعود الإنسان باللوم على نفسه فى المستقبل .. قائلا : لو كنت قدمت ، لكنت دخلت .. لقد قدمت أنا .. لأقطع على نفسى طريق اللوم والتأنـيب فأنـا أعرفها جيداً .. عندما تقول لى فى المستقبل .. لو كنت قدمت .. سأقول لها ..

لقد قدمت وفشلت فوفرى لومك .

وضحك « على » قائلا :

ـــ إى والله معك حق .. لقد فعلنا ما علينا .

ـــ على أيه حال ، ليس لك أن تحمل هماً .. فأمامك المهندسخانة مفتوحة .. هى فى نظرى والله خير من الحربية ولا سيما لك .

ـــ أجل ! إنها لا شك من خير المدارس .. ولكن الحربية بها مغريات كثيرة ، على الأقل هذا التهافت العجيب عليها ، وعدم قبولها غير عدد محدود ، يجعل الفوز بالقبول فيها مسألة يتمناها كل إنسان .

ـــ ولا تنس البدلة .. والمدة القصيرة .. والمستقبل المضمون .

وقطعت حديثهم صيحة مفاجئة صدرت من الطرقة العليا .. صيحة من حنجرة تتضاءل أمامها جميع ميكروفونات العالم ، هى حنجرة الضابط الضخم الأحمر الوجه ، والذى عرف « على » فيما بعد أنه « أركان حرب المدرسة » .

ـــ اسمع الطلبة .

واندفع الطلبة متدفقين من الطرقة السفلية ، ومن بقية أرجاء الفنـــاء .. فتكأكأوا أسفل المكان الذى يصيح منه الرجل .

وعاد الرجل يكرر صيحته الإنذارية :

ـــ اسمع الطلبة .. لقد انتهى الكشف .. وسأنادى أسماء الطلبة المقبولين فى كشف الهيئة الأول .. وهم الذين سيجرى عليهم الكشف الطبى أما الذين لا يسمعون أسماءهم فهم غير مقبولين ، ويمكنهم الحضور غداً لسحب أوراقهم من سكرتيرية المدرسة .

وبدأ الرجل فى مناداة الأسماء بصوته الجهورى ، وحنجرته الميكروفونية ، وتوالت الأسماء على سمع « على » .. دون أن يطرق اسمه أذنه .. ودب اليأس فى نفسه .. ولكنه عزّى نفسه ، بأن فى اليأس من أول الأمر راحة من عذاب الكشف الطبى ثم الكشف الآخر .. ثم الفشل فى النهاية .. ما دام القبـول

مستحيلا .. فمن الخير أن يرفضوه من أول كشف .. إن عليه أن يحضر فى الغد لسحب أوراقة ، ثم الذهاب إلى الهندسة لمعرفة النتيجة .

— على عبد الواحد .

وانطلق الاسم من الحنجرة الصائحة الصاخبة .

غير معقول .. غير ممكن .. إنه لا شك وهم فى السمع .. أجل .. إن الأذن أحياناً تسمع الإنسان ما يشتهى ، لا ماهو سامع .

ولكن صاحبه « سليمان » شد على يده فى فرح وقال له :

— مبروك .

وفى نفس اللحظة التى هنأه فيها انطلقت صيحة الرجل باسمه فمد « على » يده إليه راداً له التهنئة :

— مبروك يا سليمان .

— الله يبارك فيك .. عقبى للكشف الطبى .. والكشف الأخير .

الكشف الطبى .. والكشف الأخير !!..

لا .. لا .. إن هذا أمل مستعص وأمنية مستحيلة .. إن مجهود الرجل الطيب عبد الجليل أفندى لن يتعدّى أكثر من هذا .. لقد استطاع الرجل مشكوراً أن يحشره بين المحظوظين فى أول كشف .. أما الكشف الطبى .. فلا أظنه بقادر على اجتياز عقباته الهائلة واختباراته الدقيقة .

أما الكشف الآخر .. فلا يقدر عليه إلا الآلهة .. أو أنصاف الآلهة .. من الأمراء والكبراء والوزراء .

على أية حال لا ضرورة لأن يعكر على نفسه صفو النجاح المؤقت فى هذا الكشف .

وانتهى الرجل من مناداة الأسماء ثم أعلن موعد الكشف الطبى قائلا :

— الساعة السابعة والنصف سيتحرك الطلبة المقبولون من المدرسة إلى المستشفى العسكرى ، يوم الثلاثاء القادم . تفضلوا .

وعند الباب التقى « على » بأخيه الذى وقف ينتظره بعد عودته من مدرسة البوليس .

وتساءل حسين فى لهفة :

ــ ماذا فعلت ؟

ــ الحمد لله .

ــ أقبلت ؟

ــ أجل .

وعاد حسين يصيح بمرحه الطبيعى :

ــ مدهش .. أنا أيضاً نجحت فى الكشف الطبى .. إن أبانا سيجن من الفرح .. هيّا نأخذ الترام الأبيض .. لا تقل دعنا نسير .. إن قدمى « بقبق » من السير .. ومليمات الترام الأبيض لن تغنينا شيئاً .

وضغط « على » يده قائلا فى صوت خفيض :

ــ اخفض صوتك .. فضحتنا .. ماذا يقول الناس عنا ؟

ــ لا يهمك الناس .. فستكون ضابطاً ، وتستطيع أن تضع قدمك على رءوسهم .. كما أنوى أنا أن أفعل .. إن أول ما سأفعله هو أن أوقف الترام والأتوبيس فى غير المحطة بمجرد إشارة من يدى .. هيّا لقد أقبل الترام .

وعاد الأخوان إلى البيت ، ليزفا إلى والديهما بشرى النجاح . وأطلقت الأم زغرودة دون أن تدرك شيئاً من التفاصيل .. إذ كان فهمها يقصر عن فهم سلسلة الكشوفات المفروض على ولديها أن يجتازاها ، وإنما كانت تعرف فقط أن هناك نجاحاً وسقوطاً ، وقد طرقت مسامعها ألفاظ نجاح كل من ولديها فأطلقت زغرودة حارة عبرت بها عما يصطخب فى صدرها من مرح .

وأطلق الأب زغرودته فى صورة ركعتين حارتين مخلصتين أداهما إلى الله .. وأقبلت « بهية » الصغيرة تهنئ ابنى خالتها فى فرحة ظاهرة . وإن كانت فرحتها لحسين أكثر عمقاً . فقد كانت تحس أن يداً خفيه تشد أحدهما إلى الآخر ، وأن

رابطة لا تدرى كنهها تجمعهما معاً

لم تكن تدرى لماذا .. فقد كانت كل الظواهر تحتم عليها أن تحس للأخوين شعوراً متساوياً ، وكان هذا هو ما تحاول دائماً أن تسم به تصرفاتها نحوهما ، ولكنها مع ذلك كانت فى مقارنتها لا تستطيع أن تقاوم ذلك الميل العجيب إلى حسين .

كان « على » الأكثر وسامة ، والأفضل خلقاً .

ولكنها مع ذلك كانت تفضل حسيناً .. رغم اقتناعها عند المقارنة بأن علياً .. أفضل .

بأى شىء كانت تفضله ؟ ربما كان لأنه غير الأفضل .. وربما كان لخفة كفته فى المزايا .

أجل إنها كانت تفضله كما هو .. بنزقه ، وخفته ، وطيشه ، وأنانيته .. كانت تفضله بلا تفكير .. وإذا فكرت .. فهو بعدم أفضاله أيضاً .. مفضل عندها .

كان أقرب إليها من « على » .. لأنها تشعر بأنه يحتاج إليها .. وأنها تستطيع أن تقدم إليه الكثير .. كانت ترتب له كتبه وتغسل له ملابس الكرة .. وكانت تبتاع له بعض الحاجات من المحطة ومن السوق ، وكان يحتاج إليها فى معاونته على الكذب عندما يريد خداع أمه أو أبيه .

كان أقرب إليها .. لأنه كان أكثر إحساساً بها .. كان ينهرها .. ويسترضيها .. ويعاقبها ويكافئها .. وأحياناً عندما تصيبه نوبة حمق يضربها .

كانت ترى فيه .. بشراً قريباً حبيباً .

أما « على » فكان بكل ما فيه من أفضال .. بعيداعنها ، كان فى غير حاجة إليها .. بل فى غير حاجة إلى أحد .. كان مايسمونه مكتفياً بنفسه ، مستقلا بذاته .. لم يكن يكلفها بشىء لأنه لم يحتج أبداً لشىء .. ولم يدعها تقدم له مساعدة لأنه دائماً كان يقوم بمساعدة نفسه .. كان مرتباً منظما لا يسألها عن شىء .. لأنه يعرف أين وضع ذلك الشىء .. وما كان يطلب منها أن تذهب لشراء حاجة .. لأنه كان يفضل أن يذهب لشراء حاجته بنفسه ، ولا يضطجع

على الفراش فى كسل كما كان يفعل أخوه .

كان بعيداً .. بعيداً جداً .. كان أبعد من السحب الهائمة فى السماء .

وكانت تشعر أنه ليس لها ، ولا لأحد منهم ، بل لإنسان آخر يجذبه بعيداً عنهم .. إنسان يهيم معه بين السحب العالية .

وأقبل الليل ، وآوت القافلة إلى مضاجعها ، وأغمض كل منهم عينيه وأطلق ذهنه قبل أن يبسط عليه الكرى سلطانه ليتصيد من المرئيات أحبها إلى نفسه ، فأبصرت الأم ولديها صحيحين معافيين ، وأبصرهما الأب ضابطين محترمين ، وأبصرت « بهية » حسيناً يختال فى حلته الرسمية وقد ضمها إليه ، وأبصر « حسين » نفسه يختال بالشريط الأحمر ، ويوقف الترام فى غير محطته ، ويتلقى إعجاب الفتيات فى شوارع القاهرة .. أما « على » فقد انطلق يهيم فوق أبراج القصر ، وقد أحس أن الدرج الطويل الذى يفصل بين القرار والقمة والمفضى به إلى هام السحب قد نقص درجه .

(١٠)

لقاء مفاجئ

حل موعد الكشف الطبى ، وذهب « على » إلى المدرسة .. وسار طابور الطلبة المتقدمين للكشف يقوده بعض طلبة المدرسة القدامى ، متجهاً إلى المستشفى العسكرى ، ودخل الطلبة من الباب الخلفى للمستشفى إلى عنبر الكشف على يمين الداخل ، وجلسوا على دكك خشبية قد صفت فى قاعة تبدو كأنها « طرقة » وسدّت جوانبها بجدار نصفه الأسفل من الخشب ونصفه الأعلى من مربعات الزجاج الإنجليزى . وبدأ الكشف ، وأخذ أحد الجنود الممرضين ينادى على الطلبة واحداً بعد واحد ، حتى حلّ دور « على » فدلف من الباب المفضى إلى حجرة الكشف ، ومرّ بمراحله المختلفة ، من قياس للنظر والصدر ، واختبار للأعصاب ، وتحليلات متعددة .

وأخيراً انتهى الكشف ، وعاد طابور الطلبة مرّة أخرى إلى المدرسة وبعد فترة انتظار ، وقف أحد الكتبة يعلن نتيجته .

وتتابعت الأسماء على أذنه ، وبلغ مسامعه اسم صاحبه سليمان زكى .. فأحس بيد اليأس تعتصر قلبه .. لأن اسم صاحبه بعده .. فإذا كان قد نودى عليه دون أن ينادى على اسمه .. فلا شك أنه رسب فى الكشف .

ولقد صدق ظنه ، فما كاد الرجل ينطق ببضعة أسماء بعد ذلك ، حتى هبطت يده بالورقة التى يقرأ منها ، ثم صاح فى الطلبة :

ــ هؤلاء الذين ناديت أسماءهم ، عليهم الحضور صباح السبت القادم لحضور كشف الهيئة الأخير .. أما الباقون فيمكنهم الحضور غداً لسحب أوراقهم .

ولم يستطع « على » أن يمنع موجة الحزن الجارفة التى طغت على نفسه . إنه حقاً لم يكن يؤمل كثيراً فى النجاح ، ومع ذلك فهو يجد طعم الفشل مريراً .. وأكثر من هذا ، يجد الدرجة التى تناقصت من سلم الأوهام الذى يقضى به إلى السحب ، قد عادت درجات فوق درجات ، بل إن السحب قد تباعدت فى ظلمات اليأس ، حتى بات لا يكاد يدركها فى أمسياته الحالمة .

وأخذت جموع الطلبة فى الانصراف .. وهمّ الكاتب بالعودة أدراجه إلى حجرته ، عندما أقبل عليه جندى ممّرض من جنود المستشفى ، يحمل دوسيها به ورق ، وقدم إليه ورقة مكتوبة .

ومرة أخرى صاح الرجل منادياً :

ـــ على عبد الواحد .. الطالب على عبد الواحد .

وصاح « على » مجيباً ، وكأن يداً قد مدّت لا نتشاله من الغرق :

ـــ أفندم .

ـــ عد مع الأمباشى إلى المستشفى لإعادة كشف التحليل .

إعادة الكشف ؟.. ثانية !! لقد كان يأمل من صيحة الرجل أن يكون اسمه قد سقط سهواً من أسماء الناجحين .

ولكن الأقدار تأبى إلا السخرية به .. سيعاد الكشف الطبى عليه .. هو وحده .. دون بقية الطلبة .. لكى يمنحه القدر ذبالة أمل .. وسيسقط فى النهاية .

وود أنه لو رسب وانتهى الأمر ، ولكنه لم يملك إلا أن يخوض وسط الطلبة حتى يصل إلى الكاتب .. الذى سلمه للجندى الممّرض .. الذى عاد به إلى المستشفى العسكرى .

وأعيد كشف التحليل ، ثم عاد مرة أخرى إلى المدرسة .. وقد تملكه يأس شديد ، وتمنى لو استطاع الفرار من الجندى ليعود إلى داره .

وفى المدرسة تسلم الكاتب ظرفاً مغلقاً من الجندى .. وفضّه وأخرج منه

بضع أوراق ، ثم وضعه على المكتب ، وعاد إلى الانهماك فى ترتيب بقية الأوراق التى أمامه .

ووقف « على » يرقب مصيره المعلق بين الشفتين المغلقتين ، والرجل مقطب الجبين ، منهمك فى الأوراق ، وقد بدا عليه الإجهاد والضيق .

وتقدم منه « على » قائلا فى صوت خفيض ولهجة مترددة :

ـــ أأستطيع أن أذهب ؟

ورفع الرجل رأسه قائلا بلا تفكير :

ـــ أجل .

ماذا يريد بعد هذا ؟ .. لقد كان عليه أن يتوقع هذه النتيجة ويريح نفسه من أول الأمر .. إن عليه أن يعود إلى بيته ليحمل أنباء الفشل إلى أبيه .. مسكين أبوه .. لشد ما كان يأمل أن يراه ضابطاً .

وهمّ بالانصراف ، حاملا فوق كتفيه حملا ثقلا من الضيق والتعب والفشل واليأس .

إن عليه أن يعود غداً لأخذ أوراقه .. هذه آخر مهمة ثقيلة سيقوم بها فى هذا البناء الرهيب .

وتردد فى خطواته عندما سمع صوت الكاتب يقول بنفس اللهجة المتبرمة :

ـــ ستعود يوم السبت .

وكان تفكيره مركزاً فى سحب الأوراق ، فرد متسائلا بلا وعى .

ـــ لسحب الأوراق ؟

وبدت الدهشة على وجه الكاتب ، وتساءل بدوره :

ـــ أى أوراق ؟

ـــ أوراق !!

ـــ ولماذا تبشر على نفسك من الآن .. عندما تظهر نتيجة الكشف يوم السبت ، وترى نفسك لم تقبل .. اسحب أوراقك مع بقية الطلبة .

— ولكنك قلت إن الأوراق يمكن سحبها غداً .

— أجل .. للذين لم يقبلوا فى الكشف الطبى .. وأنت قد قبلت .

وعقدت الدهشة لسانه ، ومضت برهة ، وهو يحملق فى وجه الرجل أقبِلَ حقاً ؟ ولماذا إذن لم يخبره الرجل من أول الأمر ؟

لا بد أن يكون قد افترض فيه المعرفة .. وأبى عليه إهماله وإرهاقه أن يفصح بالنتيجة .. الحمد لله .. إنك يا رب كريم ، تأبى إلا أن تغرقه بفيض رعايتك .

وأحس بعبء اليأس والهم يذوب من فوق كاهله .. وتمنى رغم رزانته وتعلقه لو استطاع أن يثب على الرجل فيوسعه أحضاناً وتقبيلا .. إن عليه الآن أن يسرع لينبىء أباه بالنبأ العظيم .. إن المسألة قد هانت .. والفرصة قد زادت ، فكل الذين نجحوا فى الكشف الطبى لا يزيدون على الثمانين ، فإذا صدق قول عبد الجليل أفندى ، وكان العدد المطلوب هو ثلاثين . والأمل والتفاؤل يرفع الرقم إلى أربعين ، فتكون نسبة القبول خمسين فى المائة ، أى إن باب القبول سيسمح بدخول طالب من كل طالبين يحاولان اجتيازه : إن الخيار سيكون بينه وبين فرد آخر .. أيمكن أن تكون هناك فرصة أكبر من تلك ؟

وبعد كل هذا .. تقع السخرية الكبرى ، ولا يقبل .. بعد أن صعد إلى منتصف درج أوهامه .. وبعد أن أحس بالبون قد تناقص .. وبالقرار قد قارب القمة .

بعد كل هذا ، يلقى به من حالق مرة أخرى !

ولكن ماله يثقل على نفسه بهذه الاحتمالات المزعجة ؟ ماله يطبق عليها بأعباء اليأس ، وأجراس الأمل الحلو تدق فى حناياه !

ليعد إلى أبيه . لينطق . ليطر ، قبل أن يبدل الرجل كلامه مرة أخرى .

ولكن يجب أن يتأكد .. يجب أن يسمعها من الرجل ثانية ، حتى لا تكون زلة لسان .. أو زلة سمع .

وعاد يسأل فى وجل :

ـــ أقد قبلت حقاً فى الكشف الطبى ؟

وأجابه الرجل فى ضيق ودهشة :

ـــ أجل .. قبلت . أتظننى أمزح معك ؟؟ إنى ...

و لم يسمع بقية قول الرجل ، فقد انطلق من الحجرة يعدو إلى الخارج ، وبعد لحظة كان يستحث الخطى فى شارع الخليفة المأمون فى طريقه إلى العباسية .

ووصل إلى ميدان العباسية وهو يحس بفرحة شديدة وخشية أشد .. فرحة النجاح ، بقطع مرحلة كبرى من مراحل طريقه إلى الهدف المنشود ، وخشية الفشل بعد هذه المرحلة من النجاح .

واتجه إلى الترام ، فوجد صفاً طويلا من عرباته متوقفة نتيجة حادث فى الطريق ، فعاد إلى محطة الأتوبيس ، إذ لم يجد مفراً منه رغم الغثيان الذى يصيبه من ركوبه .

ووقف أمام محطة الأتوبيس ينتظر العربة القادمة من اتجاه مصر الجديدة لتحمله إلى المحطة .

وطال به الانتظار ، وقد شرد ذهنه فى الاحتمالات القادمة لأحلامه .

يجب ألا يترك الفرصة تضيع منه ، ولكن كيف يجتاز كشف الهيئة الأخير ؟ لا جدال فى أنه ستكون هناك معركة هائلة بين الوساطات ، فهل تستطيع وساطه عبد الجليل أفندى أن تجتاز المعركة !

لا يظن .. إن الأمل ضعيف جداً .

لو كان الأمير يتوسط له ، لضمن الدخول ، ولكن كيف يقبل الأمير التوسط ؟! إنه يذكر ما قاله إبراهيم أفندى لأبيه عندما ذهب لرجائه أول مرة .. وهو على حق فى كل ما قال ، فالأمير مخلوق أنانى متعجرف ، لا يمكن أنم يحتمل فكرة أن يكون ابن الريس عبد الواحد الجناينى .. ضابطاً .. مثل ما كان .. ومثل ما يحتمل أن يكون ابنه علاء .

على أية حال .. ليتركها إلى الله .. وإذا كانت وساطة عبد الجليل أفندى أضعف

من أن تقف فى وجه بقية الوساطات ، فوساطة الله أقوى من الجميع .

من يدرى ؟

وكانت العربات الخاصة تمر أمامه فى سرعة البرق .. دون أن تكون بينها إحدى عربات الأتوبيس .

وفجأة لمح إحدى تلك العربات التى تنهب الأرض ، تتوقف مرة واحدة بعد أن مرت به .. ثم ظلت واقفة فى مكانها برهة كأن صاحبها ينتظر شيئاً ، ثم أخذت تعود القهقرى حتى توقفت أمامه .

ولم يلق إليها بالا حتى سمع صوتاً يهتف به من داخلها :

— على .

وأذهله الصوت ، وأذهله أكثر .. ما وقع عليه بصره عندما نظر إلى داخل العربة .

لقد كانت هى !!

أجل .. هى بعينها ودمها ولحمها .. وسموّها وروعتها .. ودقتها .

ودق قلبه دقات متوالية .. وأحس بالدم يتصاعد إلى وجهه ، وخيل إليه أن الأرض قد تخلت عن قدميه ، وأنه بات يتأرجح فى الهواء .

وكان عليه أن يجيب بعد أن فتحت الصبية الباب ونادته مرة ثانية . وفتح شفتيه عن حلق جاف وصوت مشدوه وأجاب :

— أفندم ..

— أتحب أن أوصلك ؟

توصله ؟!! أمجنونة هى ؟.. أيستطيع أن يركب عربتها الفاخرة ويجلس بجوارها ؟!

لا .. لا .. إن مكانه على قدميه فوق الأرض ، أكرم وأثبت .. كيف يركب بجوارها ؟!

وأجاب وهو يهز رأسه هزات متوالية ، كأنما ينفض عن نفسه جريمة يدعى إلى

ارتكابها :

ـــ لا .. لا .. متشكر .

ـــ لماذا ؟

ـــ إنى أنتظر الأوتوبيس .

ـــ ولماذا تنتظر الأوتوبيس إذا كنت أستطيع أن أوصلك ؟ أجل ! لماذا ؟..

ماذا يقول ، وبماذا يعتذر ؟

وفتح الله عليه بالرد فقال متلعثما :

ـــ ربما كان طريقى يخالف طريقك .

ـــ إلى إين أنت ذاهب ؟

ولم تكن لديه القدرة على الكذب ، ولا الفرصة لتدبيره ، فأطلق الإجابة بلا تفكير :

ـــ إلى البيت .

ـــ حسن جداً .. أنا أيضاً ذاهبة إلى هناك .. اركب حتى أوصلك .

ولم تكن هناك طريقة للمقاومة ، لقد أخذت عليه السبل . كانت دعوتها مخلصة وبسيطة إلى الحد الذى جعل ركوبه بجوارها فى العربة لكى توصله معها إلى العزبة ، يبدو أمراً مفروضاً أن تفعله ، ومفروضاً عليه أن يقبله .

واستقر به المقام بجوارها .. وأدار السائق الأسود محرك العربة ، وانطلقت فى طريقها إلى القصر .

حدث الأمر كله فى مثل لمح البرق .. وبدت المسألة كلها بالنسبة له ، كأنها مجرد حلم من أحلام لياليه التى لا يحتاج الأمر منه ، لكى يجد نفسه بجوارها إلا إلى غمضة عين ، يهيم بعدها وإياها فى قصوره الشم وأبراجه العوالى .

ومضت فترة استطاع خلالها أن يتمالك نفسه ، ويهدئ أعصابه المتوترة ، ويمسك بزمام ذهنه الشارد الحائر ، وتملكه شعور السارق الذى فرّ بغنيمة ظلّ طول حياته يحلم بالحصول عليها ، فلما سقطت فى يده أخذ يعدو بها كالمجنون ،

والناس تطارده ، حتى إذا بلغ بها مأمناً من مطارديه ، وضعها جانباً وجلس يلتقط أنفاسه ويتحسسها بيديه ليطمئن على وجودها ، وهو غير مصدق لحصوله عليها .

اجل .. إنها تجلس بجواره ، فى واقعه ، لا فى أحلامه ، أى إنه يستطيع لو انحرف ببصره أن يراها .. أو مد يده أن يلمسها ، ولكنه مع ذلك لا يجسر .. لا أن يحرف ببصره .. ولا أن يمد يده .

كل ما يستطيعه ، هو أن يحملق ببصره من النافذة .. إنه هانئ سعيد بمجرد إحساسه بوجودها إلى جواره .

ولكن يا له من أحمق غبى ، إذا كان هو هانئاً سعيداً بجلسته هذه وحملقته وصمته .. أتراها هى سترضيها حالته ؟ أستقنع منه طوال الطريق بالصمت والحملقة ؟ لا بد أن يتحدث .. لابد أن يقول شيئاً .. إنها فرصة العمر لكى يتحدث إليها ويسمع صوتها .

ثم ماذا يخشى منها وقد دعته إلى الركوب فى رقة وتواضع ، وإلحاح . أجل .. إلحاح ، فلقد وقفت العربة ثم أعادتها إلى حيث وقف .. وطلبت منه الركوب ، وألحت فى طلبها .

إنها لا شك ترغب فى صحبته .. فلا أحد هناك يرغمها على ذلك .

ليتكلم إذن . ليقل شيئاً .

ومع ذلك فقد أخذت أعمدة الكهرباء تمر ، وسيقان الشجر تتوالى ، وهو فى صمته وحملقته .

وأخيراً أنقذته من ورطته وتحدثت قائلة :

ـــ كنت أزور « تنت إيناس » فى دارها بمصر الجديدة إذ كانت بها وعكة خفيفة .. لقد نزلت بالعربة مع أخى علاء وتركته فى نادى الصيد وذهبت إلى زيارتها ، وسيقضى أخى يومه فى البلد ، وسأرسل له العربة بعد أن توصلنى .

واسترسلت « أنجى » فى الحديث حتى تزيل ببساطة حديثها جو التكلف

والتوتر الذى تلبدت غيومه بينهما .

إنها تريده أن يتحدث .. لقد مضت فترة طويلة وهى لا تراه إلا رؤية خاطفة ، وما زالت تنطبع فى ذهنها صورته بجلسته أمام الترولى وصمته المتعالى .. وخجله المتكبر .. لقد تمنت كثيراً لو استطاعت أن تلقاه وتحدثه ، ولكنها لم تكن تلقى غير أبيه وأخيه ، وكانت دائمة السؤال عنه حتى عرفت من أبيه فى آخر مرّة أنه نجح فى البكالوريا ، وأنه ينوى التقدم إلى الحربية .

ولقد فوجئت اليوم بمرآه أمام محطة الأتوبيس .. لم يتغير وجهه كثيراً عن آخر مرة أبصرته فيها ، وإن كان جسمه قد نما ، وقامته قد طالت أما شفتاه المزمومتان ، وأنفه الدقيق المستقيم ، وحاجباه المقرونان ، المزوى ما بينهما كأنما قد أساء صاحبهما شىء .. أما سماته الحازمة ونظراته المتعالية فكما هى .. لم تصب بتغيير ولا تبديل .

وعجبت لما أصابها من اللمحة السريعة العابرة ، التى رمته بها وهو واقف فى انتظار الأتوبيس ، لقد أحدثت فى نفسها ما يشبه الشرر الذى يحدث من مسة سلكين كهربيين أحدهما موجب والآخر سالب ، فهتفت بالسائق أن يقف .

وعللت وقوفها لنفسها وللسائق .. بأنها تؤدى واجباً نحو جار لهم وإن كانت تدرك فى قرارة نفسها أن هذا المخلوق أكثر لديها من مجرد جار وأنها تريد أن تراه عن كثب وتتحدث إليه فترة طويلة .. تستطيع أن ترفع خلالها ذلك الحجاب الكثيف الذى يسدله حول نفسه من الصمت والتباعد .

---

(١١)

وسيلة وغاية

كانت تفكر فيه كثير من الأحايين ، ولم تكن تدرى سر ذلك الاهتمام به .. لقد كان فى نظرها مخلوقاً آخر غير تلك المخلوقات التى تشابهه .. كان أكثر كثيراً من ابن بستانى .. ليست تدرى لِمَ ؟ ألأنه أنقذ حياتها ذات مرة ؟ أم لأنه تباعد عنها وترفع عن الحديث إليها ؟

على أيه حال ، إنها فرصة سانحة أن يجلس وإياها طوال مدة الذهاب إلى البيت ، وهى تستطيع أن تتجاذب وإياه أطراف الحديث فتقطع وحشة الطريق وملله .

ولكن إلى متى سيظل مغرقاً فى صمته .. أتراه لا ينوى التحدث إليها طوال المسافة ؟!

ووجهت إليه سؤالاً تستدرجه به إلى الحديث وتخرجه من صمته :

ـــ وأنت أين كنت ؟

وأجاب وهو يستدير إليها نصف استدارة ، وقد حوّل بصره من النافذة إلى أطراف قدميها :

ـــ كنت فى المدرسة الحربية .

ـــ حقاً ؟ وماذا كنت تفعل ؟

ـــ ذهبت للكشف الطبى .

ـــ وكشفت ؟

ـــ أجل .

ـــ والنتيجة ؟

ــ قبلت .

وتهللت أساريرها ، وبدت عليها فرحة صادقة ، وقالت مهنئة :

ــ مبروك .. ستدخل المدرسة إذن ؟

ــ ربما .

ــ ولماذا « ربما » ؟

ــ لم يزل أمامى كشف الهيئه .

ونظرت إليه وقد افتر ثغرها عن ابتسامة حلوة .. لم يستطع هو أن يراها لأنه كان ما زال مصوباً نظره إلى طرف حذائها .. وقالت فى براءة وبساطة :

ــ هذا كشف يسير بالنسبة إليك . ولا شك أنك ستجتازه بسهولة ، فلا أظنهم سيجدون هيئة خيراً من هيئتك .

ولم يستطع أن يمنع الدماء من أن تتصاعد متدفقة إلى وجهه ، حتى تبلغ أطراف أذنيه ، لقد وقع قولها البرىء الساذج من نفسه موقعاً أعمق مما كانت تقصد أو تتصور .. أحقاً تراه كذلك .. أم هى مجرد مجاملة ؟

ورفع شعاع بصره المصوب إلى طرف قدميها ، فجعله يستقر على ركبتيها وعلى يدها الرقيقة ، وأناملها الدقيقة المبسوطة على فخدها ، وتمنى لو ينحنى حتى يمس بشفتيه أطراف أناملها .

وعندما نفض عنه الخجل ، وأعاد الدماء المتصاعدة من وجهه إلى قلبه الصاخب الضاج .. أجابها وهو يرفع شعاع بصره رويداً رويداً حتى بلغ ذقنها الصغير قائلا :

ــ لا أظن هيئتى تتميز كثيراً عن سائر الهيئات المعروضة ، وعلى أية حال ، لست أظن الهيئة لها دخل كبير فى كشف الهيئة .

ــ كيف ؟

ــ لأن الغلبة فيه .. ليست للهيئة الأفضل ، بل للوساطة الأقوى ؟

ــ عجيبة !! إنى لا أصدق أنه يمكن رفضك ؟

وأطربه قولها أكثر مما لو كان قد قبل فى الكشف نفسه ، وأحس فى تلك اللحظة أنه لم يعد يأبه كثيراً للقبول فى المدرسة ، لقد فاز بالقبول من نفسها ، وكان يعتبر القبول فى المدرسة مجرد وسيلة للقبول فى نفسها .. أما وقد تحققت الغاية ، فما حاجته بعد ذلك إلى الوسيلة .

ومرة أخرى أحس بحنين لا يقاوم ، ورغبة لا ترد فى أن ينحنى على أناملها الرقيقة البيضاء .

إن مسة يدها خير لديه من العمر كله .. مسة واحدة .. ليتها تسمح له بها ومن يدريه أنها لا تسمح .. إنها مخلوقة كريمة رقيقة .. لقد وهبته فى لحظات أكثر مما ناله هو نفسه منها فى الأعوام من الأحلام .

ونظرت إلى جبينه المقطب ، وسيماه الشاردة وسألته :

ــ ما بالك شرد منك الذهن ، أتخشى عدم القبول ؟

وأجابها صادقاً :

ــ أبداً .. على الأقل الآن لا أخشاه .

وسألته فى دهشة :

ــ ولِمَ ؟

وأحس بأن شخصاً آخر فى داخله يتحدث .. شخصاً أقدر منه على التعبير عن نفسه المرهفة ومشاعره الذائبة :

ــ لأن أملى فى الحياة صار أكبر من أن يحصر فى مثل هذا الهدف الضيق .. لقد باتت لدىّ آمال كبار .

ولم يبد عليها أنها فهمت شيئاً من قوله .. وعادت تسأله :

ــ أليست لديك وساطة ؟

ــ لم تعد للوساطة قيمة فيما آمل .

ورفعت إليه وجهها وحدقت فيه .. وقد ازدادت بها الدهشة وسألته :

ــ لقد كنت تقول الآن إن الوساطة هى كل شىء .

ورفع بصره من ذقنها إلى شفتيها القرمزيتين الرقيقتين إلى طاقتى أنفها الضيقتين وأخذ يرقبهما ، وكأنه يرى الشهيق فى دخوله والزفير فى خروجه ثم رفع شعاع بصره رفعة يسيرة فالتقت عيناه بعينيها للمرة الأولى منذ جلسا ، بل للمرة الأولى فى حياته .. واضطرب الاثنان لحظة شعر بعدها أن الثقة قد عادت تملأ نفسه ، وأن الهوة السحيقة ، والبون الشاسع الذى كان يفصل بينهما لم يعد لهما وجود .. وأحس أنهما متجاوران كما كانا متجاورين فى أحلامه ، وأنه قد بات تماماً فى الوضع الذى كان يحب لنفسه دائماً أن يكون فيه .

وأحست هى كأن الحجاب الذى كان يسدل بينهما قد رفع ، وأن السد قد زال ، وأحست باضطراب لذيذ وهى تجد عينيها قد ثبتتا فى عينيه ، وأخيراً خرج من صمته قائلا :

ــ منذ لحظات كنت أجد القبول فى المدرسة هو أقصى أمانىّ .. أما الآن فقد بات الدخول وعدمه سواء لدىّ .

ــ لماذا ؟

ــ قد تعرفين بعد ذلك .. أما الآن فلا أظننى أجسر على الإفصاح .

وعادت وهى تقول ملحة :

ــ ولكنك يجب أن تدخل المدرسة.خسارة ألا تدخل .

وأحس بالفرحة تغمره وهو يجد منها ذلك الاهتمام ، وأجاب ضاحكاً :

ــ على أية حال ذلك يتوقف على مقدرة عبد الجليل أفندى .

ــ عبد الجليل أفندى !

ــ باشكاتب المدرسة .

ــ وما دخله فى الموضوع ؟

ــ إنه هو وساطتى .. أو على الأصح كان وساطتى فى الكشف الأول .. وأرجو ألا يخذلنى فى الكشف الأخير .

ــ ولكن أتظنه يستطيع إدخالك ؟

— هو وحده .. لا أظن .. ولكنى أعتمد على آخر يساعده ويساعدنى .

— من هو ؟

— الله .

— أتمزح ؟

— أبداً .. أوساطة الله تعتبر مزاحاً ؟

— الله وساطته مشاعة بين الجميع .. وهو يساعد كل الناس ، فليس لأحدهم أن يختص بنفسه بوساطته .

وسرّته إجابتها .. وابتسم .. فابتسمت ، وأجابها قائلا :

— معك حق .. ولكن ماذا يملك العاجز إلا أن يؤمل نفسه فى وساطة الله .. إن الله دائماً ملاذنا الأخير ، وعلينا أن نبذل جهودنا ، ثم نترك أمورنا لتدبيره .

وأطرقت ، وبدا عليها التفكير ، وأحست برغبة شديدة فى أن تقدم له المعونة .. لقد فرقت بينهما اللحظات القصار التى قضتها بجواره .. والحديث العابر الذى جرى بينهما .. وأحست أن فى جوهره شيئاً يدعو إلى التقدير والاحترام ، وأنه إذا تعالى ، ففى باطنه ما يسوغ له التعالى والاعتزاز .. ولقد سبق أن ردّ إليها حياتها دون أن يقبل مجرد كلمات شكر ساقتها إليه ، بل إن البنطلون الذى قدمته إليه بحسن نية ، متخيلة أنه سيقبله شاكراً ، قد رفض ارتداءه بدليل أنها رأت أخاه يرتديه فى أول مرة أبصرته فى الحديقة .

إنه يعرف قدر نفسه .. وقد عرفت هى قدره من الحديث المقتضب ، والكلمات القصار التى جرت بينهما .

إنه لن يطلب منها المساعدة .. رغم أنه يعرف فى قرارة نفسه أن وساطة أبيها الأمير لا شك ستذلل له السبيل إلى المدرسة ، ولو عرضت عليه المساعدة لرفضها ، كما رفض البنطلون ، فنفسه أعز من أن يذلها ، حتى فى سبيل أمانيه .

على أية حال إنها تستطيع مساعدته دون أن تشعره .. وهى إذا ماساعدته فقد كان أسبق بمساعدتها ، فليس تقديمها المساعدة غير رد للجميل .

وخلفت العربة القاهرة ، بدورها وشوارعها وبدأت السير فى الطريـق الزراعى .. وقد صفت على جانبيه أشجار الكافور والجازورينا ، وبدت من ورائها الخضرة المنبسطة تعترض انبساطها أكواخ القرى ، وهياكل الأشجار القائمة فوق السواقى باهتة فى الأفق .

وتلفتت إليه فوجدته قد شرد ببصره من النافذة ، فاسترعته إليها متسائلة :

— فيم تفكر ؟؟

— فى لا شىء .

— لا يمكن أن يفكر الإنسان فى لا شىء .

— أفكر فى شىء أصبح من فرط تفكيرى فيه كأنه لا شىء .. لقد بت أفكر فيه بلا تفكير .

وضحكت قائلة :

— هذا قول عجيب أن تفكر بلا تفكير .. أأستطيع أن أعرف هذا الشىء أو اللاشىء الذى تفكر فيه بلا تفكير .. أقريب هو أم بعيد ؟

— كان بعيداً عن الواقع قريباً فى الأحلام ، فأضحى قريباً فى الاثنين .

— أهو أمنية ؟

— أكبر من أمنية .. إنه حياة أخرى .

— لست أفهم !

— لا ضرورة لأن ترهقى نفسك فى الفهم .. لكل إنسان أفكاره التى لا يفهمها إلا هو .

— ولكننى وددت لو فهمت أفكارك .

— أحقاً تودّين ذلك ؟

— أجل .. فى كل مرة أراك .. أود لو أعرف أفكارك .. أتذكر عندما تقدمت إليك وأنت تجلس أمام الترولى ، وحاولت شكرك فلم تجبنى ، ولم تنهض عندما سألك أبوك النهوض ؟ لقد تمنيت أن أعرف ما فى رأسك ، ماذا منعك من

إجابتى !! وماذا منعك من النهوض !! ولقد سألت أباك فأخبرنى عن خجلك من البنطلون .. وحاولت أن أرسل لك آخر رغم أنى لم أر فيه ما يستحق الخجل !!

— إنى لم أخجل منه .. ولكنى خجلت منك .. لقد كانت المقارنة بيننا تروعنى .. وكنت أخشاك دائماً .. ولقد روّعتنى دعوتك لى إلى الركوب الآن .. ولولا مفاجأتك لى ، وإصرارك على دعوتك .. وسدك علىّ كل سبل الفرار ، لهربت من أمامك .

— عجباً !! لِمَ كل هذا ؟

— لست أدرى .. وإن .. وإن دريت فلا أظننى بمستطيع الإفصاح .. إن خير ما منحه الله لنا من وسائل الأمان أن أعطانا القدرة على أن نغلق رءوسنا على ما بها .. وإلا ..

— وإلا ماذا ؟

— لا شيء ..

— لماذا لا تتكلم ؟! إنى أود أن أسمع منك الكثير .. قل .. ماذا تنوى أن تفعل بعدما تتخرج فى المدرسة ؟

— وماذا أستطيع أن أفعل أكثر من أن أكون ضابطاً ؟

— لست أدرى لماذا يخيل إلىّ أنك لن تكون ضابطاً عادياً .

— لست أدرى أنا .. لماذا أنت حسنة الظن بى إلى هذا الحد !؟ ألأجل انطلاقى أمام الترولى لإنقاذ حياتك ؟. إن هذا كل ما فعلته أمامك لكى يظهرنى كمخلوق غير عادى ، وحتى هذا لا يبدو لى مثلا خارقاً ، فلا أظن أى إنسان مكانى إلا كان فاعله .

— لا أظن كل إنسان يعرض حياته للخطر فى سبيل إنقاذ مخلوق لا يمت له بصلة .

— لا يمت له بصلة ؟

— أجل .. إنى لست أختاً لك .. ولا قريبة .

— أليس هناك بين الناس سوى صلات الأخوة والقرابة ؟! ألا يوجد بين صلات الإنسانية !!

— لا أظنها بالقوة التى تدفع الناس لأن يضحوا بأنفسهم فى سبيل الآخرين .

— على أية حال .. أنا لا أجد ما فعلت يستحق منك هذا الاهتمام بى ، وأكره أن يستند مركزى فى نفوس الناس على أحد أعمال البطولة المصادفة الطارئة .. فالإنسان لا تسنح له هذه الفرص فى الحياة كثيراً .. وخير للإنسان أن يقدره الناس بأعماله الدائمة وشخصيته الطبيعية ، من أن يقدروه بهذه الأعمال الفجائية المعتمدة على الظروف والفرص .

— أنت لا تستطيع أن تفرض على الناس أسباب تقديرهم لك وإعجابهم بك .. إن لهم هم أن ينتقوا الأسباب .

— بالطبع .. ولكل فرد ما يستهويه فى الفرد الآخر .

وبدت محطة السكة الحديد ، ولاحت على الجانب الآخر منها البيوت المتواضعة التى تكوّن العزبة ، وفى آخر الطريق بدت أسوار القصر ، وقال « على » وهو يرى العربة تقترب من دارهم :

— أأستطيع أن أنزل هنا ؟

— أقد وصلنا سريعاً !!

— أجل .

— لم أشعر بمرور الوقت ، ولا بطول الطريق ، وددت لو طالت الفرصة لكى نكمل حديثنا .

— فى فرصة أخرى إن شاء الله .

— ولكنك لا تحضر إلى الحديقة .

— سأحضر وقتما تشائين .

— ألم يعد هناك ما يخيفك ؟

— لا .. لقد حطمت بحديثك السور الشائك الملغم الذى كنت أتوهمه بيننا .. والذى كنت أخشى القرب منه .

ووقفت العربة ، وهبط منها « على » ، ووجد « أنجى » قد مدت إليه يدها .. فأحس برجفة وهو يوشك أن يمد يده إليها .

وتلامست الأكف .. واحتوت كفها الصغيرة كفه الكبيرة .. وشعر بقلبه يوشك أن يثب من بين أضلعه .. وابتسمت له ابتسامة رقيقة وهى تودعه بقولها :

— مع السلامة .. سأراك قريباً ؟

— إن شاء الله .

ووقف يرقب العربة التى أخذت تتباعد .. وهى تشير إليه بكفها الصغيرة .. وعندما اختفت العربة عن ناظره رفع كفه التى صافحها بها .. وأخذ يحدق فيها فى شىء من الذهول ثم أطبقها ووضعها فى جيبه .. كأن بها شيئاً ثميناً يخشى عليه من التبدد .

ما كل هذا الذى حدث ؟! لشد ما يخشى أن يفتح عينيه فيجد نفسه مازال رابضاً أمام محطة الأتوبيس .

أجل .. أجل .. لا يمكن أن يكون ما مر به أكثر من حلم .. أن يراها .. ويجلس بجوارها .. وتبدى فى كل فقرات حديثها ما يشعره بتقديرها له ، وتفكيرها فيه .

ثم بعد هذا تمد يدها وتصافحه ، وتطلب منه أن يجعلها تراه فى فرصة قريبة !!

لا .. لا .. هذا شىء لا يمكن أن يكون قد حدث فى عالم الواقع .. إنه نوع من الأمانى التى كان يغرق نفسه بها .

وسار واضعاً يمناه فى جيبه وهو يشعر كأنه يتحرك فى دوامة .

واقترب من البيت فوجد « حسين » ينتظر عند الباب .. ولم يكد يراه حتى أقبل عليه وسأله فى لهفة :

— ماذا فعلت ؟! ما النتيجة ؟

ولم يعرف فيم يسأله أخوه .. وكاد يجيبه وهو مغرق فى شروده :

ـــ لقد أمسكت يدها .. لقد دعتنى إلى زيارة الحديقة .

ولكنه تذكر أن أخاه يسأله عن نتيجة الكشف الطبى .. وأن تلك هى النتيجة الهامة التى ينتظرها كل من فى الدار .

وابتسم « على » وأجاب أخاه :

ـــ لقد قبلت ..

واندفع حسين يبلغ النبأ لمن فى الدار .

---

(١٢)

محض صدفة

توقفت العربة بأنجى أمام باب القصر .. ووثبت منها فى خفة وبنفسها إحساس بطرب لا تدرى كنهه ولا تعرف سببه ولا مبعثه .. أو على الأصح تتجاهل سببه ومبعثه .. إذ لم يكن يخطر لها ببال أن مثل هذا الطرب الشديد يمكن أن ينشأ عن مثل هذا السبب التافه .. الذى لا تستطيع أن تعترف صراحة بأنه مبعث طربها .

أيمكن أن يكون مجرد مجاورته لها فى العربة هذه المدة القصيرة .. قد سبب لها مثل هذا الطرب ؟ من يكون هو ؟ إنه لا يزيد عن آدمى .. فرد .. وهو فى مقاييس أسرتها واعتبارات تقاليدها .. غير ذى وزن ، وغير ذى قيمة .. فهو ابن الريس عبد الواحد الجناينى .

ولكن .. أتراه حقاً .. لا يزيد عن ذلك !؟ أترى تلك هى المقاييس والاعتبارات التى يوزن بها الأشخاص فى النفوس !؟

لا .. لا .. إنها جد خاطئة .. إن هناك مقاييس أخرى . وليس أدل على ذلك من الشعور الواضح المحسوس الذى يجزم بأنه فى نفسها ذو وزن .. وذو قيمة .. وذو موضوع .

إن فى باطنها مقاييس غير تلك المقاييس الظاهرة المصطلح عليها .. فى باطنها ميزان خفى .. أغلب الظن أنه يكمن فى ذلك الشىء الرابض فى جنبات الصدر .. الشىء الدقاق المرهف الخفاق .. المسمى بالقلب .

لا يعنى قياسها إياه بمقياس القلب .. أنها تحبه .. فذلك إحساس لا يمكن الجزم به بعد .. ولكنه يعنى أن العامل المسيطر فى إحساسها نحوه هو القلب .. هو الذى سلط عليه أضواءه ، فجعل منه مبعث طرب وجعل منه كائناً غير بقية الكائنات

المماثلة له .. جعله مثلا ، شيئاً آخر غير أخيه .. بل أكثر من هذا ميزه عن غيره ممن يكون أثقل وزناً وأكثر فضلا إذا ما استعملت مقاييس الحياة الطبيعية العادية ، مقاييس التقاليد والطبقات فهو خير فى نفسها من كثير من أبناء طبقتها وأصدقاء أخيها .

ألم يلم بها طيفه بين آونة وأخرى على طول النأى ، وكثرة التباعد ؟ ألم تتمنّ دائماً لو أنه عاد إلى الحديقة مع أخيه وأبيه ليشاركها لعبها ، وليدفع بها الترولى !؟ ألم تلمحه وهو ذاهب إلى المحطة وهى راكبة مع أبيها وودّت لو استطاعت أن تدعوه إلى الركوب لولا الخوف من أبيها وأخيها ؟

ألم يمسها منه شرر لمجرد أن لمحته اليوم فى طريقها ؟

وبعد كل هذا .. تنكر أن ما أصابها من طرب إنما هو مبعثه .. وتقول إنه مجرد آدمى .. فرد !!

حمقاء .. بلهاء .. وأشد منها حمقاً وبلهاً مقاييس القلب التى لا تعترف بفوارق الأوضاع ، ولا تقدر غنى ولا جاهاً ، ولا غير ذلك من المقاييس التى اصطلح عليها البشر لتنظيم حياتهم .

واستمرت الأفكار تصطخب فى رأسها ، وهى جالسة على المائدة تنتظر نزول أبيها من حجرته .

وسألها أبوها :

ــ كيف حال عمتك ؟

ــ بخير .. لم يكن ما بها أكثر من برد بسيط فى طريقه إلى الزوال .

ــ وأين علاء ؟

ــ تركته فى النادى .. لقد أنبأنى أنه قال لك إنه سيتخلف للغداء هناك .. ألم يقل لك ؟

ــ أجل .. أجل .. لقد تذكرت .

ــ وسألنى أن أرسل له العربة إلى بيت البرنس كمال حيث سيتناول الشاى مع سهيلة وإبراهيم .

— سأمر عليه أنا عند عودتى من افتتاح مؤتمر الطيران الدولى فى هليوبوليس .

وظهر الخادم يحمل صحاف الطعام ويمر بها على الأب والابنة ، وأخذت « أنجى » فى تناول طعامها .. وأرسلت ذهنها يطوف بمبعث طربها .

ماذا قال لها فى العربة ؟. لقد حدثها حديثاً غامضاً .. لم تستطع أن تحدد لنفسها معانيه ولا مقاصده ، ولم تستطع أيضاً أن تمنع نفسها من أن تستشعر منه لذة ، رغم غموضه وإبهامه .

قال لها أشياء عن أمله الذى بات أكبر من أن يحصر فى هدف ضيق وقال لها إنه منذ لحظات كان القبول فى المدرسة هو أقصى أمانيه ، ثم بات الدخول وعدمه بعد ذلك سواء .. فلما سألته أن يفصح أنبأها بأنها قد نعرف بعد ذاك .. أما الآن فلا يجسر على الإفصاح .

وأخذت تستعيد لنفسها كل ما قال ، وأدهشتها حدّة ذهنها وقوّة ذاكرتها فى وعى أحاديثه .. كأنما كانت ستؤدى فيه امتحاناً ، وهى التى كثيراً ما جلست مع أقاربها وأصدقائها فلم يحاول ذهنها أن يلتقط من أحاديثهم كلمة .. بل قد تمر عليها الجلسة دون أن تعى منها شيئاً .. أترى كان ذلك لقيمة ما قال ، وتفاهة ما قالوا ؟

أم أن المقياس الدقاق الخفاق .. قد حشر نفسه حتى فى وزن حديثه وقياس ألفاظه !؟

وأحست أن بنفسها رغبة فى أن تراه وتسمعه ثانية .. وتذكرت كبرياءه ، وأنفته ، وتعاليه عن أن يطلب منها وساطة أبيها ، كما تعالى — من قبل — عن لبس البنطلون الذى أهدته إياه .

ونظرت إلى أبيها نظرة خاطفة وقد انتهى من طعامه وأمسك بقطعة « كيردون » يخلل بها أسنانه .. إنه يستطيع بكلمة منه أن يحقق أمله ، وينيله أمنيته .. ولكن أتراه يقبل أن يقول هذه الكلمة ؟! أتراه يقبل أن يرجو أحداً لإدخاله المدرسة الحربية .. أى لكى يصنع ضابطاً من ابن الجناينى ؟!

أليس هذا هو كل ما يراه فيه ؟ مادام لا يملك المقياس السحرى الذى تملكه ،

والذى جعل منه مخلوقاً آخر غير مخلوقات الله .

على أية حال ليرَ ما يراه هو فيه .. أما هى فعليها أن تفعل من أجله كل ما تستطيع .. وإذا امتعض أبوها أو ثار فعليها أن تقنعه بأنها لا ترجو أكثر من رد جميل من أنقذ حياتها .

ولكن كيف تبدأ الحديث ؟ وبم تجيبه إذا سألها من أين عرفت أنه يريد الدخول فى المدرسة الحربية ، وأنه قبل فى الكشف الأول الطبى ، وأنه لم يبق أمامه غير كشف الهيئة الأخير ؟ إن عليها أن تقول إنها لقيته فى الطريق والمواصلات معطلة ، فاضطرّت إلى أن تنقله إلى داره .. ليس فى هذا عيب .. ومن المحتمل جداً إن لم تقله هى له أن يقوله السائق .

على أية حال يجب أن تتحدث .. وتتحدث الآن ، فهذه هى خير فرصة يمكن انتهازها ، فرصة هدوئه وخلوتهما وعدم وجود أخيها الذى لا شك سيكون تدخله فى غير صالح « على » فهو أكثر من أبيه ازدراء لطبقته واحتقارا لها .

وهمت بالحديث ولكن أباها سبقها به قائلا :

ـــ وصلنى اليوم خطاب من مدرستك أظنه على مكتبى .. يحددون فيه موعد الدخول ، ويطلبون أداء القسط الأول ، ويسألون إذا كنت تريدين الاشتراك فى دروس الموسيقى ، وسأرسل لهم النقود والرد غداً مع إدريس . لا تنسى أن تذكرينى .

ـــ سأنزل معه صباحاً .

ـــ ولِمَ ؟

ـــ أريد أن أذهب إلى المدرسة لرد بعض كتب اقترضتها من المكتبة ولاستعارة كتب أخرى .. و ..

وصمتت برهة تستجمع شجاعتها .. إنها لا بد أن تقول .. ولكنها لا تعرف كيف تبدأ ، وليست الشجاعة هى التى تنقصها ، ولكن فقط بداية الحديث ، وأسلوب الرجاء .

وتنهدت وازدردت ريقها ثم عاودت الحديث :

ــ و .. كنت أود أن أرجوك فى موضوع خاص بعلى ابن الريس عبد الواحد .

ورفع إليها الأب عينيه .. وقوّس حاجبيه .. وجعد جبينه .. وقاطعها متسائلا فى دهشة واستنكار :

ــ على ابن الريس عبد الواحد .. ومالك أنت به ؟

ــ لقد لقيته مصادفة وأنا قادمة فى طريقى وكانت المواصلات معطلة فدعوته إلى الركوب معى .

ــ دعوته إلى الركوب معك !! وركب ؟

ــ أجل .. بعد أن ألححت عليه .

ــ ولماذا ألححت عليه ؟! بل لماذا دعوته !؟ لم يبق إلا أن تركبى أبناء الفراشين والجناينية بجوارك فى العربة ؟

ــ لقد كانت المواصلات معطلة .

ــ وما شأنك أنت .. أمسئولة أنت عن تجهيز سبل المواصلات له ؟! لماذ لا يسير ؟

ــ إنى لم أجد فى ركوبه معى غضاضة .

ــ أنت لا تجدين فى أشياء كثيرة غضاضة .. إنك كثيراً ما تنسين نفسك ، وتنسين من تكونين ، ولقد كنت أقول فيما مضى إنك صغيرة .. ولكن الآن ما عذرك وقد أصبحت فتاة مكتملة . يجب أن تعرفى دائماً أن هناك فارقاً بين السيد والمسود . لقد كنت أكره فى أمك هذا الجانب اللين . وأكره أن ترثيه عنها . إن هؤلاء القوم إن لنت لهم طمعوا فيك .. وإذا أركبتهم مرة بجوارك ، اعتبروا ذلك حقاً لهم ، إن موضعهم الأصلى تحت موطئ القدم .. لا بجواره .. وإذا حدث واضطرتك الظروف إلى أن تقدمى إلى أحدهم نوعاً من المعونة فأفهميه أن هذا فضل منك .. واذكرى له أن ذلك إحسان لا حق له فيه .. هل فهمت ؟

فهمت ؟ هل يمكن أن تفهم هذا ؟ لا .. لا .. إنها لم تفهم ، ولا تود أن تفهم ، وإذا فهمت .. فهل تستطيع أن تطبق نصائحه تلك على معاملتها لعلى ؟

عبث .. فى عبث .. إن تلك الطريقة فى معاملة الناس هى أكثر ما تكرهه فى أبيها .. أن يحتقر من حوله .. وإذا أعانهم .. كانت معونته إحساساً مذلاً وهبة مهينة .

أتجسر هى أن تفعل ذلك مع « على » .. المترفع المتكبر المتعالى ؟

ووجدت أن أباها انحرف بها عن غرضها .. وأنه قد جعل المطلب أكثر عسراً وأشد مشقة ، ولكنها كانت قد أصرّت على أن تصل إلى بغيتها ، فلم تملك إلا أن تجيبه موافقة ، موافقة ، للترضية والتسكين فقالت :

ـــ أجل .. فهمت .

ثم صمتت برهة وأردفت قائلة :

ـــ لقد علمت من « على » أنه تقدم إلى المدرسة الحربية .. وأنه اجتاز الاختبارات التى تقدم إليها حتى الآن .. ولم يعد أمامه إلا كشف الهيئة الأخير وهو كشف يحتاج إلى وساطة كبيرة .. فإذا كان يمكنك أن ترجو أحداً من ذوى الشأن .

وكانت الدهشة تزداد على وجه الأب .. وأخيراً لم يجسر على مواصلة الإنصات وقاطعها فى غضب واستنكار :

ـــ أنا أرجو أحداً من ذوى الشأن ؟ لأجل ابن الريس عبد الواحد .. حتى يكون ضابطاً ؟! أمجنونة أنت ؟

ـــ لماذا يا أبت ؟!

ـــ هؤلاء الناس لا يعرفون حدودهم .. ماذا يدعو هذا الجناينى الغبى إلى أن يتقدم بابنه إلى المدرسة الحربية ؟ ومن ذا سيعمل فى الحدائق إذا كان كل أولاد الجناينية سيتعلمون .. ويدخلون المدرسة الحربية ؟!

ـــ ولكن ليس كل أبناء الجناينية مثل على .

ـــ لماذا .. أعلى رأسه ريشة ؟

ـــ لا . ولكنه يبدو إنساناً ممتازاً ، ولا شك أنه سيكون رجلا ذا قيمة .

ـــ كلهم حيوانات .. لا يستحقون أن يكونوا أكثر مما هم عليه .

وأحست « أنجى » بغصة فى حلقها .. وحاولت جهدها أن تكبت غيظها وقالت لأبيها فى شبه توسل :

ـــ ولكنك تذكر يا أبتاه كيف أنقذ حياتى .. فلا أقل من أن نرد له الجميل .

ـــ لقد سبق أن رددته لأبيه .. إن أكثر العمال والفلاحين تمتعاً بمنحى وعطاياى هو الريس عبد الواحد ، فكفى أنت عن التدخل فى أمره وأمر ابنه ، ولست أريد منك بعد هذا الاحتكاك بهذه الطبقة .. مفهوم ؟

وكانت لهجته خشنة ناهرة .. دفعت الدماء إلى أذنيها والدموع إلى مقلتيها ، وتركت المائدة دون أن تتمم بقية طعامها ، وقد غامت المرئيات أمام ناظريها ، واندفعت صاعدة إلى حجرتها .

لقد كرهت أن يخذلها أبوها ، وأن تخذل هى بدورها علياً ، ولم تعرف ماذا يمكن أن تفعل سوى الاستسلام للبكاء .

وغادر أبوها المائدة وصعد إلى غرفته ، وعاونه إدريس فى ارتداء ملابسه ، وبعد نصف ساعة كانت العربة تنهب الأرض فى طريقها إلى القاهرة لحضور المؤتمر الذى كان عليه أن يترأس افتتاحه .

ووقفت العربة أمام مدخل فندق « هليوبوليس » ، وخف لاستقباله فى شرفة الفندق القائمة على مدخله بعض كبار المدعوين الرسميين وغير الرسميين ، وكان بين الحاضرين إبراهيم « باشا » وكيل وزارة الحربية ، وكان صديقاً حميما للأمير ، فأقبل عليه يحييه فى حرارة .

وانتهى افتتاح المؤتمر ، وغادر الأمير المكان وقد سار فى صحبته إبراهيم «باشا » يودعه حتى العربة .

وسأل الأمير صاحبه وهو فى طريقه إلى العربة :

ـــ كيف حال عزبتك التى اشتريتها فى المنصورية ؟

ـــ إنها تحتاج إلى إصلاح كثير .. بها أرض مرتفعة ومنخفضة لابد من تسويتها ، ولابد من عمل مصرف فى الناحية الغربية .. وإن كان بها قطعة طيبة تبلغ حوالى الخمسين فداناً .. لقد صنعت بها مزرعة للدواجن ستعجب أفندينا كثيراً ، وإذا سمح وقتك بزيارة لنا ، فسأرى سموّك أنواعاً جديدة استوردتها أخيراً ..

ـــ سأريك أنا مزرعتى أولا .. إنها ستدهشك ، وسأريك المنحل الذى أقمته أخيراً .. أنت الذى عليك أن تبدأ بالزيارة . متى أنتظرك ؟

ـــ قريباً إن شاء الله .

ـــ لا .. لا .. أنا أسمع منك ذلك دائماً .. فى كل مرة ألقاك تقول لى قريباً .. سأنتظرك غداً صباحاً .

ـــ غداً سأكون مشغولا طول اليوم مع الوزير .

ـــ إذن يوم السبت ؟

ـــ بعد الظهر إذن .. لأنى سأكون مشغولا فى الصباح بحضور مجلس إدارة المدرسة الحربية لإجراء كشف الهيئة الأخير على الطلبة الجدد ، لأننا سنأخذ هذا العام دفعة كبيرة .

وكان الأمير قد وصل إلى باب العربة وهمّ بالانحناء للدخول ، ولكنه عندما سمع الكلمات الأخيرة جعلته يستقيم ثانية ليسأل قائلا :

ـــ تقول إنكم ستأخذون هذا العام دفعة كبيرة فى المدرسة الحربية ؟

ـــ أجل .. ثلاثة أضعاف ما تعوّدنا أن نأخذ كل عام .

وتذكر الأمير رجاء « أنجى » ، وتذكر غضبها وبكاءها ، وتركها المائدة ، وأحس أن القدر يأبى إلا أن يلبى رجاء الصغيرة ، وكره أن يقف فى وجه القدر ، وأن يرفض الفرصة السانحة التى ساقها إليه لإرضاء ابنته .. إن كلمة واحدة يقولها الرجل .. لن تكلفه شيئاً ، وستكفل بإرضاء الصغيرة العزيزة ، وتجعل من ابن الريس عبد الواحد ضابطاً .

ضابطاً ، أو لصاً ؛ ليكن ما يكون ، إنه لن يغير ما بالكون . وقد ساق إليه الحظ هذه المنحة .. فليأخذها ويذهب .

وأردف إبراهيم « باشا » متسائلا :

ـــ أيريد أفندينا التوصية على أحد ؟

ـــ أجل .. أنت ابن حلال .. عندى فى العزبة رجل قدّم لابنه فى المدرسة .

ـــ هل نجح فى الكشف الأول ؟

ـــ أظن ذلك .

ـــ والكشف الطبى ؟

ـــ أجل .. أجل .. لم يبق له غير الكشف الأخير .

ـــ هل لأفندينا أن يذكر اسمه ؟

وأخرج الرجل من جيبه قلماً وبطاقة ، ووقف الأمير يحاول أن يذكر الاسم قائلا :

ـــ اسمه .. شيئاً عبد الواحد .. أبوه اسمه عبد الواحد .. تذكرت .. اسمه على .. أظنه هو المتقدم إلى الحربية .

وكتب الرجل الاسم ثم مدّ يده يشد بها على يد الأمير قائلا :

ـــ إن شاء الله سيكون أول المقبولين ، وسآتى لزيارة أفندينا بعد ظهر يوم السبت عقب الانتهاء من الكشف .

ـــ سأكون فى انتظارك .

وعادت العربة تنهب الأرض فى طريقها إلى العزبة بعد أن مرّ على بيت الأمير كال حيث اصطحب معه ابنه علاء .

وفى القصر جلس الأمير على مائدة العشاء ، وجلس ابنه بجواره ، وكان مقعد « أنجى » ما زال خالياً .

وصاح الأمير متسائلا :

ـــ أين « أنجى » ؟

وأجاب كبير الخدم :

ــ إنها فى حجرتها .

ــ لماذا لم تنزل ؟

ــ لقد أرسلت تقول إن رأسها مصدع .

ــ قل لها أن تهبط .. لأنى سأعرف كيف أزيل صداعها .. لقد لبيت رجاءها .. أو على الأصح .. لقد لبى القدر رجاءها .. إنها محض صدفة ، ولكن للصبى قسمة فيما حدث .

---

(١٣)

توافه الأمور

فى صباح يوم السبت كان « على » يجتاز باب المدرسة ، وقد بدا — على قدم حلته — وسيما نظيفاً ، وضمتهم مرة أخرى قاعة النادى التى انتظروا فيها كشف الهيئة الأول ، وكان الزحام أقل كثيراً من المرة السابقة إذ لم يتجاوز عدد المتبقين من الكشفين الأولين الثمانين .

وكان طلبة المدرسة القدامى قد أخذوا يقومون بترتيبهم وتنظيمهم ، وجلس « على » بجوار « سليمان » وقد خفت من نفسه الرهبة والقلق اللذين تعوّد أن يشعر بهما فى كل مرة ضمه هذا البناء العتيق .

كان إقباله على الكشف فى هذه المرة إقبال الزاهد المتعفف ، فقد ظهرت نتيجة قبوله فى مدرسة المهندسخانة يوم الخميس .. وكان أكثر مما يرجو .. فقد أتاح له مجموعه القبول فى المدرسة بمجانية دائمة .. وبذلك اطمأنت نفسه إلى أنه لن يكلف أباه عبء مصروفاته إذا ما طالت به الدراسة فى المهندسخانة وقد قبل أخوه فى مدرسة البوليس ، وهو يستطيع بذلك أن يرضى رغبة أبيه ويحقق حلمه بأن يكون له ولد من أصحاب الكسوة العسكرية والإمارة والسلطان .

وأكثر من هذا كله .. كان يشعر أن المعبر الذى كان يفصل بينه وبين إلهة أحلامه ، والذى كان يرجو أن تعاونه الحلة الأنيقة والمركز المرموق على اجتيازه ، قد اجتازه بلا حلة ، وبلا مركز .

لقد أضاع لقاء العربة كل ما كان يملؤه من هيبة وخشية ، وبدد ذلك الوهم الذى كان يربه نفسه فى القاع ، ويربه إياها فى القمة .. وملأه حديثها بالثقة ، فقد عرف منه حقيقة صورته فى نفسها ، واستشف جمال روحها ورقة مشاعرها وطيبة قلبها ، وأيقن أنها هى نفسها لا تحس بتلك الهوة السحيقة التى كان يأبى

هو ، ويأبى اختلاف طبقتيهما إلا أن يقيمها بينه وبينها .

وثمة شيء آخر أضاع من نفسه القلق والخشية ، وهو اليقين من الفشل ، والجزم بعدم القبول .

أجل .. لقد كان بنفسه يأس مريح .. إذ كان يعلم أنه يتقدم إلى الكشف فى هذه المرة .. وهو صفر اليدين .. حتى من الوساطة المتواضعة التى ذللت له السبيل أول مرة ، فقد حمله أبوه بطاقة أخرى من إبراهيم افندى إلى عبد الجليل أفندى زيادة تأكيد وتذكرة .. ولكنه علم أن الرجل مريض ، وأنه يرقد فى بيته طريح الفراش ، ولن يمكنه مرضه من حضور الكشف . ومزّق « على » البطاقة ولم يرد أن يفجع أباه ويضيع أمله فأنبأه أنه سلمها للرجل وأنه وعد خيراً .

وجلس يتحدث مع سليمان حديث اليائس من القبول ، وأخذ يعزّى نفسه عن المدرسة بتعديد مزايا المهندسخانة ، حتى نودى على اسمه وساقه الضابط الأحمر أمام المجلس كما ساقه فى المرة السابقة .

وكان فى هذه المرة أكثر هدوءاً وتمالكا لأعصابه ، فاستطاع أن يقرأ اللافتة الموضوعة على حجرة الكشف ، وكانت « المكتبة » . واستطاع كذلك أن يقرأ لافتة « الضابط » التى وضعت على باب الحجرة المغلقة التى بين النادى والمكتبة .

واستطاع أن يبصر « الدواليب » الزجاجية التى صفت الكتب على رفوفها .. وأن يميز إلى حد ما الوجوه المجعدة والرءوس البيض التى استقرت على الأكتاف اللامعة ، والتى أخذت ترمقه بنظرات فاحصة .

وسأله رجل يرتدى الملابس المدنية قد توسط المنضدة :

ــ أأنت على عبد الواحد ؟

فأجاب :

ــ أجل .

ومال الرجل على الضابط الإنجليزى الجالس بجواره وهمس فى أذنه بضع كلمات ثم قال :

ـــ حسن .. اخرج .

ثم أردف موجهاً القول للضابط الأحمر :

ـــ اللى بعده .

وخرج وهو يتنفس الصعداء :

الحمد لله .. لقد انتهت العملية الشاقة .. ما كان أغناه عنها من أول الأمر .. ولكن لا بأس عليه .. إنها مجرد تجربة .. وعلى أية حال ، إنه لن يؤنب نفسه بعد ذلك عندما يرى أحد أصدقائه فى حلة رسمية ، فلقد حاول وأخفق .. الحمد لله .

ولم يهبط من السلم الآخر كما فعل فى المرة السابقة ، فقد كان الطلبة ينتظرون فى الجانب الآخر من الطرقة .

وأخيراً انتهى الكشف ووقف الضابط أركان حرب المدرسة ينادى الأسماء .

وشرد ذهن « على » . لقد طلبت منه « أنجى » أن تراه فى الحديقة .. ولكن متى ؟ وكيف ؟ .. لقد قادته قدماه ذات أصيل فطاف بالسور الخلفى وتسلل إلى السوبة .. ولم يجسر على أن يتجاوزها .. وعاد من حيث أتى .. كيف يراها ؟! وهو لا يعرف متى تهبط إلى الحديقة !! أم ترى عليه أن يرابط فيها ليل نهار حتى يضبطها هابطة إليها !

ثم ماذا يفعل إذا رآه أبوها وأخوها ؟ بل ماذا يقول إذا رآه أبوه هو ؟ أيقول إنه قد أتى ليرى « أنجى » لأنها دعته إلى رؤيتها ؟

وأحس بمرفق سليمان يضربه فى ذراعه ويقول له فى صوت مأخوذ :

ـــ أجب .. ألا تسمع ؟

فتلفت إليه فى دهشة :

ـــ أسمع ماذا ؟

ـــ اسمك . إنهم ينادونه .

ـــ أنا ؟

وعاد الصوت الجهورى ينادى فى لهجة حانقة :

ـــ على عبد الواحد ؟

ـــ أفندم .

وعاد سليمان يدفعه قائلا :

ـــ انتقل إلى الصف الأمامى .

وعلا الصوت مناديا الاسم الذى بعده :

ـــ سليمان زكى .

وقبل أن يتم نطق الاسم ، كان سليمان قد قفز بجوار « على » ، وأحس « على » بيد سليمان تضغط على يده بشدة وهو يهمس :

ـــ مبروك .

ـــ مبروك ماذا ؟

ـــ لقد قبلنا .

ـــ غير معقول .

ـــ ما هو هذا غير المعقول .. لقد نادوا أسماءنا .

والتفت إليه « على » وهو يقول مؤكداً :

ـــ أيها الغبى .. لا بد أنهم ينادون أسماء الذين لم يقبلوا لأنى واثق أنى لم أقبل إن عبد الجليل أفندى مريض .. وأنا لم أره فى ..

وقبل أن يتم حديثه كان الرجل ذو الصوت الميكروفونى يصيح صيحته التقليدية :

ـــ اسمع الطلبة .. الذين لم يسمعوا أسماءهم يمكنهم سحب أوراقهم الآن من السكرتيرية .. ليتفضلوا حتى لا يتعطلوا .. أما الذين ناديت أسماءهم فيبقون فى أماكنهم .

وهز « على » رأسه كأنما ينفض عنه حلماً . وهمس لصاحبه :

— غير معقول .. غير ممكن .

وأعجزته المفاجأة عن التفكير .. إنه لم يحضر ذهنه لقبول النبأ .. ولم يعرف كيف يفر .. ولا استطاع أن يستحضر فى رأسه ما يمكن أن يترتب على قبوله من نتائج وتطورات خاصة به وبها وبأبيه وأمه وأخته .. ، بل بكل ما فى حياته .

ولم تترك له الحوادث السريعة التى مرت به بعد ذاك فرصه للتفكير. كان أول ما حدث هو خروج مجلس الإدارة ومروره على طابور الطلبة المصطف.. وإعادته النظر فيهم .

وانتهى المرور بعد أن توقف الرجل المدنى أمامه برهة مع الرجل الإنجليزى ثم عبراه بسلام .

وهبط الطابور بعد ذلك إلى الفناء السفلى يقوده الطلبة القدامى ، الذين بدءوا يباشرون سلطانهم على الطابور بمجرد أن أعلنت نتيجة القبول ، حتى بدوا كأنهم تجار فى سوق عبيد ، وأن الطلبة المقبولين قد أضحوا ملكاهم .

وبدأت عملية أخذ المقاسات المختلفة ، وانهمك الترزية فى قياس الأطوال والأعراض ، وانهمك صانع الأحذية فى أخذ مقاس الأقدام . ثم بدأ رئيس الطلبة القدامى الذى كانوا يدعونه الباشجاويش « رجب » فى توزيع قوائم الملابس الخاصة المطلوب إحضارها يوم الدخول .

وأخيراً .. وبعد أن قاربت الساعة الثانية ، أطلق سراحهم وحدد لهم موعد الدخول فى العاشرة صباحاً من يوم الخميس .

وغادر « على » المدرسة وبصحبته سليمان ، وقد أفعمت نفسيهما فرحة القبول ونشوة النجاح ، وإن كانت مفاجأة « على » بها قد تركته فى شرود واضح غطى على مظاهر الفرح .

وقال سليمان وهو يهزّ رأسه باسماً :

— عجيب هذا القدر .. يجعل مصائرنا معلقة بحوادث تافهة .. تبدو فى ظاهرها لا تربطنا بها صلة . ولا نكاد نلقى لها بالاً ولا نهتم بأن تحدث أو لا

تحدث .. ومع ذلك .. فبحدوثها أوعدم حدوثها تتعلق مصائرنا . لقد ذهبت يوم الأحد الماضي إلى بيت خالى وهو موظف فى وزارة المالية ، ذهبت لغير غرض معين ، وكان من المحتمل جداً ألا أذهب لو كان معى نقود تمكننى من الذهاب إلى السينما . ولم أجد إبراهيم ابن خالى ، وأخبرتنى أمه أنه لن يتغيب كثيراً وعرضت علىّ انتظاره ، وكان من الممكن ألا أنتظر ، ولاسيما وأنى لم أكن أريده فى حاجة ملحة بل لمجرد التسلية . ومع ذلك فقد انتظرت . وقبل أن يعود طرق الباب فرّاش وأنبأنا أن خالى موجود فى بيت « زكى بك » مدير الميزانية وقد أرسله ليحضر دوسيهاً أحضر نسيه على المكتب . وأحضرت زوجة خالى الدوسيه المطلوب ، ولكنها قبل أن تسلمه للفرّاش ثار فى نفسها وسواس جعلها تخشى على الدوسيه . وكان من المحتمل أن يحضر ابنها فى تلك اللحظة فتطلب منه أن يحمل إلى أبيه الدوسيه . وكان الأمر قد انتهى بالنسبة لى عند هذا الحد ، ولكن الابن لم يحضر والوساوس تملأ نفس السيدة وأنا جالس أتصفح إحدى المجلات .. ولم تجد بداً من أن تسألنى أن أذهب بالدوسيه مع الفراش لأسلمه لخالى .

وذهبت ، ووصلت إلى البيت ولم يكن يبعد كثيراً عن بيت خالى .. وكان من المحتمل ألا أعقد الأمور فأعطى الدوسيه للفراش عند الباب لإدخاله ، أو حتى أسلمه للخادم الذى فتح الباب .

كان يمكن أن أفعل ذلك فينتهى الأمر .. ولكن الوسواس الذى وسوس فى صدر زوجة خالى وسوس فى نفسى . فأصررت على أن أؤدى واجبى كاملا وطلبت أن أسلم الدوسيه لخالى .

ودخلت فوجدت خالى جالساً فى رفقة رجل ممتلئ يرتدى روباً وطاقية ، وآخر وجيه المنظر يرتدى ملابسه كاملة .

ودهش خالى من مرآى وسلم علىّ وسألنى عما أحضرنى ، فأخبرته أن خالتى خشيت على الدوسيه من عبث الساعى فأرسلته معى .

وضحك الرجل ذو الروب وقال :

ـــ معها حق .. إنها حريصة .

وقدمني خالي إلى الرجلين قائلا :

ـــ سليمان ابن أختي .. لقد حصل على البكالوريا هذا العام وهو متقدم إلى المدرسة الحربية .

وضحك « لا بس الروب » الذي أدركت أنه لا بد أن يكون صاحب الدار ورئيس خالي ، وقال للرجل الآخر مازحاً :

ـــ إنه حربية مثلك .. سنخرج نحن من المسألة !

وضحك الرجل الآخر وقال مجاملا :إنه يبدو طويل القامة .. سيكـون ضابطاً فخماً !

وعلق خالي على قوله في شبه أسف :

ـــ والله لا أظن .. فالحربية مستعصية جداً !

وقال صاحب الدار في لهجته المازحة :

ـــ كيف تكون مستعصية .. وأمامك سكرتير مالي الحربية بجلالة قدره !

وابتسم خالي وقال راجياً :

ـــ لو تكرّم علينا سعادته بالمساعدة فستكون منّة لن ننساها .

واستمر صاحب الدار في مزاحة :

ـــ وكيف لا يتكرّم .. إنه أمر .. أنا أعرف جماعة الحربية لا يطيعون إلا الأوامر .

وضحك السكرتير المالي قائلا :

ـــ سمعاً وطاعة .. سأرجو له مديرَ المدرسة ، إنه صديقي .. وله عندي طلب لن أنفذه له إلا إذا أجاب مطلبي . ما اسمك ؟

وسرعان ما كتب خالي اسمي على ورقة وسلمها إليه .

وخرجت وأنا غير مصدق لما حدث .. أترى الرجل سيرجو حقاً ؟! وهل إذا رجا سينفذ مدير المدرسة رجاءه ؟

وهززت كتفى فى استخفاف .. إن المسألة كلها غير ذات أصل .. كلها بنت الظروف .. وفى عدة مراحل فيها كان يمكن أن تتوقف .

وكما أنها حدثت فقد كان يمكن ألا تحدث .. فليس هناك داع للتفكير فيها .. وتعليق مصيرى بها .

وأخذت أبعدها عن تفكيرى كلما دفعنى الأمل إلى التعلق بها .

والآن .. أجد المعجزة قد حدثت .. وأجد نفسى قد قبلت .. وكان من المحتمل ألا أقبل .. لو كان معى نقود وذهبت إلى السينما ، أو لو وجدت ابن خالى ، أو لو لم يوسوس الوسواس فى صدر أمه .. أشياء كثيرة جداً كان يمكن ألا تحدث .. فتمنع قبولى .. ومع ذلك حدثت .. وقبلت .. أهناك أعجب من مصائرنا المعلقة بصغائر الحوادث وتوافه الأمور ؟

وضحك « على » .. ورفع سليمان رأسه فازداد « على » ضحكا .. وسأله سليمان :

ـــ ماذا يضحكك ؟

ـــ لقد دخلت أنت المدرسة لأن حادثة وقعت .. وكان من الممكن ألا تقع .. حسن .. أنت على الأقل تعرف لماذا قبلت .. ولكن ما رأيك فيمن لا يعرف كيف قبل .. ما رأيك فيمن لا يعرف ماذا حدث ؟ وماذا لم يحدث ؟ حتى وجد نفسه مقبولا .

ـــ أحقاً تقول ؟.

ـــ طبعاً .. كانت وساطتى عبد الجليل أفندى .. ولقد تخلى عنى ولزم الفراش فى اللحظة الأخيرة .

ـــ غير معقول .. أن تقبل بلا وساطة ، قد يكون أوصى بك ، وهو فى فراشه ؟

ـــ ماذا تظنه يكون .. رئيس الوزراء .. حتى يوصى بى وهو فى فراشه فأقبل !؟

ـــ وقد يكون أحد توسط لك دون أن تدرى ، على أية حال لقد قبلت وانتهى الأمر .. أنت مخلوق طيب .. ولا بد أن الله يرد لك جميلا صنعته فى أحد

وفجأة ومضت فى ذهن « على » بارقة كأنها الشرر .. أيمكن أن تكون هى ؟ من يدرى ؟ ولكنه لم يطلب منها المساعدة .. ولم تعده هى بها .. وهو لا يظنها تهتم به إلى هذا الحد ، ولا يظن أباها ، قد لبى رجاءها بهذه السهولة .

ورأى سليمان شروده فسأله عما به وهز « على » رأسه مجيباً :

ـــ لا شىء .

وكان الأوتوبيس قد وصل إلى المحطة وذهب « على » لركوب القطار ، واتجه سليمان إلى الترام الموصل إلى شبرا .

وجلس « على » فى القطار .. وتتابعت المرئيات أمام عينيه .. وبمثل سرعتها توالت الأفكار على ذهنه .

إن المسألة لم تتجل فى ذهنه بعد .. إنه لا يستطيع أن يركز تفكيره فى شىء معين .. فلا شىء يثبت فى رأسه ، وكل الأفكار تغدو متلاحقة .. هى ، وأبوه وأمه وأخوه والبيت ثم المدرسة .. ثم هى مرة أخرى ..

وأخيراً وصل إلى محطة بلدتهم ، ولم يكد يغادر القطار حتى وجد أباه قد ارتدى جلبابه الصوف وأقبل يهرول مع أخيه وهو يقول لاهثاً :

ـــ ما هذا ؟. ما الذى أخرك ؟. لقد شغلنا عليك .. لو لم تأت فى هذا القطار لأخذت أول قطار إلى القاهرة .. ماذا حدث ؟

وأقبل عليه حسين يهزه من ذراعه :

ـــ ما النتيجة ؟! قل ما لك متجهماً هكذا ؟

وضحك على :

ـــ أنا لست متجهماً .. ولكن أعطونى فرصة أتحدث .

وعاد حسين يقول ملحاً :

ـــ يا أخى .. قل .. ما النتيجة ؟

— قبلت .

وصاح حسين فرحاً :

— أقبلت ؟! أحقاً تقول؟!

ثم هجم عليه يحتضنه ويقبله وهو يعاود سؤاله :

— حقاً قبلت ؟! أمتأكد أنت ؟

— أجل .. أجل .. قبلت .. وأخذوا مقاسى وطلبوا منى الحضور يوم الخميس .. ماذا تريد تأكيداً أكثر من هذا ؟

وانطلق حسين يعدو إلى البيت راقصا .. وتذكر وهو يرقص فى الطريق أنه ضابط بوليس .. وأن عليه أن يكون محترماً .. ولكنه طلب من نفسه « الصهينة » قليلا .. فالفرحة أكبر من أن يقطع بها الطريق سائراً كبقية الخلق .. وهو بعد لم يرتد البدلة .. ولا مانع هناك من بعض « البحبحة » .

ووصل إلى البيت ، وكان أول من صادفه « بهية » فأخذها بين أحضانه وأوسعها تقبيلا وهو يقول :

— بنت يا بهية .. لقد قبل « على » وأضحينا نحن الاثنين ضابطين .. أتفهمين معنى هذا ؟! سيصبح هذا البيت مقر الحكم .. سأجلد العمدة على هذه العتبة .

وأقبلت أمه مهرولة :

— أى عمدة هذا الذى ستجلده ؟! أين أخوك على ؟

— لا تقولى « على » حاف .. من الآن فصاعد .. أنا الضابط حسين أفندى وهو الضابط على أفندى .. لقد قبل فى الحربية .

وهتفت الأم :

— أحقاً تقول ؟

— أجل . حقاً .

وقالت بهية ضاحكة :

— ومالك فرحان هكذا كأنك أنت الذى قبلت ؟.. إنك لم تفرح بدخولك

البوليس فرحتك بدخوله الحربية .

يا غبيّة لأن دخولى البوليس كان مضموناً .. أما دخوله الحربية فمعجزة .. ثم إنى أعرف أنها كانت من أعز أمانيه رغم أنه لم يكن يفصح عنها .. أنا أعرف « على » أكثر منكم جميعاً .. إنه يستحق أكثر من هذا لأنه خير من فى أسرتنا ، بل خير من فى بلدنا .. إنه حتى خير منى .

وهمست « بهية » لنفسها وهى تنظر إليه فى حب منطو فى جوانحها :

— والله ليس هناك خير منك .. حتى ولا على .. بكل ما فيه من خير .

وأقبل « على » ، وأبوه من الباب ، وتلقت الأم علياً بين أحضانها وضم « على » أمه إليه .. رغم أنه كان يكره مظاهر العطف من أحضان وقبل ، ولكنه أحس وهو يضمها إليه أنه لا يضمها ضمة الفرح وتبادل التهنئة ، ولكنها ضمة الوداع .. إنه لم يضمها من قبل .. بل كان يتركها تضمه .. أما فى هذه الضمة فقد ضغط « على » جسدها بذراعيه .. فبعد بضعة أيام سيغادر أحضانها التى كان يحس أنها تحتويه حتى على بعد .. كانت فى نظراتها ضمة .. وفى حركاتها ضمة .. فى مسة يدها ضمة .. وفى همسة شفتيها ضمة .

عجيبة هذه الأم ، وعجيب حبها . فى بهمة الليل كانت تتسلل إلى فراشهما لتجر عليهما الغطاء ، وإذا مسه هو أو أخوه ضر كانت الساهرة التى لا يغمض لها جفن .. جالسة بجوار الفراش وبجوارها طبق الخل ، وفى يدها الكمادات ، واليد الأخرى على الجبين .

كانت تحرم نفسها ليشبعا ، وكانت لا تحل لنفسها إلا اللقمة الفائضة ، وكانت تخدعهما وتقول إنها أكلت حتى لا تقاسمهما الطعام ، وكانت ترقبهما هانئة مغتبطة .. كانت تفعل من أجلهما كل ما يخطر على بال بشر من تضحيات .. ولأجل ماذا ؟! للاشىء ، ولا ثمن .. إن حبها هو أسمى أنواع الحب .

وضمها « على » ضمة الوداع خفية ، لأنه كان يكره مظاهر العطف .. وكان يكره أن يضمها علناً عندما تحين ساعة الوداع .

(١٤)

الليلة الأخيرة

رقد « على » فى فراشه لآخر ليلة قبل أن يغادر الدار ، وكان السكون قد ران إلا من أصوات ليل الريف التى تبدو كأنها جزء متمم لسكونه .. نقيق فى مصرف ، أو نعيب على شجرة ، أو خوار فى حظيرة ، أو نباح على باب .

وأغمض « على » عينيه برهة وهو يستدعى النوم الهارب إلى جفنيه . وتململ فى فراشه ثم فتح عينيه وحدق فى العروق الخشبية التى أقيم عليها سقف الغرفة ، ثم فى ظلال أعمدة السرير المتراقصة على أعلى الجدران ، ثم فى فتيل المصباح المهتز كلما هبت عليه من النافذة نسمة من نسمات الصيف الناعمة .

وأطلق بصره من فتحة النافذة فاستقر على صفحة السماء المعتمة التى تلألأت فيها النجوم مهتزة مرتجفة كأنها الذبالة فى مهب الريح .

وعلا صدره ثم هبط عن تنهيدة حارة طويلة .

ما للكآبة تزخر فى نفسه ! وما للوحشة تفعم روحه ! وما للدمع يوشك أن يطفر من مقلتيه !! وما لصدره يصطخب ببكاء حبيس !

ما لكل هذا ، وأمانيه قد باتت ملء يديه ، وغده القريب سيحمله إلى دنياه الجديدة .. دنيا المستقبل الحافل ، والآمال العريضة .

ما لكل هذا .. وقد حقق فى يومه أجمل أحلامه .. الأحلام التى لم يخطر له ببال قط أن تتعدى محيط الأحلام ، الأحلام التى تعوّد أن يسعد بها فى مرقده .. كلما طافت بذهنه .

ألأنها الليلة الأخيرة فى مضجعه هذا .. الذى أحس فيه بأعذب أحاسيسه ، ورأى أجمل أحلامه ؟

ألأنها ليلة التفرقة والبعد عن مرقد حملت إليه النسائم أنفاساً عطرة تسرى من وراء الأسوار القريبة والجدران الدانية ؟

ألأن غده سيحمله بعيداً إلى حيث لا تصل إليه هبات الأنفاس ؟

ألأن غده سيبعده عن كعبته بعد أن أصبح الطريق إليها معبداً والطواف بها مستطاعاً ؟!

ألأن غده سينأى به عن الروح وقد عادت ، والقلب وقد ردّ ، والفؤاد وقد دنا ؟

أجل .. لقد أحس اليوم بعودة الروح وارتداد القلب ، ودنو الفؤاد .. ورويداً رويداً أخذت الوحشة تزول ، والكآبة تتبدد ، وهو يستعيد فى ذهنه الذكريات القريبة الحلوة التى حدثت له في فجر يومه هذا .

كان يشعر فى بضعة الأيام الماضية التى تلت قبوله فى المدرسة بحنين فياض إلى رؤيتها ، ورغبة جامحة فى لقائها .. كان ما يزال يذكر قولها له إنه يجب أن يدخل المدرسة .. ويذكر كذلك قولها إنها تود أن تراه .

وكلما مضى يوم أحس بالرغبة تزداد والحنين يشتد .. فقد كان يجد فرصة لقائها تقل يوماً بعد يوم ، وكان دائم الطواف بالسوية والحديقة والأسوار ، وهو الذى كان يخشى الاقتراب منها فيما مضى .

كانت نفسه مليئة بالثقة .. وكان يشعر أن لقاءها فى هذه المرة سيكون أقرب إلى لقاء الأنداد .. وأن الهوة العميقة التى كانت تفصل بينهما فيما مضى ، لم يعد لها وجود الآن .

كان يود أن يلقاها مرة واحدة ليشكرها على الثقة التى ملأت نفسه بها فى اللقاء الأول ، وعلى هدمها لذلك السد العالى المنيع الذى أقامته الأوهام بينهما ، والذى كان يبديه وحيداً ذليلا فى أسفل القاع ، ويبديها مترفعة فى أعلى القمة ، وأكثر من هذا كله .. كان يود أن يشكرها على ذلك الصنيع الذى — وإن لم يدل عليه دليل — كان يراود نفسه إحساس خفى بأنها صاحبته ، فقد كان قبوله بلا

وساطة يكاد يكون شيئاً مستحيلا .. وكان يحس فى قرارة نفسه أن الوساطة المجهولة لا بد وأن تكون هي .. رغم أنه لم يسألها شيئاً .. ورغم أنها لم تعد بشيء .

ولم يزعجه فى الواقع أن تكون صاحبة فضل عليه بعد التطور الجديد الذى أصاب مشاعره ، وبعد الرقة التى عاملته بها ، والإقبال الذى أبدته نحوه فأدنته به من نفسها .. لقد تبدد من نفسه ذلك الشعور الذى دعاه لأن يرفض البنطلون الذى أحسنت عليه به .. لأنه ، وإن كان يرفض الإحسان ، إلا أنه لا يرفض العون ولا يستنكر المساعدة التى تقدم عن رغبة .. والتى تبدو له دليلا على التقدير أكثر مما هى مظهر للمذلة .

وبات أمسه وهى ملء أحلامه ، واستيقظ فى الفجر وقد تزايد الحنين واشتد الشوق ، وغادر الدار والأهل نيام ، وخرج يخوض بين المزارع وهو يحلم أن اليوم هو فرصته الأخيرة .

وكانت الشمس لم تبد فى الأفق بعد ، والضوء الرطب قد تسرّب فى الحقول ، وندى الخريف قد كسا الأوراق الخضر ، والكون كله قد بدا كأنه مازال يلفظ أهدأ أنفاسه قبل تثاؤب اليقظة .

وقفز « على » القناة الضيقة التى تقع بين البيت والطريق ، وكان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً ، وأخذ يضرب بحذائه أطراف الحشائش المبتلة حتى وصل إلى الطريق فسار على جانبه متمهلا وقد وضع يديه فى جيبى البنطلون .

ووصل إلى الباب الخلفى المؤدى للسوبة ، ودفعه ، ودلف إلى الداخل وقد تبددت من نفسه كل بقايا الرهبة والخشية .. وحيا الحارس الجالس على باب السوبة والذى ردّ على تحيته بأحسن منها ، وهو يحس فى قرارة نفسه أنه لا يحيى ابن الريس عبد الواحد فحسب ، بل يحيى ضابطاً مقبلاً ، أو مشروع ضابط .

ولف « على » لفة حول السوبة وهو يضرب ببصره فى الطرق والممرات

المحيطة عله يلمح لها شبحاً أو يبصر لها طيفاً .. لكن الحديقة كانت خاوية إلا من الزهور والأشجار .

وأخذ يبتعد رويداً رويداً عن السوبة سائراً فى اتجاه القصر ، حتى بدا له مدخله الفخم ذو الأعمدة الرخامية الضخمة .

وأحس أنها جرأة منه أن يقترب إلى هذا الحد . ولم يعرف كيف يمكن أن يتحدث إليها حتى لو أسعده الحظ برؤيتها فى هذه المنطقة القريبة من القصر ، والمعرضة للنوافذ والشرفات .

وأخيراً أخذ يعود أدراجه ، مستحمقاً نفسه على مغامرته ، وعلى توهمه أنها يمكن أن تستيقظ مثله فى هذه الساعة المبكرة .

إذا كان الشوق قد دفعه إلى الانطلاق فى الفجر جرياً وراء طيفها ، فماذا يمكن أن يدفعها هى ؟..

وغادر الباب الخلفى ، وأخذ يسير بجوار الترعة الرئيسية وقد صوّب بصره نحو المياه المتدفقة التى عكر صفوها طمى الفيضان وأحس بنوع من اليأس يتملكه لأن الفرصة الأخيرة توشك أن تفلت دون أن يتزود منها بنظرة أو يلقى إليها بكلمة وداع قصيرة ، وانحدر من الطريق إلى حافة الترعة واستقر على الحشائش التى تكسوها وتطلع ببصره إلى جدران القصر البادية من وراء الأسوار .

وبلغت مسامعه أصوات حوافر دابة تطرق أرض الطريق طرقاً منتظما ، وظنها دابة عابرة تنقل بعض محصولات الأرض ، ولكن الطرقات توقفت وساد السكون برهة ثم علا صوت رقيق يهتف :

— على .

ودون أن ينظر إلى مصدر الصوت أصابته رجفة ، وأحس بدقات قلبه تتزايد بسرعة مخيفة ، وحاول جهده أن يتمالك روعه ، وأن يصلب نفسه لمقاومة وقع المفاجأة ، واستدار ليواجه الوجه الرقيق والبسمة الحلوة وقد استقرت صاحبتهما على ظهر جوادها الهادىء الأشهب الذى أخذ يمد عنقه إلى الأمام جاذباً من يدها

العنان كأنما يود الهبوط إلى حافة الترعة

وقبل أن ينهض « على » ويتقدم لملاقاتها ، كان الجواد قد انحدر بها إلى أسفل ، وفى غمضة عين قفزت عن ظهر الجواد فاستقرت واقفة بجواره ، ومدّت يمناها محّيية ، وقد أمسكت عنان الجواد بيسراها .

وقالت وهى تهز يده فى حرارة :

— مبروك يا على .

— الله يبارك فيك .. كيف عرفت ؟

— سمعت إبراهيم أفندى يتحدث مع إدريس ، وكنت أود أن أهنئك قبل هذا ولكنك لم تتح لى الفرصة ، فانك فيما يبدو تصر على عدم الحضور إلى الحديقة .

— لقد حضرت ما يزيد على عشر المرات دون أن أجد لك أثراً .

— متى حضرت ؟

— أمس .. وأول أمس .. وقبل أول أمس .. ومنذ لحظة ذهبت حتى أبواب القصر .

— عجباً !! إن سوء الحظ قد تدخل فى عدم اللقاء .. لا بد أنك كنت تحضر عندما أكون فى داخل الدار .. أو فى القاهرة ، كان يجب أن نتفق على موعد .

— الحمد لله أن أتاحت لنا الصدف لقاء على غير موعد ، لشدّ ما كنت أخشى أن تضيع الفرصة الأخيرة فى لقائك .

— الأخيرة .. كيف ؟

— سأذهب غداً إلى المدرسة .. وكنت أكره أن أسافر دون أن أشكرك .

— تشكرنى .. علامَ ؟

— على أشياء كثيرة محسوسة ، وملموسة .. وإن كنت أجد الشكر أعجز وأضأل من أن يوازن ما فعلت .

— لست أفهم !

— أما المحسوس فقد فعلته بلقائك السابق .. وبرقتك ودعوتك لى إلى الركوب .

ـــ ولكن كان يجب أن أدعوك إلى الركوب .

ـــ لست أعني بجرد الدعوة بشكلها المادى .. رغم أنها لا شك عمل يستحق الشكر .. ولكن ما أراحت به نفسي وهدأت به مشاعرى أكثر كثيراً مما أراحت به جسدى .. ولست أدرى أمن اللائق أن أفصح عن أشياء خافية فعلتها بنفسي .. وهل إذا أفصحت أأحسن الشرح والتعبير .. أم من الخير أن يظل ما بى منطوياً بين جوانحي ؟

وجذبت « أبجى » الجواد وتقدمت إلى ناحية من حافة الترعة قامت بها بعض أعواد الغاب تحجبها عن الطريق ، وقالت وهى تستقر على الحشائش بجوار الغاب وتفلت عنان الجواد ليرعى بجوارها :

ـــ أنجلس قليلا .. أم لديك ما يشغلك ؟

ـــ أبداً ليس لدىّ شيء .. لقد خرجت لألقاك وأتحدث إليك .

وخيمت عليهما سحابة صمت أصابتهما بالارتباك ، وحاول كلاهما أن يتمالك نفسه ، وقالت وهى تحاول تبديد الصمت :

ـــ ماذا كنت تقول ؟

ـــ كنت أقول إننى وددت أن أشكرك على ما فعلته بنفسى .. مما قد لا تدركين مداه ، ومما يحتمل أن تكونى فعلته عن غير قصد منك .. ولكن إذا عرفت أنك جذبت إنساناً كان يأبى إلا أن يلقى بنفسه فى هاوية . من الضياع والإحساس بالتضاؤل .. وأنك قد جعلت من أمانيه التى أقيمت فى أحلام ضائعة وشيدت على أوهام متبددة .. أمانى حيّة يمكن أن يراها فى صحوه ويحس بها فى واقعه .. وأنه لم يعد هائماً ولا ضالا ، بل إنساناً يسعى ، والثقة تملأ نفسه ، بأن ما يرجوه ويأمل فيه يمكن أن يبلغه ويطبق عليه بيده . أفهمت ؟

وران الصمت .. وأحس بأنه يسمع صوت أنفاسها متلاحقة ، وخيل إليه أن أنفاسه قد باتت هى الأخرى تلاحق أنفاسها .. وكأن كليهما يعدوان فى سباق .

وقالت فيما يشبه الهمس :

ـــ أكاد أفهم . ولو كنت أعلم .. لفعلت ما فعلت من زمن مضى .. ولكنى

لم أكن أعرف ، كنت أراك متباعداً مترفعاً ، و لم أكن أفهم شيئاً .

ـــ لم تكن هناك وسيلة ، و لم يكن يخطر لى ببال أنى بمستطيع بلوغك إلا فى الأحلام .

وساد الصمت مرة أخرى وعاد وهو يقطعه بقوله :

ـــ هذا هو الشيء المحسوس الذى فعلته بى .. وهو لا يقدر بشكر ولا يستطاع ردّه .. لأنه أكبر من أن يرد ؛ أما الشيء الملموس ، فإنى أشكرك .. لا لنتائجه ، بل لمجرد أنك ذكرتنى به .. وفعلته من أجلى .

ـــ لست أفهم ما تقصد ؟

ـــ قبولى فى المدرسة .

وعلا الاحمرار وجهها وتساءلت وهى تطرق برأسها فى الأرض ، وتعبث بعصاها فى الحشائش :

ـــ من قال لك ؟

ـــ لم يقل لى أحد .. ولكنى أستطيع أن أستنتج .. لقد قبلت دون أن أعرف لى وساطة فى القبول ، وأحس أنك كنت وساطتى .. أو على الأقل أتمنى هذا .

ـــ أحقاً تتمنى هذا ؟! كنت أخشى أن تعلم فتغضب وترفض مساعدتى كما رفضتها من قبل .

وضحك قائلا :

ـــ تقصدين البنطلون ؟

ـــ أجل .

ـــ إنى جد آسف على رفضه ، ولكن كان بى إحساس من فقدان الثقة الذى حدثتك عنه ، وكنت أكره منك الإحسان لأنى لم أكن أود أن أضعك منى موضع المحسن المتفضل . أما الآن ..

وأطرق قليلا ثم تشاغل بالعبث فى الماء بعود من الغاب وهمست « أنجى » متسائلة :

ـــ أما الآن ؟

وعاد يردد وهو يحدق فى الماء كأنما يحدث نفسه :

ـــ أما الآن ، فكل مظهر من مظاهر اهتمامك بى يملأنى نشوة ، ويحملنى من السعادة ما كاد أنوء به .. إنى حقاً لا أعرف كيف أشكرك .

ـــ دعك من كلمة أشكرك ، لا أظن أحداً منا يعاون الآخر وفى ذهنه أى انتظار لكلمة الشكر .. وإذا كنت قد حملتك بما فعلت سعادة ونشوة ، فقد حملت نفسى مثلها ، عندما أحسست أنى سببت لك نوعاً من السعادة .

ونظرت إلى الساعة فى معصمها ثم نهضت قائلة :

ـــ لقد آن لى أن أعود . إن « علاء » لا شك قد وصل إلى البيت ، لقد سار هو عبر المزارع ، وسرت أنا بجوار الترعة على الطريق .. إن إلهاماً فى داخلنا يدفعنا أحياناً إلى الطريق الصحيح الذى يجب أن نسلكه .. ولو لم أسر بجوار الترعة لما التقينا .

ونهض « على » ووقف بجوارها وقد أمسكت بعنان حصانها وتذكر حديث صديقه « سليمان » عن الحوادث التافهة التى يمكن أن تقع أو لا تقع ، فإذا ما وقعت غيّر وقوعها مجرى حياتنا .. وقال وهو ما زال يعبث بعود الغاب فى الماء :

ـــ لست أدرى كيف يمكن أن تتعلق مصائرنا هكذا بحوادث كان من الممكن ألا تحدث .. فتقلب مصائرنا رأساً على عقب ؟. إنى لا أستطيع أن أتصوّر كيف كان يمكن أن تكون حياتى لو خلت من هذه اللحظة التى مررت علىّ فيها بعربتك أو لو خلت من اللحظة التى دفعتك إلى المرور بى الآن ؟ عندما أفكر فى مصيرى بغير تلك اللحظات أحس برجفة .. ثم أحمد الله الذى لم يسقطهما من سجل حياتى ، وأمتعنى بهما وبما أعقبهما من نتائج جعلت منى ما أنا عليه . إنى أحمد الله وأحمدك ، رغم أنك لا ترضين حمداً ولا شكراً .

وسحبت حصانها على منحدر الترعة حتى بلغت الطريق .. ثم سارت تجاه القصر و« على » بجوارها .

وأحس كلاهما بقرب الفرقة.. وبدا لهما أن هناك الكثير مما يودان قوله ولكنهما لم

يقولا شيئاً .. وخيل إلى كل منهما أن بنفسه ما بنفس الآخر ، وأن انعكاس المشاعر فى باطنهما قد جعل التفاهم مستطاعاً بلا حاجة إلى إفصاح .

وقالت متسائلة تقطع حبل الصمت :

— متى تنوى الرحيل ؟

— غداً صباحاً !

— ومتى تنوى العودة ؟

— أظن بعد شهرين .. فالطلبة الجدد كما سمعت لا يخرجون إلا بعد تمضية مدة المستجدين .. وبعد أن يتعلموا التحية .

ونظرت إليه وقالت ضاحكة :

— ستتعلم كيف تضرب عقبيك أحدهما بالآخر ، كما يفعل الجنود ؟

— ولِمَ لا ؟! لست أجد فى ذلك أمراً عسيراً .

— وددت لو أراك فى المدرسة .

— لا أظنك سترين ما يسرك ؛ فستجدينني حليق الرأس ، خشن الثياب ، قبيح المنظر .

— لا .. لا .. إنى واثقة أنك ستكون وجيهاً فى ثيابك العسكرية .. فى الجاكتة الكحلية والبنطلون ذى الشريط الأحمر .

— هذه ثياب لا يرتدونها إلا خارج المدرسة .

— وماذا إذن يرتدون فى الداخل ؟

— ثياب « كاكية » شبيهة بثياب الجنود حتى تحتمل الأعمال الشاقة من « طوابير » المشاة .. وضرب النار .. وركوب الخيل .

— ستركب خيلاً ؟

— أظن ذلك .

— إذن فسنركب سوياً عندما تعود فى كل عطلة .. سأجعلهم يعدون جواداً ثالثاً لكى تخرج للركوب معنا فى المزارع أليس كذلك ؟! إننا سنراك طبعاً عند عودتك فى كل عطلة ؟

وأطرق « على » و لم يدر بماذا يجيبها .. إنه سيحيا خلال هذين الشهرين بأمل واحد وهو أن يعود ليراها . ولكن كيف يراها .. ألا تعرف أن تلك هي المشكلة الكبرى ؟ إن عطلته لن تكون أكثر من يوم ونصف .. ورؤيتها تحتاج إلى أن يتجوّل أسبوعاً فى الحديقة حتى يتكرّم الحظ بتدبير لقاء .. خارجها !!

وطال صمته فسألته فى دهشة :

ـــ لماذا لا تجيب .. ألا تنوى أن نلتقى ؟

ـــ إن هذا أحب الأمنيات إلى نفسى ، ولكنى لا أعرف كيف نلتقى.لقد قضيت أسبوعاً أحاول أن ألقاك فلم أفلح فى ذلك إلا الآن .. ومحض صدفة .

ـــ إذن لنتفق منذ الآن .

ـــ فى أول أسبوع أعود من المدرسة سأجلس فى انتظارك فى دروة المشتل التى وقفت عندها الترولل .. أتذكرينها ؟

ـــ بالطبع أذكرها .

وكانا قد بلغا باب الحديقة الخلفى واجتازاه ، وتباطأ الاثنان فى سيرهما ، وقال « على » فى صوت خافت :

ـــ أظن من الخير أن أعود ؟

ومدت « أنجى » يدها ، فتناولها « على » فى يده مترفقاً ، وأحس برجفة تسرى فى كيانه .. وضغط كلاهما يد الآخر وأفصحت اليدان عن الكثير مما لم يستطيعا قوله ، ثم قطفت هى وردة من حوض ملىء بالورود وأعطتها له .

وهمس هو :

ـــ أشكرك ، على كل شىء ، أشكرك على ما فعلته أنت وعلى ما ستفعله بى ذكراك فى وحدتى .. وما سيؤنسنى به طيفك فى وحشتى .. أنا لا أحس بألم الفرقة لأنه لا يستطيع نزعك منى مجرد تباعد مادى .. أنت فى ذهنى .. وفى قلبى .. وفى دمى .

وأطبق على الوردة وغادر المكان .. وكأنه يهيم بين السحب ولا يمشى على الأرض .

ذلك كان زاده من الذكرى يجتره فى مضجعه .. ومد يمناه تحت الوسادة فأطبق على الوردة ووضعها على شفتيه .. ثم مد يسراه فتحسس رأس أخيه الراقد فى سباته .. وتملكه حنين إليه .. هذه آخر ليلة يرقد بجواره .. وهو الذى لم يفترق عنه ليلة واحدة .. لقد كان « حسين » يحب دائماً أن يقبل أخاه ويحتضنه .. وكان « على » ينفر من مظاهر الحنان والعطف ، ولكنه فى تلك اللحظة لم يستطع أن يقاوم حنيناً جارفاً يدفعه إلى أن يضم أخاه إليه ويقبله .. إنه يحبه ويحس بلوعة لفراقه .

(١٥)

إحساس بالظلم

مرت الأيام الأولى لعلى فى المدرسة الحربية دون أن يشعر كيف مرّت ، فقد كانت المشاغل تأخذ بخناقه فلا تعطيه فرصة لتفكير أو شرود .. وكان يبدو كالدائر فى دوامة لا تتوقف ولا تنى ، يسلمه صبحه إلى ليله ، وليله إلى صبحه ، بلا وعى ولا إدراك .. فهو من ليله فى غيبوبة نوم لا تجد الأحلام خلالها منفذاً إلى جسده المنهك المجهد المسجى كالقتيل ، وهو من يومه فى غيبوبة عمل لا تجد الأفكار خلالها منفذاً إلى ذهنه .. المأخوذ المشدوه ، المتبدد هباء ، الطائر شعاعا .

وهكذا وحد نفسه ، وقد أكره حتى على الفرقة الذهنية فلم تجبره المدرسة على البعد عن « أنجى » بجسده فحسب .. بل أجبرته على البعد بأفكاره ، فقد سلبه الجهد فرصة التفكير والقدرة عليه .. وبات لا يملك لإلهته التى كان يقضى الليالى والساعات فى الطواف بذهنه حول كعبتها .. إلا هنيهات خاطفة يسترقها ما بين رقدة جسده وإغفاءة ذهنه عند ما يلقى بنفسه فى إعياء على الفراش الضيق الكامن فى ركن عنبر « الصنف الرابع » بعد عودته من الحمام .. وهو يعدو فى الطرقة خشية أن تمسك بتلابيبه نوبة رجوع قبل أن يعود إلى العنبر .

كان يرقد فى الفراش ساحباً الملاءة على وجهه ، واضعاً يمناه تحت الوسادة العليا ، وحركة الطلبة قد بدأت تخف ، وضجة العنبر قد أخذت تهدأ ، و « نوبتجى الصنف » قد وقف بالمنامة والطربوش والشبشب اللباد ، وقد أخذ يسترجع فى ذهنه التمام ، الذى سيلقيه على الضابط النوبتجى الذى سيلقيه على الضابط النوبتجى الذى يمر على العنبر بعد نوبة نوم مع الجاويش النوبتجى :

« تمام يا فندم .. عشر بنادق وعشر سناكى واثنين سيف وبندقية موريس » .

ويغمض « على » عينيه على آخر ما يراه من يومه الحافل .. حرف « الدولاب » والنوبتجى المصلوب القامة ، وجزء من « السلاحليك » صفت عليه البنادق . وتصل إلى أذنيه نوبة نوم طويلة هادئة ، وتخرج من صدره أول تنهيدة راحة يستطيع التنفيس بها عن صدره المطبق المتوتر ، ويمد جسده ثم يتركه مسترخياً ، وهو يحس أنها الفرصة الوحيدة ، فى خلال ست عشرة ساعة مضت ، التى يتهيأ فيها لجسده استقرار على ظاهر الأرض .

ويبدأ ذهنه طوافه حول كعبته .. وتلوح له ربة الكعبة سارية بطيفها الرقيق ، ثم يعجز الذهن عن متابعة الطواف وتعجز الذاكرة عن اجترار التفاصيل ، وتنهار كل مقاومة أمام سلطان النوم ، الذى يجثم فى تثاقل على الجسد المنهك والذهن المكدود .

وفى الصباح يهب العنبر فى صحوة عنيفة .. كأن نافخ « البورى » فى نوبة صحيان ، لا يصدر منه ألحان موقظة ، بل يصدر منه عواصف وأعاصير تعصف بكل ساكن ، وتثير كل راقد .

ويبدأ الاندفاع مع بقية الريش .. فى مهب العاصفة .. عاصفة الصحيان ، بالوقوف فى صف أمام الأومباشى حكمدار العنبر ، ويتبادل كل منهم سرد جملة لم يكن يدرى معناها ، ولا الغرض منها وهى « تمام يا فندم مستجد » ، ثم يبدأ ترتيب الفراش والحلاقة والتشطيف واللبس وسلسلة التفتيشات التى تنتهى إلى الطابور ، أو زفة الطبول .

ولم تكن لديه أيه دراية سابقة بالحياة العسكرية .. ولكن صفات الصبر ، والجلد ، والطاعة ، والنظام ، المغروسة فى خلقه ، والأمل الجميل المطوى فى نفسه ، والذى يدفعه إلى الرغبة فى أن يكون فى المقدمة وكذلك رغبته فى رفع عبء المصروفات عن أبيه ، والتمتع بميزة المجانية التى تمنح للمتقدمين . وفوق كل هذا خشية الزجر ، وكره العقاب والتأنيب .. المتأصل فى نفسه ، كل ذلك كان

يدفعه إلى أن يبذل أقصى جهده كي يكون طالباً ممتازاً .. ومع ذلك ، فلشد ما كان يخذله ألا يجد أثراً لكل تلك الجهود الشاقة التي كان يبذلها وأن يجد نفسه مغموراً لا فضل له ولا ميزة .

كان يسمع صف الضباط ، أي الطلبة الرؤساء ، يختصون بعض الطلبة بالمديح العلني في « الميس » عقب تناول الطعام أو في الطوابير أو في الفصل .. ويقولون : إن هؤلاء يجب أن يقتدى بهم الطلبة .. ثم يأخذون في سرد مزاياهم التي لا يجد نفسه خلواً من إحداها ، ومع ذلك لا يعرفه أحد ولا يذكره أحد .

وانتهت أيام المستجدين ، وهو في شبه معزل عن الدنيا والناس ، يكاد لا يكلم أحداً إلا صديقه « سليمان » الذي كان يخلو وإياه في المدرج الخشبي المشرف على ملعب الكرة في أيام الجمع عندما يشغل بقية الطلبة بالزيارات ، ويجلس الاثنان وحيدين ، فيسرد كل منهما لصاحبه همومه وينفس عن كربته .

وقد قرّب الإحساس بالوحدة والغربة بين الصديقين ، وزاد من أواصر الصداقة بينهما .. وكان « سليمان » مخلوقاً هادئاً رزيناً ، فأحس « على » بالثقة فيه ، ووجد نفسه يفضي إليه بدخيلة قلبه ، وكشف له عن خبيئة صدره رغم ميله إلى الكتمان وقدرته على الكبت .

وبادله « سليمان » إفضاء بإفضاء ، وكشفاً بكشف .. ولكن صدر « سليمان » لم يكن يطوى ولهاً ولا حباً ، بل مرارة وضيقاً سببه إحساسه بشعور أعم من شعور « على » ، شعور غريزي نمته الدراسة بوطنه وبقيد الاستعمار الذي يكبل بأغلاله يديه ، وبشبح المحتل الذي يجثم على أنفاسه ، والسوس الأجنبي الذي ينخر في عظامه ويفت من عضده .

كان سليمان يجلس إلى « على » الساعات الطوال أسفل شجرة الكافور على حشائش ملعب الكرة بجوار المدرج ، أو على دكة خشبية قريبة من حجرة الحلاق بجوار الباب الخلفي للمدرسة ، حيث كانا يستطيعان الحصول على « الطعمية » التي كان يقوم بتهريبها « زكي » صبي الغسال من « كانتين السواري » إلى طلبة المدرسة .

وكان سليمان يسترسل فى حديث طويل عن الاحتلال وعن ثورة عام ١٩١٩ ، وعن سعد زغلول ، وعن مراوغة الإنجليز ، وعن الفرقة التى يشيعونها بين أبناء مصر ، وعن صدقى والدستور المعطل ، والجهاد فى سبيل إعادة الدستور ، وكان يهمس له أحياناً أن الإنجليز يعتمدون على القصر فى قضاء مآربهم ، وأن الملك لا يحس بمشاعر شعبه .

كان يحدثه فى أشياء كثيرة بحماسة شديدة لم يكن « على » يحس منها شيئاً ، وكان يشرد بذهنه فى كثير من الأحيان ثم يوافق مستسلماً عندما يقول له : لا بد من حدوث رجة عنيفة فى هذا البلد لكى ينال الشعب مطالبه .

وكان « على » يدهش من أحاديث « سليمان » ومن انشغاله بمصر ومتاعبها وأحزانها .. وكان يعتقد فى قرارة نفسه أنه مبالغ فى تصوراته وأحاسيسه ، وأن المسألة لا تستحق منه كل هذا الضيق والسخط ، وأن ما يضيق به من أعمال الحكام إن هو إلا شىء طبيعى لا يمكن أن يحدث غيره .

وكان « على » يعجب بكل ما فى صاحبه من صفات وتصرفات ، عدا تلك الحماسة التى يبطنها نحو وطنه ، والضيق الذى يخفيه نحو الاحتلال ، وسوء الحكم ، والذى كان « على » يعتبره من نواحى ضعفه ومآخذه ، تماماً كما كان يعتبر سليمان حب « على » المستولى على لبه ، المستعر فى جوانحه ؛ والذى يتركه هائماً حالماً غير شاعر بآلام وطنه أو عابئ بمتاعبه .

ولم يمنع خلاف الرأى هذا من اشتداد أواصر الصداقة بين الصاحبين ، ولم يمنع أحدهما من الاسترسال فى الإفصاح عن أفكاره وأحاسيسه ، ولا منع الآخر من الإنصات إليه وإراحته بالموافقة والتسليم .

وأخيراً قرب موعد الخروج ، وانتهى تعليم السلام بالعصا وبغير عصا ، وانتهى « الترزية » من « تقييف » بدل الفسحة ، وتسلمها الكواء لإعدادها ليوم الخروج .. وبات « على » ليلة الخميس وهو يشعر بالسعادة تتسرب إلى نفسه وتملأ جوانحه ، وقد تكأكأت الأحلام الذهبية على رأسه حتى استطاعت أن

تقاوم سلطان النوم العاتى .. وتتركه فى يقظة حتى تسمع أذناه الدقات العشر التى يدقها جرس القره قول .

واستطاع فى نصف الساعة التى قضاها فى فراشه يقظاً ما بين سماعه نوبة نوم فى التاسعة والنصف وسماعه الدقات العشر التى تؤذن بالساعة العاشرة ، أن يرى بذهنه أجمل الصور والأوهام ، وأن يحقق أعذب الأمانى ، فرآها بثياب الركوب تجلس فى أناقة على جوادها وهو يسير بجوارها على جواده ، ثم أبصرها مرة أخرى بجواره فى العربة وقد ارتدى حلته الرسمية ، وانسابت بهما العربة فى فخامة وروعة والجنود تحييه .. ومرة ثالثة وجدها بجواره على شاطئ الترعة وراء كومة الغاب وقد أمسك بيدها الرقيقة بين يديه والتقت عيناهما فى شوق ولهفة .

ويضيق سلطان النوم بمقاومته وأفكاره ، ويضيق جسده المتعب من الطوابير ، والعدو والقفز ، والسباحة ، والملاكمة ، والشيش ، وبقية أنواع الإرهاق والمشقة التى تفرض عليه فرضاً فوق الطاقة ، فيتعاون النوم المطرود والجسد المنهوك على وقف الذهن الجائل الصائل ، ولا تكاد تنتهى الدقة العاشرة حتى يروح فى سبات عميق لا يفيقه منه غير النوبة العاصفة .

وينهض فى نشاط وفرحة ويقف فى طابور التمام . ولأول مرة تتغير الجملة المذكورة فينقص منها لفظ ، وتتبادل على ألسنة الطلبة المصطفين : « تمام يا أفندم » بلا كلمة « مستجد » فلقد زالت عنهم صفة المستجدين منذ اليوم .

ويرتدى ملابسه بسرعة ثم يذهب إلى السلاحليك ليأخذ بندقيته ، حيث نبه عليهم الحكمدار أمس أن طابور الصباح بالسلاح .

تناول البندقية رقم ٧٩ التى فرضت رقمها عليه وعلى ملابسه حتى أضحت أقرب إليه من اسمه ، ولم يكن بينه وبين البندقية المذكورة كثير ود ، فلقد تسببت له منذ أن دخلت فى حوزته أو دخل فى حوزتها فى عدة جزاءات .

كان أول تلك الجزاءات هو طابور زيادة أعطاه له الباشجاويش لأنه رآه وقد رفع فوهتها إلى أعلى محاولا التنشين ، فأفهمه أن حمل البندقية فى موضع التنشين خطأ ثم « لهفه » طابور زيادة .

وتوالت عليه الجزاءات بعد ذلك كلما خرج بالبندقية إلى أحد الطوابير وتعرّضت البندقية للتفتيش فى « لبس ثانى » حيث كان يقوم جاويش الصنفين أو باشجاويش المدرسة بالتفتيش على الملابس والأسلحة ، التفتيش النهائى قبل الطابور ، أو كلما تعرضت لأى تفتيش آخر لأسلحة البلاتون أو المدرسة .

وكان يعلم أنه يبذل أقصى جهده فى نظافتها ، وأنه كان أكثر الطلبة استعمالا لحبل التنظيف الذى كان يمرره فى ماسورتها مكرراً التنظيف المرة تلو المرة .. بل لقد استعمل بضع مرات سلك التنظيف رغم أنه لم تكن قد صدرت لهم الأوامر باستعماله ، ورغم أنه لم يكن يستعمل إلا بعد ضرب النار .

ولكن الذنب لم يكن ذنبه بل كان ذنب الماسورة اللعينة ، فقد كانت بطبيعتها قذرة أو كان بها ما يسمونه وساخة معدنيه ، فكانت تبدو معنمة مهما حاول تنظيفها .

وأقبل فى هذا الصباح يوسع البندقية تنظيفاً .. فقد كان يخشى أن يقع تحت طائلة جزاء يعطل حروجه ، ويحرمه من لقاء كان يحلم به طيلة الشهرين الماضيين .

ووقف فى « لبس ثانى » فى الطابور بجوار بقية طلبة « البلاتون » ، ورفع بندقيته للأمام مائلة فى وضع التفتيش بعد أن نادى حكمدار الطابور : « للتفتيش ميلا سلاح . تفتيش سلاح » .

وفتح الترباس ثم وضع ظفر إبهامه مقاطعاً لأسفل الماسورة .. حتى ينعكس عليها الضوء لكى يستطيع الناظر من أعلى الماسورة أن يفحص داخلها . وأقبل الباشجاويش يفحص البنادق الواحدة بعد الأخرى بعين الرضا حتى وصل إلى بندقيته ، فحدق فى ما سورتها بإحدى عينيه مغمضاً العين الأخرى ، ثم بدت الدهشة الممزوجة بالأسى وأخذ « يطقطق » بشفتيه أسفاً ثم قال :

ـــ هذه بندقية بها عناكب .. الظاهر أنك لم تمد يدك إليها

وقبل أن ينبس « على » ببنت شفة أصدر حكمه ووقع عقوبته قائلا فى عصب :

— تفتيش سفرى .

ثم تجاوزه إلى غيره .

وأحس « على » بغصة فى حلقه ، فقد كان فى هذا الجزاء تأخير لا شك فيه عن موعد الخروج .

وانتهت الطوابير والدراسة وانطلق الطلبة إلى عنابر النوم يعدون أنفسهم للخروج ، ولاحت البنطلونات ذات الأشرطة الحمر فى الطرق والعنابر والفناء رائحة غادية ، وعلى أصحابها سيماء الفرح والنشوة ، وبدت المدرسة فى تلك الساعة وفى كل ساعة مماثلة من كل خميس ، وقد سرت فى أرجائها رنة طرب ، وعلا هنا وهناك صوت شاد يغنى أو صافر يترنم .

كان « على » وحده الذى يحس بضيق فى جوانحه ، وكان قد انهمك فى تلميع نحاس « البل » وشنطة الجراية الجربندية ، ثم أخذ يخرج ملابسه من الدولاب ليرصها فى الجربندية التى سيشدّها إلى ظهره لكى يقوم بالتفتيش السفرى الكامل .

وكان سليمان قد انتهى من ارتداء ملابس الفسحة ، وأقبل عليه يساعده فى تنظيف البندقية وتلميع الأزرار .

وقال سليمان محاولا أن يسرى عن « على » وقد أحس بما يعتمل فى نفسه من ضيق وحزن :

— افرد وجهك يا أخى ولا تكتئب .. كانوا يقولون لنا ونحن أطفال « علقة تفوت ولا حد يموت » واليوم نقول تفتيش يفوت ولا حد يموت . سينتهى التفتيش حالا ، وستلحق ببقية الطلبة فى الخروج ، وسأمكث أنا معك حتى نخرج سوياً .

— وما الداعى لبقائك أنت !! وما ذنبك تبقى حتى الرابعة ؟

— ولكنك لن تبقى حتى الرابعة .. إنك تستطيع أن تفتش الآن .

— لا .. لقد أرسل لنا الشاويش « حسين » يقول إنه سيقوم بالتفتيش على

المذنبين فى الساعة الرابعة .

ـــ وما السبب ؟

ـــ يدعى أنه يريد أن يعطيهم فرصة تامة لكى يشدوا الشدة السفرية على أكمل وجه لأنه لن يتسامح فى أى خطأ .

ـــ يا للسخافة .. لم أر أثقل من هذا الشاويش .. ولست أدرى ما سبب تلك العجرفة التى يظهرها للطلبة .. بودى لو ضربته قلمين وسط الطابور .. ولكن ما دخله هو بالتفتيش ؟

ـــ إنه شاويش المذنبين ، وهو فى الوقت نفسه الشاويش النوبتجى ولن يخرج هذا الأسبوع بالطبع ، فليس هناك ما يدعوه للعجلة .

وفى الساعة الرابعة وقف « على » للتفتيش أمام الجاويش حسين وكان أحمر الوجه ، نافش الجسد ، أشبه بالديكة منه بالآدميين .

ولم يكن لدى الجاويش ـــ كما توقع على ـــ ما يدعوه للعجلة ، فبدأ يجرى التفتيش وكأنه يقوم بعملية مسلية لا يريد الانتهاء منها ، ففك الشدة وأخذ يفحص الملابس التى بالجربندية قطعة قطعة ، ويتمم على كل محتوياتها . وسأل علياً عن مساكة الزراير وعن فرشة البوية وفرشة الجوخ وعن بقية التفاهات الأخرى من محتويات الجربندية .

ومر التفتيش بسلام ، ولم يستطع الجاويش الأحمر أن يجد فيه هنة يؤاخذ عليها « على » ، حتى أمسك بالبندقية فأمسك « على » قلبه ولكنه تنفس الصعداء عندما فحص ما سورتها ولم يبد عليها ملاحظة .

وأخيراً ، وبعد أن انتهى التفتيش أو كاد . أمسك الجاويش بالبندقية ثم قلبها وفتح الفتحة النحاسية التى فى أسفل الطبان ، وهز البندقية كأنما يحاول أن يسقط منها شيئاً ثم دفع بسبابته فى داخلها وقال وفى صوته رنة انتصار ، كأنما قد أوقع علياً فى الشرك :

ـــ أين المزيتة وحبل التنظيف ؟

وقال «على » وقد بدت عليه دهشة من فرحة الشاويش بإيقاعه :

— فى الدولاب .

وصاح به الشاويش ناهراً :

— فى الدولاب ؟.. وماذا تصنع فى الدولاب يا شاطر ؟

— تركتها هناك .

وقال الجاويش ساخراً :

— فى المرة القادمة لا تتركها هناك .. عندما يخرج الجندى بالشدة السفرية ، لا بد أن يضع المزيتة وحبل التنظيف فى الطبان . إن نظافة البندقية أهم من نظافة أجسادنا .. لماذا تذكرت أن تضع لنفسك قطعة صابون وغيار فى الجربندية ، ونسيت البندقية .. ما قيمتك فى الميدان بغير بندقية ؟

ثم صمت برهة وألقى عقوبته الرهيبة فى صوت متئد :

— حبس خميس .. يجب عليك أن تقضى الليلة فى المدرسة .. حتى تعرف كيف تشد الشدة السفريةمضبوطة .. مفهوم ؟

وأجاب « على » وهو يبذل جهده فى ضبط أعصابه وكبت غضبه :

— مفهوم يا فندم .

وربط الشدة وحمل البندقية .. وسار فى خطوات عسكرية منتظمة حتى بلغ دولابه .. ففك الشدة ووضع البندقية على السلاحليك ، ثم جلس على فراشه وأحس برغبة شديدة فى البكاء .

وفى هدوء استلقى على الفراش ووضع رأسه أسفل المخدة ، ثم ترك عبراته تنساب فى صمت . لقد كان هذا هو السبيل الوحيد للتنفيس عن ضيقه وكربه .

وعندما انتهى من البكاء أحس بشىء من الخجل وأسرع يمسح عينيه خشية أن يكشف أحد بكاءه .

واندفع يؤنب نفسه على ضعفها .. علام كل هذا ؟ .. ألأنه لم يخرج اليوم ؟ ماذا فى ذلك ؟ .. إنه سيخرج غداً .. وإن غداً لناظره قريب .. وحتى إذا لم

يخرج فى الغد .. فسيخرج فى الأسبوع القادم ، إنه يستطيع أن يصبر أسبوعاً آخر كما استطاع أن يصبر طيلة المدة السابقة .. إنه قد أضحى رجلا .. ويجب ألا يضيق بمثل هذه العقوبات التافهة .. عيب عليه أن يبكى لأنه حبس « خميساً » .

وحاول جهده أن يزيل ضيقه بمثل هذه الاعتذارات . ولكنه أحس أن الضيق ما زال يجثم على قلبه .. لقد كانت العلة أعمق من هذا .. إنه لم يضق بالعقوبة فى حد ذاتها .. ولكنه ضاق بإحساسه بالظلم .. إنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه العقاب ، وهو قد بذل أقصى مافى جهده لكى يؤدى واجبه ، ومع ذلك فقد أوقع به الجزاء ، دون أن يفكر أحد فى أنه مظلوم ، وكان الجاويش ينظر إليه نظرته إلى عدو يجب أن يقهره .. أو إلى عبد يجب أن يمارس فيه سلطانه .

كان هذا مبعث ضيقه ، أو على الأصح بعض مبعث ضيقه ، أما البعض الآخر .. أو البعض الأهم ــ فهو إحساسه ــ أن فرصة اللقاء توشك أن تفلت منه .. أو هى أفلتت فعلا .. فهو لن يخرج فى الغد قبل الثامنة .. ولن يصل إلى بيته قبل التاسعة .. وموعد اللقاء المتفق عليه قبل الشروق .

أجل .. قبل الشروق فى دروة المشتل .. لقد اتفقا آخر مرة على هذا . ولكن أتراها ما زالت تذكر !؟ أتراها تفكر فيه بعض ما يفكر فيها ؟! أما زلت تنتظر موعده ؟! ولكن من أدراها أنه سيخرج هذا الأسبوع ، أم تراها تذهب إلى الموعد فى فجر كل جمعة منذ خروجه ؟

عجباً له !! لقد كان فيما مضى لا يرجو سوى لقاء فى الأحلام ، واليوم يطلب منها أن تنتظره كل فجر حتى يعود .

(١٦)

عودة وسؤال

فى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة كان « على » يهبط من القطار ويجتاز مزلقان المحطة متجهاً إلى البيت .

كان منظره فى حلته الرسميه نموذجاً للأناقة والوسامة ، وبينطلونه ذى الشريط الأحمر المثبت فى حذائه بالسبية ، المفرود على ساقيه ، المشدود إلى وسطه شدة لم تترك به ثنية واحدة ، والسترةالكحلية الملتصقة بجسده ، المحيطة ياقتها العالية المقفلة بعنقه ، اللامعة أزرارها فوق صدره ، وقد بدا جسده طويلا معتدلا بارز الصدر ، ضيق الوسط ، عريض الكتفين ، واستقر طربوشه الطويل فى استقامة على جبينه .. وأمسك بعصاه يؤرجحها فى يمناه موازية للأرض بالطريقة التى تعلمها فى الطوابير .

ووجد نفسه بلا تفكير يتخذ لداره الطريق الأطول الذى يمر بسور القصر وبالباب الخلفى للحديقة .. لقد كان بنفسه حنين إلى أن يمر بالمكان رغم يقينه أنه لا أمل له فى لقاء ربته . فموعد اللقاء — إن كانت تذكره — كان فجراً .. وفرصته إن كانت تنوى منحها له .. قد ضاعت .. لأن الوقت قد تأخر .. وهى لو كانت قد انتظرته فلا شك أن موعد مدرستها قد حان ، وأجبرها على الرحيل .

ولقد وصل إلى هذه النتائج منذ أن تحرك من مدرسته ، وألقى بنظرة طويلة على بناء مدرستها عندما مرّ به فى الأوتوبيس فى طريقه إلى المحطة ، كأنما كان يرجو من الجدران أن تشف له عما بها .

ثم أخذ يرقب العربات الغادية من الناحية الأخرى من الطريق ، علّه يجد بينها

عربتها تحملها إلى المدرسة ، وفى القطار استمرت المراقبة للعربات حتى وصل إلى محطته دون أن يرى لها أثراً .

وهو يتجه الآن إلى مكان اللقاء ، وكأنه يؤدى فرضاً لا وجه للتفكير فى التخلى عن أدائه . ولم يكن يدفعه إلى المكان أى أمل فى لقاء .. ولكن المكان نفسه هو الذى كان يجذبه ، وكأنه يردد قول قيس :

أمرّ على الديار ديار ليلى ... أقبّل ذا الجدار وذا الجدار

ولم يكد يصل إلى الباب الخلفى ويجتازه حتى لمح أباه وقد وقف مشمراً عن ثيابه .. وأخذ فى نقل الأصص من مكانها .

وتقدم « على » إلى أبيه وقد أحس بحنين مفرط إلى عناقه . وقبل أن يلتفت إليه الرجل كان أحد العمال قد لمحه وصاح به محيياً فى دهشة :

ـــ أهلاً سى على أفندى .

وأذهلت الصيحة المفاجئة عبد الواحد ، فالتفت فى دهشة وأصابته رجفة وهو يرى علياً فى حلته الرسمية ومنظره البهيج . ثم أصابه شىء من الارتباك وهو يرى نفسه بثيابه المشمرة الملوثة بالطمى غير لائق باستقبال ابنه .. وكأنما خشى أن يسبب لابنه بعض الخجل وهو يعرف مبلغ اعتزازه بنفسه .. ولكن علياً قطع عليه أوهامه بالاندفاع بين أحضانه وضمه إليه فى شوق ولهفة وهو الضنين بمظاهر العواطف .

وضم الأب إليه ولده ، ولم يستطع أن يكبح جماح عبراته فتركها تنساب فوق خده الأسمر الجاف .. ثم أسرع يمسحها بكم فانلته .

وفرد الرجل ثيابه المشمرة ثم جذب علياً من يده وهو يقول له :

ـــ هيا إلى البيت .. إن أمك تكاد تجن شوقاً إليك .. لقد اعتقدنا أنك لن تأتى هذا الأسبوع .. وكان حسين سيزورك اليوم فى المدرسة .

ـــ أقد خرج حسين ؟

ـــ أجل . لقد أتى أمس إلى البيت أول مرة ، وكان يعتقد أنك ستخرج من

المدرسة أمس ، ولكن لما طالت غيبتك قال إن خروجكم لا بد قد تأجل .

— وكيف يبدو فى حلة المدرسة ؟

— وجيه مثلك . إنكما تبدوان كأنما خلقتما للحلة العسكرية .. هيا بنا .

— دعنى ألق نظرة على المكان .. لقد أوحشنى كل شىء فى بلدتنا .. كيف حال السوبة والحديقة وأصحابها ؟

— بخير كلهم .. كانوا يسألون عنك دائماً .

وأحس « على » فى صدره بشىء يدق وهو يحاول أن يبدو فى سؤاله غير مكترث :

— سألوا عنى أنا ؟

— أجل .

— منْ ؟

وابتسم الأب كأنما يقول لابنه أنت أدرى أيها الماكر ، ثم قال :

— الست الصغيرة .. « أنجى » هانم .

— أحقاً سألت عنى ؟

— دائماً .. فى كل يوم خميس كانت لا تكاد تأتى من المدرسة حتى تهبط إلى الحديقة لتسألنى .. كيف حالى وحال الزهور .. ثم تسألنى بطريقة عارضة .. كيف حال « على » و « حسين » ، ومتى سيحضران من المدرسة .

وأحس « على » بخيبة أمل من قول أبيه ، ولم يستطع أن يخفى مظاهر الضيق التى بدت على سماته وقال فى لهجته غير المكترثة :

— كانت تسأل علينا كلنا ؟

وأدرك أبوه خيبة أمله وأدرك مقصده من قوله ، فقال وقد افتر فمه عن ابتسامة واسعة وهو يربت ظهر ابنه :

— أجل .. كانت تسأل علينا كلنا من أجلك أنت .. أنت تعرف ذلك يا بنى .. وأنا أعرفه .. لقد كانت تكثر من النزول إلى السوبة ، وكانت تستدرجنى

إلى الحديث عنك .. كانت تسألنى عن أخبارك ، وعن كل شيء عنك ، وكنت أحدثها بإسهاب دون أن يبدو عليها ملل أو ضيق .. بل كانت تنصت فى لهفة .

وأحس « على » بخيبة الأمل تتبدد ، وبالضيق واليأس يتطاير ، ثم أطرق وقد أصابه كثير من الخجل وهو يرى أباه وقد عرف الكثير من أمره .

وكان الاثنان قد جاوزا الباب الخلفى وسارا فى الطريق إلى الدار بعد أن طافا بالسوبة وبالدروة التى وراءها .

وسادت فترة صمت شرد كل منهما بذهنه وبدت عليهماسيماء التفكير . وكان الابن يحلق فى سماء أوهامه وقد ملأت نفسه نشوة جارفة بعد أن عرف كيف كانت « أنجى » تسأل عنه وتتنسم أخباره . إنها ما زالت تذكره ، وتفكر فيه كما يفكر فيها .

وكان الأب يفكر فى تلك السعادة البادية على ولده ، والتى منحه إياها عندما ذكر له كيف كانت « أنجى » تسأل عنه . وأحس بخطورة تلك السعادة كما أحس بخطورة اليأس الذى بدا عليه دون أن يشعر عندما عرف أنها سألت عنهم جميعاً دون أن تخصه وحده بالسؤال .

هذا كله فى نظر الأب شيء خطر .. فهو لا يمكن أن يؤدى إلى شيء سوى الخيبة والفشل ، وهو يعرف ابنه وعزة نفسه وشدة كبريائه . وماذا يمكن أن تفعل به النهاية الفاشلة لتلك المشاعر والأحاسيس .

إنه حقاً يراه خير الناس .. وهو كذلك لا يعتقد أن هناك من يفضله وهو كفء بشخصه لأى مخلوقة .. ولكن بأصله لا يظنه كفئاً لهذه التى يحاول ربط مشاعره بها .. إن بينهما هوّة لا يمكن تخطيها .

ولو كان « حسين » هو الذى يتورّط فى مثل هذا الشعور لما اهتم الأب كثيراً ، فهو يعرف أن « حسين » لا يزج بنفسه إلى الأعماق ، بل يتواثب فوق الأسطح ويدع ما لا يستطيع إلى ما يستطيع دون أسى ولا أسف .. وهو إن تطلع إلى ابنة الأمير تطلع تسلية وعبثاً .. فإن قرّبته نعم بها .. وإن صدّته ألقى بها فى زوايا النسيان .

أما « على » ففى عمقه وتؤدته وصمته خطورة شديدة .

ثم إن المسألة كلها لا يجب أن تكون .. وإن كانت فلا يمكن أن تؤدى إلى نتيجة طيبة مهما جرت فى أولها من بعض مظاهر السعادة .

أجل .. مهما صار « على » .. فليس هناك ما يمكن أن يمحو الحقيقة الثابتة .. وهى أنه ابن الجناينى .. وهى ابنة الأمير .

ولكن ماله يفكر فى المسألة هذا التفكير الجدى .. أمجرد سؤال من الصبية الرقيقة الطيبة الأميرة على ابنه ، ومجرّد طرب من الابن لهذا السؤال يجعله يقفز بذهنه إلى كل هذه النتائج !

لا .. لا .. يجب ألا يعقد الأمور بمثل هذا التفكير .. يجب أن يتركها تجرى سهلة فى أعنّتها .. ثم ليس هذا وقت الضيق والأسف .. يجب أن يفرح بولده .

وكان « على » يرجو أن يحدثه أبوه عن « أنجى » أكثر من هذا؛ بل كان يريد منه ألا يكف عن الحديث عنها ، فلما طال صمت الأب قال يستحثه استحثاث ماكر :

ـــ وماذا قلت لها عنى ؟

وأفاق الأب من شروده وأجاب فى اقتضاب :

ـــ قلت لها كل خير .

ثم أراد أن يحوّل مجرى الحديث فقد أحس بأنه يشترك فى دفع ابنه نحو هوّة خطرة ، وخيل إليه أنه بإبعادها عن حديثه قد أبعدها عن ذهنه ، قال :

ـــ أوصلتك النقود والأشياء التى طلبتها فى خطاباتك ؟

ـــ أجل .. لقد أحضرها خليل ، وإبراهيم أفندى ، ولكن لماذا لم تأت أنت لزيارتى ؟

وصمت الأب برهة قبل أن يقول :

ـــ المشاغل كثيرة يا على ؟

ـــ المشاغل يا أبى تمنعك عن زيارتى مرة فى الأسبوع ؟! أتصدق أنى الطالب

الوحيد الذى لم يزره أهله طوال مدة البقاء فى المدرسة .. إنى عاتب عليك .. و لم أرد أن أسألك الزيارة فى رسائلى لأن من حقى أن تزورنى من تلقاء نفسك .

ومرة أخرى بدا الشرود على الأب وأحس أن تأنيب ابنه فى موضعه ، ولكنه أحس أنه مظلوم . وتمتم قائلا محاولا رفع الظلم عن نفسه :

ـــ الحق أنى لم أزرك .. من أجلك يا على .

ـــ كيف ؟

ـــ خشيت أن أخجلك بين الطلبة إخوانك ، فلا أظن آباءهم الذين يزورونهم يأتون إلى المدرسة بالجلباب والعمة الصفراء .. وأنا أعرف عزّة نفسك .. فعزمت على أن أجنّبك مشقة زيارتى .. وأن أكبت شوقى إليك حتى تحضر إلينا .

وذهل « على » من قول أبيه وقال فى دهشة :

ـــ كيف تقول ذلك يا أبى .. أنا أخجل منك ؟! إنك فى نظرى خير من أنجبت الأرض .. أبعد كل هذا الذى فعلته من أجلنا أخجل منك ؟! إنى أعتبرك من أول مسببات عزة نفسى .

وكانا قد أشرفا على البيت ، ومرة أخرى أحس الأب بأن الدمع يوشك أن يطفر من عينيه وهو يرى مدى إحساس ابنه بما أداه له .

ووجد « على » تغييراً واضحاً بدا على الدار ، فقد امتدت إليها يد الإصلاح وأعيد ترميمها وبياضها ونظف ما حولها ، وأنشئت حديقة صغيرة فى فنائها .

وصاح « على » فى دهشة :

ـــ ما هذا الذى جرى للدار ؟! تبدو من خارجها كأنها دار أخرى .

ـــ وسترى داخلها أيضاً أنها قد أضحت دار أخرى ، كان يجب علىّ أن أجعل الدار أهلا لكما ، إنها الآن أضحت سكناً لضابطين .. لا لرئيس جنائينية .. إنها كما يقول أخوك « حسين » قد أضحت مقراً للحكم .

ووضح لعلى مما فعله أبوه بالدار .. ومما قال عن سبب عدم زيارته ، أن بأبيه خوفاً من أن يكون سبباً فى إحساس ولديه ـــ ولا سيما على ـــ بالخجل منه ..

وكره أن يكون هو السبب فى ذلك الشعور الذى يسيطر على أبيه ، وود لو استطاع أن يزيل منه ذلك الاعتقاد .. وألا يكون السبب فى إرهاقه من أمره عسراً .. فهو يعلم أنه يكاد يسدد مصروفاتهما ، وأن كل تلك المظاهر ستزيد من إرهاقه .

وقال على :

ـــ إننا لا نستحق كل هذا .. لقد باتت الدار خيراً منا . لِمَ كل هذا يا أبتاه ؟ لقد كلفتها الكثير وأنا أعرف أنك لا بد أن تدبر القسط الثانى من المصروفات .

ـــ لا تحمل هماً .. سيدبر الله كل شىء .

ـــ ولكنى أخشى أن أكون السبب .. إن حادثة البنطلون الذى كنت أخجل من حجره لا شك عالقة فى ذهنك .. لقد كان لهذا الخجل سبب خاص ، ولقد تغيرت مشاعرى تغيراً كلياً .. ولم أعد أخجل من مظاهر العجز المادى ، ولا بات يهمني أبداً أن يكون بيتنا كوخاً أو قصراً . ما دامت طاقتنا لا تهيىء لنا خيراً منه .. إن هذه المظاهر لم تعد تخجلنى لأنى أحس من الثقة بك وبنفسى ما يجعل كل هذه المظاهر تتضاءل بجوارها . كل ما يهمنى الآن هو ألا أكون سبباً فى إرهاقك .

ـــ ليس هناك إرهاق يا على .. لقد بعنا « كردان » أمك ، وهى لم تعد فى حاجة إلى أن تتحلى به قدرما أصبحنا فى حاجة إلى أن نتحلى جميعاً بالدار . إن للمظاهر قيمها يا « على » .. تعال .

وبدا « حسين » فى النافذة .. فلم يكد يبصر علياً حتى ندت منه صيحة فرح ودهشة وصاح :

ـــ أم .. « على » أتى .

ولم يصبر حتى يدخل « على » بل قفز من النافذة وعدا إليه يضمه بشدة هاتفاً :

ـــ ما كل هذه الوجاهة ؟ لقد كنت أظننى أوجه من ارتدى الشريط الأحمر ، ولكنك أضعتنى بجوارك .. أرنى نفسك .

ثم أخذ يدور حول « على » وهو يرتدى قميصاً أبيض فوق البنطلون الرسمى الذى شده على كتفيه بالحمالة ، وبدا رأسه عارياً أجرد ، ومد يده فاختطف طربوش « على » صائحاً :

ـــ أرنى رأسك .

وبدا رأس « على » أجرد كرأسه .. واستمر هو فى هذره :

تصوّر كنت أوشك أن أخرج بشعرى وقد بلغ طوله هكذا (وأشار بسبابتيه موضحاً مقاسه) وأردف قائلا :

ـــ تماماً كما كنت قبل الدخول .. ولكن الباشجاويش ـــ الله يخرب بيته ـــ ضبطنى فى آخر لحظه .. ونادى الحلاق فمسحها لى كما ترى .

وعبر « على » الباب وتلقته أمه فى أحضانها .. ولم يستطع أحد من الولدين والأب أن يوقف اندفاعها فى بكاء حار .

وأخذت تتحسس علياً كأنما تحاول التأكد أنه قد عاد إليها سليماً كما ذهب دون أن ينقص يداً أو ساقاً أو أنفاً أو شفه .

وكان أول ما سألته هو :

ـــ أأحضر لك طعاماً ؟ إنك تبدو هزيلا .. لا شك أنهم لم يكونوا يطعمونك كفايتك ...

وضحك « على » فقد كانت أمه تعتبر أن أول واجباتها فى هذه الحياة .. إطعامه وإطعام أخيه .. وكانت تعتقد أنهما ما داما بعيدين عنها .. فهما لا شك جائعان ، وأن أول ما يجب عليها فعله هو أن تعوّض ما فاتهما من طعام فى غيبتهما عنها .

وأقبلت « بهية » فى صمت ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خجلة ومدت يدها إليه قائلة :

ـــ حمد الله على سلامتك !

ـــ الله يسلمك .. كيف حالك يا بهية ؟. لقد كبرت فى هذين الشهرين وازددت جمالا .

وازداد خجل « بهية » ولا سيما عندما أردفت الأم قائلة :

— بهية ست الناس .. ربنا يجعل لها نصيب فى أحدكما ..

وكان قول الأم قولا عابراً ، ولكنه ترك وجه « بهية » وقد تصاعد الدم إليه وشعت منه الحرارة .

وصاح « حسين » بها :

— هاتى السترة يا بهية . يجب أن تتعلمى من الآن كيف تلمعين الزراير .

وذهبت « بهية » لإحضار الجاكتة وقلبها يدق .

يجب أن تتعلم من الآن تلميع الأزرار !! ومن أدراه أنها لاتعرف ؟! إنها لا حاجة بها لأن تتعلم أى شيء خاص بخدمته لأنها تحذقه بالسليقة .. وبالرغبة .. وبالحب .

وقال « حسين » وهو يرتدى جاكتته :

— سنذهب إلى سينما رويال صباحاً .. هناك فيلم هائل يا على ويجب ألا يفوتنا .

وصاحت الأم بحسين ناهرة :

— اخشع قليلا .. اهدأ .

— ألم يكف خشوعى بالأمس .. لقد سجنتنى فى البيت .. أتظنين أنى قد خرجت من المدرسة بعد طول حبسى لأقبع فى البيت !

— إذن دع أخاك يهدأ .. إنه لم يستقر لحظة .

— لقد هدأ كفايته .. وما زال أمامنا نصف ساعة نستطيع أن نجلسها معكم .. أظن نصف ساعة كفاية جداً .. لأن تشبعى منه .

— ونقود السينما .. أليست خسارة !. أتظن النقود تجرى فى أيدينا .. أليس من الأفضل أن تشترى بها شيئاً تأكله يبر جسدك ؟

— ليس أمامك سوى الأكل .. ماذا تظنيننى ؟ وزة يجب تزغيطها ، أم خروفاً يجب علفه ؟ إن فى الحياة مباهج أخرى غير الأكل .. وأنا سأدخل علياً على

حسابى .. إن معى نقوداً كافية .. بقية المصروفات التى أعطوها لنا عندما سافرنا إلى الإسكندرية للعب الكرة .. معى خمسون قرشاً .. سنتبحبح بها سوياً .

وبعد نصف الساعة كان القطار العائد يحمل الأخوين إلى القاهرة .. فى طريقهما إلى السينما .

(١٧)

تحدّ .. !

وصل الأخوان إلى السينما بعد ابتدائها ودخلا يتلمسان طريقهما فى الظلمة ، ووقفا برهة حتى تتعوّدها عيناهما وتقدم منهما أحد المراقبين فأوصلهما إلى محليهما .

ومضت مدة قبل أن يحاول أى منهما تركيز ذهنه فيما يعرض أمامهما ، فقد شغل « على » باستعادة ما قاله أبوه عن « أنجى » وعن رغبتها فى أن يحدثها عنه .

أما حسين فقد شغله التلفت حوله ومحاولة أن يكتشف فى الظلمات أقرب الوجوه الجميلة إليه وعن نوع جاره أنثى أم رجل ، وعن أغلبية الجنس الموجود فى مقاعد البلكون نساء أم رجال .

وحلت فترة الاستراحة ، فأراحت نظر حسين من طول البحث فى الظلمة ، وأراحت ذهن « على » من طول تفكير وعدو وراء « أنجى » .. وتشاغل الاثنان بفحص جمهور المتفرجين وتحية بعض زملاء المدرسة الذين غصت بهم المقاعد .

وسأل حسين أخاه :

ـــ ألا تريد التمشى قليلا ؟

ـــ لا .. إنى أفضل البقاء .

وقام حسين متجها إلى الخارج بطريقة استعراضية ، ولكنه لم يكد يسير بضع خطوات حتى عاد بسرعة إلى أخيه .. ثم مال عليه قليلا وهمس قائلا :

ـــ إن أنجى ابنة أفندينا موجودة هنا ومعها أخوها .

ـــ وكان « على » ينوى أن يؤنب أخاه على حركاته اللافتة من نهوض وعودة وهمس ، ولكن ذكر « أنجى » أصابه بارتباك مفاجىء واضطراب شديد أفقده قدرة السيطرة على نفسه .. بله السيطرة على أخيه .

ولم يعرف كيف يجيب أخاه .. ووجد نفسه ينهض على غير إرادة فيتبعه إلى الخارج كأنه يفر من معركة .. وفى سيره حانت منه التفاتة إلى الاتجاه الذى أشار إليه أخوه فالتقى بصره ببصرها ، وطالعته بسمتها الرقيقة المشرقة المهدئة المطمئنة التى تبدد من نفسه الاضطراب وتملؤه ثقة وأملا .

وابتسم .. وأشار برأسه .. فأشارت برأسها .. وود لو استطاع القفز بين المتفرجين وضمها إليه .. ولكنه لم يملك إلا أن يسير تابعاً أخاه إلى الخارج .. واتجه حسين بأخيه إلى البوفيه قائلا :

— دعنا نشرب شيئاً .

— لا داعى لذلك .. كفانا إسرافاً .

— سأسقيك على حسابى ، أنت ضيفى اليوم ، ما زال من الخمسين قرشاً بقية للبحبحة ...

— أبقها تنفعك فى الجمعة القادمة . القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .

— اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب .. لكل مثال ردّه .. لا تحاول أن تستعين علىّ بالأمثال .. فليس أكثر لدينا من الأمثال والحكم التى يناقض بعضها البعض .. هيا .. « لا تضق هماً بأمس وغد » .

ووقف الاثنان أمام البوفيه .. وبدأ حسين يتناول زجاجة « سيدر » وعيناه تنقبان عن الإناث .. ولسانه لا يكف عن الثرثرة قائلا لعلى :

— إن أنجى تبدو رائعة .. لقد أبصرتها تثبت بصرها فيك وأنا سائر إلى الخارج .. وقد خصتك بابتسامة وتحية .. حلال عليك .

وفى تلك اللحظة بدت أنجى مقبلة عليهما .. وقد ارتدت فستاناً من الصوف الأخضر بسيطاً ، وحذاء منخفضاً .. ولم تحاول أن تبدى شيئاً من التكلف والدلال ، أو تظهر أنها تقصد السير إلى البوفيه ، وأن « على » جاء فى طريقها مصادفة .. بل اتجهت إليه مباشرة .. ومدت يدها إليه فى ترحاب واضح .. وشوق لم تحاول أن تخفى مظاهره وقالت باسمة :

— حمد الله على السلامة .. لم أكن أعلم أنك خرجت . لقد سألت والدك

بالأمس فأخبرنى أنك لم تأت بعد .

وأحس « على » بارتباكه يتطاير أمام تواضعها ومدّت يدها محيية أخاه الذى أدهشته البساطة التى أقبلت عليهما بها والتى حدثت بها أخاه .

وأجابها على :

ـــ إنى لم أخرج إلا صباح اليوم .

ـــ ولِمَ ؟

ـــ عوقبت بالحبس يوم الخميس .. لأن البندقية لم تكن نظيفة .

ـــ أتعلمت الرماية بها ؟

ـــ ليس بعد .. مازلنا نتعلم حملها والسير بها واستعمالها فى الطوابير .

ـــ إنى أجيد التنشين .. لقد علمنى إياه أخى علاء .. وسنصطاد اليوم بعد عودتنا من السينما . أتحبان الصيد معنا ؟ وقبل أن ينطق « على » أجاب حسين :

ـــ طبعاً .. إنى أجيد التنشين قبل دخول المدرسة .

ولم يكن « على » قد أجاب بعد ، وكانت أنجى ترقب إجابته فأعادت السؤال :

ـــ وأنت يا على ؟

وأجاب « على » كمن يفيق من غفوة :

ـــ أنا .. أجل .. أجل .. بالطبع .. وإن كنت لا أجيد « التنشين » .. وأول مرة حاولته فى المدرسة عوقبت .

ـــ أكل شىء عندكم بالعقاب ؟

وضحك « على » قائلا .

ـــ كل شىء .. لقد عوقبت مرة لأنى أسير .

ـــ وماذا يجب عليك أن تفعل ؟

ـــ أعدو .. إن السير عندنا لا يسمح به .. يجب أن نعدو دائماً .. حتى عندما ننتقل من الفراش إلى الدولاب .

ـــ على أية حال سأعلمك التنشين .. سأكون أسبق من المدرسة فى تعليمك إياه .

ودق جرس السينما مؤذناً بانتهاء فترة الاستراحة وقال حسين فى لهجة أسف :

ــــ لم نطلب لك شيئاً .. لقد شغلنا بالحديث .

متشكرة .. ليست لى قابلية للشرب ، إنما خرجت لكى أحرك ساقى فإن طول الجلسة تتعبنى .. هيا بنا .

وقبل أن يفترقوا ليتجه كل إلى مقعده سألت « أنجى » :

ــــ أستعودان إلى البيت بعد السينما ؟

وردّ على :

ــــ أجل

إذن فسترجع معاً ، إنى عائدة وأخى علاء إلى البيت .. سنلتقى بعد الرواية .

و لم تكن فى دعوتها سائلة عارضة بحيث يمكن القبول أو الرفض ، بل كانت فارضة مقررة .

وعندما انتهت الرواية . تدفقت جموع المتفرجين إلى الخارج . ووصلت « أنجى » وهى تتلفت حولها باحثة وسط الزحام عن على وأخيه . وكان علاء قد سبقها إلى داخل العربة ، وعندما وجدها تتلكأ أمام بابها هتف بها :

ــــ ادخلى يا أنجى .. عمن تبحثين ؟

وأجابت « أنجى » وهى ما زالت تبحث بعينيها وسط الجماهير المتدفقة :

ــــ لقد دعوت على وحسين لتوصيلهما معنا .

وبدت الدهشة على وجه الصبى ورفع حاجبيه .. وقال مستنكراً :

ــــ نوصلهما معنا ؟.. نركب أولاد الجناينى معنا فى العربة ؟

وكان « على » قد لاح لعينيها متقدماً وسط الجموع تجاه العربة ، ووراءه حسين ، فصاحت « أنجى » بأخيها ناهرة :

ــــ كف عن هذا السخف .. إياك أن تتحدث أما مهما بهذه اللهجة .

ــــ لن أدعهما يركبان .. ادخلى العربة .. وإلا تركتك واقفة .. وعدت وحدى .

ــــ بل سيركبان رغم أنفك .

ووجه علاء حديثه إلى السائق قائلا فى لهجة الآمر :

ـــ سر يا أسطى محمد .

ونظرت « أنجى » إليه فى غيظ وقالت للسائق :

ـــ لا تتحرك يا أسطى محمد .

ـــ قلت لك سر يا أسطى زفت .. ألا تسمعنى ؟

وحوّل السائق الأسود رأسه فى غيظ إلى علاء وقال له مستنكراً :

ـــ أسير وأترك أنجى هانم .. تفضل أنت ، وانزل إذا كنت على عجل .

واندفع من فم علاء سيل من السباب موجهاً للسائق ، وهو يهدد برفته وكان الأخوان قد اقتربا من العربة وأشارت إليهما « أنجى » بالتفضل .

وقال السائق مؤنباً علاء :

ـــ عيب يا سى علاء .. هذا الكلام لا يقوله أولاد الجناينى الذين تأنف من ركوبهم .. إنى سأشكو إلى أفندينا كل ما قلته .

ودلفت « أنجى » إلى العربة بجوار أخيها ، وجلس « على » بجوارها ، وحسين بجوار السائق وسارت العربة فى طريقها إلى البلدة .

وتبادل الفتيان مع علاء تحية عابرة ، وبضعة أحاديث سطحية .. وحاولت « أنجى » جهدها أن تزيل جو التكلف والتوتر الذى سببه وجود أخيها علاء بترفعه وعجرفته فقالت متحدثة عن الفيلم :

ـــ لم يكن الفيلم بالجودة التى أتوقعها ، لقد قاموا له بدعاية لا يستحقها .

واعترض علاء قائلا :

ـــ لقد أعجبنى جداً . ولا أظننى رأيت أفضل منه .

ـــ إنه مفرط فى العنف .. وهو يظهر الشر بمظهر البطولة .

ـــ هذا هو ما يعجبنى فيه .

ورغبت « أنجى » أن تشرك علياً فى الحديث فقالت متسائلة :

ـــ ما رأيك أنت يا على ؟

وأحس « على » بشيء من الحيرة ، وتردد برهة .. ثم قال محاولا ألا يخذل أحداً منهما :

— أعتقد أن الرأى يختلف حسب طبيعة المرء .

وقلب علاء شفتيه كأن الكلام لا يعجبه . وقال فى شيء من الاستخفاف :

— ما رأيك أنت ؟

ووجد « على » أن الفتى لا يستحق المجاملة . فقال له فى شيء من التحدّى :

— الفيلم تافه ، وليست له فكرة نظيفة ولا هدف طيب ، وغير معقول أن يرضى مخلوق طيب النزعة عن إظهار الشر بمثل هذا المظهر الرائع حتى لكنه يحض عليه .

وأردف حسين قائلا فى شيء من الوقاحة :

— الفيلم سخيف جداً جملة وتفصيلا .

واحمر وجه علاء وخشيت « أنجى » أن يتهور بألفاظ تسيء إلى ضيفيها فقالت له محاولة إنهاء الموضوع :

— أرأيت يا علاء ، أن الرأى يختلف باختلاف طبيعة المرء .. كل إنسان له رأيه .

ثم أردفت محوّله دفة الحديث إلى اتجاه آخر :

— ومتى ستعودان إلى المدرسة ؟

وقال على :

— المفروض أن تكون هناك فى الثامنة مساء . إن الأجازة من ظهر الخميس حتى مساء الجمعة .

— إنى أتمتع بأجازة أطول فأجازتى الأسبوعية تبدأ عصر الجمعة إلى صباح الاثنين

— ولكنك لم تذهبى إلى المدرسة اليوم ؟

— إننا فى عطلة عيد الشكر .. إن عطلاتنا كثيرة .. وبعد شهر تبدأ عطلة عيد

الميلاد ورأس السنة » عطلة طويلة حوالى عشرين يوماً .

وهكذا استمر الحديث فى العربة عابراً متقطعاً لا يكاد يوصل حتى ينقطع ، ولا يكاد ينقطع حتى تعاود « أنجى » وصله ، حتى شارفت العربة البلدة وتوقفت . ونزل منها الأخوان و « أنجى » تقول لها :

ـــ سننتظركما فى الحديقة وسنجهز البنادق للصيد .. لا تتأخرا .

وأجاب « على » وهو يرفع يده بالتحية :

ـــ إن شاء الله .

وأجاب حسين وهو يضحك :

ـــ حمامة .

وسار الأخوان فى طريقهما إلى البيت وحسين يهز رأسه :

ـــ لطيفة هذه البنت .

ثم أردف بجملته التقليدية وهو ينظر إلى أخيه فى إعجاب :

ـــ حلال عليك يا عم .. أنت دائماً لا تضرب إلا فى العالى .

ورمقه « على » مؤنباً وقال فى لهجة زاجرة :

ـــ حسين .. كف عن الحديث عنها بهذه الطريقة .

وتمتم حسين معتذراً :

ـــ إنى لا أقصد إهانتها .. إنى أحترمها جداً .. على الأقل من أجلك .

ـــ من أجلى فقط ؟

ـــ أتريدنى أن أحترمها من أجل أخيها ؟

ـــ احترمها من أجلها هى .. ألا تجدها تستحق الاحترام ؟

وأجاب حسين جاداً :

ـــ بل تستحقه .. إنى لم أكن أظنها بمثل هذه الرقة واللطف والتواضع .. حقيقة أنها من معدن غير هؤلاء المتعجرفين .. حتى ليخيل إلىّ أنها لا يمكن أن تكون ابنة ذلك الأمير المتأله .

وصل الاثنان إلى دارهما وكانت « الطبليّة » العتيدة قد حلت محلها منضدة خشبية وضعت فى منتصف القاعة وفرش فوقها مشمع أبيض نظيف . وكانت الأم قد أعدت الطعام ، ثم بدأت مهمتها الكبرى فى تكديسه فى معدتى ابنيها كأنما تعوّض طول تقصيرها فى مدة غيابهما .

وانتهى الطعام ، وبدأ الأخوان يتبادلان النظرات كأنما يتساءلان عن أسهل الطرق للهروب من أبويهما اللذين يريدان الاحتفاظ بهما أطول مدة ممكنة للتمتع بهما بعد طول غيبة وفرط شوق وحنين .

وبدأ حسين خطة الهروب بقوله وهو ينظر إلى الساعة فى يده :

— على .. لقد تأخرنا .

وتساءلت الأم فى دهشة :

— تأخرتما عن ماذا ؟ . ألم تقولا إن موعد العودة فى الثامنة مساء ؟! إنكما لن تنزلا قبل السابعة .

وصدق الأب على قولها قائلا :

— أجل ساعة تكفى جداً للعودة .. نصف ساعة إلى المحطة ، ونصف ساعة إلى المدرسة .

ولم يجب « على » فقد أحس بشىء من الخجل وهو يحاول التهرّب من أبويه قبل أن يشبعا من لقائه . وقال حسين فى لهجة أضفى عليها شيئاً من الخطورة :

— إنى أقصد أننا تأخرنا عن موعدنا مع علاء ابن افندينا .

وتساءل الأب فى دهشة :

— أبينكما موعد ؟

— أجل .. سنجرّب له إحدى البنادق الجديدة .

— وهل أصبحتما من ذوى الخبرة فى البنادق ؟

— طبعاً .. شهر ونحن غارقون فى البنادق .. هيا يا على حتى لا نتأخر عليه .. سنعود ثانية .. لن نغيب كثيراً .

ونهض حسين وشقيقه على ووالدتهما تتمتم فى حسرة :

ـــ ألا تخشعان قليلا ؟! ألا تريحان جسديكما ؟!

وغادرا البيت ، وبعد برهة كانا يسيران فى ممرات الحديقة باحثين عن أنجى .

وتحت شجرة فيكس ضخمة من نوع البنجالنس ذات الجذور المدلاة من السيقان والمسماة « أم الشعور » كانت « أنجى » تجلس على مقعد طويل من الخيزران مرتدية سويتر أبيض ، وجيب كحلى ، وحذاء أبيض من الكاوتش ، وقد وضعت على منضدة قريبة ثلاث بنادق للصيد وبعض الخرطوش . وكان علاء مقبلا من ناحية القصر وقد أمسك بندقية رابعة وأخذ يطلقها خلال سيره على قمم الأشجار .

ونهضت « أنجى » تحيى الأخوين فى رقة قائلة :

ـــ هذه هى البنادق .. أتريدان تجربتها ؟

وحمل « على » إحداها وقال وهو يجرّب التصويب بها :

ـــ إنها أخف كثيراً من بندقية المدرسة .

وأقبل علاء .. وبلا تحية ولا ترحيب قال لهما :

ـــ ألستما ضابطين .. وصناعتكما حمل السلاح .. إنى أتحداكما .

ولم تعجب « أنجى » لهجته المهاجمة وقالت فى مرح :

ـــ لا داعى للتحدى ، نحن نريد أن نتسلى .

ولكن علاء رفع البندقية إلى كتفه قائلا :

ـــ انظر هذا الفرع المتدلى من الشجرة .. هذا الفرع المجاور للمنضدة سأصيب الورقة الثالثة التى به

وأطلق البندقية فأصاب الورقة ، وانطلق ضاحكاً وهو يقول :

ـــ إنى أتحدى أن يفعلها أحدكما .. وأنتما ضابطان .

ولم يكن لعلى أية رغبة فى التحدى ، بل لم يكن لديه رغبة فى مجرد الإمساك بالبندقية أو الصيد . كل رغبته كانت تنحصر فى أن يبصر « أنجى » ويسمع صوتها ، ويتحدث إليها .. وكان يتمنى لو استطاع أن ينتحى بها جانباً فيسيرا معاً

بين الأشجار والزهور .

ولكن حسين كان مناضلا بطبعه ، فخطف إحدى البنادق وعمرها ثم رفع بها إلى كتفه قائلا فى سخرية :

ـــ الورقة الرابعة .

ثم أطلق فأصابها وأردف قائلا فى نفس اللهجة الساخرة :

ـــ والخامسة .

وأسقطها .

ـــ والسادسة والسابعة .

وأسقطهما ثم أخفض البندقية وهو يقول :

ـــ هذه أهداف بسيطة .. عندما تتحدى الضباط يجب أن تتحدى فى أهداف أصعب من هذه .

وتملك الغيظ علاء وعض على شفتيه ، فقد كان يعتقد أن إجادة التنشين واستعمال السلاح يجب أن تكون قاصرة على الطبقات العليا .. وكان يكره أن يشاركه فى قدرته ابن الجنايني، حتى بعد أن أضحى ضابطاً .

وفى تلك اللحظة كانت « أنجى » و« على » قد انتهزا فرصة انشغال أخويهما بتحدى بعضهما بعضاً فى الضرب ، وأقبل كل منهما على الآخر متباعدين عنهما .. وأحس الاثنان وقد خلا أحدهما لصاحبه بدقات قلبه تعنف ، وأنفاسه تتلاحق وكان «على» أول من تحدث. قال فى لهجة ذائبة :كنت أخشى ألا أراك.. وكنت أود أن أفقد نصف عمرى وأخرج أمس حتى أنتظرك فى دروة الغاب،

ـــ أنا أيضا أحسست بخيبة شديدة عندما أنبأنى أبوك أنك لم تحضر .. ورغم هذا فقد ذهبت وانتظرتك فى الفجر . وكنت أحس براحة كبيرة وأنا أنتظر هناك .. فقد خيل لى أنك ستأتى بين آونة وأخرى . لقد كنت أنتظرك فجر كل جمعة ، وكنت أذهب بالحصان إلى الترعة حيث لقيتك آخر مرة ، وكنت أهبط فأجلس وراء كومة الغاب وأعبث فى الماء كما كنت تعبث .. لم أكن أظن أنى

سأفتقدك كما افتقدتك .. ولا كنت أعتقد أنني سأحس لك بهذا الشوق والحنين .

وأحس « على » كأنه يتسامى إلى أعلى ، وكأن جناحين قد ركباله فحملاه إلى الفردوس . أحقاً قد انتظرت أوبته فى كل فجر ؟!

وأرتج عليه فلم يعرف كيف يجيب ، ووجد يده تمتد إلى حوض قريب للورد فقطف منه واحدة وأخذ يعبث بها بين أصابعه وهو يهمس :

ـــ أنا لم أحس بشوق إليك لأنك لم تفارقيني لحظة . كنت فى رأسى وفى قلبى وفى عينى .. كنت فى دمى .. كنت أراك فى وردتك التى أعطيتها لى آخر مرة والتى استقرت أوراقها الجافة فى درجى تحمل إلىّ عبيرك .

وصمت برهة ثم أردف هامساً :

ـــ أتسمحين أن أقدم لك هذه علّك تذكرينني بها كما ذكرتك بوردتك .

ثم رفع بها يده وهمت « أنجى » أن تأخذها فى اللحظة التى انطلقت طلقة من بندقية علاء فأطارت الوردة .. وجرحت إصبع « على » وسمع علاء يقهقة وهو يقول لحسين :

ـــ أتحداك فى هذه الإصابة .

(١٨)

عبء ثقيل

صرخت « أنجى » صرخة جزع وأقبلت على « على » فى لهفة تحاول أن توقف الدماء التى تنزف من إصبعه بمنديلها الصغير ، وأمسكت بيده فى حنان شديد قائلة والبكاء يخنق صوتها :

ـــ ضع منديلى عليه حتى أحضر لك قطنة وصبغة يود ، وسأعود حالاً .

ونظرت إلى علاء وهو يتبسم ابتسامته الصفراء ، وقد وقف حسين بجواره مذهولا حانقاً وقالت :

ـــ مجنون .. سافل .

ثم انطلقت تعدو تجاه البيت .

وأقبل حسين على أخيه يفحص إصبعه جزعاً وهو يغمغم :

ـــ كان يجب أن أفرغ طلقتى فى رأسه .

ورفع « على » وجهه فى دهشة وقال زاجراً أخاه :

ـــ ماذا تقول ؟ أجننت ؟ إن المسألة لا تستحق كل هذا .. إنه جرح بسيط ..ولا شك أن الطلقة خرجت دون قصد منه .

وصاح علاء :

ـــ لا .. لم تخرج بلا قصد .. إنما قصدت بها أن أعلمك ألا تعطى ما ليس لك لمن ليس لك .. يجب أن يعرف المرء حدوده التى يجب ألا يتعداها .. إن الملابس لا تمنح النفوس حدوداً أوسع مما يمنحه أصلها .. إن الملابس لا تحيل السيد عبداً .. ولا العبد سيداً .. هذه المرة فى إصبعك .. المرة القادمة ستكون الإصابة أسهل ، لأن الهدف سيكون أكبر .

وأحس « على » من قول الفتى بجرح أشد إيلاماً من جرح إصبعه ، وتصاعد الدم إلى وجهه ، واحتدمت فى صدره عاصفة من المقت ، حاول جهده أن يكبتها ، وأخيراً قال فى هدوء وهو يقذف بالمنديل الصغير الذى كان يضمد جرحه على المنضدة الخيزران :

— الملابس لا تمنح النفوس شيئاً .. الأصل كذلك لا يمنحها شيئاً .. النفوس هى التى تمنح كل شىء .. النفوس أثبت وأقوى من الملابس والأصول .. وكل أصل يبدأ من الأرض .. ويعلو إلى السماء .. ثم تسقط بذرته إلى الأرض .. لتبدأ من الطين مرة أخرى .. ليس هناك أصل ثابت فى الأرض أو فى السماء .. ولكنه دائماً متأرجح بين هذه وتلك .. جيل فى الأرض .. وجيل فى السماء .

وهم بالسير عندما أقبلت « أنجى » تعدو لاهثة وقد أمسكت بقطعة قطن وزجاجة صغيرة بها صبغة يود ، واندفعت إليه تضمد جرح إصبعه بقطعة القطن وهى تهمس والدموع تترقرق فى عينيها :

— إنى آسفة جداً .

وأحس « على » بشوائب الكدر ترسب ، وبنفسه تصفو وشعوره يرق ويرهف ، حتى لكأن إصبعه لم تجرح وكرامته لم تهن .

ووجد نفسه يهمس :

— لا داعى للأسف .. أنعم بجرح تضمده يدها .

وكان حسين قد حاول التشاغل بفحص إحدى البنادق ، وتباعد علاء معاوداً الانهماك فى إطلاق بندقيته على الطيور فوق أعالى الشجر ، وكأن لم يحدث منه شىء ، ورمقته « أنجى » وهو يوشك على الاختفاء بنظرة حنق واستياء وقالت :

— أرجو ألا تأبه له .. لا تلق بالا إلى ما يفعل أو يقول ، فهو مخلوق غير طبيعى .. إنه يقدم على الأذى بلا مبرر ولا سبب .. لقد سبق أن قتل قطتى .. وحاول قتل حصانى .. إنه دائماً يكره من أحب .

وأحس « على » بنشوة من قولها .. إنها تعتذر عن فعلة أخيها ومحاولته إيذاءه

بأنه يكره من تحب .. فهي تسلم ببساطة أنه قد أضحى ضمن من تحب .

وكان قد رفع إصبعه المصابة وأخذت هي تربطها بقطعة شاش .. وانتقل بصره من جدائلها الذهبية المتهدلة على كتفيها إلى أصابعها وهي تلف الشاش في حرص وحذر ، وأحس بها تمس يده مسات خفيفة ، ووجد نفسه يرفع إصبعه إلى أعلى رويداً رويداً ، وأصابعها مازالت تدور بالشاشة حوله .. وبلا وعى ولا إرادة وجد رأسه ينحنى حتى قارب فمه يدها ، وبأقصى آيات الرفق والحنان والتعبد والتبتل مس بشفتيه أطراف أصابعها .

وأحست هي من مسة شفتيه ونظرة عينيه برجفة سرت في جسدها ، ووجدت إصبعها المماسة لشفتيه تتحسسهما في بطء ثم تتحرك تمس طرف أنفه ، وتعود ثانية إلى شفتيه في حنين عجيب وطافت بشفتيها ابتسامة رقيقة ذائبة وهمست قائلة وهي تنظر في عينيه :

ــ شكراً .

وأجابها في مثل همسها ونظراته تطوف بوجهها كأنما يتحسسه في عبادة :

ــ شكراً لك أنت .. على كل ما فعلته .

ــ أرجو ألا يكون بنفسك شيء ؟

ــ بل بها شيء كثير .. في كل مرة ألقاك .. تدفعين بها من الأمل والقوة ما يهوّن على كل صعب .. الحياة أمامي قد خفت أعباؤها وتضاءلت مشاقها حتى بت أشعر بقوة خارقة على تخطى كل عقبة وإزالة كل حائل .

وكان « علاء » قد عاود الاقتراب فهمست « أنجى » وهي تعقد الرباط حول إصبعه :

ــ متى ستعود ثانية ؟

ــ في الخميس بعد القادم .

ــ ولماذا لا تعود الخميس القادم ؟

ــ يوجد عندنا صنف حريق .

ـ لست أفهم .

ـ فى كل أسبوع يبقى صنف (جماعة) فى المدرسة ليقوم بواجب نوبتجية الحريق ، حتى إذا حدث حريق فى المدرسة وجد من يطفئه .

ـ وهل سبق أن حدث حريق ؟! وهل استطاعوا إطفاءه ؟

وضحك « على » وأجابها :

ـ الواقع أنه لم يحدث طيلة وجودى فى المدرسة ولا أظنه قد حدث قبل وجودى ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يحدث فى أى وقت .. أما سؤالك عما إذا كان الصنف يستطيع إطفاءه ، فذلك لا يعلمه إلا الله .. على أيه حال إنها نوع من مضايقات المدرسة .. أو على الأصح ما نظنها مضايقات ، وإن كنت أجد فيها نوعاً من رياضة النفس على فعل مالا تحب ، وقبول ما لا ترضى .. والتسليم به بلا جدل ولا مناقشة .. وهى رياضة واجبة على كل نفس فى حياتنا هذه ، لأن الحياة كثيراً ما تجبرنا على ما نكره وتفرض علينا مالا نشتهى .. وأعتقد أن النفس العسكرية خاصة أحق بهذه الرياضة التى تؤهلها لقبول الأوامر العسكرية فى السلم و الحرب وتنفيذها بلا جدل ولا مناقشة حتى ولو كانت غير معقولة ولا مقبولة .

ـ لقد وجدت فلسفة للعسكرية تسوغ بها سخافاتها .

ثم رفعت عينيها إلى رأسه وأردفت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة واسعة :

ـ وأظن من بين تلك السخافات حلاقة الرأس .

ـ قد تبدو فى مظهرها سخافة ، وإن كانت تخفى فى باطنها أبلغ الحكم .

ـ كيف ؟

ـ أوّلها ترويض النفس كما قلت لك على قبول ما لا تشتهى مهما بدا من عدم فائدته وسخافته .

ـ وثانيها ؟

ـ تعويد المرء على ألا يضع اعتداده وثقته فى مظهر تافه .. كأنما هو شمشون

إن زال شعره زالت قوته . إن نفسه هي نفسه .. بشعر أو بغير شعر .

— وثالثها ؟

— النظافة وعدم تضييع الوقت فى التمشيط والتزين .. و ..

وقاطعته ضاحكة :

— كفى .. كفى .. حتى لا تجعلنى أعدو لقص شعرى وتحقيق كل هذه المزايا التى تذكرها .

وشاركتها ضحكها وهو يقول :

— إنى أقصد بقولى .. الشعر .. لا خيوط الذهب .

ورفعت إليه عينيها متسائلة فى خبث :

— أيعلمونكم فى المدرسة دروس غزل إلى جانب الدروس العسكرية ؟

وكان علاء قد اقترب ، فأردفت تقول مؤكدة :

— ستحضر إذن فى الخميس بعد القادم ؟

— إن شاء الله .. ادعى الله أن يمنح البندقية رقم ٧٩ نظافة من عنده .. أو إذا استعصت نظافتها ، وأظنها مستعصية .. فليصب الباشجاويش رقم ١٤ « محمد على رجب » بوجع فى عينيه يجعله لا يبصر وساختها .. حتى يمر الأسبوعان القادمان على خير .

وضحكت « أنجى » قائلة :

— سأدعو الله أن يخرجك وكفى .. فلا أظننى بمستطيعة حفظ كل هذه الأرقام التى قلتها .. سأنتظرك هنا بمجرد عودتى من المدرسة إلى حوالى الرابعة والنصف ، وسنتفق على الذهاب إلى سينما .

— سأكون هنا فى الموعد ولو أدّى الأمر إلى قتل الباشجاويش ، والجاويش الأحمر .. سأتركك الآن .. فأخوك لا يسرّه كثيراً وجودى .

— دعك منه .

وسلم « على » مودعاً ، وأقبل علاء يقول لحسين متسائلا فى استخفاف :

ـــ أتقبل تحدياً آخر ؟

ونظر إليه حسين فى غيظ وقال :

ـــ تحدّياً آخر ؟.. أنا أقبل كل تحدّ ، ولكن دعنى أختار الهدف . أمسك الوردة ، وسأريك كيف تكون الإصابة .

وقهقهة علاء وقال ساخراً :

ـــ أنا لا أمسك بالورد .. أنا أمسك سلاحاً فقط .

ونادى « على » أخاه :

ـــ هيّا يا حسين .. لقد أزف الوقت .

وقال حسين لعلاء وهو يتجه إلى أخيه :

ـــ نحن نمسك الورد لمن يريده ، والسلاح لمن يستحقه ، سنلتقى ثانية . دع التحدّى إلى فرصة أخرى .. العمر طويل ، والأهداف كثيرة .

وقهقه « علاء » وصاح وهو يشيع الأخوين العائدين قائلا بلهجة هازئة :

ـــ ضباط .

ثم أخذ يطلق بندقيته وراءهما فى الهواء وهو يقهقه فى حمق .

وصاحت به « أنجى » حانقة :

ـــ علاء .. كف عن هذا .

ثم حانت منها التفاتة إلى النَّضَد فوجدت منديلها الصغير وقد بدت عليه بقع حمر من إصبع على .

وهمت بأن تصيح بعلى لتعطيه المنديل ولكنها أطبقت عليه يدها قائلة لنفسها :

ـــ إنى أحق بالاحتفاظ به .. إن به منه أكثر مما به منى .. لقد حملته عطرى .. ولكنه حمله دمه .. سأحفظه لدىّ .. كأعز ما أملك .

ووقع بصرها على الوردة التى أسقطتها الطلقة من يد « على » فالتقطتها من فوق الحشائش ولفتها بالمنديل ثم أطبقت عليه يدها ، وعادت إلى البيت ، وكأنها تحمل كنزاً .

ورجع الأخوان إلى البيت ، وعندما أزف موعد الرحيل غادرا البيت متجهاً كل منهما إلى مدرسته .

وعاد « على » إلى المدرسة محملا بعبء من المشاعر .. وجلس على طرف فراشه بعد طابور التمام يخلع حذاءه الطويل « الوولنجتون » ، وأخذ يرقب زملاءه العائدين من إجازاتهم مرحين ضاحكين يقصون مغامراتهم ويرد تحياتهم شارد الذهن غارب البال .

إن مشاعر « أنجى » تتلاحق عليه بسرعة وعنف أشد مما يتوقع أو يحتمل .. وهو عندما يحاول استعادة ما جرى بينهما اليوم لا يستطيع أن يصدق وقوعه بسهولة .. ولا يستطيع كذلك أن يتذوّق جماله من شدة انبهاره وفرط حلاوته .

هو لا يستطيع أن يصدق أنها قالت ما قالت .. وأنه قال لها ما قال .. وأكثر من هذا لا يستطيع أن يصدق أنه مس إصبعها بشفتيه .. وأنها قالت له فى صوتها الذائب : «شكراً » .

وانتقل ذهنه بعد ذلك من الجانب الحلو إلى الجانب المر .. وقفز من السهل إلى الوعر .. فساءل نفسه : ما نهاية كل ذلك ! وذكر شعور أخيها وتهديده وتحدّيه .. وأحس بالظلمة التى تخيم على النهاية .. وأحس بسرابية أمله فيها .. وبفرط يأسه منها .. ثم حاول أن يطرد من ذهنه النهاية البعيدة وأن يقصر تفكيره عنها فيتركها لله والظروف والحظ والقدر ، وغير ذلك من نواحى التوكل التى يوكل إليها اليائس كل ميئوس منه .

ولكنه حتى مع قصر تفكيره عن النهاية البعيدة السرابية الميئوس منها .. وحصره فى الحاضر الحلو المرجو منه المأمول فيه .. أحس بالكثير من الخوف والقلق .

إلى أى حد يمكنه السير فى ذلك الحاضر ؟! وإلى أى مدى تساعده إمكانياته على الانتفاع به ؟.. أتراه ينوى أن يقصر لقاءها على جلسة فى العربة ؟! ثم كيف يستطيع لقاءها .. وعطلته ــ إذا أخذ عطلة ــ يومى الخميس والجمعة وعطلتها

يومي السبت والأحد ؟ وإذا عرضت عليه الذهاب إلى السينما كما قالت اليوم ماذا يفعل ؟ أيستطيع أن يذهب ؟ أيمكنه نصف الريال الذى يمنحه إياه أبوه — وهو يعرف كيف يمنحه أياه — والذى يصرف نصفه فى المواصلات .. أيمكنه الشلن الباقى من الذهاب معها ؟! أيمكنه الشلن من دعوتها ؟! أم تراه سيسألها أن تدفع له ؟

كان فيما مضى يستطيع أن يدعوها فى أوهامه كما يشاء .. كانت الأوهام لا تكلفه إلا مجرد التفكير .

أما الآن .. وبعد أن تحققت الأوهام .. فقد أضحت المشكلة عويصة حتى لقد بات يتمنى لو عادت أوهاماً كما كانت ، أو .. لو وقع عليه الباشجاويش الحبس .. فأنقذه من الورطة التي يوشك أن يزج بنفسه فيها .

ولكن الحنين إلى رؤيتها جعل فكرة الحبس تبدو بغيضة إلى نفسه .. وإلى متى ؟! أتراه سيحبس كل جمعة .. فراراً منها .. ومن عجزه عن الذهاب معها إلى السينما ؟

لو عرفت هى أن لقاءهما فى السينما لم يهيئه إلا الخمسون قرشاً الباقية من مصروفات حسين من رحلة الإسكندرية .. لجنّبته دعوتها ، ولا كتفت بلقاء بسيط فى الحديقة .

ولكن إلى متى يمكن أن يستمر لقاء الحديقة سهلا ، ميسوراً . أسيتركه علاء ؟! ألن يشعر به الأمير ؟! ألن يهمس به أحد العمال أو الفلاحين ؟

وأهل القرية ؟!

إن هذه الأشياء لا تخفى كثيراً عن الأعين الريفية الفضولية .. والهمس بها لا يمكن أن تصمت عنه ألسنتهم الثرثارة .. وإن بلغ مسامع الأمير .. فهل يأمن بعد هذا على رزق أبيه ؟

أف .. إن رأسه يكاد ينفجر !

ولكن ماله يرهق ذهنه بكل تلك السخافات ؟! ألا يكفيه أن أحلام الدجى ،

وأماني الخيال .. قد تحققت كأقوى ما يكون التحقق ؟! ألا يكفيه أنها تحبه ؟!

أجل .. أجل .. إنها تحبه .. إنها تفكر فيه .. إنها تدعوه .. ويحه من غبى أحمق !!

ووجد نفسه يقفز من طرف فراشه فى فرح وقذف بحذائه فى العين السفلى المخصصة للأحذية من الدولاب .. ثم علق بدلته ومدّ يده فى الدرج العلوى الأيمن المخصص لحاجيات الطالب الخاصة غير الصرفية الأميرية والذى يوضَع فيه المشط والفرشاة وعدة الحلاقة ، وأخذ يتحسس أوراق وردة جافة ذابلة ، ويدندن بأغنيته المحبوبة :

ردت الروحُ على المضنَى معك أحسنُ الأيام يومُ أرجعك

ثم اندفع بين رفاقه ضاحكاً لاهياً .

ومرت أيام الأسبوع بعد ذلك سريعة متوالية .. مشحونة بكل ما يمكن من أنواع الإرهاق والعمل الذى يمسك بتلابيبهم فلا يدع لهم فرصة راحة ولا تفكير ، وإن كانت « الطوابير » قد خفت بعد أن انتهت مدة المستجدين ، والأجساد قد أضحت أكثر تحملا من فرط ما تعوّدت الإرهاق ، والنفوس أشد صبراً على الأذى والجزاء من طول ما مارسته حتى بات الجزاء عندها من لوازم العمل .

وانقضى الأسبوع الأول .. وجلس « على » وصاحبه سليمان فى مكانهما المعتاد فى مدرج الكرة ، ونعم « على » باجترار الذكرى وسرد تفاصيلها على سليمان ، واستمع سليمان إلى حديث صاحبه كما تعوّد دائماً أن يستمع إليه مسروراً بسروره سعيداً بسعادته ، ولكن بعض الحديث رسب فى ذهنه فعكر صفوه ووجد نفسه يعمق بتفكيره فيه ويلتقطه ليصله بتفكيره الخاص ويربطه بموضوعه الذى يشغل ذهنه .. فلا يكاد « على » ينتهى من حديثه حتى يلفظ من صدره تنهيدة حارة ويقول فى صوت عميق :

— تلك هى العلة يا على .. لقد عرف أخوها كيف يشخصها ، ووضعنا

حيث نحن كائنون .. لا كما تضعنا الألفاظ البراقة التى نتشدق بها وتعمى بها عيوننا عن الحقيقة المرة .. « أحرار فى بلادنا .. كرماء لضيوفنا » .. ونحن عبيد فى بلادنا أذلاء لضيوفنا .. نحن عبيد للإنجليز وللأمراء وللحكام وللإقطاعيين .. ولنا حدود يجب ألا نتعداها .. والملابس لا تمنحنا حدوداً أوسع .. ونحن للأسف لا نفعل أكثر من أن نغير ملابسنا .. ونظل كما نحن بنفوس العبيد .. أشياء كثيرة فى هذا البلد يجب أن تتغير .. حتى تضحى بلادنا لأهلها .. لا للإنجليز والأتراك ، ومن دار فى فلكهم .. لا بد أن تتغير نفوسنا .

وصمت سليمان وقال « على » معقباً على قوله :

— إن الزمن كفيل بتغييرها .

— الزمن لا يكفى .. مفعول الزمن بطىء وغير مضمون .لابد من الجهاد الشاق والكفاح المرير .

ولم يفهم « على » ما يقصد سليمان بألفاظه المبهمة الواسعة غير المحدودة . وتركها تمر عابرة كما كان يمر به بقية أحاديث سليمان عن الاستعمار ، والاستعباد ، والكفاح ، والظلم والطغيان ، وغير ذلك من الألفاظ التى كان « على » لا يجد فيها أكثر من ألفاظ جوفاء يستعملها قادة المظاهرات والخطباء دون أن تقصد شيئاً أو تؤدى إلى شىء .

ومر أسبوع آخر .. وفى يوم الخميس خرج « على » مع بقية الطلبة دون أن تحول البندقية بينه وبين الخروج .. رغم أنه تمنى فى كثير من اللحظات أن تنقذه من موعده فى الحديقة ومن ورطة السينما التى يوشك أن يزج بنفسه دون أن يعرف لها حلا .

وعاد إلى البيت وهو يطبق على نصف الريال المتبقى من مصروف الجمعة السابقة وكان يأمل أن يكون حسين ما زال يحتفظ ببقية من النقود ليعتمد عليها فى ورطته .. ولكن أمله خاب عندما علم من أبيه أن حسيناً لن يخرج هذا الأسبوع لأنه نوبتجى .

وفى الرابعة والنصف كان « على » يدلف من الباب الخلفى ويتجوّل قرب السوبة كأنه يشاهد الزهور ، وقد أحس أن على كتفيه عبئاً تثاقل كلما اقترب الموعد حتى بات يتمنى لو استطاع العدو .. أو عاق « أنجى » عن الحضور عائق .

ولكن « أنجى » أقبلت بعد هنيهة وقد بدت عليها العجلة وكان أول ما قالته :

— لن أستطيع البقاء لأن أخى ينتظرنى للنزول إلى البلد ، لقد قطعت أربع تذاكر حتى نضمن الجلوس متجاورين .. خذ هاتين التذكرتين لك ولحسين ، وسأحتفظ بالتذكرتين الأخريين لى ولعلاء .. وسيبدو تجاورنا كأنه محض مصادفة .. سنكمل الحديث فى السينما .

وقبل أن يجيبه عليها بكلمة واحدة عادت مسرعة من حيث أتت .. بعد أن دست التذكرتين فى كفه .

ووقف يرقبها وهى تتباعد مسرعة . وتحسس التذكرتين فى دهشة .. وأحس « على » بالعبء ينزاح عن كاهله .

(١٩)

تدبير مفاجئ

يبدو أن القدر أصابته نوبة كرم طارئة ذلك الأسبوع. فهو لم يكتف بتدبير تذاكر السينما فحسب بل تطوّع بتدبير لقاء لم يكن « على » يحلم به .

ذهب « على » إلى السينما يحمل التذكرتين اللتين قذفت بهما اليه « أنجى » فى لقائهما العاجل .

وجلس فى مقعده وبنفسه بعض الأسف لأن « حسين » حرم من التذكرة التى فى جيبه وتمنى لو استطاع أن يذهب إليه ليخرجه ويحضره معه .

وأطفئ النور دون أن تحضر « أنجى » ولم يحاول « على » أن ينظر إلى الشاشة ، بل أخذ يرقب كل شبح من المقبلين فى الظلمة محاولا أن يتبين « أنجى » وأخاها ، حتى أبصر شبحاً يقترب من الصفوف استطاع أن يميز فيه « أنجى » وحدها وسمعها تهمس فى أذنه وهى تشد على يده :

— اتأخرت عليك ؟ لقد عطلنى علاء .. انتظرته مدة طويلة ثم أرسل لى السائق يقول لى إنه لن يأتى لأنه مدعو إلى سهرة فى نادى الصيد .

وأحس « على » أن قلبه يوشك أن يقفز بين حناياه .. أيمكن أن يكون هذا واقعياً ؟ أحقيقة أنهما سيجلسان وحدهما طوال مدة العرض ؟

وتلفتت « أنجى » بحذر وقالت مستدركة كأنما قد نسيت أمراً :

— أين حسين ؟ إنى لم أسلم عليه !

— إنه لن يأتى .. لأنه فى المدرسة .

— أحقاً ؟

وخرجت كلمة « حقاً » من شفتيها تتأرجح بين الأسف الظاهر والغبطة

الخفية .. وكأن لسان حالها يقول :

«أحقاً سنجلس سوياً هذه المرة دون أن يشاركنا فى خلوتنا ثالث ؟»

كأنما قد نسيت كل هؤلاء الخلق الجالسين حولهما فى مقاعدهم .

وانتهى الفيلم .. انتهى هكذا فى غمضة عين .. ولم ير الاثنان منه صورة .. ولم يسمعا منه صوتاً .. لقد ركزا كل حواسهما فى أصابعها المتشابكة المختفية تحت معطف « أنجى » الذى بسطته على ساقيها واستقر طرفه على ساقه .

وعاد الاثنان إلى العزبة .. وبنفسيهما من النشوة والإحساس بالتقارب والتلاصق والاندماج ما جعلهما يشعران أنهما شريكان فى حياة واحدة ..وأن ذهابهما إلى السينما وحدهما وعودتهما إلى العزبة أمر طبيعى من الواجب حدوثه .. وأن الشيء غير الطبيعى هو حدوث الفرقة بينهما .. وأن يكون كل منهما فى ناحية .

وافترقا أخيراً ، إلى لقاء ، وبنفس كل منهما إحساس بحقه على الآخر وواجبه نحوه ، حق مسلم به ، وواجب لا مفر منه .

وعاد « على » إلى المدرسة فى هذه المرة .. دون أن يستبد به القلق من المصير .. والخشية من النهاية .. لقد منحته ثقة كبرى ، منحته ثقة غير مباشرة ، من مجرد طريقتها فى الحديث إليه ، ومن تسليمها جدلا ، بأن كلا منهما أصبح للآخر .

كان ما يشغله هذه المرة شيئاً آخر غير مصير حبه .. شيئاً آخر .. استطاع أن يدركه من ملامح أبيه ومن فلتات لسان أمه .. وهو القسط الثانى من المصروفات المدرسية الذى قارب موعده على الحلول .

لقد صرف أبوه الكثير على البيت حتى يجعله يبدو بالمظهر اللائق به وبأخيه .. وغلبت رغبته فى إرضائهما وفرحته بهما حرصه على التقتير الواجب لتدبير المال ، وهو رجل شديد الإيمان بالله ، شديد الثقة به ، يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله لا يخذله ما دام يفعل ما يرضيه .

ويبدو أنه كان يأمل فى مكافأة سنوية تعوّد أن يهبها له الأمير آخر كل عام ليستعين بها على تكملة القسط ، ولكن حال الأمير هذا العام لا ينبئ بخير وثورته الدائمة على الفلاحين وشكواه من خفض الإيجارات ومن محاولتهم نهبه وسلبه لا تبشر بأنه ينوى أن يمنح شيئاً .

ولم يبق أمامه للتسديد غير الفدانين .. وبيع الفدانين فى هذا الوقت الذى هبطت فيه قيمة الأرض يعتبر جنوناً .

هذا هو ما استطاع أن يدركه من مظاهر الضيق والقلق البادية على أبيه .. ومن الأحاديث العابرة التى يفرّج بها عن نفسه بين حين وآخر .

وانتقل الضيق من الأب إلى الابن ، بل كان ضيق الابن مضاعفاً .. فهو ضيق من أجل أبيه الذى كان ينزله من نفسه منزلة عليا ، وضيق بالمشكلة نفسها وبما يمكن أن يعقبها من ضياع مستقبل أو لجوء إلى قرض أو من فضيحة السؤال أو .. أو .. إلى آخر كل ما يمكن أن يقوده إليه ذهنه من النتائج السيئة والخاتمات الشقية .. التى كان يربض وراءها كلها .. شبح « أنجى » والخوف من فقدها .

وكان المفروض أن يخرج فى الأسبوع التالى . وكان الأمل فى لقاء « أنجى » يضيع الكثير من مرارة الخوف والقلق .. ولكن الطالب الذى كان عليه الدور فى نوبتجية العنبر دخل المستشفى وكان هو النوبتجى المنتظر ، فاضطر إلى البقاء .

وزاره « حسين » فى يوم الجمعة .. وأكد له فى حديثه ما تبينه من إحساس أبيه بالضيق والأزمة .

وزاده هذا ، بالإضافة إلى الضيق الذى يسببه بقاؤه فى المدرسة ، وتخليه عن موعد « أنجى » ، إحساساً بالحزن ، ومرّ الأسبوع التالى وهو يشعر بحمل من اليأس يجثم على نفسه ، وهو يحاول سدي أن يجد حلا لأزمة أبيه .

إن كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يبذل أقصى جهده فى الدروس والطوابير عسى أن يفوز بترتيب متقدم يمنحه مجانية التفوق ويوفر على أبيه المصروفات .

ولكن حتى هذا لو فاز به — رغم أنه يجده أمراً عسيراً وهو يرى نفسه فى

المدرسة بلا ميزة واضحة ولا كفاية ظاهرة أمام الضباط وصف الضباط — حتى هذه الأمنية لن تتحقق إلا فى نهاية العام .. وعندما يعقد امتحان الانتقال من القسم الإعدادى إلى القسم المتوسط ، والقسط مطلوب سداده فى آخر هذا الشهر .

وأقبل يوم الأربعاء ، وعاد « على » من طابور الألعاب منهوك الجسد ، مخدوش الركبه ، عقب إحدى محاولات القفز العالى ، ووقف أمام الدولاب يخلع ملابس الألعاب البيضاء ليستبدل بها ملابس الطابور الكاكية استعداداً لطابور الهتاف .

وقذف بالقبعة التيل البيضاء المتهدلة أطرافها على أذنيه .. ثم بالحزام الأبيض العريض داخل الدولاب .. وجلس على حرف الفراش فى حذر خشية أن يتلف ترتيب الملاءات والبطاطين .. وأخذ يخلع الحذاء الأبيض الخفيف ويرتدى الحذاء الأسود الثقيل ويربط فوقه « القالشين » .

وكان يشعر لأول مرة خلال الأسبوعين الماضيين — أن عبء الهموم الذى أثقل كاهله قد أخذ يخف .. وغيوم الضيق قد أخذت تنقشع بمجرد الإحساس باقتراب يوم الخميس ، وأن متاعب الأسبوع أوشكت على الانتهاء وأنه بعد وقت قصير ستبدأ حصص المذاكرة (أو حصص نور — كما كانت تسمى) وتبدأ معها تراخيص الفسحة أو تراخيص الحرية وجوازات المرور من الجحيم إلى الجنة .

وانتهى من ربط إحدى فردتى القالشين ، والشبح الجميل يطوف بذهنه طوافاً خفيفاً عابراً ، مسلطاً عليه أبهى الأضواء ، مغرداً أعذب الألحان ، محاولا أن ينتشله من وهدة الكآبة والقلق التى ألقاه فيها طوال الأسبوعين الماضيين إحساسه بأزمة أبيه وعجزه عن دفع القسط . .

وهكذا عاونه الإحساس بقرب الخروج وأمل اللقاء على تبديد كآبة اليأس والهم .. ووجد نفسه يربط فردة القالشين الأخرى بشدة وعزم ثم ينهض ليخلع القميص الأبيض وكأنه يخلع عنه همومه وأحزانه ويهتف بنفسه : « دعها لله

يدبرها كيف شاء » .

وفجأة ، وقبل أن يضع الجاكتة على جسده .. انطلق صوت البروجى يدوى .. وذهل « على » .. ونظر إلى الساعة فى يده فوجدها ما زالت الخامسة وخمس دقائق .. وموعد نوبة طابور التمام والهتاف هو الخامسة والنصف .. وهزّ الساعة وأدار مسمار الملء لعلها واقفة .. ونظر إلى بقية الرفاق فوجدهم ما زالوا يتسكعون فى ارتداء ملابسهم وقد بدت عليهم الدهشة واندفع الأمباشى « بكر » بالفانلة والسروال إلى الطرق مطلاً برأسه .. فوجد البروجى « حبلص » قد وقف بالبنطلون والفانلة .. وأخذ ينفخ فى البروجى وقد احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه .

وصاح الأمباشى « بكر » بالبروجى :

— حبلص .. ما هذا ؟! أجننت ؟ .. مازال باقياً على التمام نصف ساعة ؟

ولكن « حبلص » استمر فى النفخ .. وانطلقت نوبة الجمع تتجاوب أصداؤها فى أنحاء المدرسة محدثة بانطلاقها المفاجئ نوبة من الذعر والدهشة .. واندفع الطلبة من الحمامات .. والعنابر .. والطرقات .. أشباه عرايا متسائلين عما حدث .

وقبل أن ينتهى البروجى من نوبته .. اندفع أركان حرب المدرسة من الطرقة السفلى إلى الفناء ورفع عقيرته بالصياح :

— باشجاويش .. اجمع الطلبة .. كما هم .. عندك فى الطرقة .

واندفع الباشجاويش يردد صيحة أركان الحرب :

— اجمع الطلبة .. كما هم .. بسرعة .

وسرى الصدى إلى بقية صف الضباط وفى لمح البرق ترددت الصيحة فى أنحاء المدرسة :

ـــ اجمع الطلبة .

وفى غمضة عين كانت المدرسة قد اصطفت طابوراً عجيباً فى الطرقة العليا ، وقد ظهر الطلبة بتشكيلة عجيبة من الملابس والمناظر ، وقد أمسكوا بالفوط وقطع الصابون فى أيديهم .

وأخذ الجاويش تماماً من أومباشية الأصناف عن أصنافهم ، وترددت فى الطرقات الصيحات التقليدية للتمامات ثم انتقلت التمامات من الجاويشية إلى الجاويش النوبتجى :

ـــ تمام واحد ؟

ـــ تمام يا فندم .

ـــ تمام اثنين ؟

ـــ تمام يا فندم واحد شفخانة وواحد معاف .

وصاح الباشجاويش :

ـــ المعاف يحضر . إنه معاف من الطوابير والألعاب . وهذا ليس طابوراً أو ألعاباً .

ـــ حاضر يا فندم .

وفى تلك اللحظة سمعت أصوات أقدام صاعدة على السلم المؤدى من أسفل إلى الطرقة العليا .. واستطاع الطلبة أن يميزوا بطرف أعينهم أشخاص القادمين فازداد ذهولهم ، إذ تبينوا فى مقدمتهم كبير المعلمين الإنجليزى ، الطويل القامة ، الضيق الكتفين ، الضخم الأنف ، وقد ارتدى طربوشه الغامق على وجهه الأحمر ، وسار محركاً عصاه القصيرة بين أصابعه ، ووراءه أركان حرب المدرسة بجسده الضخم ، ووجهه الأحمر ، والزبد الأبيض على طرفى شفتيه ، ولفيف من ضباط المدرسة يتبعونه فى شبه طابور .

وصاح الباشجاويش وهو يرى الركب يتقدم نحوه :

ـــ مدرسة .

ثم انتظر حتى اقترب الركب وأطلق نداءه (انتباه) ممدود المقطع الأول ، مخطوف الثانى :

— انت ...باه .

وفى طرقة واحدة ضمت الأعقاب إلى بعضها ، ووقف الطابور كأنه صف أصنام .

وتقدم الباشجاويش إلى كبير المعلمين فرفع يده بشدة محيياً ، واهتزت أطراف أصابعه برهة من شدة التحية كأنها خيزران يلب ، ثم ما لبثت سبابته أن استقرت على حاجبه وصاح :

— تمام يا فندم المدرسة .

ورفع الإنجليزى عصاه مشيراً بها إلى جبينه ، مجيباً تحية الباشجاويش ثم قال له :

— صفا .

ونادى الباشجاويش :

— مدرسة .. صفا .

ونقل الطلبة أقدامهم اليسرى نقلة بسيطة واستمروا فى أماكنهم كالأوتاد وأذهانهم حائرة ونفوسهم مشدوهة وقلوبهم واجفة ، فما كان واحد منهم يمكن أن يتوقع خيراً من الإنجليزى الرهيب .

وبدأ الرجل حديثه قائلا بعربية ركيكة مستعيناً بإشارات من عصاه يلوّح بها فى الهواء :

— اسمع الطلبة .. فيه كلام إنه ينكن (قاصداً يمكن واضعاً النون بدل الميم) .. ينكن (وأخذ يكررها بضع مرات) يعنى ليس شيئاً مؤكداً بل مجرد احتمال .. أن يكون هناك ترقية .. قبل آخر السنة .. أعنى أن القسم النهائى يتخرج ضابطاً .. قبل موعده .. وجزءاً من القسم المتوسط يحل محل النهائى ، لكى يخرج آخر السنة ، وجزءاً من الإعدادى ينتقل إلى المتوسط ، بدل المتوسط

الذى ذهب إلى النهائى .. لذلك سيجرى امتحان يوم السبت القادم .. وأمامكم من الآن فرصة للمذاكرة .. شدّوا حيلكم .

ثم رفع عصاه إلى جبينه محيياً وصاح الباشجاويش :

ـ مدرسة .. انتباه .

وقبل أن ينصرف أركان الحرب قال للباشجاويش :

ـ انصراف يا باشجاويش بدون ضجة .. التمام فى موعده .. وكل شىء فى موعده .. وستعلن باكر مواعيد الامتحانات فى لوحة الإعلانات .

وتباعد الركب فى طريقه إلى العودة هابطاً السلم إلى أسفل وصاح الباشجاويش :

ـ مدرسة .. صفا .

وكان الانصراف بلا ضجة أمراً عسيراً ، بل مستحيل ، بعد هذه القنبلة التى ألقاها كبير المعلمين ببساطة .. وعاد إلى قواعده كأنه لم يفعل شيئاً .. ولم يكد الباشجاويش ينادى صفا . حتى سرت همهمة جعلت الطابور أشبه بخلية النحل مما حدا بأركان الحرب أن يلتفت خلفه ويصيح منذراً :

ـ باشجاويش .

ومما حدا بالباشجاويش ، أن يصيح بدوره فى الطلبة :

ـ وبعدين .. يا غجر .

ولكن الهمهمة استمرت ، فقد كان النبأ أكبر من أن تحتملة أعصاب الطلبة .. وكان من العسير التحكم فيهم والسيطرة على الضبط والربط بينهم ، ولم يجد الباشجاويش بدأً من أن يسرع بصرفهم صائحاً :

ـ مدرسة .. انتباه .. مدرسة .. انصراف .. لا أريد أن أسمع صوتاً أو ضجة .. التمام فى موعده .. وكل أومباشى مسئول عن صنفه .

واندفع الطلبة كالمجانين لا يدرون ماذا يفعلون .

أمعقول هذا ؟! هذه المدرسة التى جرت عادتها على أن تخرج طلبتها بالقطارة ، وبنظام ومواعيد و « روتين » تجرى امتحاناً بعد غد !

وكان أول من فقد السيطرة على نفسه هم صف الضباط المفروض فيهم أن يحافظوا على نظام الطلبة .. فقد رأوا أنهم سيصبحون ضباطاً فى غمضة عين .. وينطلقون بعد بضعة أيام من سجن المدرسة .

واندفعوا يحتضنون بعضهم البعض وانهالت التعليقات من أفواه الطلبة الآخرين ، وأخذ معظمهم يضربون كفاً بكف وصاح أحدهم فى ذهول :

ـــ امتحان يوم السبت .. ومن الذى يستطيع أن يستذكر كل هذه الدروس فى يومين ؟

ـــ الكل فى الهوى سوى .. سيكون الامتحان .. اختباراً للذكاء .. لا .. للاستذكار .

وسار « على » فى صمت ووجوم وذهول .. دون أن ينبس ببنت شفة . عجباً هذا القدر !! أيمكن أن يكون الله قد نوى تدبير أمره بهذه السرعة وبهذه الكيفية ، لقد ألقى هو العبء عليه وهو يرتدى ملابسه عندما طافت « أنجى » برأسه وبدت قلقه وخشيته فهتف لنفسه من أعماق قلبه .. « دعها لله يدبرها كيف شاء !».

وعندما قال هذا ، لم يكن يدرى كيف يمكن أن يدبرها الله .. ولكنه قالها محوّلا العبء الذى أثقل على نفسه .. إلى قوى قدير رحيم بعباده .. لقد ترك المشكلة إلى الله .. لا بأمل تدبيرها فعلا ، بل بأمل إبعادها عن نفسه .. وإلقاء همومها ، حتى لا تعكر صفوها عندما يلتقى بأنجى .

ولكن القدر يبدو وكأنه كان ينتظر دعوته ليستجيب له ويدبر أمره .

إن الامتحان بعد غد ! وسينقلون العشرة الأوائل إلى المتوسط بدل العشرة الذين سيحلون محل النهائى المتخرج .. وهكذا أتيحت له فرصة القرب من

امتحان يمكن أن يجرّب فيه قدرته ، ويحصل على مجانية تفرّق توفر على أبيه مصروفاته وتجنبه حاجته ، وهي بعد ذلك ستوفر له عاماً من عمره .. وتقرّب له أمله المرموق اثنى عشر شهراً .

ولكن هل سيهيئ له الله النجاح ؟ أم ترى المسألة لا تزيد على برق خلب لا يلبث أن يخبو ؟

على أية حال لقد سنحت الفرصة ، وعليه أن يبذل جهده ، والامتحان بهذه الطريقة العاجلة ، هو أفضل طرق الامتحان بالنسبة له ، فهو دائم الفوز فى الامتحانات المفاجئة الخاطفة التى لا يطول التحضير لها . وكلما طالت مدة الاستذكار كلما قلت فرصته ، فهو شرود الذهن يضيق بكثرة الاستذكار ويمل طول الانكباب على الكتب ، فإذا تساوى الجميع فى قلة الاستذكار والتحضير ، أصبح الذكاء وصفاء الذهن هما العاملان الحاسمان فى نتيجة الامتحان ، وهما سلاحان يعتبرهما من أمضى أسلحته .

وانتهى طابور الهتاف ، ودخلت كل فرقة فصلها .. وما زالت المدرسة كخلية النحل .. وطلبة القسم النهائى يكاد يكون سيرهم رقصاً ، وحديثهم غناء وصفيراً .

وجلس « على » على مقعده فى الفصل وذهنه ينطلق فى شروده لا يستطيع أن يسيطر عليه لاستعماله فى المعركة الجديدة التى يوشك أن يخوضها .

وبدأ حكمدار الفرقة يوزع الترخيصات التى انهمك الطلبة فى كتابتها وأمسك « على » بالترخيص وارتسمت على صفحته البيضاء صورة حبيبة إلى قلبه ، ذهبية الشعر ، وضاءة القسمات ، وحلوة البسمات ، وأحس بالحنين إليها .. وبدأ بكتابة اسمه محاولا إقناع نفسه أنه يستطيع أن يأخذ الكتب للاستذكار فى البيت .. على أن يكتفى بلقاء « أنجى » بضع دقائق فى الحديقة يطفئ فيهما ذلك الحنين المستعر فى حناياه ، ثم ينبئها بأن لديه امتحاناً وأنه لا بد

أن يعود للاستذكار . .

وانتهى من كتابة الترخيص ثم أحس بوجه آخر يحل محل الوجه الأول ، وجه مغضن لا ذهبى الشعر ولا حلو البسمات قد أحاط به الشال الأصفر وارتسمت عليه ملامح ضيق حاول جهده أن يضيعها بإيمانه وصبره .

وخيل إليه أن الوجه يوشك أن يريق ماءه مرة أخرى فأمسك بالترخيص ومزقه ، وتمتم بشفتيه بضع كلمات كأنما يعتذر « لأنجى » المنتظرة العاتبة ، ولقلبه المتشوّق اللائم .

(٢٠)

طريق شائك

بدأت فترة الامتحان ، وكان « على » يحس أنها فترة جهاد شاق عنيف لابد له أن يجتازها ، فأبعد عن ذهنه كل عوامل الشرود ومسببات الترفيه ، وجرّده من أوهامه الجميلة وأحلامه المعسولة .. وانطلق يعدو بكل ما يملك من قوة وجهد فى صحراء جرداء من الطوابير والمحاضرات وامتحانات التكتيك .. والطبوغرافيا .. وهندسة الميدان .. والتاريخ العسكرى .

ولم يخرج فى الجمعة التالية فقد كانت الامتحانات لم تنته بعد .. وكان قد عزم على ألا يمنح نفسه فترة استرخاء أو استجمام حتى ينتهى الامتحان ، وأن يستمر فى حرمان نفسه وصوم قلبه وفطام ذهنه حتى تمر فترة الجهاد .

وكان حسين قد زاره مستفسراً عن سبب غيبته منبئاً إياه أن « أنجى » سألت عليه فى الأسبوع الماضى .. ناقلا إليه شوق أمه وأبيه ، وفى الأسبوع التالى تقرر سفر المدرسة إلى منقباد لعمل المناورة . ولإتمام بقية الامتحانات العملية للمشاة والتكتيك والطبوغرافيا ، وبدأ الاستعداد للرحيل .. وتسلم الطلبة مهمات المناورة من مخلاة لوضع الملابس ومشمعات للنوم .. ومعاطف كاكية .. وزنطات (طراطير تلصق بياقة المعطف) . وأخذوا يحزمون أمتعتهم استعداداً للرحيل يوم السبت .. عقب أن يعود الطلبة من إجازاتهم الأسبوعية .

وحل يوم الخميس وكان قد مضى على « على » شهر من الصوم ، وأحس أن سفره إلى المناورة سيلقى به إلى شهر آخر من الحرمان .. وأنه إن لم يتزود هذا الأسبوع بما يقيم أوده من اللقاء الجميل والذكرى الممتعة فقد جلده وأضاع صبره .

وارتدى ثياب الفسحة وملأ قلبه الحنين وملأ نفسه الشوق .. وذهب إلى

الدار ، فالتقى بأبيه ، وأمه ، وأخيه .. وأمسكت به أمه تعلفه كما تعلف الماشية ، وتزغطه كما تزغط الأوز .. وعندما انتهت من مهمتها الكبرى ، أقبل عليه أبوه متضاحكا وسأله :

— أوحشتنا يا « على » .. لماذا كل هذه الغيبة ؟

— كنت فى حاجة إلى كل دقيقة للاستذكار .. وخشيت أن أضيع الوقت فى الذهاب والإياب .

— لقد كنا فى أشد الشوق إلى رؤيتك .. وكان الذهاب والإياب فرصة تريح نفسك فيها من عناء المذاكرة .

— فرص الراحة كثيرة يا أبى .. ولكن فرصة قفز سنتين فى سنة نادرة .. كان يجب أن أبذل فيها كل جهدى .

— عوّضك الله عن جهدك خيراً .. وأثابك عن تعبك بالنجاح .

— أرجو هذا يا أبى ، ولو أن النجاح لا يكفى .

— كيف ؟

— المهم هو الترتيب .. إن الذين سينقلون هم العشرة الأوائل ولو نجحت وكان ترتيبى الحادى عشر لما انتقلت ، وهذا هو ما يقلقنى .

— يقلقك لماذا ؟ ألم تبذل كل جهدك ؟

— أجل .

— ألم ترض ضميرك ؟

— أجل .

— إذن دعها لله ، ونحن لا نستطيع أن نفعل أكثر من بذل الجهد وإرضاء الضمير .. أما النتيجة فعلى الله تدبيرها ، وكل تدبير من عنده مشكور محمود .

وانتهت فترة التحيات وتبادل الأشواق ، وبدأ « على » يحس بالقلق ، وود لو استطاع أن يثب من بينهم ويعدو إلى القصر ليضم « أنجى » إلى أحضانه ، وكان يشعر من فرط حنينه أن هذا هو العمل الطبيعى والواجب عمله بعد طول غيبة

وصوم وحرمان .

وانسحب « علي » وأخوه إلى حجرتهما ، وكان السرير الحديدي القديم قد استبدل به سريران صغيران ، والحصير قد حلت محله سجادة أضفت على الحجرة بعض الرونق .

وأحس « علي » بالحاجة إلى معونة « حسين » ، وود لو استطاع أن يعرف منه معلومات عن « أنجي » أو يصطحبه إلى حديقة القصر ، ولكنه وجده قد بدأ في خلع ملابسه إيذاناً بالاستقرار في البيت وهو الذي لا يستقر فيه أبداً . فسأله في دهشة :

ـــ ماذا تفعل ؟

ـــ كما ترى !

وضحك « علي » وتدارك سؤاله:

ـــ أقصد لماذا تخلع ملابسك ؟

ـــ لأنام .

ـــ تنام ؟! الآن ! ..أنت !؟ .

ـــ أجل .. سأنام .

ـــ ولكن لا يبدو عليك المرض !

ـــ إني لست مريضاً .

ـــ لماذا إذن ستنام ؟

واقترب حسين بشفتيه من أذن « علي » وهمس :

ـــ لأني سأسهر .

ـــ ستسهر ؟ ماذا تعني ؟ . أستذهب إلى السينما ؟

ـــ سينما ؟ ياغبي .. أهذا سهر ؟ سأسهر عند « سنية » .

ـــ سنية مَنْ ؟

ـــ سنية الضباطي .

ـــ من تكون ؟ لم أسمع عنها من قبل .

ـــ لا ضرورة لأن تكون قد سمعت عنها من قبل ، هذا لا يضيرها كثيراً ، لقد سهرت عندها فى الأسبوع الماضى عندما كنت محبوساً مع تيم الكرة لأننا هزمنا فى مباراة الزراعة .

ـــ وكيف خرجت وأنت محبوس ؟

ـــ بعد أن نام الضابط النوبتجى ارتدينا ملابس الفسحة ووضعنا المخدّات فى السراير وفردنا عليها البطاطين حتى لا يكشف أمرنا عندما يقوم الضابط النوبتجى بالمرور ليلا ، ثم خرجنا من البوابة الغربية ، وكان معنا الشاويش « رزق » كابتن التيم ، وهو صديق حميم للشاويش النوبتجى .

ـــ أنت مجنون ؟! هذه مغامرة خطرة .. كان يمكن أن « تُفصَل » فيها لو ضبطت .

ـــ الحمد لله .. لقد مرّت على خير .. على أية حال .. الليلة كانت تستحق المغامرة .. لا تتصور أية ليلة قضيناها ولا كيف استمتعنا بها .. لقد رحبت « سنية » بنا جداً .. إنها تغوى الضباط .. ولاعبى الكرة .. فتصوّر كيف تلقى لاعبى الكرة الضباط فى الوقت نفسه .. لقد بيتنا هناك .. كأننا فى بيتنا .. ولديها نساء مدهشات .. ولكنى شبكت مع « سنية » نفسها .. لقد استلطفتنى من أول نظرة .. ولم تعجبنى فى أول الأمر .. فقد بدت لى سمينة وكبيرة .. ولكن بعد فترة قصيرة وجدتها لطيفة جداً وفى النوم وجدتها هائلة ، وهى متسامحة جداً ولقد عرضت علىّ أية امرأة تعجبنى .

وكان « حسين » يتحدث فى صوت خفيض ، وقد أتم خلع ملابسه و « على » ينظر إليه وقد بدت فى عينيه أقصى أمارات الدهشة والذهول وأمسك بذراعى أخيه وهزّه وقال مستنكراً :

ـــ ما هذا يا حسين ؟! كيف تجسر على ما فعلت ؟! إنه أمر خطير جداً .. إن هذا الطريق الذى تسير فيه سيسىء إلى مستقبلك وإلى سمعتك وسيسىء إلى

صحتك أيضاً .. ثم النقود من أين لك النقود التى تمكنك من كل هذا ؟

— نقود ؟ أية نقود ؟! إنى لم أدفع مليما واحداً .. لقد كنت أشبه بصاحب بيت .. والمسألة ليست بهذه الخطورة التى تتوهمها .. لقد قضيت بضع ساعات فى جو لطيف مرح .. مع نساء جميلات .. بلا نقود .. أية خطورة فى هذا ؟!

— والهروب من المدرسة ؟

— لن يتكرر .. سأقصر ذهابى على أيام الفسح .

— وماذا تقول لأبيك عن السهر ؟

— سأقول إنه ليس لدى إجازة سوى الخميس وأنى سأبيت فى المدرسة .

— وفى الأسبوع القادم ؟

— لن آتى الخميس .. وسأخبره أنى لم أخرج إلا الجمعة .

— والذى بعده ؟

— يحلها ربنا .

— ولم يبد الاقتناع على وجه « على » واستمرت علامات القلق بادية على وجهه وظهر عليه الشرود .

وسأله حسين وهو يجر الغطاء على جسده :

— مالك يا على ؟

— لا شىء يا حسين .. إنى قلق عليك من هذا الطريق الذى تندفع إليه .. هذا جنون .

— لِمَ تقلق يا «على»؟ إنك ما زالت على نياتك! نحن قد أضحينا رجالا وهذا هو ما يفعله الرجال . لا بد أن نمتع أنفسنا .

— نستطيع أن نمتع أنفسنا ، ولكن بغير هذا السبيل الشائك الوعر .

— شائك ؟! وعر ؟! أنت موهوم منه جداً .. لو أتيت معى ليلة ، لعرفت أن المسألة أبسط مما تتصوّر .. ستجد نفسك جالساً فى بيت ، بيت عادى جداً . مريح جداً . وستجد حولك نساء ضاحكات ، وزملاء مرحين .. وستجد

عندك الحرية أن تفعل ما تشاء وقتما تشاء .

وصمت برهة وهو يحدق فى وجه أخيه الشارد .. ثم أردف قائلا :

ـــ ما رأيك يا « على » لو أتيت معى الليلة ؟ أؤكد لك أنك ستسر جداً وستجد المسألة أيسر كثيراً مما تتصور ، وستبدد كل أو هامك عنها ، وأؤكد لك أن « سنية » سترحب بك جداً . لقد حدثتها عنك ، ووصفتك لها .. وسألتنى أن أحضرك معى مرة ، ما رأيك يا « على » ؟

ورفع « على » وجهه ورمقه بنظرة استنكار قائلا :

ـــ رأيى فى ماذا أيها الأحمق إنى لن أذهب إلى تلك الأماكن أبداً . إن نفسى تشمئز من مجرد تصوّرها .

وضحك « حسين » وقال متسائلا :

ـــ تصوّر ماذا ؟ . كيف تستطيع أن تتصوّر شيئاً لم تره ؟ أتشمئز نفسك من بيت أنيق مريح ونساء جميلات لطيفات ؟ ثم تقول عنى أنا الأحمق . اسمع نصيحتى وتعال معى الليلة وقل لأبيك إنك لا بد أن تعود إلى المدرسة من أجل المناورة .

ورمقه « على » بنظرته الاستنكارية وقال له فى اقتضاب :

ـــ لا تتعب نفسك ، أنا أكره هذه الأمكنة .

ـــ جرّب مرّة واحدة .

وهزّ « على » رأسه فى إصرار وأردف « حسين » قائلا :

ـــ ألق على المكان نظره واحدة ، ثم انصرف إذا لم يعجبك .

ـــ قلت لك .. لأ .

ـــ أنت عنيد .. بعد بضعة أشهر سترجونى أن آخذك عندما تفهم الدنيا جيداً .

ثم جرّ الغطاء على رأسه قائلا :

ـــ دعنى أغفل لحظة .

ووجد « على » أنه لم يظفر بما يريد ، وأن المفاجأة التى ألقاها عليه « حسين » قد أنسته ما يرجوه منه ، وتردد برهة محاولا أن يجد مفتاحاً يفتح به الحديث ، أو معبراً يعبر به إلى ما يريد .

ومضت فترة صمت وهو لا يجد شيئاً يقدم به لما ينوى أن يقول ؛ وأخيراً لم يجد بداً من أن يلقى بسؤاله دون مقدمات فقال :

ــ اسمع يا حسين .

وأجابه حسين دون أن يرفع رأسه من تحت الغطاء :

ــ ها ...

وحك « على » جبينه بيده وأحس بشىء من الارتباك .. وعاد صوت أخيه يقول من تحت الغطاء ، وكأنما يستحثه على الحديث :

ــ ها .. ماذا تريد ؟

ــ أرأيت أحداً ؟

ــ أحداً ! . طبعاً رأيت أحداً .. ماذا تظننى ؟ .. أسير مغمض العينين ؟

وحدّق « على » فى رأسه المغطى بغيظ وهو يعلم أنه يدرك ما يقصد ، ولكنه فقط يريد محاورته ، وقال فى نفس اللهجة المترددة المرتبكة :

ــ أقصد أرأيت .. « أنجى » ؟

ــ آه .. لا .. لم أر أحداً .

وساد الصمت البغيض ، وعاد « على » يتساءل :

ــ ولكنك قلت ، إنها سألت عنى الجمعة الماضية ؟

ــ أجل سألت عنك .

ــ ماذا قالت بالضبط ؟

ــ لقد قلت لك ما قالت بالضبط .. قلته لك فى الأسبوع الماضى خمس مرّات متوالية .. أتريد منى أن تلوه عليك مرة سادسة .. حسن ..

سألتنى : « هالو حسين .. أين على ؟ » . قلت لها : « فى المدرسة » .. قالت :

« لماذا لم يحضر ؟» .. قلت لها : « علمي علمك » .. قالت : « لقد مضى عليه أسبوعان دون أن يحضر ؟ » قلت لها : « كان فى الأسبوع الماضى نوبتجى » .. فقالت : « ولكنه لم يخبرنى » .. قلت : « إنها نوبتجية مفاجئة » .. قالت : « لعله محبوس هذا الأسبوع ؟ » .. قلت : « يمكن » .. قالت : « ألاتنوى زيارته ؟ » .. قلت : « أجل » قالت : « بلغه سلامى » .. هذا كل ما قلت ، وكل ما قالت .. أتريد أن أتلوه عليك مرّة سابعة ؟

كل هذا والغطاء فوق رأسه .

وساد الصمت برهة وعاد « على » يقول :

ـــ ألم تقل لك شيئاً آخر ؟ .. أعنى ألم تقل أين ستكون هذا الأسبوع ؟ أقصد هل ستظل فى القصر .. أم ستذهب إلى السينما ؟! أم ....

ـــ لا .. لم تقل ، ولكنى أعرف .

ـــ أين ؟

ـــ لن تكون فى القصر .. ولا فى البلدة .. ولا فى القاهرة بأكملها لأنها فى الأقصر .

وبدت الدهشة والخذلان على وجه« على » وتساءل مردداً قول أخيه فى عصبية :

ـــ الأقصر !!

ـــ أجل .

ـــ وكيف عرفت ؟

ـــ عرفت من أبى أن أهل القصر كلهم ذهبوا إلى الأقصر لمناسبة إجازة رأس السنة .

وامتلأ « على » شعوراً بالمرارة وأحس أن « أنجى » قد خذلته وتخلت عنه .. ألم تقل إنهما سيلتقيان كثيراً فى عطلة رأس السنة وأنهما سيركبان الخيل وسيتنزهان فى المزارع !! كيف نسيت وعدها وسافرت إلى الأقصر ؟

ولكن ألم يكن هو البادىء بالخذلان؟! ألم يتركها شهراً دون أن يذكر لها كلمة واحدة؟ ولكنه أكره على هذا. لقد مكث الأسبوع الأول لنوبتجية طارئة ثم آتى بعد ذلك الامتحان.. وكان واجبه يحتم عليه البقاء فى المدرسة. ولكن ألم يكن من الخير أن يعتذر عن غيابه وينبئها بسببه؟ ولكن كيف؟.. إنه لا يجسر على أن يكتب إليها.. كان يمكن أن يطلب من أخيه أن ينقل لها اعتذاره ولكنه خشى أن تكره هى أن يعلم أخوه بما بينهما. ولكن ألم تسأل هى عنه؟ أجل. أجل. كان يجب أن يبلغها سؤاله واعتذاره. أتراها غاضبة؟! أم تراها أكرهت على السفر؟ أترى غيبتها ستطول أم تراها ستعود قريباً؟ ولكن ماذا يهمه هذا.. وفرصة اللقاء لا تتجاوز اليوم وغداً.. ثم تتلوها فرقة طويلة خلال سفره فى المناورة.

وتملكه حزن شديد ويأس ثقيل مضن ، وطالت فترة الصمت ، وضاق بها حسين ذرعاً . فقد كان رغم تناومه ما زال ينتظر رداً من أخيه ، وأخرج رأسه من تحت الغطاء وقال له وهو يرى أمارات الضيق واليأس البادية على وجهه :

ــ أستذهب معى الليلة ؟

وهزّ « على » رأسه رافضاً فى إصرار وحزم .

وأخذ حسين يرمقه وهو مطرق فى حزنه الصامت ، ثم قذف بالغطاء وقفز من الفراش ووقف بجواره يتحسس رأسه الأجرد ويربت ظهره المنحنى على المنضدة قائلا فى إشفاق :

ــ الطريق الوعر الشائك .. هو الذى تسير فيه أنت يا « على » .. أنا لا أنشد نفسى إلا بمتعة ليلة .. ولكنك توثق نفسك بهوى عمر .. أنا إن تخلت عنى لفظتها ، وأنت إن تخلت عنك حطمتك شظايا وبددتك هباء .. إنى أمد يدى إلى ما تستطيع أن تصل إليه .. أما أنت فتمد يدك إلى النجوم والسحب .. أنا أمسك الثمرة وأنت تمسك أوهاماً ملوّنة كقوس قزح .. أنا إن أقبلت علىّ ضحكت وإن أدبرت ضحكت أكثر . وأنت إن أقبلت عليك همت وإن أدبرت تركتك أشد هياماً وأكثر وجداً . أنا أقبض المتعة فوراً وأنت لا أمل لك فى سداد ولا رجاء فى قبض .. أنا أمسك بمن فى طريقى .. وأنت تسير فى طريق

وترجو ما فى الطريق الآخر .. وطريقك سفلى .. والطريق الآخر علوى .. والطريقان ـــ بأوضاع حالتنا الراهنة ـــ التى لا أمل لنا فى تغييرها يسيران مستقيمين متوازيين ، أحدهما فى الأرض والآخر فى السماء .. والطريقان المستقيمان المتوازيان ـــ كما تعلم ـــ لا يلتقيان أبداً .. يا أخى ألق بها من ذهنك واقذف بها من فوق كاهلك .

وصمت حسين ونظر إلى أخيه فوجده ما زال فى إطراقه فأردف قائلا :

ـــ أتأتى معى الليلة ؟

ولم يجب « على » فتركه حسين فى صمته وعاد إلى فراشه .

استغرق حسين فى النوم وغادر « على » الحجرة مرتدياً سترته وطربوشه ، وعندما أبصرته والدته سألته :

ـــ إلى أين يا « على » ؟! ألا تستريح كأخيك ؟

ـــ سأتمشى قليلا .. كلما غبت أحسست بشوق إلى البلدة .. إلى أهلها وحقولها وترعتها وكل ما بها .

ـــ متى ستعود ؟

ـــ لن أغيب كثيراً .

وغادر « على » البيت واضعاً يديه فى جيبى بنطلونه ، وعبر ساحة المنزل بخطوات بطيئة هادئة .. متناسياً خطواته العسكرية الشديدة السريعة الصارمة .. وترك العنان لقدميه توجهانه كيف تشاء .. وترك العنان لذهنه يرعى فى ذكريات عذبة لم يفقدها الزمن جدتها وحلاوتها .

وإلى حيث ذهب ذهنه يرعى ، قادته قدماه .. ولسان حاله يقول :

وما زرتكم عمداً ولكن ذا الهوى

إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرِّجل

وطاف ببقعة على القناة احتشدت فيها كومة غاب .. حجبت لقاءهما الأول عن الأعين ، ومرّ بحوض وراء السوبة ، كان مقراً لأول وردة وهبتها له ،

وبشجرة عتيقة شاهدت أول مسة من أصبعها لشفتيه .. وانتهى طوافه بكعبة أحلامه وموطن ذكرياته .. ثم عاد إلى البيت ونفسه أكثر طمأنينة وروحه أكثر استقراراً .

ووجد أخاه قد ارتدى ملابسه وهمّ بالخروج قائلا لأبيه :

— سأبيت فى المدرسة لأن لدىّ نوبتجية باكر .

وأردف هو قائلا :

— وأنا أيضاً .. لدينا مناورة لن نعود منها إلا بعد عشرين يوماً .

وذهل حسين وهو يرى أخاه يخرج معه وقد نوى المبيت فى الخارج .. ولم يكادا يغادران البيت حتى التفت إليه ضاحكا وقال فى لهجة شماتة وفوز :

— أنويت المجىء معى ؟

— بل سأعود إلى المدرسة فعلا .. ما زالت لدينا بضعه امتحانات عملية تحتاج إلى مذاكرة .

وعاد « على » إلى المدرسة وهو يحس أنه لم يعد له خارجها مطلب .. وكان أول ما فعل هو أن فتح الدولاب وأخرج من أحد أدراجه علبة صغيرة ضمت أوراق وردة جافة أخذ يتحسس ما بها فى حنان ورفق

(٢١)

تهنئة

رحل « على » مع الطلبة إلى منقباد . وكان يعتقد أنه ليس هناك أشق من حياة المدرسة .. حتى باشر حياة المناورة .

كان فى المدرسة يضيق ذرعاً بتسوية الفراش .. أما فى المناورة فلم يجد الفراش الذى يضيق ذرعاً بتسويته .. إذ كان عليه أن يرقد مع بقية الصنف داخل خيمة صغيرة (طرز اسبتالية) ترص فيها المشمعات على الأرض وتفرش فوقها البطاطين .. أما الوسادة فقد كان أمرها متروكا لابتكار النائم .. فإما أن يستعمل ذراعه تحت رأسه ، وإما أن يطوى تحتها بضعة ملابس تستقر عليها .

وكان يضيق فى المدرسة بنوبة صحيان ، أما فى المناورة فلم يكن هناك مبرر للضيق بها ، إذ كان عليه أن يستيقظ قبلها لطىّ الفراش (أى المشمع) ثم تسوية « كنارات » الخيمة (وهى جروف من الرمل تحيط بكل خيمة) ومحاذاتها « بكنارات » الخيام الأخرى ، ثم الاشتراك فى « تزحيف » الجزء المخصص له من أرض المعسكر ، حيث تسوى الأرض الرملية بجر أحد المشمعات أو البطاطين عليها .. لكى يعاد « لخبطتها » بمجرد أن تمر عليها قدم .. وليس أكثر فى المعسكرات من الأقدام المارة .

وكان يضيق فى المدرسة ببعد الحمام عن عنبر النوم واضطراره إلى الخروج ليلا فى الطرقة المكشوفة والتعرّض للهواء ، أما فى المناورة فلم يجد طرقة يضيق بها ، إذ كان عليه أن يقطع كل المعسكر فى العراء للوصول إلى الحمامات ، وكانت الحمامات نفسها مكشوفة لا تعدو دروة من الصاج بلا سقف . أما دورات المياه فكانت دروات من قماش الخيام يدعونها بالتزالك .

وكان فى المدرسة يضيق بالطوابير المتعددة ، أما فى المناورة فلم يعد هناك وجه لضيقه من تعددها ، فقد أضحت كلها طابوراً واحداً يبدأ من السابعة عند ما يصطفون .. وبرودة الصباح تلسع أطرافهم وتنفذ إلى عظامهم دون أن تفلح الفانلة الصوفية (فانلة ضرب النار) ولا القميص الصوفى السرج ، فى صد غائلتها .

وكان الطابور يبدأ سيره وقد شدوا « البل » على أكتافهم وملأوا الكفف بالجباخانة « الفشنك » وعلقوا البندقية بالقايش على أكتافهم ، وقد تهدلت حافة المظلة الخلفية التى كبس فيها الطربوش على أكتافهم واستقام رفرفها الأمامى فوق أعينهم ، وأخذوا يدقون الأرض بكعوب أحذيتهم الحديدية . وأخذت الزمازم وشنطة الجراية تحدث « خشولة » باحتكاكها ورجرجتها كأن الطابور السائر قافلة جمال .

ويظل الطابور يضرب فى بطن الأرض .. يسير .. ويسير .. دون أن يدرى السائر شيئاً سوى أن اليوم هجوم .. أو دفاع .. أو حرس جنب أو مؤخرة .. أو غير هذا من الأسماء التى لا يخرج عنها التكتيك وقتذاك .. وبعد ذاك !!

وتأخذ الشمس فى الصعود ويبدأ الجو فى التغير .. وتتحول البرودة الشديدة التى كانت تجمد الأطراف إلى حرارة قاسية تلهب الأجساد .. وتصبح الأصواف التى كان البرد يبديها خفيفة لا تصد ريحاً ولا تقاوم صقيعاً ، عبئاً ثقيلا ترزح تحته الأبدان ويتصبب من أسفله سيل من العرق .

والطابور يسير ويسير .. حتى يعلن فجأة أن العدو قد ظهر .. وظهوره — رغم أنه لم يكن أكثر من بضعة بيارق منتشرة على الروابى هنا وهناك — كان مفزعاً فى تأثيره ، فقد كان إيذاناً باقتراب مرحلة الاقتحام .. أو بلغة مفهومة انقلاب السير .. إلى جرى .. والانبطاح فى الأرض وضرب بضع طلقات ثم النهوض .. والجرى مرة أخرى ، حتى تبهر الأنفاس .. وتنهك الأجساد .. فلا يصل الطابور إلى العدو ، إلا وقد قضى على نفسه قبل أن يقضى على العدو .

ثم يبدأ بعد هذا لم الشمل والعودة .. ولم الشمل هذا .. أكثر إزعاجاً من

تنشته ، فقد كان بلغة العسكرية .. يعنى .. « لم الفاضى » .

أجل .. كان على الجيش الذى قضى على العدو أن يعود القهقرى ليجمع الظروف الفارغة للطلقات التى أطلقت حتى لا تنقص الذخيرة الفارغة طلقة واحدة .

وكان « لم الفاضى » فى الواقع أهم كثيراً من إطلاق المليان .. أى أن إصابة العدو وقتله لم تكن تهم المهاجمين قدر ما يهمهم أن تعود الذخيرة الفارغة تامة غير منقوصة .. لأن هذا هو الذى سيحاسبون عليه .. أما العدو .. فلن يستطيع أحد أن يحصى إصاباته .

وعلى ذلك .. ولكى يوفر المهاجمون على أنفسهم مشقة لم الشمل .. أو لم الفاضى فى العودة .. كانوا يلمونها وهم يهاجمون العدو .. فكان الطالب قبل أن يطلق الطلقة فى وجه العدو يبحث عن الطلقة الفارغة التى أطلقت ثم يدسها فى جيبه مطمئناً على نفسه من نقص الذخيرة قبل أن يطمئن على نفسه من العدو .

ويعود الطابور — بعد الانتصار على العدو طبعاً — ليقطع الشوط الذى قطعه فى الذهاب .. والصوف يخز أجسادهم كالإبر ، والرمل والثرى قد حط على رءوسهم وملأ أفواههم .

وكان عليهم بعد ذلك .. أن يرفعوا عقيرتهم بالغناء منشدين :

«بلادى ، بلادى ، فداك دمى وهبت حياتى فدا ًنا سلمى »

والتعب يهون إذا ما انتهى إلى استلقاء أو استرخاء .. ولكن تعب الطابور كان ينتهى بشر منه وهو تفتيش السلاح .

وفى المدرسة كان «على » يضيق ببندقيته ووساختها وهى قابعة على السلاحليك فكيف بها الآن وقد ألقيت فى الثرى وغمرت فى الرمال ولوثت ماسورتها بوساخة « الفشنك » !

كان الطابور يعود بعد أن انتهى من الهجوم على العدو ، للهجوم على المطبخ .. لا للطعام .. بل لأخذ جرادل الماء الساخن لتمريره فى مواسير البنادق حتى تكون

عملية التنظيف تامة كاملة .

ويقف « على » أمام البندقية وهو يدخل حبل التنظيف ويخرجه المرّة بعد المرّة .. وقد بات أقصى أحلامه رقدة واسترحاء .. لا على الفراش لأن الفراش أضحى متعذراً ، بل على المشمع أو الأرض .

وتنتهى النظافة والتفتيش ، ويعيد الطلبة السلاح إلى خيمة السلاحليك ثم يدخلون إلى « الميس » لتناول الطعام .

وكان « على » يذكر أن من أولى قواعد الصحة التى تعلمها أن يستريح الإنسان بعد الطعام مدة لا تقل عن الساعتين حتى يمكن للطعام أن يهضم وحتى لا تتلف المعدة .. ومع ذلك فلم يكن نظام المناورة يعترف قط بهذه القاعدة إذ كان لا يكاد يتناول الطعام ويبدل ملابس الألعاب البيضاء بملابس الطابور حتى يبدأ الألعاب .. ولم يكن يدهشه أن المدرسة لا تأبه بتلك القاعدة الذهبية من قواعد الصحة ، ولكن الذى كان يدهشه حقاً .. هو أن معدته نفسها لم تنشئ قط من خرق هذه القاعدة .. بل كانت فى أوج قوتها وأتم صلاحيتها .. فلم يحدث أن تلفت أو توقفت عن الهضم .

وكان « على » يضيق فى المدرسة بقصر وقت النوم فهو لايكاد يضع رأسه فى الفراش حتى يستيقظ . أما فى هذه الليلة من ليالى المناورة ، فلم يكن هناك وجه للشكوى من قصر فترة النوم .. لأنه لن ينام .

كانت الليلة نوبته فى الدورية وقد وقف فى تمام المساء مرتدياً المعطف و « الزنط » وفوقه « البلى » وأمسك بالبندقية فى وضع « جنباً سلاح » .

ونادى الباشجاويش : « مدرسة .. انتباه .. دوريات .. كتفاً سلاح » ثم أعطى تماماً للضابط النوبتجى .. وأجرى الضابط تفتيشه على سلاح الدوريات ثم نادى : « سلام سلاح » وهنف .

وكان دوره هو الخدمة الثانية فى دورية السلاح التى كان عليها أن تتولى حراسة خيمة السلاح ، وكان عليه أن يقوم بنوبتين من الخدمة : أولاهما من الساعة

الثامنة حتى العاشرة ، والثانية من الثانية حتى الرابعة .

وبدأت الخدمة الأولى ، وكان أمرها سهلا ، إذ كان المعسكر مستيقظاً والحياة ما زالت تدب فى أرجائه ، وحاول النوم بعد انتهاء الخدمة . ولكن النوم استعصى على عينيه فقد كانت أعصابه متوترة وكان من المتعذر عليه أن ينام بالحذاء والقالشين وبالملابس الكاملة . وفى الساعة الثانية بدأت الخدمة الثانية وكان يحس بجسده منهكا والقالشين يضغط على ساقيه ، والحذاء يثقل قدميه ، وأمسك بالبندقية وعلقها على كتفه وتحسس الرصاص فى كفف البل ، وكان رصاصاً حياً .. وكان عليه أن يستعمله ضد أى معتد .

ودار حول الخيمة وهو يحس برهبة وسط السكون الشامل ، ولفحت ريح الليل الباردة وجهه ولسعت أنفه وتسللت من ثنايا المعطف والزنط لتسرى فى حنايا جسده وتتخلل رأسه .

ومد يده فضم المعطف وكبس الزنط .. وتنحنح نحنحة عالية كما كان يفعل الخفراء فى بلدتهم .. وردّت له النحنحة من فرد الدورية السيارة وكان قد اقترب فى لفته حول سور المعسكر من ناحية الخيمة وسمع صوت سليمان يناديه :

ـــ على .

وأجابه « على » منادياً :

ـــ سليمان .

ـــ كيف الحال ؟

ـــ تكاد أطرافى تسقط من البرد ، ويكاد عظمى يسحق من طرق الريح .

ـــ لِمَ لا تمشى ؟

ـــ لقد لففت حول الخيمة ما يقرب من مائه مرة حتى دخت .

واقترب سليمان من « على » حتى أضحى منه على قيد خطوات وعاود الحديث قائلا :

ـــ ألم تسمع شيئاً عن النتيجة ؟

ـــ وأنّى لى ؟.. ألم تسمع أنت ؟

ـــ سمعت . ولكن أغلب ظنى أنها كلها شائعات .

ـــ يقولون إن المفتش العام سيزور المعسكر غداً لرؤية طلبة القسم النهائى الذين سيتخرجون ضباطاً . وأغلب ظنى أن النتيجة لا بد أن تكون قد عرفت .

ـــ طبعاً عرفت ، لقد انتهى كل شيء ، وهى موجودة لدى كبير المعلمين . والقسم النهائى سيتخرج بعد المناورة مباشرة .

ـــ ولكن علام هذه العجلة ؟

ـــ نحن مقبلون على أحداث كثيرة . فإن إنجلترا قلقة من ناحية إيطاليا وألمانيا . وغزو إيطاليا للحبشة وقوتها فى البحر الأبيض يجعل إنجلترا متلهفة على استقرار فى مصر وعلى ضمان أكبر مساعدة لها فى حالة حدوث حرب بينها وبين دول المحور .

وهز « على » رأسه ورفع كتفيه قائلا :

ـــ لست أفهم علاقة ذلك كله بتخريج القسم النهائى !

ـــ عيبك « يا على » أنك تعيش وكأنك مغمض العينين .. لست أدرى أغبىّ أنت ، أم تحاول التغابى ؟! لماذا لا تهتم بأبعد من محيط حياتك الفردية ؟ إن إنجلترا يقلقها موقفها المائع فى مصر ، وهى قد ضاقت ذرعاً بمناوأة المصريين .. ومطالبتهم بالجلاء ، وتريد أن تضمن استقراراً فى مصر بوساطة اتفاق مشروع يضمن لها موالاة مصر ومعاونتها ، اتفاقاً مشروعاً يمكنها من معاونة مصر لها معاونة صديق ، ويمكنها من استغلال أقصى ما يمكن من مواردها فى حالة حدوث حرب . وهذا الاتفاق وشيك الوقوع وهو سيمنحنا جزءاً كبيراً من استقلالنا وسيهيئ لنا فرصة لتنمية جيشنا .. إن الإنجليز دائما . . ينظرون للأمور من وجهة نظر صالحهم ، ويخيّل إلىّ أن صالحهم الذى كان فيما مضى يحتم عليهم إضعاف جيشنا قد بات يحتم عليهم الآن تقويته ، لأنهم قد يستعينون به ، ذلك هو سبب الاتجاه الجديد إلى زيادة الجيش ، والذى كان أثره المباشر تخريج القسم

النهائى . ألا ترى معى هذا ؟

وصمت « على » برهة ثم أجاب :

ـــ يحتمل .. على أية حال إنها ظاهرة طيبة واتجاه محمود .. فتقوية جيشنا شىء مرغوب فيه .. حتى ولو كان مبعثه استعانة إنجلترا به .

ـــ أجل .. إنها ظاهرة طيبة واتجاه محمود .. ولكن إلى أى مدى يمكن السير فيه . إن القوة المنفذة لأى مشروع أو اتفاق أهم بكثير من الاتفاق ذاته .. ويخيّل إلىّ أننا بوضعنا الراهن لا نملك أية قوة منفذة حرة تعمل لصالح البلد .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أن القوة الحرة تصدم دائماً بقوة العرش ، وهى قوة مغرضة لا أظن صالح البلد الحقيقى يعنيها فى كثير ولا قليل ، فلا بد من إزالة هذه القوة المعرقلة .

ـــ إزالتها ؟ إزالة ماذا ؟ إزالة العرش !! أأنت مجنون ؟

ـــ لا أقصد إزالته بحاله .. بل إزالة الجالس عليه .. وهذا ليس على الله ببعيد .. إن حالته الصحية على غير ما يرام .

ـــ يا سليمان لا تتفوّه بمثل هذا الكلام .. إنه كلام خطير جداً .. إنه خيانة .

ـــ أنا أعلم أنه كلام خطير .. ولكنى لا أقوله إلا لك .. إنه مجرد أفكار تسنح لى ، أنفس عن صدرى ببثها إليك .. إن تفكيرى دائماً ينتهى إلى أن العرش بحالته الراهنة وبالجالس عليه سيكون عقبة كأداء فى سبيل أى عمل حاسم يجرى لصالح هذا البلد . إنى لا أشعر قط بأنه مصرى . إن عنصر السيادة التركية متغلغل فى نفسه ، ولا أظن صدره يمكن أن يصطخب بحماسة من أجل مصر أو يثور لصالحها .

وساد الصمت بين الاثنين وصفرت حولهما هبة ريح باردة أصابت كلا منهما برجفة ، وبدا تفكير على وجه « على » مالبث أن قطعه بقوله :

ـــ لشدّ ما أخشى عليك من أفكارك يا سليمان .. لست أدرى لِمَ تتعقد الأمور فى ذهنك بهذه الكيفية ؟! لِمَ لا تكون أفكارك بسيطة مثل أفكارنا ؟ لِمَ

تأبى دائماً إلا أن تتجاوز حدودك .. وتشغل ذهنك بأكثر كثيراً مما لك ؟! هذه الأفكار لها أصحابها .

ــ الأفكار يا « على » حرة لكل إنسان .. ليس التفكير مقصوراً على شخص دون شخص ، وشئون وطننا الذى يكون كل فرد فينا جزءاً منه يجب أن يعنينا كلنا ، ليس صالح الوطن حرفة يحترفها أشخاص بذاتهم ، بل شعور يجب أن نشارك فيه جميعاً .

ــ لست أدرى مدى ما فى قولك من الصحة .. إنى أعتقد دائماً أن كلا منا يجب أن يؤدى واجبه نحو وطنه فى حدود عمله ، ونحن ما زلنا طلاباً ، فيجب أن نكون طلاباً نافعين .. وعندما نصل إلى الحد الذى نصبح عنده مسئولين عن سياسة البلد يمكننا وقتذاك أن نفكر فيما تفكر فيه . المهم الآن هو أن نؤدى امتحاناتنا بأقصى ما نستطيع من جهد .

وقبل أن يجيب ، سمع وقع أقدام تقترب فأرهف « على » أذنه ثم صاح بصوت حاد :

ــ قف من أنت ؟

وأجابه من الظلمات صوت يصيح :

ــ ضابط نوبتجى .

وصرخ « على » بأعلى صوت :

ــ ضابط نوبتجى .. دورية سلاح .

وأيقظت صرخته المدوية أفراد الدورية وهبّ حكمدارهم يصيح وهو نصف نائم :

ــ اصحى الدورية .. اجمع سريع .

واندفع يهرول مع بقية أفراد الدورية إلى العارضة الخشبية الصغيرة فى مقدمة الخيمة التى وضع عليها سلاح الدورية ، وأخذ كل سلاحه وهو يحاول إصلاح ملابسه قدر ما تسمح به هرولته وتفكيره انشتت بين غيبوبة النوم وشرود الفراغ .

ووقف الحكمدار يستحث جماعته على الاصطفاف والانتظام محاولا بكل ما يملك من وعى أن يقوم بالتفتيش على سلامة ملابسهم وتمام سلاحهم ، وفى نفس الوقت يحاول أن يتحسس ملابسه ، وهمّ بإعطاء تمام للضابط النوبتجى الذى وقف ينتظر على مقربة من الخيمة بجوار الجاويش النوبتجى والأمباشى النوبتجى ، وعندما سمع « على » يهمس به :

— المظلة والطربوش يا أومباشى .

وتحسس الأومباشي رأسه فوجده عارياً فاندفع فى ارتباك وذعر إلى مرقد الدورية .. ومد يده فى الظلمة يتحسس طربوشه ومظلته وما لبث أن عاد بهما فى عجلة ووقف بجوار دوريته على استعداد لتفتيش الضابط النوبتجى .

وتقدم الضابط فى خطوات هادئة متزنة وقال للأومباشى فى شيء من السخرية :

— خمس دقائق لكى تعد دوريتك ، إنها كافية جداً لسرقة الخيمة وتجريد المعسكر من سلاحه . يجب أن تجمع دوريتك بإسرع من هذا .

— حاضر يا فندم .

— هذا عمل يجب ألا يعجز عنه أومباشى عادى فى الجيش وأنت بعد بضعة أيام ستكون ضابطاً .

ثم بدأ الضابط يجرى تفتيشه على أفراد الدورية مبدياً بعض الملاحظات ، ثم أمر بانصراف الدورية واصطحب الأومباشى إلى داخل الخيمة .. ومر بصفوف البنادق المرصوصة على السلاحليكات الخشبية والتى كان الزيت يلمع على مقدماتها وخزائنها .

وقال الضابط وهو يلقى نظرة على صفوف البنادق :

— هل تممت على البنادق جيداً ؟

— أجل يا فندم .

— وفحصت الجنزير جيداً وتأكدت أنه يمر فى قنطرة التتك لكل بندقية ؟

— أجل يا فندم .

— والأقفال ؟

— مغلقة جيداً يا فندم .

وكان « على » يسمع المناقشات وقد وقف بباب الخيمة مصلوباً كأنه لوح من الخشب .. وقد شدّ كتفيه وأبرز صدره .. وخرج الضابط من الخيمة يتبعه ثلة من ضباط الصف . وعندما مرّ « بعلى » توقف أمامه برهة وأخذ يفحصه وبدا كأنما يود أن يقول شيئاً .. وكان « على » يعرفه جيداً إذ كان هو الضابط الذى يقوم بتدريس التاريخ العسكرى . وكثيراً ما أحس منه « على » نوعاً من العطف والرقة افتقدهما فى حياته العسكرية وكانت له بلسماً وسط الجفاف والصرامة والشدة التى أحاطت به من كل جانب .

وتحدث الضابط متسائلا فى رفق :

— أهذه أول مرة تقوم بالدورية ؟

— أجل يا فندم .

— وكيف الحال ؟

— الحمد لله يا فندم .

والتفت الضابط إلى الجاويش النوبتجى وحكمدار الدورية قائلا :

— هذا الطالب من خير طلبة المدرسة إن لم يكن خيرهم جميعاً !

ثم وجه إليه الحديث قائلا :

— إن شاء الله نهنئك قريباً .

ثم سار فى طريقه وحياه حكمدار الدورية ثم عاد إلى « على » وشدّ على يده قائلا :

— مبروك يا « على » .

(٢٢)

ريح الرجاء

عاد « على » من المناورة وخرج فى أول إجازة بعد طول غيبة عن الأهل ، وكانت النتيجة قد أعلنت وظهر ترتيبه الثالث فاستحق النقل إلى القسم المتوسط ضمن العشرة المنقولين ، واستحق — خيراً من هذا — المعافاة من دفع بقية المصروفات .

كان القطار يحمله إلى البلدة وقد جلس بجوار النافذة الزجاجية مرتدياً معطفه الكحلى ذا الياقة العريضة والأزرار النحاسية اللامعة وقد وضع حقيبته الصغيرة فوق ساقيه وحدق بناظريه من النافذة الزجاجية ، وقد توالت عليها الأراضى الخضراء المليئة بالبرسيم والقصب تبدو من وراء جذوع الكافور والجازورينا الضخمة القائمة على الطريق الأسفلت المجاور لسكة الحديد والتى تعالت أوراقها الخضر الرمادية لتحجب السحب المتلاحقة فى أديم السماء الأزرق .

وكان « على » فى جلسته يحس بالاستقرار بعد طول عدو ، والهدوء بعد طول كفاح ونضال ، وكان يملؤه شعور مريح بتأدية الواجب والتضحية وبذل الجهد ، وإحساس بحمد الله الذى كافأ جهده وعوض تضحيته ولم يضع كفاحه سدى .

كانت الثقة تملأ نفسه لأنه استطاع أن يقدم لأبيه من المساعدة ما يفك ضيقه ويحل أزمته ويحفظ ماء وجهه ، ولأنه تمكن بجهده أن يشارك أباه حمله الذى طالما ناء به وحده .

وعلى هذه القاعدة من الإحساس بالرضا والاستقرار والراحة كان يقوم إحساس آخر ملأه الغموض والحيرة .. إحساس أشبه بالدخان لا تبين له ملامح ولا تتضح له حدود ، إحساس يندفق من القلب ، مزيج من الشوق والحنين

والقلق والنشوة والفرح والخوف واللهفة ..و ..و .. الخ .

كان يشعر أن غيبة الشهرين كأنها غيبة دهر .. وكان يسائل نفسه .. كيف يراها ؟! وكيف يكون لقاؤها له ؟! أما زالت كما هى .. أم تبدل شعورها ؟! أما زالت تذكره .. أم دب النسيان فى قلبها ؟! أما زالت تحن إليه .. أم سلته على طول البعد ؟! وكانت الذكريات تتدفق فى ذهنه مزدحمة متكاثفة .. ولا تلبث حتى تتلاشى كأنها حشد من الفقاقيع .

ووصل إلى البلدة واتجه إلى الدار وطرق الباب ، ومن الداخل أتى إليه صوت بهية يرن فى عذوبة :

ـــ مين ؟

وأجاب « على » الإجابة التقليدية :

ـــ أنا .

واندفعت « بهية » إلى الباب فى فرحة شديدة .. لقد كان صوت الشقيقين متشابهاً ، ولم تجعلها غيبة « على » الطويلة تتوقع أن يكون هو القادم . فظنته « حسيناً » ، وصاحت وهى تهرول نحو الباب :

ـــ حاضر يا حسين .

وابتسم « على » لنفسه ، فقد كان يدرك ميل « بهية » إلى أخيه ، ويعرف أية خيبة ستصيب « بهية » عندما تجده هو بدله .

وفتحت « بهية » الباب وفاجأتها رؤية « على » بابتسامته الهادئة ، ووقفت تتمتم فى خجل ودهشة :

ـــ على لقد ظننتك حسيناً .. حمد الله على السلامة .. لقد أوحشتنا غيبتك .

وسارت تهرول إلى الداخل معلنه خالتها بنبأ قدومه :

ـــ خالتى .. لقد أتى على .

واندفعت الأم من المطبخ تصيح فى فرحة شديدة :

ـــ على ..

ثم أخذته بين أحضانها وقبلته دامعة العين قائلة فى عتاب :

ـــ ما هذه الغيبة يا على ؟! وما لجسدك قد نحل ووجهك قد اسمر حتى كأنى بك لم تأكل منذ غادرتنا .

ـــ تعب المناورة يا أماه .. لقد قاسينا أياماً شاقة .

وضمته أمه فى رفق وهى تقول :

ـــ مسكين يا بنى .. ربنا يتوب عليك من كل هذا الشقاء والتعب .

ـــ على أية حال لم يذهب سدى . لقد أخذنا ثمنه مضاعفاً .

ـــ كيف ؟

ـــ لقد نجحت فى الامتحان .. وانتقلت إلى السنة الثانية وكان ترتيبى الثالث فعوفيت من المصروفات . ما رأيك يا أماه ؟

وبلا إرادة انطلقت زغرودة مجلجلة من فمها وصاحت غير مصدقة :

ـــ أحقاً تقول ؟! ومتى ستتخرج ؟

ـــ فى العام القادم إن شاء الله .. لقد وفرت سنة .

ـــ وحسين .. هل نجح ؟

وضحك « على » وقال :

ـــ لم يكن عندهم امتحان .. لقد كان امتحاننا مفاجأة غريبة .. لم تحدث منذ عشرات السنين .

وتلفت « على » نحو الحجرات ثم أردف متسائلا :

ـــ أين أبى ؟

ـــ ما زال فى الحدائق .. إن لديه عملا كثيراً ولن يعود للغداء .

ـــ سأذهب إذن لرؤيته .

وهرول إلى الخارج وأمه تلاحقه صائحة :

ـــ ألا تنتظر حتى تتغدى ؟

ـــ لا .. لا .. سأذهب لإبلاغة النبأ .

وعدا « على » تجاه القصر .. ليلقى أباه .. وليسأل الصدف ... ويستجدى الحظ .. لقاء جميلاً اشتد به الحنين إليه .. وعصفت بنفسه اللهفة عليه .

وسار فى الطريق المجاور للترعة ، وكلما اقترب من القصر أحس بقلبه يضج فى حناياه .. حتى خيّل إليه أنه يكاد يثب من بين أضلعه ليسبقه إلى القصر .

وراح يسائل نفسه : كيف يلقاها ؟! وكيف يمكن أن تعرف هى بعودته بعد طول غيابه ؟! بل من يضمن له أنها إذا عرفت أن تكون بها رغبة فى لقائه .

وكان يسير مسرع الخطا ، شارد الذهن ، وعندما قارب الباب الخلفى المؤدى للسوبة انحرف إليه محاولا عبور الطريق عندما بلغ مسمعه صوت بوق عربة يدوى منذراً .

وقفز بسرعة إلى الجانب الآخر ، وربط السائق فرامله بشدة ووقفت العربة وفتح بابها ، وفى غمضة عين وبلا سابق إنذار وجد « على » « أنجى » تقف أمامه وتهتف به فى فرحة شديدة لم تستطع كتمانها :

— على !

وهتف هو الآخر بلا وعى :

— أنجى .

وأحس كل منهما برغبة شديدة فى أن يندفع إلى أحضان الآخر فقد كان ذلك هو المخرج الطبيعى لمشاعر الشوق المضطرمة فى نفسيهما ، والمظهر الملائم لما يعتمل فى باطنيهما ، ولكنهما لم يمتلكا سوى أن يمد كل منهما يده إلى الآخر ويشد على يده ويضغط عليها بحرارة كأنما يبلغ بها رسالة ضم وخطاب عناق ، أو كأنه يقول :

« عندى رسائل شوق لست أذكرها » .

وأخذ كل منهما ينظر فى عينى الآخر وقد تلاحقت أنفاسهما وبدا علوّ صدريهما وانخفاضهما واضحاً ودقات قلبيهما مسموعة جلية .

وأحس « على » أنه قد ظلمها بظنونه وأوهامه وقلقه وخشيته .. فقد كان

لقاؤها ونظرتها مبددة لكل ظن ، قاضية على كل قلق ووهم وخشية .

وتساءلت « أنجى » وقد افتر ثغرها عن ابتسامته الرقيقة اللطيفة :

ـــ ما هذه الغيبة الطويلة يا على ؟ أهذا هو ما اتفقنا عليه ؟! لقد مضى شهران دون أن نراك ؟

ـــ لقد حضرت مرة خلال الشهرين ولكنك كنت فى الأقصر .

ـــ حقاً ! إنى لم أقض فى الأقصر أكثر من أسبوع .... قضيت معظمه راقدة فى الفراش .

وسأل « على » فى جزع :

ـــ ماذا ألمّ بك ؟

ـــ انفلونزا شديدة .. جعلتنى لا أغادر الفندق طيلة المدة .. أنت أيضاً يبدو عليك الهزال ؟

ـــ من الامتحان والمناورة .

ـــ يبدو أنك أجهدت نفسك فيهما كثيراً ؟

ـــ كان لا بد من ذلك .. حتى لا تفلت الفرصة وحتى نوفر عاماً من الشقاء والجهد .

ـــ وهل ظهرت النتيجة ؟

ـــ أجل .. لقد نجحت والحمد لله .

وبدت الفرحة واضحة فى أساريرها وهتفت :

ـــ مبروك ياعلى .. متى ستتخرج ؟

ـــ فى العام القادم .

وظهر بعض العمال بالقرب من الباب وبدا الارتباك على الاثنين ، وأحس كلاهما أن الحديث قد طال وأن فرط الشوق أنساهما حرج الوقفة على قارعة الطريق .. ومدت « أنجى » يدها مصافحة وهى تقول فى صوت خفيض :

ـــ متى سنلتقى ثانية ؟

ــ وقتما شئت .. من الآن حتى مساء غد .

ــ اليوم فى الساعة السابعة عند الشجرة الكبيرة التى جُـرِحتْ تحتها إصبعك .. أتذكر ؟

ــ كيف لا أذكر مكاناً لقيتك فيه ؟

وسارت العربة تتابع طريقها إلى القصر ، ودلف هو من الباب الخلفى إلى السوبة للقاء أبيه .

وفى السابعة عاد إلى الحديقة يسترق الخطى فوق الحشائش متخذاً طريقه بين الأشجار وأحواض الورود .

وكانت أولى أنفاس الربيع الدافئة قد بدأت تسرى بين الأوراق الخضر المتفتحة التى كست الأغصان العارية بعد طول تجرد ويبس وجفاف ، وأزهار المشمش البيضاء قد كللت فروعه كأنها تاج من اللآلىء أو كأنها قطرات الندى الأبيض اللامع ، وأشجار الخوخ قد تجردت إلا من أزهارها الباهتة الحمرة الرقيقة المنظومة على الأغصان ، وسكون الليل تكاد تسمع فيه أنفاس الزهور ، والقمر قد بدا منه نور مبكر أحمر كأنه مصباح واطىء الذبالة ناعس النور ، والنجوم تتراقص كمهج تخفق أو قلوب تهفو .

وعناصر الطبيعة قد تعاونت على الرقة وتآلفت على الجمال حتى بات المكان كأنه مهد هوى ، وموطن حب .

واقترب « على » من الشجرة الضخمة المدلاة فروعها إلى الأرض كأنها عمد تسند أجنحتها المنبسطة وفروعها المرفرفة ، وأخذت عيناه تبحثان فى الضوء الباهت الذى تعاون القمر الناعس والنجوم الخافقة والمصابيح البعيدة الشاحبة على أن تبدد به ظلمة الليل ، وتبدى خلاله الكائنات باهتة غامضة ، وكأن وراء سكونها الظاهر جوفاً يصطخب بالمشاعر ، وحشاً تضج بالأحاسيس .

وعلى أريكة هزّازة ذات مظلة أشبه بالأرجوحة لمح بغيته ، وكان ظهرها تجاهه وقد أخذت الأريكة تهتز فى رفق وهدوء كأنها « بندول » الساعة ، وبدت على

مسندها موجات شعرها الذهبي ينسدل في لين وانبساط .

واقترب « على » في خفة وسكون وقد ملأ أنفه عبير زهر البرتقال حملته إليه في حناياها نسمة طافت بالأشجار المنتشرة في أرجاء الحديقة ، وتوقف قليلا وأخذ من النسمة شهيقاً طويلا ملأ به صدره وكأنه يملأ صدره بأنفاسها العطرة ، ورُبَّ هبة نسيم خلناها استمدت عبيرها من الأنفاس لا من الزهر .

ووصل إلى الأريكة وتوقف وراءها ونظر إليها فأبصر رأسها الصغير بمفرق الذهب وقد انسابت خيوط الذهب من المفرق على الكتفين وعلى مسند الأريكة .

وقف يرمق الرأس في تعبد وأحس بيديه ترتفعان ببطء فتستقران في خشوع على جانبي المفرق وتتحسسان الشعر كما تتحسس أكف المؤمنين آثار الرسل أو معجزات الخالق .

ولم يبد عليها أنها أخذت أو فوجئت ، ومضت لحظة وهي صامتة ساكنة كأنها كانت تنعم بمسة اليدين الحانيتين الواهتين وأحست بقلبها يزداد خفقاً وأنفسها تزداد تلاحقاً ، وبكفها يرتفع ببطء فيستقر على ظاهر كفه ويتحسسه بحنين زائد وشوق شديد ، وأخذت أصابعها الصغيرة تتخلل ظاهر أصابعه .

ورفعت عينيها فالتقت بعينيه وأشرق وجهها بابتسامته الحلوة وجذبت يده لكي يدور ويجلس بجوارها على الأريكة .

ولف حول الأريكة ووقف قبالتها متردداً وسألته ضاحكة :

ـــ ألا تنوى الجلوس .. أم تظن نفسك في طابور ؟!

وتلفت تجاه القصر وبدا عليه القلق وهزت هي رأسها هزة نافية كأنما تنفي ما يخشاه من نظرته القلقة وابتسمت ابتسامة مطمئنة وقالت :

ـــ لقد خرج أبي وعلاء .. ولا أظنهما يعودان قبل العاشرة . كان مفروضاً أن أخرج معهما للذهاب إلى السينما مع علاء فقد دعينا من أبناء البرنس كمال ، ولكنني اعتذرت بالصداع .. وهو المرض الذي لا يستطيع أحد أن يجزم

أنى لست مصابة به ، وليس بالدار غير الخدم و « الدادة » ، وقد قلت لها إنى سأتمشى فى الحديقة . اجلس .

وجلس على الأريكة المتأرجحة وثبت قدميه فى الأرض فتوقفت عن الاهتزاز وقال ضاحكاً :

ـــ سأجلس على شرط أن أوقفها عن الترجح .

ـــ لِمَ ؟

ـــ لأنى كنت أكره الأراجيح فى صغرى لأنها تصيبنى بدوار وغثيان .

ـــ والآن ؟

ـــ أشعر أنى مازلت أكرهها .. لأنى أكره الترجح وأفضل الثبات والاستقرار .

ـــ ولا حتى على سبيل التسلية ؟

ـــ إنى لا أتسلى بالتأرجح أبداً .. إنه ضد طبيعتى .

ـــ وما هى طبيعتك ؟

وكانت تنقر بخفة على ساقه التى شد عليها البنطلون ذو الشريط الأحمر ، وأحس بشعور ممتع من نقرات أصابعها ، ومد يده فضم الأصابع الرقيقة المنقرة فى كفه وضغطها برفق ، وأجاب وقد شرد ببصره فى ظلمات الأشجار المتكاثفة أمامه :

ـــ طبيعتى إذا اندفعت إلى اتجاه ألا أتأرجح ثانية إلى الاتجاه المضاد ، بل أثبت اتجاهى وأستمر فيه .. وإذا تعلق قلبى بمخلوق معين ، ثبت على التعلق به وأصبح من المتعذر زحزحته عنه إلى غيره ، وقد يخمد مشاعره العجز وقد يئد إحساساته اليأس ، ولكنه إخماد ظاهر ووأد شكلى ، يجعل من القلب رماداً على جمر ، وكفناً على حى ، تطيح به أول هبة من أمل أو ريح من رجاء .

وضغطت « أنجى » على كفه وهمست ، وقد شردت ببصرها هى الأخرى فى الظلمات :

— أو قد هبت عليك ريح الرجاء ؟!

— كأعصف ما تكون الريح وأقوى ما يكون الرجاء . لقد أطاحت بالرماد ووهجت جمرة القلب .

— إنى أريده دائم التوهج لأنى أشعر أنه قد بدد بتوهجه ظلمة كانت تحيط بى وتجعل من حياتى فراغاً موحشاً لا تبدو به بارقة ولا هدف ولا أمل .

— ما دامت ريح الرجاء تهب فلن يكف عن التوهج . ولكنى أخشى على الريح أن يضيعها طول الطريق وشدة المنعرجات وكثرة السدود والحوائل .. إن ريح الرجاء قد تقوى على النفخ فى منبسط محدود من طريق العمر .. منبسط الصبا السهل المعبد ، ولكن لو تجاوزنا هذا المنبسط إلى ما بعده لراعتنا المنعرجات والسدود التى يضيع فيها ريح رجائنا .

— لست أرى شيئاً يمكن أن يوقف أملنا أو يضيع الرجاء .

— ولا سدود التقاليد والفوارق الطبقية ؟

— لست أعترف بتقاليد ولا فوارق .. إنى لا أعترف إلا بقيم الأشخاص وطبيعة خلقهم . إن طبيعتى من طبيعتك وتفكيرى من تفكيرك . إنى أحس بروحينا تقارباً عجيباً .. أحس كأن هناك انطباقاً بين نفسينا . لهذا أحببتك .. ولهذا سأندفع فى حبك بلا تأرجح ، ولا توقف ، ولا خشية من تقاليد ولا خوف من فوارق . إننا بقلبينا المتوهجين وروحينا المتأججتين سنتخطى كل سدود الدنيا ، ولن يفرق بيننا إلا الموت .

— وحتى الموت لن يفرق بيننا .. سأحبك حتى بعد الموت .. فإن حبك أبقى فى روحى من الروح الباقية .

---

(٢٣)

خطايا البشر

افترق « على » و « أنجى » ليلتذاك .. وبينهما ما يشبه الميثاق الدائم .. والعهد الأبدى .. ميثاق إلى الموت كما قالت « أنجى » أو إلى ما بعد الموت ، كما قال « على » .

وعاد « على » إلى بيته وبنفسه من الثقة بالحياة والمستقبل ما جعله يكاد فى سيره يحلق فى السماء . ولم يعد يشعر أن الأمل فى حبه قد بات — كما كان — محدود الأفق ، لا يجسر أن يتخطى منبسط حاضره إلى قفار مستقبله .. بل أحس أن الذبالة التى كانت تنير له حيزاً محدوداً تحيط به الغياهب والظلمات التى لا يجسر إلى التطلع إليها أو التفكير فيها ، قد باتت ضوءاً ساطعاً يضىء كل حياته .. وأن الغياهب قد تكشفت ، ووضحت مجاهلها واستوت وهادها وتلاعها .. وفرت أشباحها وتضاءلت مردتها .. وانكمشت سدودها وحوائلها .. وبات طريقه فيها واضحاً حتى النهاية .. بل وما بعد النهاية .

بمثل هذه النفس الواثقة المطمئنة المليئة بالإيمان فى المستقبل والثقة بالحياة .. عاد إلى الدار .. وكانت الساعة تقترب من الثامنة .. وطرق الباب ففتحت له « بهية » .. وكان أبوه يؤدى صلاة العشاء .. وأمه تتشاغل برتق بعض الثياب .. وقد جلست على حشيتها الأرضية الموضوعة فى الركن بين باب المطبخ وباب القاعة والتى أبت أن تغادرها إلى الأريكة التى جهزت بها القاعة ضمن الأثاث الجديد .

وتلفت « على » إلى حجرته ثم تساءل :

— ألم يأت حسين ؟

ورفعت أمه يديها مبسوطة على ساقيها وقالت فى أسف وضيق :

ــ أبداً يا بنى .

ــ ألم يخبركم فى الأسبوع الماضى عما إذا كان سيأتى هذا الأسبوع أم لا ؟

وأجابت « بهية » فى لهجة حزينة :

ــ إنه لم يأت فى الأسبوع الماضى .

وأردفت الأم وهى « تمصمص » بشفتيها :

ــ مضى عليه ما يقرب من شهر وهو لا يبيت هنا .. إما أن يحضر الخميس ويذهب للمبيت فى المدرسة .. وإما أن يأتى الجمعة صباحاً .. ربنا يتوب عليكما من المدرسة . إنى أكاد لا أرى الواحد منكما إلا سرة فى الشهر .

ــ كله يهون يا أماه .. ليس هنا شىء فى هذه الحياة بلا جهد .

ــ أجل يا بنى .. كان الله فى عونكما .. وأعاد أخاك بالسلامة .

وأحس « على » بالقلق على أخيه .. ولكنه قلق غير قلق أمه .. فقد كان يعرف أين يوجد .. ويعرف أن الله سيحضره بالسلامة .. ويعرف أيضاً أنه لا شك يقضى وقتاً طيبا كما قال له .

ولكنه مع ذلك يحس بالقلق عليه من ذلك الطريق المجهول الذى يسير فيه .. ويضاعف قلقه .. أنه غير ذى تجربة وغير ذى علم بذلك الذى يدّعى أخوه أنه يقضى فيه بعض ساعات طيبة ، وهو دائماً يخشى ما يجهل ، ويراه أشبه بالظلمات التى يتوهم فيها الأطفال مردةً وعفاريت وشياطين .

إن أخاه قد وضح له الأمر ببساطة ، وبيّن له أنه ليس عليه منه خوف ولا حذر .. ولا خسارة من أى نوع .. بل لقد حاول المقارنة بين هذا الطريق وبين الطريق الذى يتخذه « على » واستطاع أن يؤكد له أن طريقه هو أكثر أمناً وأوفر سلامة .

و « على » يعرف أن النصح فى هذه الأمور غير مجد .. وهو يجد أن « حسين » باستهتاره واندفاعه ومرحه كان أقرب إلى سلوك مثل هذا الطريق ،

ولذا لم يجد خيراً من أن يترك الأمر يمر ببساطة حتى يأخذ « حسين » متعته منه ويتركه إلى غيره كعادته فى كل متعة باشرها فى لهوه منذ الصغر .

وخلع « على » ملابسه .. وانتهى الأب من صلاته وصاح بالأم :

— العشا يا زُهرة .

وأجابت الأم وهى فى جلستها على الحشية :

— أعدى العشاء يا بهيه .. إن ساقىّ تؤلمانى ولا أستطيع النهوض .. سأتعشى وحدى على الطبلية .

وقال الأب :

— وسأتعشى معك على الطبلية .. فلا تفتح شهيتى سواها .

وضحك « على » قائلا :

— وأنا أيضاً سأتعشى معكما .. لقد أوحشتنى جلستها .

وقالت الأم ضاحكة :

— من ساب قديمه .. هاتى يا « بهية » الطبلية .

وتلكأت « بهية » فى موضعها وقالت متمتمة :

— ألا ننتظر حتى يحضر حسين ؟

ونظر إليها « على » فى رفق ، وأحس لها بشىء من الرثاء ، وهو يجدها تلقى بقلبها فى حب عميق لا تستطيع حتى أن تسمع صدى سقوطه فى القاع وقال :

— لا أظنه سيحضر الليلة . لا بد أنه سيبيت فى المدرسة .

وتحركت « بهية » تجاه المطبخ ، ولكن قبل أن تبلغه طرق الباب فاندفعت إليه وهى تهتف فى تمنّ ورجاء :

— لا بد أنه حسين .

وفتح الباب وبدا حسين .. وأفسحت « بهية » له الطريق بعد أن أخذت حقيبته الصغيرة من يده .

وحيا حسين أبويه وسلم على أخيه فى شوق وسأله فى لهفة :

— متى عدت من المناورة ؟

— بالأمس .

— والنتيجة ؟ ألم تظهر ؟

— بل ظهرت .

— وماذا فعلت ؟

— الحمد لله .. كان ترتيبي الثالث وحصلت على معافاة من المصروفات .

— مدهش .. هائل .. أنا أعرفك لا تنفع إلا فى امتحانات الطوارىء مبروك .. ألف مبروك .

ودخل حسين لكى يخلع ملابسه ، واستطاع « على » أن يتبين فيه شيئاً غريباً .. لم يكن هو حسين بطبيعته الأصيلة .. بل كان به اختلافاً جعله يحس بقلق .

حقيقة أنه سلَّم عليه فى شوق ، وأن فرحته بنجاحه كانت شديدة مخلصة وحقيقة أنه ضحك ضحكات ، وأنه حاول أن يمزح مع أمه ومع « بهية » .

كل هذا حقيقة . ولكن « على » يستطيع أن يجزم مع كل ذلك أن حسين ، ليس هو حسين بطبيعته المرحة الضاحكة الصافية التى لا تشوبها شائبة كدر ولا هم ولا ضيق .. وأنه منذ أن بدا بالباب قد استطاع أن يلمح مسحة الهم والشحوب الذى يعلو وجهه . ثم .. سلامه وطريقة مجونه وهذره ومزاحه ، كل ذلك شيئاً مفتعلا ، قد يخدع به الجميع — حتى أمه وأباه — ولكنه لا يخدعه هو .. هو الذى كان من فرط ما عاشره وزامله يستطيع أن يفهم كل سمة من سماته وايماءة من إيماءاته .. بل يستطيع أن يعرف ماذا يفكر فيه .. وماذا ينوى أن يفعله .

وأعد العشاء على الطبلية .. وكان حسين ما زال فى الحجرة . وصاحت به أمه :

— العشاء جاهز يا حسين .

ــ كلوا أنتم يا أماه .. ليس لى شهية للأكل .

ــ كيف ؟! أجننت حتى تنام بلا عشاء ؟!

ــ لقد أكلت سندويتشات فى العصر .

ــ أهذه السندويتشات التى لا تزيد عن عقد الصباع تسمى أكلا ، ومنذ متى ؟! من العصر !! تعال واجلس معنا تفتح نفسك .

ويبدو أن حسيناً لم ير داعياً لاستمرار المجادلة ، فأقبل وتربع بجوارهم على الأرض أمام الطبلية .

وأخذ « على » يرقبه .. وهو يلوك اللقمات بلا استساغة وذهنه شارد لا يكاد يستدعيه أحد من الأهل حتى يشرد ثانية .. وعندما انتهى الطعام .. تأكدت شكوك « على » . واستطاع أن يجزم أن أمراً خطيراً يشغل بال أخيه وأن هماً يطبق عليه .

وبدأت الوساوس تتسرّب إلى رأسه .. وأحس أن همّ أخيه قد انزلق على كتفيه . وأخذ يسائل نفسه : ماذا ألم بحسين ؟ ولماذا أتى بعد أن تأخر هكذا ؟! هل أصابه شىء فى المدرسة ؟! هل وقع فى حب ؟! هل فقد شيئاً ؟!

وغادر حسين « الطبلية » إلى حجرته وكأنما خشى أن ينمّ شروده عما به من ضيق خفى فلجأ إلى الفراش .. ولم يطق « على » على وساوسه صبراً ، وسرعان ما غادر الطبلية معتذراً بأنه قد تعوّد النوم المبكر .

وهزّت الأم رأسها فى أسف وقالت :

ــ أنا أكاد لا أتمتع برؤيتكما لحظة .. إما فى المدرسة أو فى السينما أو نائمان !!

وقال الأب :

ــ دعيهما يستريحان .. إنك لا تعرفين الجهد الذى يلاقيانه .. كان الله فى عونهما .

وعندما دخل « على » الحجرة وجد أخاه وقد أطفأ المصباح ورقد على فراشه وفرد الغطاء على جسده ورأسه ولم يعد يبدو منه إلا كتلة منبعجة فوق السرير .

منذ متى يفعل حسين هذا ؟ وهو الذى ما كان يتركه حتى يقص عليه كل ما فعل فى خلال الأسبوع مما يستحق وما لا يستحق .

والليلة — بعد غيبة شهر — يطوى نفسه هكذا بلا كلام ولا مزاح ولا معاكسات ولا مشاغبات !

واقترب «على» منه ودفعه فى كتفه ، وهو الذى لم يكن قط البادى بالمشاغبة .

ولم يتحرك « حسين » ، فزادت دهشة « على » وهتف به :

— حسين .

وعاد يهز كتفه .. وأجاب حسين بزومة من أنفه . فسأله « على » :

— ماذا بك ؟

— لا شىء .

— كيف . لا شىء ؟ أهذه هى عادتك ؟

— بى بعض الصداع وأريد أن أنام .

— كلام فارغ .. ليس هذا ما بك ؟ قل .. ما الحكاية ؟

— أية حكاية ؟ ! قلت لك ليس بى سوى صداع .

— أنا أعرف أنه ليس بك صداع .. أنا أعرفك جيداً يا حسين .. لا تتخابث علىّ .

ومد « على » يده وجذب الغطاء من فوق رأسه .. ثم جذب الوسادة من تحتها ، ولكن لم تكد يده تلامس الوسادة حتى أحس بها مبتلة .

كان ما بها قطرات دمع .

كان حسين .. المرح المستهتر الضحوك الذى لا يحزنه شىء .. يبكى ! وأخذ « على » ، وأحس كأن القطرات المراقة على الوسادة تجذب القطرات الجامدة فى مقلتيه .

وتذكر بكاءه على نفس الوسادة منذ بضع سنين ، وتذكر دهشة أخيه

وارتياعه ولوعته عليه ، وأحس بنفس الدهشة والارتياع واللوعة ، وتملكه شعور بالحنان الجارف أشبه بشعوره ليلة افترقا لأول مرة ليذهب كل منهما إلى مدرسته ، وشعر برغبة فى أن يضم إليه أخاه وهو الضنين بمظاهر العطف والحنان .

وأعاد الوسادة إلى مكانها وصعد إلى الفراش ، متخذاً مكانه بجوار أخيه كما تعود أن يرقدا طيلة حياتهما الماضية .. ومدّ ذراعه فضمه إليه ، ثم تحسس بسبابته جفنيه المبتلين وهمس بلهجة ملؤها الحزن :

— ما بك يا حسين ؟! إنك تبكى !

ولم يجب حسين ، وأخفى رأسه فى الوسادة ، وعاد « على » يسأل فى دهشة شديدة :

— تكلم يا حسين .. منذ متى تخفى علىّ ما بك ؟

ورفع حسين رأسه من الوسادة ، وحدق فى وجه أخيه فى الظلمة وقد خيمت على عينيه سحابة دمع ، وهتف بصوت متحشرج :

— إنى مريض .

— مريض !! بماذا ؟

— بمرض لا أجسر على ذكره .

ثم عاد يخفى وجهه فى الوسادة واندفع فى نوبة بكاء ، واستطاع « على » أن يدرك ما بأخيه .. وأحس بيد تعتصر جوفه فى قسوة .

إن هذه هى العاقبة .. عاقبة الطريق الشائك الذى اندفع فيه .

ووجد « على » نفسه يتساءل فاغر الفم فى ذهول :

— كيف يا حسين ؟! ومتى ؟! أفى هذا البيت الذى ذكرته لى ؟

ورفع حسين رأسه من أسفل الوسادة وهزّها بالنفى وأردف يقول :

— لا .. لم يكن هناك .. بل كان فى بيت آخر ذهبنا إليه بالأمس أنا وبعض الزملاء عند عودتنا من مباراة الكرة . ولقد كنت متعباً ، وحاولت أن أعود إلى المدرسة مباشرة ، ولكنهم ألحوا علىّ وأصروا على اصطحابى معهم ، وعند العودة

إلى المدرسة اكتشفت الكارثة .

وأحس « على » أنها كارثة فعلا .. إن الأمراض المادية الطبيعية التى يصاب بها الإنسان والتى يحس أن القدر قد أنزلها به ، لاتحل آلامها إلا بجسده ، أما هذا النوع من الأمراض فآلامه مضاعفة .. آلام فى الجسد وآلام فى النفس ، والروح .. بل إن آلام النفس لأشد كثيراً من آلام الجسد .. إنها تهبط بالروح إلى أقصى الحضيض .. إنه يشعر أنه هو الذى أنزل المرض بنفسه .. ويشعر بين الناس بمهانة ومذلة .. لما تعوّدوا أن ينظروا إلى تلك الأمراض بالازدراء والاحتقار . فهى دليل واضح على الخطيئة ، وأثر ملموس للزلل .

ضلة لهم . كأنهم أبرار أطهار . لا يعرفون الخطيئة ولا يرتكبون الزلل . ضلة لهم من منافقين كذابين .. يترفعون فى مظاهرهم عن الخطايا والخطايا ملء أجوافهم ، ويأنفون من مقترفيها وهم فى اقترافها أشد ، وفى ارتكابها أمعن ، ويزدرون آثارها ودلائلها وهم بازدراء أنفسهم أولى و باحتقارها أحق .

وأرتج على « على » فلم يعرف ماذا يقول ، وعاد حسين يتمتم فى يأس :

ـــ لست أدرى ماذا أفعل ؟! إنى لا أجسر أن أقول لأحد .. ولا أستطيع أن أبقى كما أنا .. وأخشى الفضيحة هنا وفى المدرسة .. ولست أعرف كيف أخفى الأمر . وأنا لا أستطيع أن أستمر فى الطوابير ولا تمرين الكرة أو مبارياتها .. وإذا ذهبت إلى طبيب فلا بد من النقود ولا بد أن يعرف أبى ، وأنا أكره أن يعرف .. إنى أخشى ازدراءه .. إنى أشعر أن كل الناس يرمقوننى بنظرات الاحتقار كأنهم يعرفون ما بى .. حتى أنت أشعر بالخجل منك وأخشى أن تكره نومتى بجوارك . إنى يائس .

وأحس « على » بمدى يأس أخيه .. وكره أن ينغمر معه فى لجة اليأس .. وأن يغرق الاثنان فى طوفان من الاستسلام والعجز ، ورغم إحساسه بأن « حسيناً » إنما يجنى ثمرة خطئه واندفاعه فى طريق اصطلح الناس على أنه غير مستقيم ، وأنه يدفع ثمن متعته آلاماً مضاعفة .. وأن الحياة كشيمتها تسترد منه ما وهبته له ، مما

سماه هو أوقاتا طيبة .. ورغم إحساسه بهذا فقد وجد أن من الخطأ أن يردده لأخيه ، وأنه يجب أن يستمد من اليأس شجاعة تمكنه من أن يمد يده لأخيه ليرفعه من وهدته .

وضم إليه أخاه وقبّله قائلا :

— تشعر بالخجل منى .. من أنا ؟

— أجل . إنى أذكر نصحك لى .. وأحس بالتضاؤل أمام مثاليتك واستقامتك .

— أنا غير مستقيم ولا مثالى .. إن لى خطاياى كما لك خطاياك ، ما من بشر إلا وله خطاياه .. إن الخطايا كامنة فى نفوسنا ، ولا فارق بين إنسان أو آخر إلا فى قدرته على كبتها ، واختلاف الظروف المحيطة به والمساعدة على إنمائها وتفجيرها .

— لو سمعت نصحك ...

— ما كان يجب عليك أن تسمع نصحى . فإسداء النصح أضعف من أن يقف فى تيار الرغبة .. فى الحياة والمعرفة والمتعة .. إنما تنصحك تجربتك ومعرفتك .

— لو كنت أدرى ما سيحدث لى ؟!

— لأ قدمت عليه . فما أظنك كنت لا تدرى أن هذه إحدى نتائجه .

— إنها نتيجة قاضية .

— ليس فيها شىء من القضاء .. إنها أزمة تمر .. لا تدعها تعصف بنفسك ولا تتهاوى ولا تتخاذل .. إنها مجرد تجربة علمتك شيئاً .

— واحتقار الناس لى وازدراؤهم ؟!

— دعك من الناس .. إنهم لا بد أن يضمروا شراً أو يتفسحوا بشر .. إن نجحت حسدوك .. وإن سقطت احتقروك . أما الذين يعرفونك فإن ما أصابك لم يغير ما بنفوسهم نحوك من معزة . إنى لم أحس مما قلته لى سوى ضيق لضيقك ، وحزن لحزنك .. فإذا تجلدت وواجهت الأمر بحزم وشجاعة أصبحت وكأن لم

يصبك شيء .

— وأبى .. ماذا سيقول ؟

— إن أبانا أكثر الناس قدرة على تحمل المصائب والصبر عليها ، وأكثر الناس تقديراً لنزوات الغير وأخطائه .. سيحزن قليلا ثم يواجه الأمر معنا أو يحمله عنا .. ماذا تظنه فاعلا غير ذلك ؟! أتظنه يجهل أننا قد أصبحنا رجالا .. وأن من خصائص تكوين الرجال أن يفعلوا أشياء لا مناص من فعلها !! إن الطريقة التى رُكّبنا بها والتى خلقنا عليها .. تجبرنا على أن نفعل ما حرّم علينا فعله ، وهذا شيء لا بد أن يكون هو مسلماً به كما سلم به سواه . والنتيجة أن تحدث مما نفعل بعض مضاعفات لا بد أن نتحمل عواقبها .. مرض هنا .. ومأساة هناك .. هذا شيء طبيعى لا بد من قبوله والتسليم به ، وألا يصيبنا منه الانهيار واليأس .. والفزع والجزع .. وأن ننظر إلى أصحابه كما ننظر إلى مخلوقات غريبة أتت أفعالا عجيبة ، ليس فعلها من خصائص البشر ، بل من خصائص الجن والشياطين .. نحن بشر .. وما يتوقع من البشر غير ما يتوقع من الملائكة . وإن واجبنا حقاً هو التطهر من الدنس والتسامى عن الشرور .. ولكن كيف نتطهر من الدنس إذا لم نوجد فى الدنس ، ونتسامى عن الشرور إذا لم تغمرنا الشرور .. دع عنك يأسك وألق عن نفسك جزعك وارتياعك .. لقد فعلت ما يفعله غيرك من البشر .. وليس ذنبك أن يكون القدر قد اختارك ليجعل منك عظة لبشر لا تجدى فيهم العظة ولا تنفع التجربة .. بشر يدفعهم تكوينهم إلى الخطيئة دفعاً .. وإلا ما سمّوا بشراً .. أخى لا تحزن ولا تيئس فإنى ما أحببتك فى وقت من الأوقات أكثر مما أحببتك الآن .

وأحس « حسين » بالعبء الذى أنقض ظهره قد تضاءل وانكمش ، والكابوس الذى جثم عليه وأخمد أنفاسه قد انزاح وانقشع ، ومدّ ذراعه فأحاط بها أخاه وضمه إليه ، وكأنه يضم درعاً تقيه غائلة الشر ويصدّ عنه شبح الأذى .

وهمس فى أذن أخيه :

— وبماذا تشير علىّ ؟

— دع الأمر لى .. سأدبره كله .. إن عليك همّ المرض وعلىّ هم التدبير .. ألم نتشارك كل شىء فى حياتنا .. فكيف لا نتشارك الهموم الآن ؟

وأغمض الأخوان أعينهما .. وقد تشاركا الهم ، فخفف عن كل منهما عبؤه .. ولم يكونا وحدهما الشريكين فى همهما .. بل كان هناك ثالث لم يحسا به ، شاركهما الهم وحمل منه نصيبه إن لم يكن حمله كله ، حتى ناء به كاهله .

فى ظلمة الليل .. وأسفل الطاقة الكائنة فى جدار حجرتهما والمطلة على ممر ضيق يفصل بينها وبين حجرة الأم كان يجلس شبح صغير قد التف بشال من الصوف الأسود وقد تكوّر فى جلسته ودفن رأسه بين ركبتيه وأخذ جسده يهتز من البكاء .

لم يكن « على » وحده هو الذى أحس بالتغيير الطارئ على حسين .. ولم يكن وحده هو الذى يعرفه كما يعرف نفسه .. بل كان هناك مخلوق آخر قد أحس بما به ؛ وأخذ يرقبه فى صمت وألم .. وعندما ذهب إلى فراشه جلس ينصت إلى أنفاسه تتردد من الطاقة .. وهو يحس بقلبه يدمى ليأسه وحزنه وبكائه ، ويود لو استطاع أن يشارك أخاه فى ضمه ورفع الحزن عنه . ولكنه كان يعرف أنه لا يملك إلا جلسته الخفية وبكاءه الصامت .

كان هذا المخلوق القابع فى الظلمة .. المرتجف من البكاء والحزن .. هو « بهية » .

(٢٤)

إذا استحق أن يحيا

عاد « على » إلى المدرسة وقد استطاع أن يدبر فى حدود طاقته أمر أخيه .. ولم يكن فى عودته يحس بكثير من المرح ، بل كانت تطوف بنفسه موجة الحزن تلطمه بخفة .. اللطمة تلو اللطمة .. فلا تكاد تصيبه حتى تنحسر لتعاود لطمه .

وكان لمصاب أخيه ـ رغم كل ما حاول أن يخفف من وقعه على نفس أخيه ـ أثر سىء فى نفسه .. ولم يكن هناك شك فى أنه أحد الدوافع المحركة لريح الأسى الخفية التى تدفع بموجات الحزن فى نفسه .

أجل .. كانت هى إحدى الدوافع .. أما الدافع الأصلى فكان حديث دار بيته وبين أبيه وهو يسير معه عند عودته من الحديقة قبيل المغرب .

سأله أبوه بعد فترة صمت بدا خلالها كأنه يدبر فى نفسه كيف يبدأ الحديث :

ـ أذهبت ليلة أمس إلى الحديقة ؟

ودهش « على » من السؤال ولم يجد هناك مسوّغاً للإنكار لا سيما وهو يحس أن أباه يلقى السؤال لا للتأكد من الجواب بل لقيادته إلى حديث آخر أهم من السؤال .

وأجاب « على » فى اقتضاب :

ـ أجل .

ـ ولقيت « أنجى » ؟

وزادت دهشة « على » وعاد يهب إجابته المقتضبة وكأنه يستحث أباه لكى يقول ما يود قوله :

ـ أجل .

وصمت الأب فترة أخرى .. ثم أطلق من صدره زفرة حارة وقال :

ـــ اسمع يا على .. ليس أكره إلىّ من نصحك .. لأنى أعرفك جيداً .. أعرف أنك رجل لا تحتاج إلى نصح .. بل إنك أقدر على النصح والتوجيه والإرشاد .. ولكنى مع ذلك لا أجد هناك بداً من أن أوضح لك أمراً ربما يكون قد خفى عليك .. وليس المفروض أن يرى كل إنسان كل شيء .. بل غالباً ما يعجز الإنسان أن يرى الشيء الشديد الملاصقة به ، بما يسهل على غيره أن يراه بوضوح .

وصمت الأب مرة أخرى ، وقال « على » وهو يحدق ببصره فى الحشائش المتناثرة أمامه :

ـــ قل يا أبت ما تريد .. إنى أفهم تماماً الدوافع التى تدفعك إلى هذا القول .. إنك أبى قبل كل شيء .. ومهما كنت ترى فىّ من عقل ورويّة فلن أزيد فى أية مرحلة من مراحل حياتى عن أن أكون ابنك الذى يحتاج دائماً إلى نصحك وإرشادك .

ـــ لقد كنت دائماً أوجس خيفة .. مما يمكن أن ينشأ بينك وبين الأميرة الصغيرة .. كنت أخشى عليك من عواقبه .. ولكن كان يطمئننى قدرتك على التحكم فى مشاعرك وعلى كبح جماح نفسك .. وأنا لا أستطيع أن أقدر ما تأتى به الأيام فهى قادرة على فعل العجائب وتحقيق المعجزات . ولا أستطيع منعك عما يدفعك إليه قلبك لأنك ترى به ما لا أرى بعينى .. ولكن هناك كما قلت لك أشياء يجب على من يرى بعينيه أن يرشد إليها من لا يرى بغير قلبه .. ولو لم يحدث ما حدث بالأمس لما فكرت فى مفاتحتك الحديث .. ولكن .. رب ضارة نافعة .

ولم يفهم « على » ما يقصد الأب .. وسأله وهو يحس كأن هناك خطر مقبلا :

ـــ ماذا حدث بالأمس ؟

ـــ لقد عرف الأمير أنك لقيت « أنجى » .

ـــ الأمير ؟! وكيف ؟

— قال له أخوها علاء .

— وكيف عرف علاء ؟

— يحتمل أن يكون قد عرف من بعض الخفراء .. لست أدرى كيف عرف بالضبط .. .. ولكن المهم أنه عرف وأبلغ أباه .

— وماذا فعل أبوه ؟

— لقد سأل « أنجى » فأخبرته أنها لقيتك صدفة وهى تتمشى فى الحديقة عندما كنت تبحث عنى ، فأمرها بعدم الخروج ليلا فى الحديقة ، وزجر المربية لأنها تركتها تخرج وحدها .

— وكيف عرفت أنت ؟

— لقد أخبرتنى المربية اليوم وحذرتنى من مغبة علاقتكما وطلبت منى أن أمنعك من محاولة الاتصال « بأنجى » إذا كنت أريد أن أبقى على رزق .

وأحس « على » من حديث أبيه وقع المطارق .. وملأه شعور خليط من الخجل والمرارة .. الخجل من أن يقف موقف المذنب العابث الذى يوشك بعبثه أن يتسبب فى قطع رزق أبيه ، والمرارة من الحياة التى لا يستطيع المرء أن يرشف من كأسها رشفة إلا وأعقبتها فى حلقه غصة .. مهما أحس بحاجته إلى الرشفة وحقه فيها .. ومهما كان غرضه منها سامياً أودانياً ، ومهما أحس فى أعماقه من روحانية أو شهوانية ، ومهما بدا فى مظهره من طهر أو دنس .. كله سواء .. وكل رشفة لا بد فى أعقابها من مرارة وغصة ، لقد أصاب من رشفته من المرارة والإحساس بالذنب مثل ما أصاب أخوه .

وأعقب هذا الإحساس بالخجل والمرارة ، إحساس بالألم والخشية من أن يكون قد سبب لها متاعب وعرّضها لزجر أو تأنيب أو أى نوع من أنواع الضيق .

وهكذا عاد « على » إلى المدرسة ، وموجات القلق تتدافع على نفسه ، يقاوم لطمتها الحزينة إحساس أقوى وأثبت ملأ نفسه بالإيمان والثقة .. وجعل موجات الحزن تنحسر عنها دون أن تنال منها كأنها الصخرة الثابتة يتطاير من حولها الرذاذ .

كان ذلك الإحساس القوى الملىء بالثقة والايمان ، قد غرسه فى نفسه اللقاء الأخير ووطد دعائمه فى قلبه حديث ما زالت كلماته تطوف برأسه كأنه النغم الحلو والترنيمة العذبة .

كان يطغى على كل أصوات الألم والمرارة والخوف والقلق .. صوت حنون عذب يهتف به فى إيمان عجيب « إن طبيعتى من طبيعتك وتفكيرى من تفكيرك ومشاعرى من مشاعرك ، إنى أحس أن بروحينا تقارباً عجيباً ، أحس كأن هناك انطباقاً بين نفسينا .. لهذا أحببتك ، ولهذا سأندفع فى حبك بلا تأرجح ولا توقف .. ولا خشية من تقاليد ، ولا خوف من فوارق .. إننا بقلبينا المتوهجين وروحينا المتأججتين سنتخطى كل سدود الدنيا .. ولن يفرق بيننا إلا الموت » .

كان الصوت العذب يطغى على كل ما عداه ، كان يبعث فى نفسه طمأنينة واستقرارا يتضاءل أمامه كل قلق وتتبدد كل خشية ، كانت اللمسة الساحرة التى تحلى كل مرارة وتلذ كل ألم .

ماذا يضايقه ويقلقه ؟ .. انقطاع عن لقائها ؟! أو كان هو يضمن لقاءً دائماً ؟! . أليست هذه هى بعض الحوائل والسدود التى يجب أن يتوقعها والتى قد عقدت معه ميثاقاً على تخطيها بروحيهما المتأججتين ، وقلبيهما المتوهجين ؟

ألا يكفيه هناء ومتعة أن يذكر قولها .. إنها أحبته ، وإنها ستندفع فى حبه بلا تأرجح ولا توقف ؟

— أجل .. إن هذا لجدّ كاف لأن يملأ نفسه بالأمل والرجاء ويعينه على أن يطوى قفار الحياة .. حتى ولو لم يرها ذاك !

وبدأ الدراسة فى فرقته الجديدة فتناولته رحى الحياة التى لا تنى ولا تكل .. وأخذت تتلقفه أكف الطوابير والألعاب والمحاضرات والمشروعات التكتيكية والرسوم الطبوغرافية فى فرقة المتوسط .

كانت دورات الرحى فى فرقته الجديدة سريعة مجنونة فقد كان عليهم أن يدرسوا برنامج العام كله فى بضعة الأشهر الباقية من السنة .. وكان عليهم أن

يؤدوا فى نهاية العام الامتحان الذى سينقلهم من القسم المتوسط إلى القسم النهائى . و لم يكن المطلوب هو مجرد النجاح فقد كان يتوقف على ترتيبه مستقبله فى العام القادم كله .. إذ كانت رتب ضباط الصف الذين يديرون المدرسة تعطى حسب الأقدمية .. وكان يتوقف عليه أيضاً إلى حد كبير ترتيبه عند التخرج وأقدميته فى الجيش التى ستظل ملازمة له مدى حياته .

وكان القسم المتوسط يتكوّن من سبعة عشر طالباً : سبعة منهم باقون من الفرقة القديمة التى انتقل منها عشرة إلى القسم النهائى ليحلوا محل طلبته الذين تخرجوا ضباطاً . والعشرة الآخرون الذين انتقلوا من القسم الإعدادى والذى كان هو أحدهم

وبدأ النضال بين السبعة عشر طالباً . وكان « على » يحس فى نفسه ثقة كبيرة ، فقد بدأ يعتاد حياة المدرسة و لم يعد يشعر بعد انتقاله إلى المتوسط وتفوقه فى النجاح بشعور النكرة المجهول . وأخذ يبرز فى مختلف نواحى النشاط فى المدرسة .. ونظر إليه الطلبة والمدرّسون على أنه أحد الأوائل المنتظر أن تكون فى يدهم إدارة المدرسة فى العام القادم .. فقد كان من المتوقع أن يتمكن الطلبة الناجحون من الإعدادى من المحافظة على أولويتهم فى الترتيب عند انتقالهم إلى القسم النهائى ، إذ كان النضال بينهم وبين السبعة القدامى غير متكافىء فقد كانوا أوفر ذكاء وأكثر جهداً وأعلى روحاً .. وكانت فرصة السبق أسنح لهم رغم حصول الآخرين على فترة أطول للدراسة طول السنة فى برامج المتوسط .

وهكذا شغل النضال علياً ، و لم يعد الانهماك فى الطوابير و الدراسة و الألعاب يمنحه إلا هنيهات قصيرة يجتر فيها أعذب ذكرياته ويهيم فى أنضر أحلامه وأبهى أمانيه .

ومرت الأسابيع دون لقاء .. لم يحاوله هو .. و لم تحاول الظروف أن تمنحه فرصته ، بل حرمت عليه الصدف السعيدة التى كانت تهيئها له فى كل لقاء سابق .. وأخذ الحنين يزداد به .. وضيق الحرمان يشتد وهو يحاول أن يرفع عبئه

ويقاوم شدته بذكرى ماضية وأمل مستقبل . مستعيناً بكلمات حنون فى رأسه وبقايا وردة جافة تعبث بها أصابعه وتتحسسها شفتاه .. ونفثة من صدره بين آونه وأخرى لصاحبه سليمان كلما ضمتهما جلسة أو سنحت بالحديث فرصة .

وكان سليمان كعهده به يبادله بحديث الصبابة حديث سياسة .. كان « على » يتحدث وملؤه الحنين والحب والأمل ، وكان سليمان يتحدث وملؤه التمرد والثورة واليأس .

وفى إحدى الأمسيات جلس الاثنان فى قاعة الرياضة الفسيحة ينتظران دورهما فى تمرين الشيش .. وقد أخذ سليمان يفضي بآرائه الثائرة ، بينما انهمك المدرب الفرنسي فى تمرين أحد الطلبة ، ولمح سليمان من خلال باب القاعة كبير المعلمين الإنجليزى يسير ووراءه بعض الضباط .

وتقطع سليمان حديثه وأشار بعينيه إلى الرجل وهمس فى يأس :

— لا أمل هناك فى إصلاح ما دامت تلك الوجوه الحمر رابضة فى بلادنا .

ثم حوّل عينيه إلى صورة « للملك » معلقة فى واجهة القاعة وعاد يهمس :

— ولا أمل فى جلاءهم .. ما دام هذا رابضاً على رءوسنا .

وهزّ « على » رأسه متعجباً من قول سليمان .. إنه لا يحس بضيق من هذا أو ذاك فكلاهما أبعد عن نطاق تفكيره وأنأى عن محيط ذهنه .. ولم يعرف كيف يعلق على قول صاحبه ، وأنقذه من التعليق حلول دوره فى التمرين وإشارة المدّرب له بأن يأخذ مكانه أمامه فارتدى القناع الشبكى ووقف أمام المدّرب بسترة التدريب السميكة والبنطلون الطويل الضيق ووقف وقفة الاستعداد لتمرين « السابر » الذى أعقب به المدّرس تدريبهم على لعبة « الفلوريه » .

وكان التمرين مملاً بطيئاً . ليس به شيء من مظهر المبارزة الحار النشط السريع الذى طالما رآه « على » فى السينما بين أبطال المبارزة فى عهود الإقطاع فى أوروبا .. كان التمرين لا يزيد على حركات متكررة متوالية ، وكلمات متشابهة متقطعة تخرج من شفتى المدّرب باللغة الفرنسية : « اضرب » « اتق » ..

« اضرب » .. « اتق » .

وانتهى دوره فى التمرين ، وتقدم سليمان ليتخذ مكانه أمام المدّرب .. عندما دخل الجاويش النوبتجى بسونكيه المدلى من قايش الوسط . الذى يميزه عن بقية الجاويشية وصاح بالطلبة الموجودين فى الصالة فى كلمات قصيرة قاطعة آمرة :

ـ اجمع فى الفرق .

ودهش الطلبة إذ لم يكن موعد انتهاء طابور الشيش قد حان ، وكانت طوابير الشيش والملاكمة تعمل دائماً بعد التمام فى إحدى حصص المذاكرة . ولم تكن نوبة انتهاء الحصة الأولى قد قربت ، وتساءل الطالب الأقدم (الحكمدار) محاولا الاستفهام من الجاويش النوبتجى :

ـ أنجمع الآن أم بعد انتهاء الطابور ؟

وعاد الجاويش يصيح متبرماً بغباء الطالب :

ـ اجمع حالا فى الفرق .

ونزع الطلبة ملابس الشيش واصطفوا بسرعة ثم انطلقوا بالخطوة السريعة إلى فرقهم .. ولم يكد يستقر بهم المقام على مقاعدهم حتى صاح حكمدار الفرقة منادياً :

ـ ثابت .

ثم أدى التحية لسليم افندى الضابط الذى يدرس لهم مادة المشاة والذى تقدّم إلى منصة المدرس قائلا للطلبة دون مقدمات :

ـ فى خمس دقائق أريد أن يجهز كل طالب بندقيته ويركب بها القايش وتصطف الفرقة كلها أمام عنبر الصف الثالث .

ثم وجه القول إلى حكمدار الفرقة :

ـ مفهوم .. خمس دقائق فقط .

ـ حاضر يا فندم .

ـــ انصراف الفرقة على العنابر .

ودون أن تعطى لهم فرصة للسؤال أو التوضيح اندفع الطلبة كالصواريخ منطلقين من الفرقة إلى عنابر النوم ، وفكت السلاحليكات وأخرجت منها البنادق وركبت فيها القوايش . وفى أقل من خمس دقائق كانت الفرقة مصطفة فى المكان المطلوب ، وكانت بقية فرق المدرسة (الإعدادى والنهائى) قد اصطفت أمام العنابر الأخرى .

وبدأالهمس والتساؤل يسرى ...

ما سرّ تلك المفاجأة ؟! لماذا يغادرون الفصول ليصطفوا ببنادقهم فى هذا الوقت من الليل ؟!

ليس الوقت وقت طوابير .. ولو كان هناك تمرين على السير الليلى لوجب أن يعد له من قبل ، ولكتب ذلك فى البرنامج ولتنبه عليهم للاستعداد له .

إذاً ما السبب فى هذا الاصطفاف العجيب ؟

أترى هناك أوامر أخرى مفاجئة كتلك التى ألقيت قبيل الامتحان ؟

أترى هناك .. امتحان آخر ؟

وإذا كان .. فما حاجتهم إلى الاصطفاف بالبنادق ؟

لا .. لا .. لا بد أن يكون فى الأمر شىء غير هذا .

لننتظر .. بعد هنيهة لا بد أن يقبل أحد رءوس المدرسة .. كبير المعلمين أو الأركانحرب .. ليجلو الغامض ويكشف السر .

وسمعت وقع أقدام مقبلة على السلم .. وصاح الحكمدار منبهاً الطلبة :

ـــ فرقة .

ونظر الطلبة بأطراف أعينهم إلى ناحية السلم .. فلم يجدوا فى القادمين سوى مدرّس المشاة يتبعه بعض صف الضباط « التعلمجية » (المعلمين من الجنود) .

وأردف حكمدار الفرقة متمماً نداءه :

ـــ انـ . . . . . تبه كتفاً .. سلح .

ورفعت البنادق فى حركات ثلاث قوية نشطة ، واستقرت على الأكتاف وعلى راحة الأيدى اليسرى بالسواعد موازية للأرض و « الكيعان » ملتصقة بالجنب .

وصاح الضابط آمراً المعلمين :

— كل معلم يأخذ جماعته .. وجماعة الباشجاويش معوّض تـقسم على الجماعات .

وفى لحظات قصار كانت الفرقة قسمت كما تقسم فى طوابير المشاة ووقف كل معلم أمام جماعته .

ووقف « على » بجوار سليمان مشدوهاً مأخوذاً .. وهمس متسائلا :

— ما هذا التهريج ؟ .. أطابور سلاح فى هذا الوقت من الليل و ماسر هذا الاستعجال ؟! ألن يطلع الصبح .. لا بد أن يكون سليم أفندى جن ؟

ورد سليمان هامساً :

— سليم أفندى وحده .. إن المدرسة كلها قد جنت .. إن كل الفرق قد خرجت فى طابور سلاح ليلى .

— ولكن لماذا ؟!

— لا بد أنها سخافة من نزوات العسكرية المفاجئة .. شيء طرأ على ذهن كبير المعلمين فجعله يأمر بطابور ليلى .. ماذا سيضيره هو .. ما دام معلمنا فى مكتبه !

— لا أظنه جن إلى هذا الحد .. لا بد أن يكون فى الأمر شيء .

— أى شيء .. صدقنى إن المسألة لا يمكن أن تكون أكثر مما قلت لك .

وصاح سليم افندى بالتعلمجية :

— ابتدى التعليم .. لا أريد « لت وعجن » .. أريد تعليم سريع .. وحركات موحدة مضبوطة .. استعمل العدق سرّك .. لا أريد أن أسمع صوتاً .

وبدأ التعلمجية تعليمهم .. وصاح الشاويش « رزق » بجماعتـه محاولا إيقاظها :

ـ جماعه .. صفا .. جماعه .. انتباه .. جماعه .. صفا .. شديد .. شديد .. مع بعض ...

وعندما اطمأن إلى يقظة جماعته بدأ التعليم :

ـ سنجرى اليوم تعليم وضع منعكساً سلاح .. عندما ينادى المعلم منعكساً سلاح بالعدد فى واحد . هات البندقية .

واستمر المعلم فى درسه ، يعبر عن الحركة ثم يفعلها والجماعة تقلده ، وأصبحت الطرقة كأنها برج بابل أو سوق الثلاثاء تتعالى منها مختلف الصيحات والنداءات والحركات .

وعندما انتهى الطلبة من تعلم « منعكساً سلاح » بدأ المعلم قوله :

ـ انتهينا الآن من حركة منعكساً سلاح .. أريد من كل طالب بعد انصراف الطابور أن يتمرن عليها على حدة ، وليس لدينا وقت للتمرين .. والآن سعلم .. نكس سلاح . عندما ينادى المعلم نكس سلاح بالعدد فى واحد .. ضع البندقية .

ويبدو أن حماسة المعلمين فى التعليم قد تزايدت فقد خرج أركان الحرب من مكتبه ووقف فى الفناء يصيح بحنجرته الميكروفونية :

ـ سليم أفندى .. قلنا بلا ضجيج .. يا سليم أفندى .. ليس هناك شىء بعد .. ادخلوا العنابر من فضلك ....

وأجاب سليم افندى على صيحته :

ـ حاضر يا فندم .

ثم وجه القول إلى التعلمجية :

ـ على مهلك التعلمجية .. بصوت واطى .. كل تعلمجى يدخل الجماعة العنبر الذى يصطف أمامه .. ويجرى التمرين على الخطوة البطيئة .

ودخلت الجماعات إلى العنابر .. وفى أثناء الدخول .. سنحت فرصة الحديث لسليمان فهمس فى أذن على :

— صدقت .. إن المسألة أكبر من مجرد سخافة .. إنه تمرين على جنازة .

— جنازة مَنْ ؟! من الذى مات ؟

— لم يمت بعد .. ولكنه يوشك أن يموت .. إننا نتدّرب على احتمال موته .

— مَنْ هو ؟

— الملك .

وفى اليوم التالى كان الملك قد انتهى .. وارتدى الطلبة الملابس الكاكية رقم ١ وخرج طابورهم يتقدم الجنازة الطويلة الضخمة الرائعة التى أخذت، تخترق شوارع القاهرة ، وقد حملوا أسلحتهم فى وضع « منكساً سلاح » الذى أجرى تدريبهم عليه ، والملك يلفظ آخر أنفاسه .. كأن هناك سباقاً بين تدريبهم الحركة وبين خروج أنفاسه .. وبلغ طابورهم منحدر القلعة وبدت مآذن القلعة لأنظارهم فى الطريق الصاعد بيت الجامعين وانشق طابورهم نصفين ليصطفوا على جانبى الطريق ووضعوا بنادقهم منكسة على أقدامهم وأحنوا رءوسهم والنعش الملفوف فى العلم الأخضر يمّر بيهم.. وحمل النعش إلى داخل جامع الرفاعى وبدت حشود المشيعين تملأ رحاب شارع محمد على بطوائفهم المختلفة .

وانتهت الجنازة ، وركب الطلبة السيارات ، وجلس سليمان بجوار « على » وسمع « على » تنهيدة راحة تخرج من صدره كأنما أزيح عنه عبء ثقيل ، ومرّ بهما بائع صحف يحمل إحدى الصحف وقد كللت بالسواد وكتب عليها بالخط العريض « مات الملك .. يحيا الملك » .

وهمس سليمان وكأنه يحدث نفسه :

« ليَحْيَ ... إذا استحق أن يحيا » .

(٢٥)

هزيمة مشرفة

أشرف العام الدراسى على نهايته ، واشتدت المسابقات الرياضية بين الطلبة والبلاتونات (الفصائل) ، البلاتون الأول والبلاتون الثانى .. وكانت للرياضة فى المدرسة أهمية كبرى للأفراد وللبلاتونات .. أما من ناحية الأفراد فقد كان للألعاب الرياضية درجات يحصل عليها الطلبة المتفوّقون فيها تضاف إلى مجموعهم الأساسى فى الامتحان النهائى وتحتسب لهم فى الترتيب .. فكان لكل فرد من الفريق الأول فى كرة القدم درجة أقصاها خمسون حسب قوة اللاعب ، والفريق الثانى درجة أقصاها ثلاثون ، وللأول فى وزنه فى الملاكمة خمسون درجة ، والثانى ثلاثون درجة ، وهكذا فى كل لعبة ، حتى لقد كان بعض الطلبة المتفوقين فى الرياضة يحصلون أحياناً على ثلثمائة درجة .. تضاف إلى مجموعه فى الدروس فتقفز بترتيبه العشرات أو تضعه فى مرتبة الأول .

وقد كانت لتلك الطريقة ما يبررها من ناحيتين : الأولى تشجيع الرياضة وجعلها فى مرتبة أساسية كالعلوم .. والثانية مكافأة اللاعب عن جهده ووقته الذى يصرفه فى الرياضة ـــ بينما يصرفه غيره فى الاستذكار ـــ بدرجات تعوّض له الدرجات التى كان يمكن أن يحصل عليها لو صرف كل وقته وجهده فى العلوم .. فلا يشعر أن جهده ووقته المنصرف فى الرياضة ضاع سدى ، ولايعود يرى فى الرياضة مضيعة للوقت ، مفسدة للمستقبل .

ولم يكن « على » بالرياضى الممتاز .. ولكن رغبته فى التفوّق وخشيته من أن يكون تأخره فى الرياضة سبباً لضياع مجهوده فى الدروس .. جعله يبذل كل ما ملك من جهد فى كل نواحى الرياضة ، وساعدته فى ذلك سلامة بنيته وقوة

جلده ، وفرط تحمله وشدة مثابرته .

واستطاع بجهاده أن يكون أحد أفراد الفريق الثانى فى كرة القدم .

وفى ذلك العام هزم الفريق الأول للمدرسة فريق مدرسة البوليس ، وكانت مباراة الكرة بين المدرستين من أهم الأحداث فى تاريخ المدرسة .. وعلى نتيجتها تتوقف سعادة أو شقاء طلبة المدرسة طول العام ، وفى غمرة السعادة التى أصابت إدارة المدرسة من الفوز على مدرسة البوليس قررت إغداق الدرجات على فريقى الكرة .. الأول والثانى ، رغم أن الفريق الثانى لم يشترك فى المباراة .. ووجد « على » ثلاثين درجة كاملة تهبط عليه من السماء .

وفى « اختراق الضاحية » ، استطاع بجلده وعزيمته أن يكون من العشرة الأوائل فحصل على عشر درجات . وفى « الشيش » عاونه الحظ فكان من الخمسة الأوائل ، فأضاف بذلك إلى درجات الرياضة بضع درجات أخرى .

وبدأت مباريات الملاكمة .. ولم يكن قد حاول الملاكمة من قبل .. بل كان ينفر منها بطبيعته المسالمة وخلقه الهادئ ، ولكن لم يكن من لعبها فى المدرسة بد .. فقد كانت رياضة إجبارية على كل طالب .

وكانت مباراته الأولى مع محمود عبد الحفيظ .. أحد زملائه فى العنبر ، وكان « على » يشعر بالرهبة تزداد بنفسه كلما اقترب موعد المباراة .. فقد كان عبد الحفيظ لاعباً قديماً . ولم يكن يبدو عليه أى تهيب للمبارة .. بل كان يقول لعلى مازحاً : إنه لن يجعله يتعب كثيراً لأنه سينتهى منه فى الجولة الأولى . وكان يجلس ليقص على طلبة الصنف (العنبر) أخبار ملاكماته الأولى فى مدرسة طنطا وكيف كسر فك أحد خصومه وأحدث للآخر ارتجاجاً فى المخ .

وكانت أحاديث عبد الحفيظ .. رغم ما فيها من مزاح .. تسبب لعلى كثيراً من الرهبة .. وتخفض من روحه المعنوية .. وتشعره بأنه قادم على معركة خاسرة .

شيء واحد هو الذى كان يبعث فى نفسه بعض الأمل .. وهو المقارنة العملية بينه وبين خصمه .

كان يجلس ليرقبه عندما يعرى جسده أثناء تبديل ملابسه .. فيجده رفيع الذراعين نحيل الجسد .. ويجد ذراعيه إذا ما تحسسهما أو أبصرهما فى المرآة قويتين صلبتى العضلات ، ثم يجد أن خصمه مدمن التدخين وهو لا يطيق أنفاس الدخان ، ويجده كذلك صاحب مغامرات وجولات ، وهو لم يعرف طريقه بعد إلى المغامرات والجولات .

كان ذلك هو ما يعزيه ، ويبعث فى نفسه الأمل ، إذ كان يشعره أنه فى جملته يستطيع أن يحطم خصمه ، رغم ما يملكه من فن وتجارب وماض مشرف .

ولم يخب ظن « على » .. بل تحقق كل ما كان يشعر به .. وعندما حلت المباراة استطاع فى حلقة الملاكمة أن يضرب خصمه « علقة » جعلته ينسى كل ماضيه وتجاربه وفنه فى الملاكمة .

وتمكن « على » بعزيمته من أن يفوز على خصومه حتى وصل إلى الدور النهائى ، وكان خصمه فيها .. صلاح الدين جمال .. طالب ، ضخم طويل ، لم يكن لديه أى أمل فى الانتصار عليه .

وكانت المباراة النهائية فى المدرسة تقام فى حفلة كبرى يدعى إليها كبار ضباط الجيش .. ورجال وزارة الحربية وغيرهم من كبار المدعوين الإنجليز والمصريين .

وحل موعد المباراة .. وبدت قاعة الجمباز فى ذلك المساء تشع من نوافذها الأضواء .. والمدرسة كلها تضج بالحركة كأنها خلية نحل .. وأخذت وفود المتفرجين تتوافد عابرة فناء المدرسة بين الباب الرئيسى وباب القاعة ، واصطفت المدرسة عدا الطلبة المتبارين بالملابس الكاكية والطرابيش والقوايش ، ثم قادهم باشجاويش المدرسة إلى أماكنهم فى القاعة لمشاهدة اللعب .

وجلس « على » على طرف فراشه يضع قدميه فى حذاء الملاكمة الأسود الخفيف ، ثم ارتدى « شورت » أزرق وفانلة عادية ، ووضع الفوطة حول عنقه وكبود الفسحة فوق جسده ، والطربوش على رأسه ، ومدّ يده ليغلق الدولاب وبنفسه شعور بالانقباض والضيق والرهبة ، وقبل أن يغلق الدولاب مدّ يده

بحركة لا إرادية ففتح الدرج الخصوصى وأخرج علبة صغيرة أشبه بعلبة « الكروت » وفتحها وتحسس ما بها ، ثم مسه بشفتيه وأعاد العلبة برفق إلى مكانها ، ثم انطلق يعدو وقد خف عن نفسه بعض الانقباض .

وبدت القاعة رهيبة المنظر ، بحلقة الملاكمة فى منتصفها وقد شدّت حبالها ولفت بقماش أبيض ودهنت قوائمها بالأزرق والأحمر وسلط عليها ضوء كشاف قوى تدلى من السقف بدا ظاهره كأنه «مكبة» سوداء وباطنه كأنه شمس ساطعة ، وفى المواجهة منضدة جلس عليها الحكم وقد تدلى أمامه مصباحان أحدهما أزرق والآخر أحمر .. وجلس بجواره الميقاتى وقد أمسك بساعة توقيت ووضع أمامه مطرقة وصينية نحاسية « جونج » وعلى جانبى الحلقة جلس مساعدا الحكم كل على منضدة صغيرة وأمامه قلم وبضع وريقات بيضاء لكتابة النتائج ، وفى ركنى الحلقة وقف جندیان من معلمى التربية البدنية وقد ارتدى كل منهما فانلة بيضاء وبنطلوناً أبيض ، ولف وسطه بقايش الجمباز العريض وبجواره جردل به ماء وقطعة من الإسفنج .

وفى مواجهة الحكم صفت الكراسى الأسيوطية التى أحضرت من المكتبة والنادى وجلس عليها كبار المدعوين يتبادلون أحاديث ، وعلى الجانبين رصت مدرجات خشبية جلس عليها الطلبة يتهامسون فى مرح .. وبدت سيماء الغبطة على المتفرجين كأنهم يتأهبون لمشاهدة مسرحية فكهة مسلية .

وفى نهاية القاعة الطويلة الفسيحة ذات الجدران العالية والسقف المنحدر تستقر حجرتان ضيقتان منخفضتان توضع فيهما أدوات الألعاب ، وفوق سقفيهما غرفة آلة العرض السينمائى عندما تستعمل قاعة الرياضة كقاعة للسينما .

وفى الممر المنخفض الضيق بين حجرتى المخزن والذى يحجبه عن القاعة الكبيرة بابه الشبكى الخشبى المترجح للأمام وللخلف وجلس « على » مع بقية اللاعبين والمدربين وممرض من القسم الطبى فى انتظار دوره فى اللعب .

وكان « على » يحاول الكلام ،ولكن الرهبة كانت تعقد لسانه وتطبق على

أنفاسه .. كانت المرة الأولى أن يلاكم فى حفل رسمى ويتعرّض لمثل هذه المجموعة الهائلة من الأنظار والأضواء .. لقد انتصر فى ملاكماته السابقة لأنها كانت أشبه بالتمرين منها بحفلات الملاكمة .. كانت بالنهار و لم يكن هناك من يشاهده سوى المحكمين والطلبة وبعض الضباط .. وكان يشعر — رغم الخشية التى كانت تتملكه من خصمه قبل كل مباراة — بأنه أقوى منه .

أما هذه المرة فلشد ما يزعجه هذا الحشد المتجمهر حول الحلقة ، ولشد ما يروّعه هذا المظهر الضخم الهائل .. وهو يحس أن الثقة التى كانت تستقر فى قرارة نفسه فى المرات السابقة قد تبددت هذه المرة .. إن خصمه يبدو طيباً مرحاً لطيفاً .. وهو قد يعجب بطيبته ولطفه ومرحه ، ولكنه لا يعجب أبداً بطوله وضخامة جسده .. وعندما يجرى المقارنة التى تعوّد أن يجريها كل مرة ليبعث الثقة فى نفسه يجد أن كفة خصمه أرجح وأثقل ، ويجد أن الثقة التى كان يشد بها أزره بعملية المقارنة . تتطاير وتتبدد .

وزاد من ضيقه أن مباراته لم تكن الأولى ، بل كان عليه الانتظار والتطلع والترقب .. وكانت كل دقيقة تمر به تزيد الحمل الجاثم على أنفاسه ثقلا ، وتملأ نفسه بمزيد من خشية ومزيد من قلق ورهبة .

وبدأت المباراة الأولى .. و لم تكن مباريات الملاكمة فى المدرسة الحربية تمت بكبير صلة أو شبه إلى مباريات الملاكمة العادية ، بل كانت أقرب شبهاً وأشد صلة بالمعارك الدموية والمذابح .. وكان نجاح المباراة يقاس بكمية الدماء المراقة من وجوه المتلاكمين وبمقدار الكدمات فى عيونهم وأنوفهم .

وانتهت المباراة الأولى ، وأقبل المتلاكمان على الحجرة الصغيرة ، وكان من العسير أن تعرف أيهما الفائز ، بل كان من الأشد عسراً أن تعرف أيهما هو .. أهو أم غريمه ؟ بعد أن أضاعت الدماء السائلة والأعين المسودّة ، والأنوف المتورّمة من وجهيهما كل المعالم والسمات التى كانت تميزهما قبل المباراة .

وزاد منظرهما من خوف « على » ورهبته .. وأحس بجفاف فى حلقه ومرارة

فى فمه وبارتخاء فى عضلاته .. وودّ لو استطاع الفرار من القاعة أو من المدرسة .

وسمع صوت الجاويش الذى يقدّم المتلاكمين ينادى :

— المباراة الثانية وزن المتوسط .. بين طالب رقم ١٩ صلاح الدين جمال ، وطالب رقم ٥ على عبد الواحد .

ثم سمع صوت المدرّب وكأنه يناديه من جوف بئر :

— هيا .. لقد حلّ دوركما .

وأحس بمغص فى جوفه كأن يداً تعتصر أمعاءه .. ولكنه لم يملك سوى أن يطرح المعطف وينزع الفانلة ثم يعدو بالخطوة السريعة وراء خصمه فيدخلان الحلقة المضيئة من بين الحبال ثم يقفان « انتباه » أمام مدير المدرسة ويتجه كل منهما إلى الركن الملوّن بلونه : على إلى الركن الأزرق ، وصلاح إلى الركن الأحمر .

وأحس « على » بدقات قلبه تتزايد ، وبرهبته تبلغ أشدّها ، وقد جلس على المقعد الصغير بينما وقف جاويش التربية البدنية أمامه يتشاغل بتدليك عضلات ذراعيه وساقيه .

وعلا صوت الحكم يصيح :

— مساعدين خارج الحلقة .. الشوط الأول .. ابتدى .

وضرب « الجونج » .. ونهض « على » فى خطوات سريعة عصبية ، ومدّ يده بالقفازات الضخمة فشد بها على يدى خصمه فى تحية سريعة .

وبدأت الملاكمة .. وبمجرد بدئها واندفاعه فيها زال من نفسه كل شعور .. حتى شعور الرهبة ، ولم يعد يحس بالأضواء المسلطة أو العيون المحدقة .. ولا عاد يرى طول خصمه ولا يخشى ضخامته .. كل ما كان يحس به هو يد تنطلق لتنثنى ، وتنثنى لتنطلق .. وقبضة خصمه تصطدم بوجهه .. وقبضته تصطدم بوجه خصمه .. دون أن يشعر منها بأى ألم .

واستمرت الأيدى تنطلق باللكمات كأنها الطلقات فى قوة وسرعة .. وهو

لا يعى شيئاً .. كأنه لا يقف فى الحلقة ، حتى وصلت إلى مسامعه طرقة نحاسية وسمع صوت الحكم ينادى :

ـ قف .

ثم سمع الأكف تدوّى بالتصفيق .. واندفع المساعدان إلى داخل الحلقة فوضع كل منهما مقعده وجردله ، وأحس « على » بقطعة الإسفنج المبتلة تلطم وجهه وأحس بملوحة الدماء فى فمه ، ولمح اللون الأحمر يصبغ الإسفنجة ولكنه لم يكن يحس بأى ألم .

وأخذ المساعد يهوى عليه بالمنشفة حتى دق الجونج وصاح الحكم :

ـ مساعدين خارج الحلقة .. والشوط الثانى . ابتدى .

وبدأ الشوط سريعاً قوياً كسابقه ، وكانت معظم ضرباته إلى خصمه بيده اليسرى مفرودة ، وكانت تصيب رأس خصمه فى الوقت الذى ينحنى خصمه ليصيبه بيمناه فى أسفل صدره .

واستمر الشوط بضرباته القوية المتبادلة ، يُسرَى « على » مفرودة فى رأس « صلاح » ويمنى « صلاح » مفرودة فى جانب « على » الأيسر .

وقبيل نهاية الشوط بدأ « على » يحس بالتعب ، ولكنه استمر فى ضرباته بنفس السرعة والقوة حتى ضرب الجونج وعاد إلى مقعده .

وبدأ المساعد يمسح وجهه ويدلك عضلاته وأخذ يهمس فى أذنه :

ـ اخفض مرفقك الأيسر حتى لا تكشف جانبك .. إن كل ضرباته موجهة بيمناه إلى جانبك الأيسر .

وكانت نصيحة المساعد فى موضعها .. ولكن « على » لم يكن فى حالة تسمح له بتفهم النصح ولا كان لديه الوقت ليتعلم أساليب جديدة فى الملاكمة .

ودق الجونج وبدأ الشوط الثالث والأخير .. « على » يحس بالوهن الذى أصابه فى آخر الشوط الثانى يزداد وبأنفاسه تضيق ، ولكنه اندفع يصوب الضربات عنيفة قوية بنفس الطريقة التى اتبعها فى الجولتين السابقتين ، وفى كل

جولة لعبها من قبل ، فقد كان ذلك هو الأسلوب الذى اعتاد عليه .

أصابه خصمه كثيراً فى جانبه ، وأصابه هو كثيراً فى رأسه حتى سوّد عينيه وفصد أنفه .. وأحس بالتعب يزداد وبالوهن يشتد ، ولكنه ضغط على ضروسه واستمر يكيل الضربات وهو يحرّك يديه بطريقة آلية لا شعورية كأنما يحركهما غيره .

وأخيراً ، وبعد انتظار أحس به هو أكثر من سواه . طرق الجونج . وتلته عاصفة مدوّية من التصفيق . ووقف أمام خصمه يتصافحان بالقفازات الضخمة ثم حييا مدير المدرسة وغادرا الحلقة .

وقبل أن يمد الحكم يده ليضيء المصباح الفائز قال :

ـــ الأزرق لعب مباراة ممتازة .. والأحمر فائز .

ثم مدّ يده فأضاء النور الأحمر ودوّى التصفيق مرة أخرى .

وعاد « على » إلى الممر الضيق وهو يحس بتلاحق شديد فى أنفاسه وضيق فى صدره ووخز فى جانبه الأيسر ، وارتمى على مقعد طويل وهو يحس بالوخز يشتد وبالألم يتزايد ، وكأن صدره يكاد يتحطم ، ووضع المنشفة فى فمه خشية أن يصرخ ، وأقبل عليه الممرض يسأله عما به فأشار إلى جانبه دون أن يستطيع النطق .. وحاول أن يتحسس الموضع الذى أشار إليه ، فأحس « على » كأنما قد وخزته سكين وصرخ صرخة مكتومة فى المنشفة .

وأسرع الجندى الممرض بإحضار الضابط الطبيب وأقبل عليه الأخير يفحصه وقد بلغ أقصى حالات الإعياء حتى أصبح لا يكاد يقدر على التنفس .

و لم يكد الطبيب يتم فحصه حتى رفع حاجبيه فى دهشة وصاح بالممرّض :

ـــ انقله إلى المستشفى فى عربة الإسعاف .. إنه مصاب بكسر فى الضلوع .

وأحس « على » فيما يشبه الغيبوبة بأنه قد حمل على النقالة ووضع فى عربة الإسعاف .. ثم أحس بمطبات العربة فى الطريق إلى المستشفى ، و لم يشعر بعد ذلك إلا وهو راقد فى فراش المستشفى .

ولم يكن الكسر شديداً ، ولم يحتج الأمر إلا للف صدره وشده بالمشمع وتركه حتى يلتئم من تلقاء نفسه فى وضعه الطبيعى .

وكان أول من زار « على » فى المستشفى بعد سليمان الذى رافقه إليه هو خصمه صلاح .. فقد أقبل عليه فى الصباح بعينيه السوداوين وأنفه المكدوم ، وشدَّ على يده فى حرارة وجلس بجواره على الفراش ، وقال فى لهجة ملؤها الحزن الآسف :

ـ أنا متأسف جداً يا على .. لم أكن أتصوّر أبداً أنى أصبتك بكسر فى أضلعك .. إنى لم أنم فى الليلة السابقة . فقد كرهت نفسى .. وأنا أتخيلنى أوجه لك الضربات فى ضلعك المكسور .. وأنت صابر متجلد كأنه ليس بك شىء .. إنى أعتقد أنه كسر فى آخر الجولة الثانية .. فلقد بدا عليك ألم شديد .. ولكنك مع ذلك استمررت فى اللعب حتى خيل إلىّ أن ما أصابك لم يكن سوى ألم مفاجئ زال فى لحظته .

وضحك « على » وقال :

ـ لا عليك يا صلاح .. إنى لم أشعر بشىء مما تقول .. إنى فقط شعرت ببعض التعب فى نهاية الجولة الثانية .. على أيه حال الحمد لله .. على نهايتها .. إنك لا تعرف كم كنت أخشى ملاكمتك ، ولكنها مرّت على خير .

ـ أى خير هذا ؟ لقد ضربتنى ضرباً لم أتصوّر قط أنه يمكن أن ينالنى منك .. أؤكد لك أنى كنت أتخيل أن المباراة معك لن تكون سوى مباراة تسلية .. ولكنك ضربتنى ضرباً قاسياً .

وضغط « علىّ » على يده وقال ضاحكا :

ـ إذاً نصبح خالصين .. لقد كنت أود دائماً أن تزداد صداقتنا .. إذ كنت أعجب بروحك المرحة اللطيفة .. وأعتقد أن هذه « العلقة » المتبادلة هى أقوى أساس نبنى عليه صداقتنا المقبلة .

ـ أرجو ألا يكون بنفسك شىء منى ؟

— أبداً .. أبداً .. أنت لم تصبنى عن سوء قصد .

ومنذ ذلك الحين عقدت بين الاثنين صداقة قوية وودّ متين .

وقبيل المغرب كان « على » يرقد فى فراشه وقد أطلق ذهنه يتصيد الهموم .

كان أكثر ما يضايقه فى إصابته أنها فى نهاية السنة .. وقد أوشك موعد الامتحانات أن يحل .. بل إن الامتحانات العملية قد بدأت فعلا .. فكيف يمكن أن يؤديها وهو بحاله تلك .. إن شرّ ما يخشاه هو أن تضيع عليه رقدته فرصة الامتحان فيعيد السنة ويصبح كما يقول المثل « كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا »

وهو يعلم أن هناك طلبة أعادوا السنة لأنهم مرضوا قبيل الامتحانات ولن يكون هو خيراً منهم .

لعن الله هذا القدر الساخر الذى يعطينا باليمين ما يأخذه بالشمال .. ماذا سيقول لأبيه إن اضطر إلى إعادة السنة ؟

وأحس بضيق من نفسه لأنه كان يمكن لو أخفض يده ألا يصاب وكان يمكن أن يخرج من الجولة الثانية دون أى حرج .. ولكنها « الكبرياء » والعناد .

وأحس بضيق من صلاح لأنه استمر يضربه فى ذلك الجانب مستغلا كشفه .

وهكذا ساقه ذهنه إلى الضيق بكل شىء .. ولم تفلح محاولته فى الاستعانة بذكريات « أنجى » ووعودها بأن تزيل الضيق .

وأغمض عينيه محاولا طرد الوساوس والاستعانة بإيمانه بالله .. عندما أحس وقع أقدام كثيرة تقترب من باب العنبر الذى رقد فيه .. ثم أبصر كبير المعلمين الإنجليزى بوجهه الأحمر وأنفه الضخم وعصاه المترجحة فى يده قد أقبل وبجواره مدير المستشفى العسكرى وهو ضابط برتبة الأميرالاى فى لهجته لكنه سورية .

وأصابت « على » رهبة من رؤية الرجل فقد كان منظره يبعث الخوف فى نفوس الطلبة فى المدرسة .. إذ كان الحاكم بأمره فيها .

وأخذ الرجل يقترب حتى وصل إلى فراش « على » ثم مدّ يده إليه بلفافة أخرج ما بها فإذا به تمثال صغير لملاكم من الفضة وشد على يده مصافحاً وهو يقول

بالعربية الركيكة :

ــ لقد قدمت لأهنئك .. إنك قد هزمت فى المباراة ، ولكن هزيمتك كانت أشرف ما رأيت من الهزائم . ولقد كنت خيراً من الفائز .

ثم نظر إلى مرافقه قائلا :

ــ كان يجب عليك أن تشهد هذه المباراة .. لقد فاتك الشيء الكثير لأنك لم ترها .. لقد استمر متفوّقاً على خصمه حتى نهاية المباراة دون أن يشعر أحد منا أن به شيئاً .. لقد ضرب مثلا عالياً فى قوة الجلد والمقاومة وعلو الروح .

وعاد يوجه القول إلى « على » :

ــ أنا لا أستطيع أن أعبر لك عما بنفسى من امتنان نحوك وتقدير لك .. ولكنى أؤكد لك أنى لا بد أن أكافئك بما تستحق .. وهذا التمثال الذى أعطيه لك إنما هو مكافأة رمزية .. ولكنى سأمنحك إلى جواره الخمسين درجة التى يستحقها الفائز .. وسأتيح لك فرصة الامتحان العملى وأنت فى فراشك .. وسأدبر كل شيء لصالحك فلا تضق بشيء ولا تقلق على شيء .. إنى أحب الرجال وأنت رجل .

وتناول « على » التمثال وهو مشدوه حائر .. لا يدرى ماذا فعل حتى يستحق كل هذا .. وبدا له كأن انفعال الرجل وحرارته .. ضرب من ضروب الجنون .

---

(٢٦)

حديث القمر . !

كانت العربة تنساب « بأنجى » فى الطريق الزراعى عائدة من المدرسة متجهة إلى القصر ، وكانت مواعيد الصيف قد بدأت وأصبحت العودة إلى البيوت إبان الظهيرة .

ولم يكن الصيف قد أثقل بحره بعد ، وكان اندفاع العربة يدفع بالهواء من النافذة فيلفح وجه « أنجى » ويعبث بخصلة شعر استلقت فى إهمال على جبينها .

وكانت تستغرق فى شرود أيقظتها منه ضجة قطار الظهر القادم من القاهرة والذى أخذ يلاحق العربة بصفيره وضجيجه فوق الجسر القائم على يمين الطريق .. وتوقفت العربة أمام حاجز المزلقان المغلق عند منحنى فى الطريق يعبر سكة الحديد ، وأخذت عربات القطار تمر متلاحقة ، وتعلق نظر « أنجى » الشارد بالنوافذ المتعاقبة فى سرعة وبدا عليها من مظاهر الاهتمام والتركيز ما يوحى بأنها تبحث عن شيء معين ، وأن نظراتها للنوافذ ليست بمجرد نظرات عابرة تقطع بها ملل الانتظار .

ولم تكن تلك هى المرة الأولى أن تبدو كأنما تبحث عن شيء فى الطريق .. فمنذ تحركت العربة بها من باب المدرسة وهى تحدق من النافذة فى لهفة واضحة وقلق ظاهر .

كان اليوم يوم خميس ، والخميس يعنى لديها شيئاً أكثر من بقية الأيام . فقد كان يحمل إليها أملا لذيذاً ويدفع فى نفسها رجاء ممتعاً . كان يوم خروج « على » واحتمال لقائه .. وكانت هذا الخميس تشعر بفرط حنينها إلى رؤيته بعد أن خيب الخميسان الماضيان رجاءها وضيعا أملها .

إنها لم تره منذ آخر لقاء لهما فى الحديقة تلك الليلة ، ليلة العهد والميثاق ، التى آمن كل منهما بصاحبه وشدّ إليه قلبه حتى آخر العمر ، وهى تخشى أن يكون تحذير « الدادة » التى أسرّت به إلى أبيه عقب الحماقة التى ارتكبها « علاء » قد بلغه وأثر فى نفسه ، وأنه قد عزم فعلا على أن يحذر لقاءها .

وأخذت ترقب الطريق منذ غادرت المدرسة ، محدقة فى الأفاريز والمحطات .. علّ الصدف التى منحتها اللقاء أول مرة فى الصيف الماضى .. تكرر منحتها ، وتعيد هبتها ، ولكن الصدف لا تكرر الهبة ولا تعطى أبداً حين تسأل ، إنما تأتى هبتها على غير توقع أو انتظار .

ولمحت بدلة كحلية ذات شريط أحمر فأصابتها رجفة وهمت بالصياح موقفة السائق ولكن رؤيتها لصاحب البدلة حبست الصيحة فى صدرها فقد وجدته مخلوقاً آخر غير بغيتها المنشودة .

وتمنت لو واتتها الشجاعة فأمرت السائق بالعودة إلى المدرسة الحربية حيث تسأل عنه وتصحبه معها إن لم يكن قد رحل بعد . ولكن العربة استمرت تنهب الطريق وهى مشرئبة بعنقها محدقة بعينيها من النافذة دون أن تنبس ببنت شفة .

ومرّ القطار دون أن تبصر فى نوافذه أحداً ، وعبرت العربة المزلقان متخذة طريقها إلى القصر ، وبنفسها مزيج من ضيق ويأس ولهفة وحنين .

وعندما بلغت العربة المحطة لمحت شبحاً يعبر الطريق جعلها تنتفض فى مكانها وتهتف بالسائق :

ــ تمهل يا أسطى محمد .

ووقف السائق قريباً من عابر الطريق الذى استمر فى سيره عبر المزارع متجهاً إلى مجموعة بيوت العزبة المجاورة للجامع . وأدركت « أنجى » وهى ترنو إلى شبحه المتباعد عن الطريق أنها أخطأت للمرة الثانية ، إذ لم تجد فيه علياً .. وإن وجدت أقرب الناس إليه وهو أخوه حسين .

ودون روية هتفت منادية :

— حسين .

. وبدا كأنها قد صممت على أن تفعل شيئاً إيجابياً فى سبيل اللقاء بدل هذا الانتظار البغيض لهبات صدف مغلولة اليد ، مقبوضة الكف .

وتلفت « حسين » وراءه فى دهشة .. ولم يكد بصره يقع على العربة ويرى « أنجى » بداخلها حتى تهللت أساريره ، وأسرع نحوها .

وتصافح الاثنان فى حرارة وكلاهما يحس أن بينهما حبيباً مشتركاً .. وكانت « أنجى » تدرك أن وقفتها هذه وحديثها مع حسين غير مستحب المظهر .. ولا مأمون العواقب .. فأسرعت تقول فى عجلة محاولة أن تبلغ مقصدها من أقرب طريق وبأقصر حديث :

— مضت مدة دون أن يراكم أحد .

— مشاغل المدرسة كثيرة .. حبس ونوبتجية .. ومصائب أخرى .

— وعلى .. كيف حاله .. أمشغول أيضاً بالحبس والنوبتجية ؟

— على !! ألم تعلمى ما حدث له ؟

وأحست برجفة من سؤاله وأجابت متسائلة وهى تتوجس من ردّه خيفة :

— ماذا حدث ؟

— إنه فى المستشفى العسكرى .

— المستشفى .. لماذا ؟ ماذا حدث له ؟

— كسر ضلعه .

— كيف ؟

— فى مباراة الملاكمة النهائية .. أوشك على الفوز بالبطولة .. كانت مباراة عجيبة . فقد ...

ولم تكن « أنجى » فى حالة تسمح لها بسماع وصف المباراة .. فقد أحست بغشاوة على عينيها وأصابها غثيان جعل أطرافها تبرد ووجهها يشحب .

ووجدت نفسها تسأل مقاطعة بصوت خافت :

ـــ وكيف حاله ؟

ـــ الحمد لله بخير .. إن حالته العامة جيدة .. ولكن العلاج يحتاج إلى رقدة طويلة حتى يلتئم الكسر .

ولم تعرف « أنجى » بم تجيب .. كانت تحس أنها فى أشد الحاجة إلى الاستلقاء على فراشها حتى لا تخر مغشياً عليها .

وتمتمت تقول بلهجة مجهدة أشبه بالهمس :

ـــ بلغه سلامي .

ثم هزت رأسها مشيرة بالتحية ، قائلة بنفس اللهجة الخافتة :

ـــ مع السلامة .

وأجاب « حسين » وهو يشير لها وقد أخذ بوجهها الشاحب وصوتها المرتعد :

ـــ مع السلامة .

ووجهت القول إلى السائق :

ـــ اطلع يا اسطى محمد .

وتحركت العربة ، ووقف حسين يرقبها مشدوهاً .

ماذا حدث للصبية الرقيقة المرهفة ؟ ماذا روّعها إلى هذا الحد ؟!

... إنها أوشكت على الإغماء .

أيكون نبأ أخيه قد أفزعها مثل هذا الفزع ، وآلمها مثل هذا الإيلام ؟

... لِمَ كل هذا ؟! وهى ليست أمه .. ولا أخته !

أهذا هو الحب ؟!!!

عجباً !! عجباً !!

أيقرّب الحب غريبين .. مثل هذه القربى .. التى تفوق قربى الدم وعشرة السنين الطوال ؟؟

لقد كان يعرف مدى شعور أخيه نحوها .. وكان يستحمق أخاه ويستكثر أن

يمنح إنساناً أيا كان مثل هذا القدر من الشعور .. ولكنه الآن .. وبعد أن رأى وجهها الشاحب ، وسمع صوتها المرتعد الذى مازال يتردد فى أذنيه .. لم يستنكر شعور أخيه .. فقد بدا شعورها مكافئاً له ، أو يزيد .

ولكنه مع ذلك ما زال يعجب من قوة الشعورين المتكافئين .. من أى نبع يتدفقان ؟ ... ومن أى أفق يشرفان ؟. لماذا ؟ وكيف ؟

أيكون هذا .. هو الحب ؟

وهزّ رأسه ورفع كتفيه وعاد إلى داره .

ووصلت « أنجى » إلى القصر واتجهت إلى حجرتها فى وجوم وشرود وغثيان ، وارتمت على فراشها منهارَة متهالكة ، وأقبلت عليها « الدادة » متسائلة فى دهشة :

ــ ماذا بك يا أنجى ؟

ــ أشعر ببعض التعب والإعياء .

ــ ألا تنوين النزول للغداء ؟

ــ لا أستطيع .. إنى فى حاجة إلى الراحة .

ــ أأحضر لك الطعام هنا ؟

ــ لا .. لا .. سأنزل عندما أستريح .

وأقبلت عليها « الدادة » تجسها وتتحسسها ، فضاقت بها « أنجى » ذرعاً وقالت فى ضيق :

ــ اتركينى الآن وحدى .. ليس بى شىء .. إنى أريد فقط أن أستريح .

واستطاعت « أنجى » باستلقائها على الفراش أن تهيىء لجسدها بعض الراحة والاستقرار .. ولكن ذهنها لم يستقر ولم يهدأ .. بل أخذ يتقلب فى رأسها ويتململ .. لهف نفسها عليه .. فى رقدته وفى إصابته .

ترى كيف كانت إصابته ؟ .. أتراه قد تألم كثيراً ؟!! ليتها كانت بجواره حتى تخفف ألمه وتضمد كسره .. ليتها تملك له شيئاً أكثر من هذا الاستسلام اليائس والتفكير العاجز .

ترى !! أما زال يحلم بها كما تعوّد أن يحلم ؟! أكان يذكرها فى آلامه ، وأحزانه وأشجانه ؟

أفٍّ .. لهذا العجز واليأس .. لقد كانت تحس بشدة الشوق وفرط الحنين قبل أن تعلم نبأ إصابته .. أما الآن فهى تود لو تدفع نصف عمرها لكى تراه وتتحدث إليه .. إنها تشعر أن حياتها معلقة بلقاء ونظرة وكلمة . إنها يجب أن تراه ، فليس هناك ما يمكن أن يحول بينها وبينه .. إنها ستذهب لزيارته فى المستشفى فهم لا شك يصرحون بالزيارة .. وزيارة المرضى ليست بالإثم الممنوع ولا بالجرم المحرّم .

أجل .. أجل .. ستذهب غدا لزيارته بعد أن تخرج من المدرسة .. فهى تعرف المستشفى العسكرى الكائن بجوار الثكنات فى الطريق إلى مصر الجديدة .. والمسافة إليه ليست بالبعيدة .. والزيارة كلها لن تستغرق أكثر من نصف ساعة ...لن تؤثر كثيراً على موعد عودتها .. والأسطى محمد .. رجل طيب .. وهو يحبها ويكره كل ما يسيئها .. ولا تظن أنه يمكن أن ينقل عنها ما يسبب لها أى ضيق .

وبهذه الطريقة فى التفكير .. وبهذا القرار الذى انتهت إليه .. أمكنها أن تهيىء لذهنها المتململ المكدود سكينة واستقراراً وأن تمنح نفسها الحزينة الموجعة عزاء وراحة .

وعندما أقبل الليل كانت « أنجى » تجلس على مقعد طويل (شيزلونج) أسفل نافذة عريضة قد تدفق منها نور فضى أرسله ساكن فى كبد السماء وضاء المحيا مشرق السمات ، يبسط كفه بالنور على الكائنات فى عدل ومساواة وفى غير بخل ولا تقتير .

وتطلعت « أنجى » إلى ساكن السماء الصامت الكريم وبدا لها وهى تحدق فيه أنها تلمح على شفتيه بسمة عطف وحنان .. وأحست من نوره المنبسط على وجهها ورأسها بمسة كفين رقيقين يتحسسان شعرها فى لين ورفق .. وخيل إليها

أن ساكن السماء يحمل إليها فى بسمته وهمسته رسالة يود أن يسرّ بها إليها .. وأحست باسترخاء لذيذ وفتور ممتع .. وحدثت القمر حديثاً صامتاً بشفتين مطبقتين وعينين رانيتين قائلة فى شرود وسرحان :

ـــ آه من طول الفرقة .. وبعد الشقة .. وفرط الحنين .. وقلة الزاد .. لا لقاء .. ولا حديث .. ولا نظرة تروى .. أو كلمة تشبع .. كم أحس بالوحدة والوحشة والفراغ .

ويخيل إليها أن القمر يهمس إليها متسائلا فى عتاب :

ـــ وحشة وأنا معك ؟

ـــ أنت صامت لا تتحدث ، إنك ترمقنى فى رثاء دون أن تقول شيئاً .

ـــ أخشى أن أقطع بالحديث صمتك الجميل .. وأقلق إحساسك المرهف .. أخشى أن أقلقك فى وحدتك وأزعجك فى خلوتك .

ـــ لا .. لا .. لا تخش شيئاً .. حدثنى عنه فليس أحب إلى نفسى من الحديث عنه .. قل لى كيف يرقد ، وكيف يجلس ؟! كيف يصحو وكيف ينام ؟. كيف يفكر .. وكيف يحلم ؟! قل لى إنه لا يتألم ؟! قل لى إنه يذكرنى كما أذكره .. ويفكر فىّ كما أفكر فيه ؟! قل له إنى ما زلت أميرة أحلامه وملكة أوهامه .. فقد أضحى هو أمير حياتى وسيد قلبى وملك نفسى وسلطان روحى !! قل له إنى أحبه .. حباً يتدفق كالسيل .. لا ينى ولا ينقطع .. حباً يجرف فى طريقه كل عقبة .. ويهدم كل سد !! قل له إن هيكله القابع فى قلبى قد نما حتى ملأه .. بل ملأ نفسى كلها .. وأضحى هو أنا !!.. قل له عن حبى فأنا لا أجسر على قوله عند اللقاء .. وقد ألجمنى الوجد .. وعقد لسانى الجوى !!.. قل له ولا تكف عن القول .. فحبى أقوى من كل قول .. وأحر من كل حديث !!.. قل له ولا تخش التزيد والمبالغة .. فكل ما ستقول أقل مما أحس وأضأل مما أشعر .. قل له .. فديت كسره بأضلعى .. قل له إن ألمى مما به أشد من ألمه .. قل له :

أرجفوا أنك شاك موجع ليت لى فوق الضنى ما أوجعك
نامت الأعين إلا مقلة تسكب الدمع وترعى مضجعك

وغشيت عينيها غشاوة دمع حجبت عنهما القرص الفضى .. ومدت يدها فى صمت إلى درج بجوارها .. وأخذت منه منديلا صغيراً جففت به عبراتها .. وعلى ضوء القمر بدت فى المنديل بقعتان داكنتان لآثار دماء .

وضمت المنديل إلى شفتيها وأنفها .. ورنت إلى القمر من خلال سحابة الدمع التى عادت تهمى مرة أخرى وأردفت تقول فى حديثها الصامت :

ـ أتدرى ما هذا ؟

ـ ...

ـ إنه المنديل الذى جففت به دمه .. لقد مزجت به دمعى .. وبودّى لو مزجت به دمى .. إنى أحس به فى هذا المنديل .. وأشعر حين أمسك به أنى أطبق عليه .. هذا المنديل يحمل بين أنسجته أعز ما فى الوجود .. وأحب ما فى الكون . لقد أحسست ساعة أن نَزَفَتْ إصبعه .. أن قلبى هو الذى ينزف .. ومددت يدى بالمناديل أضمد جرحه .. وكأنى أضمد جرحاً فى قلبى .. لقد كان عزائى فى جرحه أنى استطعت أن أضمده له .. ليتنى أستطيع أن أجبر كسره كما ضمدت جرحه .

وأغمضت عينيها وأحست بالكفين يمسحان شعرها فى عطف شديد وحنان بالغ .

وعادت تنظر إلى القمر الرانى نظرة توسل وتقول بعينيها راجية :

ـ ليتك تحمل إليه مسة يدى .. كما حملت إلىّ بنورك مسة كفيه .

ولم يخيب القمر الكريم رجاءها .. ففى تلك الساعة وقد أطفئت الأنوار فى المستشفى العسكرى وساد السكون عنابر المرضى إلا من آهة هنا وأنة هناك .. كان الطلبة المرضى قد استغرقوا فى النوم إلا واحداً رقد على ظهره وشدّ صدره بالأربطة وأخذ يهز رأسه متململا ضائقاً .. وأغمض عينيه فى الظلمة محاولا

استدعاء النوم واصطياد الذهن الشارد .. وفى تلك اللحظة هبت نسمة دفعت مصراع النافذة التى استقر تحتها وتدفق منها شعاع من ضوء القمر انبسط على وجهه ، وفتح عينيه فاستقر نظره على بسمة رقيقة تلوح فى تعاريج القرص الفضى ، وأحس من الشعاع المنبسط كفاً حنوناً تمتد من النافذة فتمس فى رفق جبينه وتتحسس وجهه .. وشعر بالحمل الذى أخذ بخناقه وأطبق على صدره قد تبدد ، وانطلقت من صدره زفرة حارة حملها كل ما به من ضيق وملل .. وأغمض عينيه واستسلم إلى سبات مريح ونومة هادئة .

وفى اليوم التالى ذهبت « أنجى » إلى المدرسة قلقة مهمومة وعندما جلست خلال الفسحة القصيرة فى الفناء الأخضر المتسع أسفل النخلة التى تعوّدت أن تجلس بجوارها كان يبدو عليها الوجوم والاستغراق فى التفكير .

وأقبلت عليها صاحبتها « سناء » أخلص صديقاتها .. وأعزهن عليها .. وقلت مازحة :

ـــ أنجى .. لا تجلسى هكذا كأنك عجوز مائة عام .. أى همّ تحملين ؟! الأولاد .. أم البيت ؟! ما زال أمامنا كثير على هذا الهم والتفكير .

ولم تجب « أنجى » فعادت تتساءل ناهرة :

ـــ قولى ما بك ؟.. آه .. تذكرت .

واقتربت من أذنها تقول هامسة :

ـــ لا بد أنه لم يخرج بالأمس .. أجل .. أجل .. إن الأمس هو الخميس .. لا بد أنه محبوس .. الذنب ذنبك أنت .. ألم تجدى خيراً من هذا الشقى الخائب ؟ إنى لا أذكر أنه خرج أسبوعاً واحداً ؟!

ولم تضحك « أنجى » بل ازداد وجهها تجهما . وجلست « سناء » بجوارها وأحاطت كتفها بذراعها وكفت عن مزاحها .. وتساءلت فى دهشة :

ـــ مابك يا أنجى .. حدثينى .. تكلمى ولا تجلسى هكذا صامتة حزينة .. أأغضبك أحد ؟.. أبوك .. أم علاء .. أم .. أم على ؟ ألم يخرج بالأمس ؟.. لعل

عنده نوبتجية .. أم أى مانع آخر ؟!

وأجابت « أنجى » وهى تحاول جهدها أن تكبت رغبتها فى البكاء :

ـــ إنه فى المستشفى .

ـــ ماذا به ؟

ـــ لقد كسر ضلعه فى الملاكمة .

ـــ كسر ضلعه ؟ من أنبأك ؟

ـــ أخوه .

ـــ وكيف حاله ؟

ـــ قال إنه بخير .. ولكنى لا أصدقه .

ـــ ولماذا لا تصدقينه ؟

ـــ أتظنين أن كسر الضلع أمر سهل ؟ لا بد أن يكون به خطورة ؟

ـــ أنا لم أجرّب كسر الضلع .. ولكنى لا أدرى لماذا تجزمين أن به خطورة . ما دام أخوه قد قال إنه بخير فيجب أن تصدقيه .. ويجب أن تبعدى عن نفسك هذه الوساوس ، والأوهام .

ـــ إنى أريد أن أراه .

ـــ انتظرى حتى يخرج من المستشفى .

ـــ لن أنتظر .. لقد قررت أن أذهب إليه .

ـــ تذهبين إليه ؟ أجننت ؟! تذهبين إليه وتزورينه أمام الناس ؟! بأى صفة ؟!. كيف تستطيعين الذهاب ؟! وهل سيسمح لك أبوك ؟

ـــ لن أقول له .. سأذهب بعد الخروج من المدرسة .

ـــ اسمعى يا أنجى .. إياك وهذا الحمق .. إن السائق سيعرف .. وكذلك سيراك كل زملائه من المرضى .. لا .. لا .. إنك تجنين عليه .. إنك لا تدرين ما يمكن أن يفعل أبوك لو علم بما بينكما .

وزاد تحذير « سناء » من قلق « أنجى » وضيقها .. إنها تريد الذهاب .. وهى

تعلم العواقب التي يمكن أن تترتب على هذه الزيارة .. ولكنها تحاول أن تدفعها عن ذهنها وتبعدها عن تفكيرها .. وهي تحس بالراحة عندما تجد عزمها قد استقر على الذهاب . ولكن الوساوس تعود مرة أخرى لتحذرها من العواقب .. ويستمر النضال فى ذهنها بين الرغبة فى الذهاب والخشية منه .

وانتهت الدراسة دون أن تفهم « أنجى » كلمة واحدة مما سمعته فى يومها . وخرجت تحمل حقيبتها بين أفواج البنات ذات « المرايل » الزرق والشياب البنية .. وعبرت البوّابة التي تكأكأ عليها حشد من المستقبلين ، وسارت تبحث عن العربة بين العربات المتراصة بجوار الرصيف ، وفتحت الباب ، واتخذت مكانها فى العربة ، والصراع فى ذهنها على أشده .. تذهب ؟! أو لا تذهب !! الحنين والشوق واللهفة والحب يدفعانها دفعاً إلى الذهاب .. والخوف والخشية .. يمنعانها عنه .. الخوف والخشية عليه .. وعلى أبيه .. فهى تذكر قول مربيتها .. وتحذيرها لأبيه .. وهى تذكر تحذير « سماء » بأنها تجنى عليه .. إنها تود الذهاب من أجل نفسها ، ولكنها تخشاه من أجله .

أجل .. من أجله .. يجب ألا تذهب .

هذا هو ما استقر عليه رأيها الأخير .

وتحرك السائق متجهاً إلى المحطة فى طريقه إلى القصر .

وبلا وعى ولا إرادة .. وكأن شخصاً آخر يتحدث غيرها .. قالت :

ـــ دوّر يا أسطى محمد .. على مصر الجديدة .

ودون أن يسأل السائق لف بالعربة متخذاً الطريق العكسى .. وعندما وصلت العربة إلى المستشفى العسكرى قالت « أنجى » بنفس البساطة والعزم والإصرار الذى غيرت به اتجاه العربة :

ـــ قف يا أسطى محمد .. انتظرنى برهة .

وهبطت من العربة وعبرت الباب .. وبالسؤال أرشدها أحد الجنود الممرضين إلى عنبر الطلبة ، وفى غمضة عين كانت تقف أمام فراش « على » وقد

أن

أغمض عينيه وراح فى إغفاءة وشرود .

وأحست كأن قلبها يوشك أن يقفز من بين أضلعها ، وقبل أن تحاول إيقاظه ، فتح عينيه ، فبدت عليه دهشة شديدة ، وعاد يغمض عينيه كأنه غير مصدق .. ثم هتف وقد تلاحقت أنفاسه :

ـ « أنجى » .. أنت هنا ؟!

ومدّت يدها فأسلمتها إلى كفه الضاغطة ، وقد علت شفتيها ابتسامتها الرقيقة العذبة التى تملؤه بالثقة وبالإيمان وقالت هامسة :

ـ أجل يا علىّ .. كان يجب أن أكون هنا من قبل .. ولكننى لم أعرف إلا بالأمس .

ـ لقد كنت هنا دائما .. أنت لا تبرحيننى لحظة .

ـ وأنت أيضاً لم تبرحنى لحظة واحدة .. لقد أحسست بالكسر فى أضلعى .. وليس فى أضلعك .. أتألمت كثيراً ؟

ـ أبداً .. أبداً .

وعلت وجهه ابتسامة مشرقة وأردف يقول ضاحكا :

ـ لم أر فى حياتى أغلى من هذه الضلع .. لقد منحتنى سمعة طيبة وتمثالا ، وخمسين درجة .. وامتحاناً عملياً فى الفراش .. ونجاحاً مؤكداً ، وترتيباً مضموناً .. وأعز من كل هذا .. منحتنى .. أنت .. أى ضلع هذه ! ليتنى تكسر لى فى كل يوم ضلع !

(٢٧)

أريدك كما أنت

لم يكن « على » مبالغاً فى حسن ظنه بضلعه المكسورة فقد منحته فعلاً ما توقع .. منحته السمعة الطيبة والنجاح المؤكد والترتيب المضمون ، وخيراً من هذا كله .. منحته « أنجى » .

أما عن السمعة الطيبة فقد أضحى « على » من أبرز طلبة المدرسة وأطيبهم سيرة وأحسنهم ذكراً .. وأما عن النجاح والترتيب فقد انتقل « على » إلى السنة الثالثة واستمر محافظاً على ترتيبه الثالث واستحق أن يرق إلى رتبة الجاويش بعد أن منح الأول رتبة الباشجاويش والثانى رتبة البلوك أمين .. وبدأ يمارس فى عامه الجديد فى المدرسة سلطة ضباط الصف العظام ، ومنحته رتبته المهابة والسلطان بين الفيران المذعورة من المستجدين .. وأخذت سترته بأشرطتها الحمراء فوق الذراعين تثير الذعر أينما حلت وبدأت تحتل مكانها على باب الحمام لتحجز له الحمام فى يوم المياه الساخنة حتى لا يجسر الطلبة وصغار صف الضباط على الاقتراب منه .

وكان « على » جاويشاً محبوباً .. رغم أن ألزم صفات الجاويش فى المدرسة أن يكون مكروهاً .. ككل صاحب سلطان ، وحاكم أفراد ، ومنفذ قوانين ، ومحافظ على نظم ، وموقع عقوبات ، وقد استمد المحبة من تجنبة الخطأ الشائع الذى يقع فيه كل صف ضابط .. أو كل حاكم ، وهو سرعة نسيان متاعب وآلام الفرد .. بمجرد أن ينتقل من وضعه كفرد .. إلى وضعه كضابط صف أو كحاكم ، وسرعة تلوّنه وتشكله بقالبه الجديد .. وانطباعة وأعماله ، واقتناعه بأنه هكذا يجب أن يكون الحاكم .. وبأنه يتحتم عليه أن يتغير هو ليلائم القالب

الجديد .. ويقينه بأن الفرد يجب أن يبقى كما هو ليمارس فيه الحاكم سلطانه ، وأن عليه أن يتألم كما تألم هو ويقاسي كما قاسى هو .

ذلك هو الخطأ الشائع الذى استطاع « على » تجنبه ، فكان يمارس سلطته كجاويش وملء نفسه شعور الفرد .. كان إذا ما تصرف مع فرد .. تذكر نفسه فى موضعه .. كان يذكر حيرته كفأر مذعور .. عندما يقف أمام الفيران المذعورة .. كان يذكر إحساسه بالظلم عندما يوشك أن يرتكب ظلماً .. كان يذكر نفسه نكرة منسياً يحاول أن يبذل طاقته لكى يصبح شيئاً .. فلا يفوز فى النهاية بغير العقاب . كان يذكر ذلك فيمنح بدل الجزاءات .. كلمات تشجيع .. للمنسيين المكافحين الذى لا يعرفهم أحد ولا يشجعهم أحد .

كان محبوباً لأنه كان قبل أن يصدر الحكم على الخاطئ يضع نفسه فى موضعه ويصدر الحكم على نفسه قبل أن يصدره عليه .. فإن قبلت نفسه الحكم وقعه عليه ، وإن لم تقبله .. عفا عنه ، واستبدل بالجزاء نصحاً وإرشاداً .

كان محبوباً لأنه خير من يقدر آلام الناس ، ويعتبر ظروفهم ، وخير من يستفيد من إحساسه بالآلام لكى يرد الآلام عن سواه ولا يكرر منحها لغيره .

كان محبوباً .. لأنه لا يرد بغضاً ببغض ولا إساءة بإساءة .

كان محبوباً ، لأنه ذكى ، والذكى يعرف كيف يكسب الحب ويعرف كيف يحرز الانتصار خالياً — قدر ما استطاع وما استطاعت نفوس الناس — من شوائب الكره والبغضاء والحسد .

هكذا كان الجاويش نمرة ٥ على عبد الواحد .. وذلك ما منحته إياه ضلعه المكسورة من سمعة طيبة وترتيب مضمون وقد توطدت علاقته بخصمه الذى تسبب فى كسره الأمباشى صلاح الدين جمال وأصبحا يكوّنان مع صاحبه القديم الجاويش سليمان زكى ثالوثاً متين الرابطة يكاد لا يفترق لحظة واحدة .

وكان سليمان قد أصبح أقل سخطاً وأخف ثورة ، فقد اعتبر ذهاب « الملك » الأرستقراطى المتعالى القريب الذى كان يمثل سلالة خديويى الأتراك

أكثر مما يمثل حكام المصريين .. وتولى الملك شاب يبدو أكثر مصرية وأحسن فهماً لنفوس المصريين وتقديراً لمشاعرهم وإحساساً بأمانيهم وآلامهم .. اعتبر سليمان رحيل ذاك وإقبال هذا ، بالإضافة إلى ائتلاف الأحزاب ، وتوقيع المعاهدة ، أساساً لبداية عهد جديد ، وتأهباً للسير فى الاتجاه الصحيح نحو بناء أمة جديدة .

وفى إحدى الأمسيات وقد جلس « سليمان » و « على » يستذكران فى المكتبه (حيث كانت المذاكرة فى المكتبة إحدى مزايا القسم النهائى) أطبق « سليمان » كتاب الطبوغرافيا وألقاه بعيدا .. ثم أقبل على « على » يضرب ظهره بشدة وكانت تلك إحدى علامات الانسجام الذى يظهرها سليمان وصاح بعلى :

ـــ كيف الحال ؟

ونظر إليه « على » دهشاً وتساءل :

ـــ ما هذا ؟! أجننت ؟! ألم أقل لك مائة مرة أن تكف عن هذه التحية الحيوانية ؟

ـــ أنا سعيد .

ـــ سعيد ؟.. وأنا مالى .

ـــ أنا سعيد بهذه الدفعة الجديدة التى قررت المدرسة أخذها فى يناير .

ـــ طبعاً كلما كثر المستجدون .. زاد استمتاعك بالسلطة .. ستجد مرتعاً للإمارة .. فقد اعتادت الدفعة القديمة على العسكرية .. و لم يعد لنا عندهم هيبتنا الأولى .

ـــ لست أقصد هذه الناحية .. أنت تعرف أنه ليس هناك أتعب من المستجدين .

ـــ إذاً ماذا يسعدك ؟

ـــ يسعدنى أنها ظاهرة تضخم فى الجيش ، وبدايه نمو وترعرع .. تسعدنى كما أسعدنى التخلص من سيطرة الإنجليز على الجيش ورفع قبضتهم عنه .. تسعدنى كما

أسعدنى خروج كبير المعلمين الإنجليزى ، ووضع مصرى محله .. ألم يسعدك هذا ؟

وصمت « على » وأطرق .. وتذكر الرجل الإنجليزى يزوره فى المستشفى ويقدم إليه التمثال ويقول له « إنى أحب الرجال ، وأنت رجل » وقال علىّ :

ـــ إنى لم أكرهه أبداً .. بل أحببته من كل قلبى .. لقد كان معلماً أمثل وكان يعطى لكل حقه .

ـــ أنا أيضاً لم أكرهه لشخصه .. بل أحببته كما أحببته أنت، ولكنى مع ذلك سعدت بخروجه .. فقد زالت بخروجه قبضة من قبضات الإنجليز الممسكة بخناقنا .. يجب ألا ننظر إلى الإنجليز كأفراد .. فهم فى أفرادهم نماذج طيبة فى المعاملة والخلق ، ولكنهم فى مجموعهم نماذج سيئة للاستعمار والأنانية ، وللخلق السياسى السيئ البغيض .. المماطل الكذوب ، المنافق المحتال ، وهم لا يحتلوننا كأفراد بل يحتلوننا كدولة ، وعلى هذا الأساس يجب أن نعاملهم ونحس لهم . إن الرجل قد يكون قدّرك وأُعجب بك ، إعجاباً بفرد ، ولكنى أؤكد لك أنه لا يحترمك أو يحترمنى ونحن ضمن مجموعة المصريين لأنه فى نظرته إلى المجموعة يسيطر عليه التوجيه السياسى الذى يفرض عليه كفرد فى مجموعة مستعمرة مسيطرة .. وعلى هذا يجب ألا ننظر لهم إلا كأعضاء فى تلك المجموعة المسيطرة الجاثمة على أنفاسنا ، ويجب أن نعمل كل جهدنا لنتخلص من قبضتها .. وإنى أعتقد أن نمو الجيش عو خير وسيلة لذلك التخلص ، بل هو الوسيلة الرسمية فى المعاهدة لأنهم يدعون أنهم سيتركوننا عندما يكون جيشنا أهلا للدفاع عن القناة .

ـــ وهل تظن أنهم من البله بحيث يمكنوننا من هذه الزيادة التى تضعف قبضتهم علينا ؟

ـــ إنهم سيمكنوننا من الزيادة لأجل الاستعانة بنا فى حرب مقبلة ، فزيادته تبدو فى صالحهم ، وهذا هو ما يجب أن نستفيد منه . يجب استغلال المصلحة المشتركة بيننا لكى نعزز مصلحتنا .. لأن تلك هى وسيلتنا الوحيدة للاستفادة ،

لأنه إذا تعارضت مصالحنا فنحن الخاسرون لأننا الطرف الأضعف ، وكلما ازددنا قوة ازدادت قدرتنا على اقتناص جزء أكبر من هذه المصلحة .

ـــ أتعتقد أننا نستطيع أن نقاوم الإنجليز بالقوة ؟

ـــ لست أقصد مقاومتهم بالقوة .. بل بالإحساس بالقوة .. إن إحساسنا بها يزيد من قوتنا وينقص من مقاومتهم .. إنى أشعر بالتفاؤل ، ويخيل إلىّ أننا نسير فى الطريق الصواب .. وسنقتطع حقوقنا على مرّ السنين قطعة قطعة .

وحمد « على » الله على تفاؤل سليمان وعلى انتهاء تمرّده وثورته ، حمد الله لمجرد رغبته فى سعادة سليمان واستقراره دون أن يكون له إحساس بالمسألة أكثر من هذا ، فقد كان تفكيره لا يتجاوز أفق نفسه وما يحيط به من مجتمع منظور يرتبط به .. لم يحاول التطلع إلى الأفق البعيد المتسع الذى يتطلع إليه سليمان ، فقد كان يشعر أن هذا ليس من شأنه ، وأن هناك أفراداً مخصوصين من السياسيين ومن دار فى فلكهم مسئولون عن هذا .

كان « على » يعتبر محيطه محدوداً بأفق البيت والمدرسة ، وأن المتحركين فى فلكه لا يتجاوزون أهل بيته وأهل مدرسته ، يخيم على كل هؤلاء مخلوق واحد باسط جناحيه .. ماد سلطانه .. مسيطر على كل آفاقه بحيث لا يتطلع بذهنه أو بنظره إلا ووجده فى مداره .. فكل فكرة مرجعها إليه .. وكل عمل هدفه هو .

كانت « أنجى » منتهى آفاقه ، وقد زادت الأيام من إحساس كل منهما بالآخر ، وتوثيقه به .. إن كان هناك ممزيد من إحساس وتوثيق .

ومنحهما العام الجديد فرصة أكبر للقاء ، فقد سافر علاء إلى إنجلترا فى صحبة الأمير كمال ، وأحست « أنجى » بحرية أكثر .. وزادت فرصة خروج « على » من المدرسة .. بعد أن أضحى فى السنة الثالثة .. وأضحت عقوبات الحبس التى توقع عليه ضئيلة إن لم تكن معدومة .

وبدأ اللقاء فى أول الامر خفياً مختلساً ، ولكن الحب والزمن والتكرار أعطاه صفة الحق والطبيعة ، ولم يعد الاثنان يبذلان نفس الجهد فى إخفائه .. بعد أن تأصل فى نفسيهما الإحساس بأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر ، وأن ميثاق الوفاء

بينهما لن تقدر قوة على الأرض على نقضه .

وأقبل الربيع وانتصف ، وبدت بوادر نهاية العام الدراسى فى الظهور ، سرت إشاعة أن هناك نيه فى أخراج القسم المتوسط فى نهاية العام ، واختلفت الأقوال فى طريقة إخراجه .. فمن قائل إنه سيجرى امتحان قبل الامتحان النهائى يخرج فيه القسم النهائى ، ثم ينتقل القسم المتوسط إلى النهائى ، ويحل طلبة من الإعدادى محلهم . ومن قائل إن القسم النهائى سيتخرج بأقدميته الحالية بلا امتحان . ومن قائل إن القسم سيضم إلى القسم النهائى ويدخل القسمان فى نهاية العام امتحاناً واحداً كدفعة واحدة دون النظر إلى كل ما سبق من امتحانات ودون أن تضم لهم مجموعاتهم كما كان يحدث دائماً فى الامتحان النهائى .

وكانت الشائعة الأخيرة هى أكثر ما يسيء إلى طلبة القسم النهائى .. فقد كانت تحرمهم من كل المجهودات السابقة وتحرمهم من كل كسب حصلوا عليه فى امتحان المتوسط والإعدادى ، وتدخلهم من جديد فى معركة مع طلبة المتوسط .. بينما كانت المعركة بينهم محصورة على بضعة عشر طالباً .. وكان كل منهم يكاد يضمن الاستقرار فى أقدميته عند الخروج .

والتقى « على » بـ « أنجى » ذات مساء فى مكانهما المختار تحت الشجرة الكبيرة ، وأحست « أنجى » ببعض الشرود يتملكه بين آونة وأخرى فسألته :

ـــ ما بك يا على ؟! إن فى ذهنك ما يضايقك !

وأجاب « على » متضاحكا :

ـــ لا يفوتك شيء من ذهنى .. كأنك تقرئين ما به ؟

ـــ كأنى ؟.. إنى فعلاً أقرأ ما به .

ـــ إذاً قولى ماذا به ؟

ـــ أصبت بشيء من الفشل فى المدرسة ؟! خسرت مباراة .. أو أخذت درجة سيئة فى امتحان ؟

ـــ إنه كذلك فعلا .. لقد خسرت فى مباريات الشيش .

ــ أهذا يحزنك ؟ كل إنسان يخسر مرة ويكسب مرة .

ــ ليست هناك مرة بعد هذه المرة .. إنها التصفيات الأخيرة .. وكنت آمل أن آخذ فيها بضع درجات تعاونني فى نهاية العام .. ولكن الحظ خانني .. لقد كسبت فى العام الماضى عشر درجات فى الشيش .

ــ لا تحمل هماً .. ستعوضها فى لعبة أخرى .. ألم تقل لى إنك ضامن ترتيبك لأن المنافسة بينكم تكاد تكون معدومة ، وأن كلا منكم قانع بترتيبه وأن الذى يليك مغرق فى قرض الشعر ؟

وضحك « على » وأجاب :

ــ أجل .. قلت لك هذا .. ولكن أخشى أن يتبدّل الحال .. ونجبر على دخول معركة كبيرة .. فهناك إشاعة بأن القسم المتوسط سينضم إلينا .. ويضيع كل مجهودنا السابق سدى .

ــ وماذا تخشى من ضم الفرقتين ؟! إنك ستخوض امتحاناً كالذى خضته .. وستتفوّق فيه كما تفوّقت فى سابقه .

ــ لا أظن .. لقد تفوّقت فى الأول لأنه كان امتحاناً مفاجئاً خاطفاً .. دخلنا كلنا دون استعداد .. ولكن فرصة الاستعداد لهذا الامتحان طويلة ، وأنا أكره طول الاستعداد .. وبوادر الفشل فى الشيش تجعلنى أخشى أن يكون الحظ قد أدبر .

ــ لا تكن متشائماً هكذا ..هبك تأخرت فى الترتيب بضعة أفراد .. ماذا يضيرك هذا ؟

ــ يضيرنى أن أفقد البعثة إلى إنجلترا .. إنها هى التى عزتنى عن سقوطى فى كشف الطيران .

ــ لقد حمدت الله على سقوطك .. فإنى أكره أن يظل قلبى معلقاً معك بين السماء والأرض ، وكذلك أكره أن تذهب إلى هذه البعثة .

ــ إنى أريدها من أجلك .. أريدها حتى أعود إليك إنساناً مثقفاً له قيمته بين

الضباط ، وفى المجتمع . لا أريد أن أتهم ــ كبقية الضباط ــ بالجهل .

ــ أنا أريدك كما أنت .. أريدك فقط .. ولا أريد التخلى عنك لأى سبب من الأسباب .. أتفهم ؟

ــ أجل أفهم .. ! ومن أجل ذلك ، أريد أن أكون أهلا لك .. أنت تريدينني كما أنا ، ولذلك تجعلين « لأنا » قيمة ، وتجعلينني أريد أن أجعل من « أنا » هذا .. شيئاً يليق بك ويستحق حبك وتقديرك .. ومن أجلك أدفع « أنا » إلى المكافحة والنضال .. ليكون أفضل وأكمل .. أعرفت لماذا أحرص على ترقيتى وأخشى على أقدميتى ؟

وأخذت « أنجى » تنقر بأطراف أصابعها الرقيقة على ساقه وقالت ضاحكة :

ــ دعنا الآن من حديث المدرسة .. ما رأيك لو ركبنا سوياً فى الأسبوع القادم .. إنى سأكون فى عطلة يوم الجمعة وسآمرهم أن يعدوا لنا جوادين ، وسأنتظرك عند الشروق وراء السوبة ، لنخرج من الباب الخلفى إلى المزارع ؟

ــ وأبوك ؟ هبى أنه ..

ــ لن يكون موجوداً .. سيسافر إلى الإسكندرية طوال هذا الأسبوع لاستقبال علاء عند عودته .. إنها فرصة طيبة لكى نركب سوياً . إنى أتوق إلى الركوب بجوارك .

وعاد « على » إلى المدرسة ، وقد بددت « أنجى » بحديثها ضيقه وأزالت همه ، ونجحت فى إزالة ما سببته هزيمة الشيش فى نفسه من تشاؤم ويأس .

وبدأ ضرب النار فى ذلك الأسبوع وألغيت من أجله الطوابير والدروس ، واستيقظ الطلبة يوم السبت قبل نوبة صحيان .. واصطفوا فى أرض الطابور يحملون بنادقهم معلقة على أكتافهم .. وقد ارتدوا البل والزمازم ووضعوا شطائر الحلاوة الطحينية والجبن الأبيض داخل « شنطة » الجراية .

وتحرك « على » مع الطابور .. وقد غطت المظلة الكاكية جبينه وتدلت على ظهره .. وسار أمام الطابور يقرع الأرض بقدميه فى ثبات وشدة .. وقد أمسك

بيسراه قايش البندقية وعلق صفارته فى زرار قميصه الكاكى الذى تدلى خارج البنطلون .

وقضى اليومين الأولين فى تجربة البنادق والتمارين غير المحتسبة .. وفى اليوم الثالث بدأ الضرب المحتسب الذى تتوقف عليه درجة ضرب النار العملى التى ستضم إلى مجموع الامتحان النهائى .

ويبدو أن سوء الحظ الذى أمسك بخناق « على » فى مبارزات الشيش .. أبى أن يفلته فى ميدان ضرب النار .. بدأ الضرب بتمرين بطىء على مسافة المائتى ياردة .. ورقد « على » فوق التبة .. وبدت التخت فوق الدروة واضحة جلية وأمر المعلم بالتعمير ثم أمر بالضرب .

وأغمض « على » عينيه اليسرى وحاذى الدبانة وسط شيز الناشنكاه وثبت البندقية على كتفه .. وكتم أنفاسه مراعياً كل قواعد التنشين والضرب .. ثم ضغط الضغطة الأولى .. وأخذ يعتصر الثانية .. وخرجت الطلقة رادة البندقية فى كتفه .. ودفع الترباس معمراً الطلقة الثانية .. ثم خفض البندقية .. وثبت عينيه على التخته منتظراً نتيجة الضرب .. وهبطت التخت الأربع ورفع المؤشر على ثلاث مشيراً إشارات مختلفة بين السوادة والمجباى والخارج ، وبقيت تختة وأحدة لم يؤشر عليها .. هى تختته . فصاح ضابط الضرب آمراً عامل التليفون الجالس على الجهاز الموصل بالدورة :

— قل لنمرة ٣ دوّر وأشر .

وردد العامل قوله .. وبعد لحظة ظهر العلم الأحمر يعلو ويخفض علامة الصفر .

وبهت « على » وأحس بضيق شديد .. وتلقى طابور الضاربين الأمر بضرب

الطلقة الثانية .. وضغط على التتك وخرجت الطلقة .. وبعد لحظة ظهر العلم الأحمر مرة ثانية .. وتكرر الأمر فى المرة الثالثة .. واضطراب « على » يزداد وضيقه يشتد .. وعندما هم بإطلاق الرابعة سمع رنين التليفون وصاح العامل مبلغاً إشارة ضابط الدروة :

ـ حضرة الضابط يقول الظاهر إن نمرة ٣ يضرب على التختة نمرة ٢ لأنه وجد فيها طلقتان و لم يجد فى نمرة ٣ ولا طلقة .

واكتشف « على » الأمر بعد أن ضاعت منه إصابات ثلاثة ، فقد كانت التختتان متقاربتين .. وكان لا يكاد يبدأ التنشين حتى يوجه بندقيته إلى نمرة ٢ بدلا من نمرة ٣ ، وتوترت أعصابه ، وأحس بالبندقية تهتز فى يده وهو يضرب الطلقتين الباقيتين من التمرين .. وكانت النتيجة أن ضاع عليه التمرين بأكمله .

وتملكه التشاؤم ، وملأه الاضطراب .. ولم تستطع أعصابه التى خانته فى التمرين البطىء أن تسنده فى الخاطف والسريع .. وهكذا انتهى الضرب بتقصير « على » فيه .. وفقده لدرجته .

وأحس « على » بقسوة اللطمة الثانية التى وجهها إليه ، الحظ أو التقصير . لا يدرى . وحاول أن يستعين بأقوال « أنجى » على طرد اليأس وتبديد الحزن والضيق .. وفى يوم الخميس أعد بنطلون الركوب فى حقيبته ، وحاول أن يتناسى نتيجة ضرب النار بتصوّره كيف سيركب فى شروق الغد بجوار « أنجى » وكيف سيعبران بجواديهما المزارع والمروج .. إن هذا حلم قديم يوشك أن يتحقق .

وقبل أن يغادر المدرسة ليحقق حلمه ، وجه إليه القدر لطمته الثالثة ، ووقف أركانحرب المدرسة فى طابور الفسحة ليعلن الطلبة أن طلبة القسم المتوسط قد تقرر ضمهم بدون امتحان إلى طلبة القسم النهائى ، وأن الكل سيعطون برنامجاً

مقتضباً ، وسيؤدون فيه امتحاناً واحداً يتوقف عليه نتيجة تخرجهم .

ولم يكن النبأ جديداً على مسامع « على » فقد تناقلته الألسن كإشاعة منذ مدة طويلة ، وقد حاول أن يوطن نفسه من قبل على قبوله ، ومع ذلك لم يكد يسمعه حتى أحس أن معركة الامتحان ستكون قاسية ، وشعر أن الأقدمية التى احتفظ بها خلال العامين توشك أن تفلت منه بعد كل ما بدا من بوادر سوء الحظ .

وحمل « على » الحقيبة متجهاً إلى داره ، محاولا جهده أن يلقى عن كاهله ما أثقله خلال الأسبوع ، وأن يفرغ ذهنه وقلبه من أحزانهما حتى يصفو لـ « أنجى » وحتى لا يثقل عليها بهمومه ومضايقاته .

أجل ! يجب أن يتمتع وإياها بالنزهة المنشوده مهما حدث .

وعاد إلى الدار ، ولم يجد هناك سوى أمه وبهية ، وتلقفته الأم مرحبة مهللة ، وتناولت بهية الحقيبة من يده متسائلة :

ـــ أبها شىء تود غسله ؟

وكانت قد تعوّدت دائماً أن تغسل ملابس حسين الذى يحضرها فى حقيبته ، ولكن « على » أجاب :

ـــ لا .. ليس بها سوى بنطلون ركوب .

وتساءلت الأم :

ـــ وماذا ستفعل به ؟

ـــ لقد أحضرته لأنى أنوى الركوب .

ـــ ركوب !! ألا يكفيك ركوب المدرسة ؟

ـــ هذا ركوب سهل ، سأتنزة قليلا فى الصباح مع « أنجى » .

ومصمصت الأم بشفتيها كأنما لم يعجبها الحال ولكنها لم تعلق على قوله

وحوّلت دفة الحديث إلى ناحية أخرى قائلة :

ـــ أأعد لك الغداء ؟

ـــ الا ننتظر حتى يحضر أبى ؟

ـــ أبوك لن يحضر ، لأنه مشغول فى السوبة لأن الأمير سيمر عليها فى العصر .

ـــ ولكن الأمير قد سافر طوال الأسبوع !

ـــ لقد عاد مع ابنه ، بعد أن استقبله فى الأسكندرية عند عودته من سفرة .

ـــ وأحس « على » كأن كابوساً ثقيلا أطبق على أنفاسه ، وبدا له أن سوء الحظ قد أقسم ألا يفارقه .

---

(٢٨)

جواد جامح

فى ذلك الوقت الذى أحس « على » بخيبة أمله بعودة الأمير وابنه ، كان « علاء » يتفقد الإصطبلات سائلا عن جواده . ووجد « عبد الحميد السايس » منهمكا فى تنظيف سرج « أنجى » وإعداد سرج آخر بجواره ، فسأله فى دهشة :

ــ ما هذا ؟ .. من أمرك بإعداد السرج ؟

ورفع السائس رأسه وهو يضع زخم الركابات فى السرج :

ــ سمو الأميرة .

ــ أقصد السرج الآخر ؟

ــ هى أيضاً .. لقد أمرتنى بإعداد السرجين وشدّهما على جوادين جوادها ميمى والجواد عنتر .

ــ عجباً !! إنها لم تخبرنى .. أتنوى ركوب الجوادين وحدها !

ــ أظنها ستركب مع على بك .

ــ على بك .. على بك من ؟

ــ على بك الضابط .

ــ الضابط ؟ .. لا أذكر أننا نعرف ضابطاً باسم على بك .

ــ على بك ابن الريس عبد الواحد .

ــ بك ؟! أوَ قد أضحى ابن الجنانيى « بك » ؟

وبصق على الأرض فى ازدراء ، ثم أردف يقول مستنكراً :

ــ إذاً فأنت تعد له هذا السرج ليركب عليه .. وستشد له جوداً يمتطيه .. ولكن أيعرف كيف يركب الجياد ؟

وكان « عبد الحميد » كغيره من العمال والفلاحين يحبون علياً إذ كانوا يحسون أن حلة الضابط لم تغير من شعوره نحوهم ومعاملته لهم .. فقد كان هو هو .. اللطيف الطيب المتواضع الذى يشعرهم جميعاً أنه ابنهم أو أخوهم .

وكره « عبد الحميد » هذا الازدراء والاستنكار من علاء وودّ لو يترك السرج من يده ليناوله صفعة يفرج بها عن غيظه من كبريائه .. ولكن « أكل العيش » والحرص على الرزق جعله يكتفى بالتصوّر دون التنفيذ وقال مجيباً على سؤاله وهو محنى الرأس منهمك فى إعداد السرج :

ـــ أظنهم يتعلمون الركوب فى المدرسة .

ـــ ليس ما يتعلمونه ركوباً .. إنما هو شغل عربجية وسياس .

ـــ إن الضباط معروفون بأنهم أقدر الناس فى الركوب ، وسمو الأمير والدك من خير الفرسان لأنه كانه ضابطاً .

ـــ كلام فارغ .. أنا أركب خيراً من سمو الأمير .. دون أن أكون ضابطاً .. أنت حمار لا تفهم فى الركوب .. فك هذا السرج ، فلن أدع ابن البستانى الوضيع يمتطى صهوة جيادنا الكريمة .

ورفع « عبد الحميد » رأسه وضغط على نواجذه حتى بدت عظام صدغيه وجانبا جبينه تتحرك فى غيظ مكبوت وقال فى إصرار :

ـــ لقد أمرتنى السيدة الصغيرة بشدّه .

ـــ قلت لك .. فكه .

ـــ إنى لا أستطيع أن أعصى أمرها .

وصمت «علاء » برهة وبدت عليه سيماء التفكير وهو ينظر إلى السائس العنيد فى غيظ ، وأخيراً قال متسائلا :

ـــ قلت لى أى جواد ستشدّه له ؟

ـــ عنتر .

ـــ كيف يركب « عنتر » ؟ .. لا .. لا تشدّه له .. إذا كان ولا بد من أن

يركب فلتشد له « برق » .. الجواد الأزرق الجديد .

وكان « عبد الحميد » يعرف قصده من هذا الطلب .. فالجواد « برق » لا يمتطى من فرط شقاوته .. وحمد الله أن الجواد مصاب بالعرج ، وأنه بذلك وفَّر عليه مشقة الجدال مع الفتى السيء الشرير القصد . فقال :

ـــ الجواد برق .. أصيب بالعرج .

وبدا الضيق على وجه « علاء » ، وتمتم فى غيظ :

ـــ أصيب بالعرج ؟! .. لِمَ ؟

ـــ لقد انطلق من الإسطبل واصطدم بالبوابة .

وساد الصمت برهة و « علاء » يهز ركبته فى عصبية ظاهرة وأخيراً قال كمن نوى أمراً :

ـــ اسمع .. أعد لى حصانى .. سأركب أنا أيضاً .

وقبيل الشروق استيقظ الثلاثة : أنجى ، وعلاء ، وعلى .. ولم تكن « أنجى » قد وجدت فرصة للقاء « على » حتى تنذره بعودة أبيها وأخيها . ولذلك لم تجد بدأ من الوفاء بوعدها وانتظاره بالجوادين حيث تواعدا على اللقاء .. وكانت تعتقد أن من السهل الخروج بالجوادين فى هذا الوقت المبكر دون أن يكتشف أمرهما ، وكانت تستطيع أن تعتمد على السايس « عبد الحميد » فى كتمان الأمر .

وحتى لو اكتشف الأمر .. فإنها تستطيع أن تحتمل بضع كلمات تأنيب وبضع ساعات غضب .. فى سبيل الخروج مع « على » .. وفى سبيل الوفاء بوعدها له .

وذهبت إلى الإسطبل فوجدت « عبد الحميد » ينتظر بالجوادين ووجدت جواداً آخر ينتظر فى الطرقة بين الإسطبلات وقد شدّ عليه أحد السروج فتساءلت فى دهشة :

ـــ لمَن هذا ؟

ـــ لسيدى علاء .

— أقد أمرك بشدّه ؟

— أجل .

— من تلقاء نفسه !! أم عرف أنى سأركب ؟

— بل عرف أنك ستركبين .. لقد أبصرنى أعد السرجين .. فسألنى عن أمرهما فقلت له : أحدهما لك .. فقال : والآخر . فقلت : أظنه لعلى بك .

وبدت على « أنجى » سيماء القلق والضيق وتمتمت قائلة :

— لم قلت له هذا ؟

وأطرق عبد الحميد وبدا عليه أسف شديد وأجاب :

— أنا متأسف جداً .. لم أكن أظن أن هذا يسوؤك .

وأعادت « أنجى » الابتسامه إلى شفتيها وقالت متضاحكة :

— لا داعى للأسف .. حصل خير .. هات الجواد .

واقترب بجوادها الأشقر ذى العنق والرأس الصغير .. والمعرفة الذهبية المتهدلة ، والجسد الملفوف .. وركع على إحدى ركبتيه وشبك أصابع كفيه معداً منها درجة كدرجات السلم ، ورفعت « أنجى » قدمها فركزت بها على كفه ووثبت بالساق الأخرى فاستقرت على ظهر الحصان وربتت عنقه فى رفق ومنحته بضعة ألفاظ تدليل ثم قالت لعبد الحميد :

— هات الجواد الآخر واتبعنى .

وقبل أن يسحب عبد الحميد الحصان صاح بسائس آخر .

— خذ بالك من عنتر حتى يأتى أفندينا الصغير .. وإذا سأل علىّ قل له إنى ذهبت مع سمو الأميرة .

ووصلا إلى السوبة فوجدا علياً يسير متمهلا وقد ارتدى بنطلون الركوب الكستور ، وقميصاً أبيض ولف القالشين على ساقه لفة سوارى معكوسة محكمة ، وبدا رأسه عارياً وقد نما شعره فى مقدمة رأسه فاستطاع أن يفرقه فرقاً يكاد يبين .. وبدا فى جبينه خط يفصل بياض الجبين عن سمرة الوجه أحدثه طول

ارتدائه للطربوش فى شمس الطوابير .

وأقبل « على » يحيى « أنجى » فى لهفة وشوق .. وسلم على عبد الحميد سلام صديق .. وحاول عبد الحميد أن يساعده على امتطاء الجواد بالارتكاز على ركبتيه — كما تعوّد أن يفعل مع سادته — ولكن « على » تناول منه الأسراع وقال مازحاً :

— لا تفسدنى يا عبد الحميد .. لم يعوّدنا معلم السوارى أن يساعدنا على الركوب أحد .. لقد علمنا أن نركب وحدنا .. هكذا .

وقصر « على » الأسراع ورمى بالزيادة إلى الناحية الأخرى من عنق الحصان كما تعلم .. ثم وضع قدمه اليسرى فى الركاب وقفز بالأخرى فاستقر على ظهر الحصان واضعاً قدمه فى الركاب الآخر .

وبدا « على » فوق الحصان منبسط الكتفين .. بارز الصدر .. مرفوع الهامة .. جالساً فوق جواده فى اعتداد وثقة ويسر . وقال لأنجى :

— هيا بنا .

ونظر إليه « عبد الحميد » وهو يسير بجوار « أنجى » وهز رأسه ، وتمتم فى إعجاب :

— ابن الجناينى !! والله خير منك يا ابن الأمير .. يا أصفر الوجه .. يا هزيل الجسد .

واتجه الراكبان إلى الباب الخلفى . وقال « على » وهو يرمق « أنجى » فى إعجاب :

— كنت أخشى ألا تتمكنى من الحضور فقد علمت بنبأ عودة أفندينا وعلاء .

— من أنبأك ؟

— والدتى ووالدى .

— لم أشأ أن أحنث بوعدى .. وأحسست بنفسى لهفة إلى رؤيتك والخروج معك ووجدت المتعة تستحق المغامرة فأقدمت عليها .. آملة أن نستطيع الخروج

والعودة فى هذا الوقت المبكر دون أن يرانا أحداً .. وإن كان أملى قد خاب لأن «علاء » قد عرف أننا سنركب وطلب أن يعدّوا له هو الآخر جواداً .

وبدت الدهشة والقلق على وجه « على » وتساءل وهما يعبران البوابه :

— ومتى ؟

— لقد رأيت الجواد معداً له الآن ، وإن كنت أعتقد أنه لم يستيقظ بعد .

ولم تكد تنتهى من قولها حتى سمعا وقع حوافر تقترب ثم بدا علاء يندفع بجواده نحوهما ، وتوقف « على » وتمهلت « أنجى » حتى بلغهما صائحاً فى لهجته الساخرة :

— يبدو أنكما على عجل .. لماذا لم تتكرما بانتظارى ؟

ثم وجه القول إلى على :

— كيف حالك ياحضرة الضابط !! لماذا لم ترتد البدلة ذات الشريط الأحمر ؟ ما هذا الذى تلفه على ساقك ؟

ثم أطلق قهقهة عالية

وحاول « على » أن يسيطر على أعصابه وألا يدع الغضب يستبد به فقال فى هدوء :

— صباح الخير .

واستمر « علاء » فى قهقهته وتضاعد الدم إلى وجه « أنجى » وصاحت غاضبة :

— الرجال المهذبون يردون التحية .. إنه يقول لك صباح الخير .

وأجاب علاء فى لهجته الساخرة :

— طبعاً .. ومن أدرى منك بما يفعله الرجال المهذبون .. ما دمت فى رفقتهم ؟

وعاد يلقى على « على » وحصانه نظرات فاحصة ثم بدا عليه فجأة كأنما اكتشف أمراً خطيراً .. وقفز من فوق جواده واقترب من جواد « على » وهو

يقول « مطقطقاً » بفمه فى أسف :

ـــ ما هذا ؟! إن الشريحة تكاد تقطع بطن الحصان .. لقد حذّرت هذا الحيوان عبد الحميد دائماً من هذا . كان يجب عليك أن ترقب ذلك بنفسك .

وفى خلال حديثه كانت يده تعمل فى فك الشريحة (التى تشد السرج ببطن الحصان) .. ثم انتقل إلى رأس الحصان دون أن يترك لعلى فرصة الاعتراض ، وأردف فى لهجته السريعة وهو يمسك باللجام .

ـــ واللجام أيضاً .. إنه يكاد يمزق فمه .. لا بد أن أؤدب هذا الغبى .

ثم فك العروة التى تشد الأسراع فى اللجام .

وقبل أن يلحظ أحد ما فعل .. تراجع عن الحصان .. ثم قال وهو يرفع يده بالسوط :

ـــ أظنك تعلمت الركوب جيداً .. وتعرف كيف تمسك بنفسك . هيا أرنا .

ثم هوى بالسوط فجأة على مؤخرة الحصان .. فانطلق الحصان مرتاعاً من الضربة المفاجئة ومرق من البوابة ثم انحرف فى الطريق المجاور للترعة .

وكانت العملية التى قام بها علاء سريعة ومفاجئة وغير متوقعة ، ووقف ينظر إلى الحصان المنطلق براكبه وإلى أخته المشدوهة الصارخة فى فزع ، وانطلقت من صدره عاصفة من القهقهة وهو يشير بإصبعه إلى « على » ويكرر صائحاً :

ـــ أرنا شطارتك .. يا حضرة الضابط .. إن الركوب ليس لأبناء الجناينية حتى ولو أضحوا ضباطاً .

وأفاقت « أنجى » من ذهول المفاجأة .. واندفعت بجوادها وراء الجواد الجامح .. ومضت لحظة بعلى أفقدته فيها روعة المفاجأة السيطرة على نفسه وعلى أعصابه .. وتملكه نوع من الذعر أضاع كل ثقته بنفسه وأنساه كل ما تعلمه من الركوب وأحس بنفسه على ظهر الجواد كريشة فى مهب الريح .

وانتهت صدمة المفاجأة وبدأ « على » يتمالك نفسه ويسيطر على أعصابه

وأحس بالجواد يندفع اندفاع مجنون ، والريح تنفذ إلى خياشيمه فتزيده اندفاعاً .. وأخذت أوراق الشجر المدلاة على الطريق تصدم وجه « على » وعدل جلسته على السرج وثبت نفسه فوقه وأخذ يلم الأسراع المدلاة على عنق الحصان .

وكان يعلم أن خير طريقة لإيقاف الجواد الجامح هو أن يدور به فى دائرة تضيق رويداً حتى يقف .. وأن يجذب اللجام جذباً خفيفاً متقطعاً ويلعب به فى فمه وألا يشده بعنف مستمر حتى لا يزيد فى اندفاعه .. ولم يكن عمل الدائرة بالشيء المستطاع .. فقد كان السور على يمينه والترعة على يساره .. ولم تكن هناك وسيلة سوى أن يحاول جذب الأسراع جذباً متقطعاً المرة بعد المرة .

وجذب الأسراع الجذبة الأولى .. والأخيرة .. إذ لم يكد يجذبها حتى سحب طرفها من اللجام بعد أن فكها علاء .. ووجد « على » الأسراع قد شدّت فى يده بعد أن فقدت صلتها بفم الحصان ، وفقد هو بذلك كل سيطرة له عليه وأضحى الحصان فى انطلاقه حراً من كل سيطرة وقيد .

وتسرّب الخوف إلى نفس « على » .. وزاد إحساسه بالخطورة ترجرج السرج أسفله وعدم استقراره تحت ضغط ركبتيه .

واستمر الحصان فى الانطلاق ، و « على » يكاد يوازن نفسه بين اللجام المخلوع والسرج المفكوك ، حتى وصل الحصان بمحاذاة الكوبرى وبدت فى مواجهته عربة تحمل كوماً من الخضروات فانحرف فجأة إلى الكوبرى . وحاول « على » أن يطبق بركبته بكل ما استطاع من قوة ، ولكن انحراف الحصان المفاجيء قذف به على الأرض والسرج بين ركبتيه والأسراع فى يده .

ولم تصب الوقعة « على » بسوء .. بل استطاع النهوض قبل أن تصل إليه « أنجى » وتهبط إلى جواره وقد تلاحقت أنفاسها وشحب وجهها .

وحاول هو أن يسرى عنها .. فرسم على شفتيه ابتسامة باهتة ، وقال وهو يجاهد فى التقاط أنفاسه :

ـــ أنا متأسف جداً .. لأنى سببت لك هذا الإزعاج .. إنى سأحاول أن آتى

بالحصان وأذهب به إلى الإسطبل .

وأجابت وهى تتفحصه فى لهفة :

ـــ دعك من الحصان .. ألم يصبك أنت شيء ؟

ـــ لا .. لا .. لا شيء أبداً .

ـــ لقد كدت أجن وأنا أعدو وراءك . لست أدرى كيف أقدم هذا المجنون على فعلته هذه .. أنا آسفة جداً .

ـــ ليس هناك داع للأسف .. لقد كنت أستطيع أن أوقف الحصان لولا أن اللجام قد فك من فمه .. وفقدت سيطرتى عليه .. إنى أحس بالخجل لسقطتى هذه .. ولكن الانحراف كان مفاجئاً ، والسرج كان مفكوكا .

ـــ لِمَ تخجل .. وقد وقعت باللجام والسرج ؟! إنك فعلت أقصى ما يفعله راكب .. إن السبب هو هذا الجنون الذى ارتكبه أخى .. الحمد لله أنه لم يصبك سوء .

ـــ المهم الآن هو إحضار الحصان .

ـــ لا .. لا .. أظن أن من الخير أن نعود سريعاً قبل أن يتكأكأ حولنا الناس ، وسيتكفل عبد الحميد بإحضار الحصان .

وعاد الاثنان إلى الإسطبل ، وسارت « أنجى » بجوار حصانها وحمل على .. بقايا حصانه من سرج ولجام ، وقد حاول جهده أن يكبت آلام الوقعة ، واستقبلهما عبد الحميد فى دهشة ، فأمرته « أنجى » بأن يتسلم السرج واللجام ثم يذهب لإحضار الحصان الشارد .

وافترق الاثنان وشدت « أنجى » على يده وودعته بنظرة ملؤها الأسف والاعتذار قائلة :

ـــ الحمد لله على سلامتك ، سنحاول الركوب فى فرصة أخرى .. سأنتظرك فى الخميس القادم .

وعاد « على » إلى البيت وملء نفسه الخيبة والخذلان والضيق واليأس ، ولم

يكن يعرف بعد ما أصاب الحصان ، ولكن يأسه كان مبعثه الإحساس المفرط بسوء الحظ الذى يأخذ بخناقه ويمسك بتلابيبه والخشية مما يمكن أن يخلفه الحادث من عواقب ، والخجل من نفسه لتلك السقطة التى سقطها أمامها ، والشعور بالهزيمة أمام أخيها الذى استطاع للمرة الثانية أن يغلبه على أمره .

وآوى إلى حجرته ، وأبدل ملابسه فى صمت ، وأخذ فى إعداد حقيبته للعودة إلى المدرسة وهو يحس أنه لم يعد هناك ما يستوجب بقاءه .. وأن من الخير أن يستفيد ببضع ساعات يستذكرها فى المدرسة .

وكان يشعر وهو يعد الحقيبة بالقلق على الحصان الشارد المنطلق .. ويدعو الله أن يتمكن عبد الحميد من إعادته سليما حتى لا تتصل أنباء الحادثة إلى الأمير فتؤيد ما يمكن أن يدلى به « علاء » من وشايات وتهم .

ولكن الحصان المنطلق لم يكن فى حاجة إلى أن يعيده أحد .. فقد اندفع فى عدوه كأن به مساً من جنون منحرفاً بعد عبوره الكوبرى إلى الجانب الآخر من الطريق ، وظل يعدو فى ذعر شديد حتى ظهرت فى منعطف الطريق فجأة إحدى سيارات اللورى المقبلة من الاتجاه الآخر ، وفوجىء السائق بالحصان يندفع أمامه ، فلم يستطع أن يوقف العربة أو ينحرف بها عن طريق الحصان فضربه ضربة ألقته نافقاً فى ساعته .

وكان علاء أول من اكتشف الحادثة .. فقد وقف يرقب الحصان بعد أن ضربه بكرباجه ، وأبصر من بعيد وقوع « على » وعودته حاملا السرج ، وأطلق ضحكة شامتة حمقاء ثم انطلق فى أثر الحصان .

وأبصر علاء مصرع الحصان ، ورغم أن منظر الحادث المفاجىء أذهله وروعه إلا أن ميله الخبيث إلى الأذى إلى رؤية الدماء المسفوكة ، وتوقعه لما يمكن أن يحدثه مصرع الحصان من عواقب وخيمة على « أنجى » وابن البستانى قد دفع فى نفسه إحساساً بالنشوة .

وفى عودته أبصر « عبد الحميد » مقبلا على ظهر أحد الجياد باحثاً عن الحصان

المارب .

ونظر إليه علاء وقال فى سخرية :

— على مهلك يا عبد الحميد .. مالك مستعجل هكذا ؟!

— إن أحد الخيل قد انطلق .. وأريد استرجاعه .

— لا داعى للتعجل .. فهو ينتظرك فى منعطف الطريق .

— أرأيته واقفاً هناك ؟

— بل رأيته راقداً .. البقية فى حياتك .. لقد صدمه لورى أرداه قتيلا .. عسى أن يعجبك .. ويعجب « أنجى » هانم ، حتى تستمر فى إهداء الخيل إلى أبناء الجنايني . هيا .. إن جثته ملقاة هناك على قارعة الطريق . اذهب واستمتع برؤيتها ، وسأتكفل أنا بإبلاغ النبأ السار إلى إلى .. إن شاء الله سيخرب بيتك وبيته حتى لا تعودا مرة ثانية إلى التسلية بخيله .

و لم يكد ينتهى من قوله حتى لكز حصانه عائداً إلى القصر ، وترك حصانه فى الإسطبل ، وذهب لكى يسرّ إلى أبيه بالخبر .

ووجد أباه يغتسل فى الحمام ، وكان يعرف مدى حرصه على الخيل .. وجزعه من أن يصاب أحدها بأبسط الإصابات . فلم يمهله حتى يعود إلى حجرته .. بل ذهب إلى الحمام وقال له بسهولة كأنه يلقى إليه تحية الصباح :

— لقد مات عنتر .

وأضاع صوت اندفاع المياه من الصنبور وانهماكه فى الاغتسال ، صوت علاء فلم يبلغ مسامعه . وعاد علاء يكرر بصوت أعلى :

— أقول إن عنتر قد مات .

والتفت الأب مذهولا وكف من الاغتسال ورفع حاجبيه وفغر فاه فى دهشة وصاح بابنه :

— من الذى مات :

— عنتر .. الحصان عنتر .

ـ وكيف ؟

وكانت « أنجى » فى حجرتها قد أخذت تبدل ملابسها فوصلت إلى أذنيها صيحة الأب متسائلا عن عنتر ، وأرهفت السمع فى خشية وقلق ، وسمعت صوت أخيها يجيب :

ـ لقد صدمه أحد اللوريات وهو يعدو فى الطريق .

ـ ومن الذى أطلقه من الإسطبل ؟! وأين كان السائس ؟

ـ إن السائس هو الذى أخرجه بعد أن أعده للركوب .

ـ ركوب من ؟

ـ « على بك » ..

وانفجر الأمير وهو يجد علاء يجيبه ببرود إجاباته القصيرة المتقطعة ، وصاح به :

ـ على بك من ؟

ـ على بك الضابط .. ابن الجناينى .. صديق « أنجى هانم » .. إنها هى التى أمرت بإعداد الحصان له ، وهى التى اصطحبته معها .

وأحست «أنجى » كأن عود ثقاب ألقى على صفيحة بترول ، أو كأن عاصفة قد هبت فجأة فلم تبق و لم تذر .

وبعد لحظة كانت تقف أمام أبيها وهو يهدر صائحاً بكلمات ثائرة غير مفهومة ، وأخيراً أمكنها أن تفهم من قوله :

ـ ابنتى أنا تركب مع ابن الجناينى !! كان يجب أن أحطم رأسك قبل أن تفعلى هذا .. ولكنى سأعلمك كيف تتصرفين كابنة أمير ، لا كابنة رعاع .. وسأعرف كيف أؤدبهم ، وأريهم أن هذا الحصان الذى قتل بعشرة منهم .. أجل .. سأقتل هذا الحيوان الذى تسبب فى قتله هو وأباه وكل عائلته .

وأرسل الأمير الثائر فى طلب عبد الواحد وهو مستمر فى ثورته وهياجه ، وانسحبت « أنجى » إلى حجرتها وانكفأت على فراشها تنتحب مرتجفة وهى

تشعر أن سداً منيعا يوشك أن يقام بينها وبين « على » .

وكان « على » قد أتم إعداد حقيبته ، ودهشت أمه عندما رأته يستعد للعودة إلى المدرسة . وأسرعت تعد له الإفطار ، وألحت عليه أن يجلس ليتناوله .

وازدرد « على » بضع لقمات حتى يطمئن أمه ويقنعها أنه لم يخرج على « لحم بطنه » ، ثم تناول حقيبته وهم بالخروج ، وقد عزم أن يطمئن على عودة الحصان قبل أن يرحل إلى المدرسة .. ولكنه لم يكد يجتاز الباب حتى فوجىء بأبيه مقبلا عليه مطأطىء الرأس ، شارد الذهن ، وقد بدا عليه وجوم شديد ، وبهت « على » من منظره ، وسأله وهو يحس برجفة فى جسده :

— ما بك يا أبى ؟

ورفع الأب رأسه ونظر إلى ابنه نظرة حزينة يائسة ثم أطلق من صدره زفرة حارة وأجاب :

— لقد فُصِلْت .

وعاد « على » يسأل فى صوت لا يكاد يسمع :

— ولِمَ ؟

وفى لهجة عاتبة أجاب الأب :

— لأجل الحصان الذى قتلته .. كنت أظنك أعقل من هذا .. ولكن مشاعرك قد أطاشت صوابك ، وعلقتك بمن لا يمكن أن يحسوا لك بغير الاحتقار .. أرجوك يا على .. اسحق هذا الشعور الأحمق اليائس الذى يدفع بك إلى التهلكة .. ليس من أجل نفسى .. بل من أجل مستقبلك الذى أرقت فى سبيله ماء وجهى .

---

(٢٩)

لا يلتقيان

مرت بعلى بعد ذلك فترة من أسوا فترات حياته .. تعاونت عليه خلالها كل مسببات الشقاء وبواعث الحزن والفشل واليأس ، بلا قبس من عزاء ولا بارقة من أمل .

وفرض على نفسه الحبس فى المدرسة بعد آن وجد فيها مفراً من الزوبعة التى خلفها وراءه فى البلدة ، بعد أن اعتقد أن لقاء « أنجى » أضحى أمراً مستحيلا .

وانطوى فى غمرة حزنه محاولا التعلل بالاستذكار وهو يحملق فى الأوراق أمامه دون أن يعى منها شيئاً ، وأسطر التاريخ تتراقص أمامه محاولة أن تجتذب ذهنه ليتتبع معركة بئر السبع وهجوم أللنبى فى غزة ومطاردة الأتراك وعبور نهر العوجة . ولكن ذهنه كان شارداً فى أشياء لا صلة لها ألبتة بأللنبى أو المطاردة أو غير ذلك من دروس التكتيك والطبوغرافيا .

وبدأت الامتحانات العملية ، وبدأت معها مظاهر الفشل وسوء الحظ ، وكان للوهم أثر كبير فى نفوس الممتحنين عندما يضعون الدرجــات فى الامتحانات العملية . فقد كانوا يحكمون على الطالب بأقدميته ومظهره وسمعته « وفهلوته » أكثر مما يحكمون عليه بنتائجه العملية الواقعية التى يبديها فى الامتحان إذ كانت أذهانهم تكاد تعد للدرجة بمجرد منول الطالب أمامهم وقبل أن يؤدى شيئاً منها .

وأعجب ما فى الأمر أن أول الفرقة المتوسطة (التى ضمت إلى الفرقة النهائية والذى كان ترتيبه فيها الحادى عشر فى أول امتحان فلم يستطع أن يقفز مع العشر الأوائل) بدا للمعلمين عندما ضمت الفرقتان كأنه أول فرقة ، وبدأ يحتل فى

أذهانهم مركز الأول ، فأخذ تقديرهم له يزداد ودرجاتهم تتضخم لمجرد إحساسهم أن هذا أول فرقته . وفى الوقت نفسه نفذت إلى رءوسهم سلسلة التقصيرات التى منى بها « على » فى مختلف الامتحانات والمباريات التى بدأ بها موسم الامتحانات فهبط تقديرهم له ، ولم تعد أذهانهم معدّة لوضعه فى مرتبة عالية لا تبصر العين إلا حسناتها ومزاياها .. وهبط مستوى الدرجات الذى يضعونه فيه إلى المرتبة الثانية حتى قبل أن يبدأ الامتحان .

وهكذا أخذت روحه المعنوية فى الهبوط كلما تعاقب عليه الفشل .. وزاد من انحطاط معنويته طول انطوائه فى المدرسة وانقطاع كل سبل الترفيه وتقييد نظام العيش والمناظر المحيطة به . فما من شك هناك أنه ليس أقتل لروح الطالب المعنوية من طول الحبس وكثرة الانطواء وفرط التكرار الممل الكئيب .

وزاره « حسين » المرة بعد المرة محاولا أن يخرج به من عزلته ، ولكنه كان يتعلل بالحاجة إلى الاستذكار وبقرب الامتحان وضرورة الاستعداد للمعركة النهائية التى ستتوقف عليها أقدميته وسفره إلى الخارج .

وحاول صلاح وسليمان أن يشدّاه من غمرة يأسه ولكنه أحاط نفسه بسياج منيع من العناد والإصرار والزهد فى كل شىء إلا الاستذكار .

وقال له صلاح فى أحد أيام الخميس على مائدة ضباط الصف وقد انتهى الطعام وانصرف الطلبة :

ـــ يا على دعك من هذه المذاكرة .. إنها هى السبب فى كل ما أصابك من فشل حتى الآن .. إنك تفوّقت فى أول امتحان لأنك خضته بطريقة خاطفة لم تسنح لك فيها فرصة استذكار . فلماذا ترهق نفسك هكذا ؟! يا أخى لعن الله البعثة . ولعن الله الأقدمية .. إنك مثلى إنسان عاقل ، ذكى فلماذا تحاول أن تحشر نفسك فى زمرة السخفاء من المتفوّقين الذين لا سلاح لهم فى الحياة إلا الصم .. قم يا أخى قم .. والله لن أدعك تقضى على نفسك وتنحط إلى درك الأوائل الأغبياء .. هات هذه الأوراق .

وخطف صلاح منه أوراق التاريخ وكتاب هندسة الميدان .

وقفز « على » وراءه صائحاً :

— كف عن هذا المزاح يا صلاح .. إنك خلىّ البال ، لأن الطيران أنقذك من الاستذكار ، ولو كنت ستخوض غمار الامتحان لما كان لديك لحظة تقضيها لتسدى إلىّ نصائحك ، ولما تركت المذاكرة لحظة واحدة ، هات الكتب أرجوك .

وتدخل سليمان قائلا :

— لا تعطه الكتب يا صلاح .. إنى واثق أنك تنظر فى صفحاتها دون وعى .. إنك فى حالة إجهاد وضيق لا يمكن أن تفهم معها شيئاً . إنى أرقبك منذ ثلاثة أيام وأنت متوقف عند الصفحة الخامسة عشرة من مذكرات التاريخ وقد كادت الصفحة تبلى من فرط ما أمسكت بها يدك .. ومع ذلك فإنك لا تتجاوزها .. أفتريد أن تفهمنى أنك منذ ثلاثة أيام وأنت لا تذاكر غير موقعة بير السبع ؟! لا تكن عنيداً يا على .. إن هذه الطريقة التى تكبت بها أحزانك .. ستزيد من غلوائها .. اخرج ونفس عن كربك وفرّج عن نفسك .

وأجاب « على » محاولا التجلد والاستخفاف :

— ليس بى ما يستدعى التفريج والتنفيس .. إنى غير متضايق من البقاء فى المدرسة .

— إنك من فرط ضيقك لم تعد تحس بضيق .

وأردف صلاح :

— ستخرج اليوم بالإكراه .

— لن أخرج ولن أذهب إلى البيت .

— لا ضرورة للذهاب إلى البيت ، سنخرج للتمشى فى البلد ، وسنذهب إلى سينما ثم نأكل بعض الشطائر فى الأمريكين ونعود سوياً للمبيت فى المدرسة . قم بنا .

— لا .. لا .. أنا متعب من سهر المذاكرة ليلة أمس ، وأريد أن أنام .

— حسن .. لتنم حتى الخامسة .. إننا لن نخرج قبل السادسة .

وفى الخامسة والنصف ارتدى صلاح ملابسه وذهب إلى عنبر « على » يستحثه .. فلم يجد له أثراً وألفى الفراش مرتباً والدولاب مغلقاً .. وانطلق يبحث عنه فى كل مكان .. فى المكتبة والنادى والفرق والميس حتى يئس من العثور عليه ، وأخيراً ذهب إلى سليمان وكان يعمل جاويشاً نوبتجياً وقد ارتدى القايش والسونكى ووقف فى الطرقة السفلى يعد كشوفات التمام .

وتساءل سليمان :

— ألم تخرجا بعد ؟

— إنى لا أجد علياً .. أتظنه خرج وحده ؟

— غير معقول .. أبحثت عنه جيداً ؟

— فى كل مكان .. فى المكتبة .. والنادى .. والميس .. وعند الحلاق . لم أترك مكاناً إلا فتشته .. يجب ألا نتركه هكذا فى غمرة يأسه . لا بد أن نجعله يسرى عن نفسه قليلا .

— اسمع يا صلاح .. أنا أعرف أين هو .. أعرف البقعة التى تعوّد أن يلجأ إليها ليخلو إلى نفسه ويحاول المذاكرة .. أتعرف ميدان « الثلاثين ياردة » ؟ إنك تجده تحت إحدى أشجار السرو الضخمة التى تفصل الميدان عن ملعب الكرة .. أو تجده فى المشتل القريب على يسار مدخل المدرسة تحت عنبر الصنف الرابع .

وهمّ صلاح بالذهاب إلى المشتل عندما لمح أحد طلبة مدرسة البوليس يجتاز بوابة المدرسة مقبلا عليه وعرف فية « حسيناً » أخا « على » فتلقاه مرحباً . وسأله حسين :

— أين على ؟

— إنى أبحث عنه .

— أليس موجوداً فى المدرسة ؟

ـــ أعتقد ذلك .. وإن كنت حاولت العثور عليه عبثاً .. لقد اتفقنا على أن نخرج سوياً للذهاب إلى السينما والعشاء فى الأمريكين .. إنه فى حالة سيئة من اليأس والانهيار .. فقد لازمه النحس أخيراً فى كل شيء .. حتى الملاكمة التى حصل فيها فى العام الماضى على خمسين درجة .. قد ضاع أمله فيها هذا العام ، إذ أصيب بشرخ فى إبهامه الأيسر خلال التمرين مما اضطر المستشفى إلى تجبيس إصبعه ومنعه من دخول المباراة .

ـــ ولكن ألا نستطيع أن نجده ؟

ـــ بل لا بد أن نجده وأن نخرج به لنبعده عن ذلك الجو اليائس المتشائم الذى يطبق على أنفاسه .

وتحت إحدى أشجار السرو الضخمة المستقرة فى أقصى ملعب الكرة والمتهدلة أغصانها على سور السجن الحربى ودروة ضرب النار ، كان يستقر « على » فوق بعض شكائر الرمل وقد أسند رأسه على الشجرة ومدد ساقيه وفرد يسراه بكتاب الطبوغرافيا الأحمر وقد وضع سبابته بين الصفحات ليحدد الصفحة التى وقف عندها .

وكانت الشمس تتهاوى وراء ظهره خلف جدران السجن .. مرسلة أشعتها الحمراء الآخذة فى الشحوب والانقراض على أطراف الاشجار المحيطة بمدرسة التربية البدنية وأورطة الأساس ، وعلى الأسقف المنحدرة المتناثرة هنا وهناك ، وكأن الأشعة المجررة أذيالها صيحات استغاثة من الشمس الهابطة لا تلبث أن تبدد فى ذلك الفراغ البعيد ، وأحس « على » كأن نفسه قد أطبقت عليها جدران السجن الكائنة وراءه ، بل كأن كل ما حوله قد أضحى سجناً موحشاً مظلماً ، وأن هتافات الرجاء التى كانت تنبعث من قلبه ما تلبث حتى تبدد كتلك الأشعة المنقرضة ويعقبها الصمت الثقيل والظلمة المطبقة .

وأغمض عينيه وأطلق تنهيدة يائسة .. كل شيء حوله يبعث على اليأس حتى منتهى الأمل قد أضحى منتهى اليأس .

وماذا يمكن أن يأمل منها ويرجو من حبها ؟! أكل ما يرجوه هيام دائم .. وأحلام مستمرة ؟! أهذا هو ما يمكن أن يعلق به حياته ويجعله منتهى أمله ؟! إن مجرد محاولته الركوب معها قد أدت إلى تلك الكارثه .. ومن السخف أن يحاول أن ينسب ما حدث إلى مجرد سوء الحظ .. فإن سوء الحظ لم يفعل أكثر من أن عجل بالنتيجة ، ولو لم تحدث الفرقة أمس لحدثت اليوم أو غداً .

إن حياتنا لا تتشكل حسب مشاعرنا وأهوائنا .. إن هناك قيودا مادية تحتم سيرنا فى اتجاهات لا تملك مشاعرنا تغييرها .. رغم أننا فى نشوتنا وهيامنا نجزم لأنفسنا أنه يكفى أن نشعر وأن يبادلنا الطرف الآخر الشعور حتى يهون كل أمر ويضحى غير ذلك من الماديات المفروضة علينا تفاهات لا تدخل فى حساب رسمنا لمستقبلنا ولا تؤثر على تنفيذ مشروعات أمانينا وخطط أحلامنا .

ولقد أرضاه وملأ بالغبطة نفسه ، أن يبادل الشعور ، وأخذ العهد والميثاق على أنه أقصى مطمعه فى هذه الدنيا .

وبعد ! .. إنه يجلس الآن فى عجز ويأس .. وينظر إلى المستقبل فى عجز أشد ويأس أعظم .

لقد ظن أنه يكفى لكى يصعد من القرار ليجاورها فى القمة أن يدخل المدرسة ويخرج منها ضابطاً .. فيصبح نداً لها وأهلا لمشاركتها حياة واحدة .

ولكنه يحس الآن أنه ما زال يقف وراء أسوار هائلة وسدود منيعة ، وأن أمتن أو ثقة المشاعر وأشد أربطة الأحاسيس أعجز من أن تشد أحدهما للآخر لتجتاز به تلك الأسوار العالية من التقاليد والفوارق .

وهو لا يعيش فى القرون الوسطى حتى يستطيع أن يختطفها من قصر أبيها .. ويفر بها على جواد .. إنما هو يعيش فى مصر .. البلد الطيب الهادىء .. الذى ينزلق كل ما به فى مجراه الهادىء ، لا يحيد عنه ولا يفور ولا يثور .. والأسياد سيظلون أسياداً ، والعبيد عبيداً .. والسياج القائم بين هذا وذاك سيظل قائماً بلا أمل فى زواله أو رجاء فى تخطيه .

هو فى مصر .. بلد السكينة والاستكانة .. لا أمل له فى فورة تقلب الأوضاع، وتجعل عالى الإناء أسفله،وأسفله عاليه.. ولا فى عاصفة تطيح بالسدود والفوارق .. وتحطم قلاع الكبرياء والعجرفة والأرستقراطية .

وتذكر تمرد سليمان وثورته .. وأحس بأنه قد بدأ يلتقى به فى تفكيره من زاوية مخصوصة .. ومن ناحية معينة .

ولكن حتى هذا التفكير .. لا يعدو أن يكون أوهاماً لا يزيد الأمل فيها عن أوهام الاختطاف على جواد ، ولا يغير من الوضع الجامد الصلد الذى يحيط بها كقالب من حديد يضفى على كل منهما شكلا مخصوصاً لا تستطيع المشاعر أو الإرادة والرغبة أن تغير تكوينه أو تبدل هيئته .

وملأت المرارة نفسه .. وحاول أن يستعين على إزالتها أو تخفيفها باجترار هنيهات اللقاء الحلوة وتذكر المناجاة العذبة ، ولكن طول اليأس أفقده القدرة على الاجترار والتذكر ، وغلبت عليه مرارة التفكير ، ودفعته إلى تصيد الهموم والأحزان .. فسأل نفسه فى مرارة :أما كان عليها أن تذكره !؟ إنه لا يستطيع أن يكتب إليها .. فلماذا لا تكتب هى إليه ؟! ألم تزعجها غيبته ؟ أم ترى الفرقة قد أطفأت ما بها ؟! وأنها اقتنعت أن ما بينهما لم يكن سوى نزوة فى القلب ، أزالها صوت العقل وحكمة التقاليد ؟

وتذكر مناقشته لحسين ونصيحته له بأن يتجنب الطريق الوعر الشائك الذى يخوض فيه . وقوله :

« الطريق الوعر الشائك هو الذى تسير فيه أنت .. أنا لا أشد نفسى إلا بمتعة ليلة ، ولكنك توثق نفسك بهوى عمر .. أنا إن تخلت عنى لفظتها ، وأنت إن تخلت عنك حطمتك وبددتك هباء . إنى أمدّ يدى إلى ما تستطيع أن تصل إليه ، أما أنت فتمدّ يدك إلى النجوم والسحب .. أنا أمسك بمن فى طريقى ، أما أنت فتسير فى طريق وترجو ما فى الطريق الآخر .. وطريقك سفلى ، والطريق الآخر علوى .. والطريقان — بأوضاع حياتنا الراهنه .. التى لا أمل لنا فى تغييرها —

يسيران مستقيمين متوازيين .. أحدهما فى الأرض والآخر فى السماء .. والطريقان المستقيمان المتوازيان كما تعلم لا يلتقيان أبداً » .

وردد لنفسه فى مرارة .. أجل .. لا يلتقيان أبداً .

وأحس وهو يهمس لنفسه بالحديث اليائس بخفيف أقدام تطأ الحشائش . وفتح عينيه ، وأدار رأسه فإذا بحسين يقترب منه وقد سار صلاح بجواره .

وهتف صلاح مازحاً :

— ما شاء الله .. تتركنى أدوخ عليك فى المدرسة كلها وأنت مختل هنا بكتاب الطوبوغرافيا ... قم .... وكفى حملقة فى الكتب والمحاضرات .. إن هذا هو الذى سيودى بك .. قم ..

ونهض « على » فى تثاقل ، وأقبل يحيى أخاه فى شىء من الدهشة قائلا :

— أهلا .. حسين ماذا أحضرك ؟

— ألم أوحشك ؟! لقد حضرت لأراك .. وأخرجك من ذلك السجن الذى سجنت فيه نفسك .. هيا بنا .

— إلى أين ؟

— لاتسأل إلى أين .. سأخرج بك .. ولو على أسنة الرماح .

وسار الثلاثة عابرين ملعب الكرة متجهين إلى بناء المدرسة ، وصعد الأخوان إلى نادى الطلبة وتخلف صلاح قائلا :

— سألحق بكما حالا . عليك به يا حسين . لا تدعه حتى يرتدى ملابسه .

وجلس الأخوان فى أحد أركان النادى على كرسيين أسيوطيين متقابلين ، وكان الصمت قد ساد بينهما طيلة الطريق ، وقطع « على » الصمت متسائلا :

— كيف حالكم جميعاً ؟!

— على ما يرام ..

— وأبى ؟

— بخير .. إنه يعجب من انقطاعك عن الذهاب إلى البيت ، ويتساءل هل

أغضبك منه شيء .. لقد قال لى إنه لم يقصد لومك على ما فعلت .. ولا قصد الإساءة إليك ، ولكنه فقط خشى عليك من الاندفاع فى طريق شائك وعر لن ينتهى بك .. وأنت تسير فيه بهذا الاندفاع والحرارة .. إلا إلى مأساة أو كارثة .. ألم أقل لك أنا نفسى هذا ؟! أتذكر ؟

وأطلق « على » تنهيدة ضيق ، ثم أجاب بعد لحظة صمت :

— لا داعى الآن لكل هذا .. فأنا لا أخرج لأنى أريد الاستذكار .. إن الامتحان قد قرب .. ويوما الخميس والجمعة هما الفرصة الوحيدة التى يمكن استغلالها . ولا أريد أن أضيع الوقت فى الذهاب والإياب ، وأنت تعرف أن المذاكرة فى البيت أمر متعذر .

— على .. هذا الكلام لا يقال لى .. إنك تعرف قدرتك على فهم ما بنفسى ، وتعرف أن لى نفس القدرة على فهم ما بنفسك . أنا لا أستطيع خداعك وأنت لا تستطيع خداعى .. دع الأمور تجرى بأيسر من هذا . لا تغلق نفسك فى هذا القالب الحديدى وتفرض عليها إحساساً معيناً تأبى الفكاك منه .. لاتشيد حياتك على أمنية ، بغيرها تصبح فى عداد العدم .. إنك تسجن نفسك يائساً حزيناً محموماً لأنك حصرت كل تفكيرك فى مخلوقة واحدة .. متعذرة المنال . بل لا يمكن بحال أن تكون لك ، وأنت تدرك هذا لو فكرت فيه بذهنك لا بقلبك . وقد بت تحس أن الحياة بغيرها قفر يباب .. حطم أسوار سجنك وانطلق خارجه تجد الحياة ما زالت بخير .. وتجد بها من النعم المتعددة ما تغنى كل منها عن الأخرى .. إذا استعصت هذه ، أغنتك عنها تلك . ستخرج معى الآن . وسأريك أن الدنيا .. التى أظلمت من حولك ما زالت تضيء حول الناس .. سأريك أن هناك وسائل أخرى للاستمتاع والتنعم .. قم وارتد ملابسك .

— الوقت متأخر .. وأنا مجهد .

— الوقت ليس متأخراً ، وأنت مجهد من فرط التكرار والملل والحبس الذى تعيش فيه .. لقد أقسمت أن أخرج بك .. لن أدعك بأى حال .. وأؤكد لك

أنك ستعود إلى المدرسة وقد ذهبت عنك هذه الغمة وبت أهدا نفسا وأوفر نشاطاً .. وأقدر على الاستذكار الذى أنت حريص عليه .. قم يا على .. هيا بنا .

وجذبه من يده .. وسار الاثنان إلى العنبر .

إن أخاه على حق فى كل ما قال .. وهو يشعر أنه لو استمر مقيدا نفسه بين هذه الجدران القائمة لا تبصر عيناه إلا سطوراً من سخف الدراسة .. لقضى عليه اليأس .. أو أصابته جنة .

وانتهى « على » من ارتداء ملابسه وقد أحس بالعبء الجاثم عليه قد أخذ يخف .. وجلاميد الحزن واليأس قد بدأت تتفتت . إن مجرد إلقاء الكاكى عن جسده وارتداء بدلة الفسحة .. بعث فى نفسه شعاعاً باهتاً من الأمل فى احتمال رؤيتها .. احتمالا — مهما ضعف — فهو مع إقبال الحظ وسنوح الصدف .. جائز الحدوث .. وهو خير من الاستحالة التى فرضها على قدره الحظ ومحاولات الصدف .. ببقائه اليائس بين جدران المدرسة .

وغادر ثلاثتهم المدرسة . وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء . وشوارع القاهرة مزدحمة بالمارة والمتسكعين والباعة المتجوّلين ، وواجهات المحال التجارية تشع بالأضواء الملوّنة والمعروضات الأخاذة .

ووقف الثلاثة برهة على ناصيتى عماد الدين وفؤاد الأول حيث نهاية خط المترو ، وحيث يتكاكأ حشد من الواقفين المتطلعين ، كأنهم فى سوق أو فى معرض لا يكاد عابر الطرّيق يجد طريقه بينهم . وفى هذا الحشد الرابض على الناصية أمام محل الأمريكين اندس عدد كبير من أصحاب الأشرطة الحمر والستر الكحلية والسوداء ذات الياقات المغلقة العالية يعرضون أجسادهم المصلوبة وقاماتهم الممشوقة ويستعرضون الخليط النسائى الهابط من عربات المترو والصاعد إليها ، أو المنتظر على محطة الترام ما بين بنات المدارس وعاملات المحلات . وبين كلا الفريقين العارض والمستعرض يجرى تيار لا ينقطع من النظرات العابرة التى تتراوح بين التجهم والتطلع والابتسام ، وتنطلق الوجوه الهابطة فتذهب فى

طريقها ويتحرك الترام بالمنتظرات وتحل على الرصيف وجوه جديدة فتتلقفها الأعين المراقبة بنفس النظرات كأن الوجوه لم تتغير، وكأنها مكلفة بأداء واجب لا مناص من تأديته.

ووقف الفرسان الثلاثة وسط الحشد وقد تملكت النشوة صلاح وحسين وأخذت أعينهما تترجح فى مقلتيهما بين محطة الترام والمترو والوجوه الرائحة الغادية.. وخفف الضجيج والأنوار والوجوه المحتشدة والثغور الباسمة اللاغطة الكثير من أحزان «على» وسرت نشوة صاحبيه إلى نفسه، وأخذ يتطلع بعينيه تطلعاً غير مترجح ولا حائر بل تطلع متلهف باحث فاحص كأنما يوشك أن يبصر فى تلك الوجوه وجهاً معيناً ويرى بين البسمات العابرة بسمة مخصوصة، ويسمع اللغط الدائر نبرات عزيزة وهمسات حبيبة.

وأحس «على» بعد فترة من الوقت، شيئاً من الحرج وهو يقف بين المتسكعين على قارعة الطريق يحملق فى الوجوه الغادية الرائحة، وقال لحسين متسائلا:

ـــ أسنظل واقفين هكذا على قارعة الطريق ؟ لقد كنت دائماً أعيب على الطلبة هذه الوقفة، بل أذكر أنى وقعت عقاباً على بعض الطلبة لأنى رأيتهم يغازلون على قارعة الطريق، تماماً كما يبدو علينا أننا نفعل الآن.

وأجابه صلاح ضاحكاً:

ـــ ألا يعجبك كل هذا السيل من الوجوه الحلوة؟! انظر إلى هذه الواقفة على محطة المترو.. هذه الفتاة العارية الذراعين.. الواسعة العنيين .. إنها تنظر إليك.

وألقى «على» نظرة إلى حيث تقف الفتاة فوجد الفتاة تبتسم.. فزاد إحساسه بالحرج وأجاب:

ـــ لا يجدر بنا أن نقف هذا الموقف.

وتساءل صلاح:

ـــ إلى أين تريد بنا أن نذهب؟

ـــ إلى أى مكان غير هذا.

وتدخل حسين قائلا:

ـــ هيا بنا ندخل الأمريكين.. إنى أحس بجوع وأريد أن أتناول بعض الشطائر.

ودخل الثلاثة سائرين بين المناضد المكتظة بالجالسين وعكست مرايا المحل صورهم فى كل ناحية فأصلح كل منهم هندامه وألقى نظرة رضاء على شكله، وصعدوا السلم الخشبى إلى الطابق الثانى المنخفض السقف المطل على الطابق الأول.

وطلب حسين زجاجة بيرة وبعض الشطائر وشاركه صلاح فيما طلب، واكتفى «على» بكوب من الآيس كريم بالصودا.. أخذ يقلبه بالملعقة الطويلة حتى اختلطت الصودا بالجلاس بالشراب الأحمر وأخذ يرشفه بأنبوبة القش الرفيعة .

وجرى بين الثلاثة حديث مرح لطيف، واستطاع حسين وصلاح بخفة دمهما ، وحلو نكاتهما ، أن يرفعا عن كاهل « على » جزءاً مما تبقى من أحزانه الجاثمة.. عاونهما فى ذلك المرح الشائع فى جو المكان وبضعة الوجوه الحلوة المحيطة بهم.

وانتصفت الساعة الثامنة فقال حسين وهو يهم بالنهوض:

ـــ هيا بنا.

وتساءل على:

ـــ إلى أين؟

ـــ إلى القاعة.. إن العمل يبدأ فى التاسعة.

وأجاب «على» معترضاً:

ـــ سأعود أنا إلى المدرسة.

ونظر إليه حسين فى دهشة قائلا:

ـــ إلى المدرسة ؟!

ثم جذبه من يده فى غيظ وأردف :

ـــ هيا .. ولا تكن سخيفاً .

(٣٠)

السمراء الراجية

أقبل الثلاثة على صالة « نعيمه محمد » فى شارع عماد الدين ، وكان مدخل الصالة يبدأ ببضع درجات رخامية تفضى إلى باب انسدلت عليه ستارة من القطيفة الخضراء وقد وقف عليه « إبراهيم المفترى » وهو حيوان ضخم ، ضيق الجبين .. عريض المنكبين .. أغم القفا ، قد ارتدى بنطلوناً من الفانلة وسترة إنجليزية من القماش الكاروهات تحتها قميص أزرق أخرج ياقته المفتوحة فوق ياقة الجاكتة .. وأمسك فى يمناه عصا قصيرة غليظة . وأخذ يصيح بين آونة وأخرى صيحات تهديد ناهراً بها الباعة والصبية ومظهراً سطوته وبطشه ، محركا خلالها من تقاطيع وجهه الغليظ الخشن الملىء بالندوب والتعاريج كل ما استطاع تحريكه زيادة فى إظهار القوة والجبروت .

وعلى أول الدرج وقف « على أبو ستة » وهو حيوان آخر ، وإن كان يبدو فى مظهره نقيض الحيوان الأول لنحافته وهزاله وقد ارتدى جلباباً و « طاقية شبيكة » و « جزمة كاوتش » كانت بيضاء وقد « كعبها » مستعملا إياها « كشبشب » وخرج من ثقب فى مقدمها إصبعه السادس الذى كنى من أجله « بأبى ستة » وأمسك بيديه كومة من الإعلانات الحمراء كتب عليها اسم الصالة وبرنامج العرض .. وعدة صور للمطربين والمنولوجست والراقصات المشتركين فيه ، ومن بينهم راقصة مصر الأولى ، والمنولوجست . الخفيفة ، والمنولوجست السورى ، والمطربة العراقية ، والثنائى الراقص .

وكان « أبو ستة » مغمض العينين .. مفتوح الفم .. مرفوع العقيرة بالصياح والضجيج ، معلناً عن البرنامج بفمه كما يعلن بيده ، وفوقه قد استقر إعلان فى

الحائط بالخط العريض والصور الملونة ، فوق المدخل قد كتب اسم الصالة المسماة باسم صاحبتها بالمصابيح الكهربائية التى أخذت تطفيء وتضيء .

وكان شباك التذاكر قد استقر فى يمين المدخل .. وكان المفروض أن يقصد الداخل إليه لقطع التذاكر قبل أن يتجه إلى الباب ، وكان المفروض أيضاً أن « إبراهيم المفترى » لا يظهر افتراءه على أتمه إلا على من يحاول الدخول إلى الباب رأساً دون أن يعرج على شباك التذاكر .

ومع كل هذه المفروضات اتجه « حسين » يتقدم صاحبيه فى ثقة واعتداد إلى الباب الذى وقف عنده الحيوان المفترس المعقد الأسارير .. الجائر بالصياح والزئير .. والذى لم يكد يرى « حسين » يتقدم صاحبيه حتى انفرجت أساريره وانقلب زئيره إلى ترحيب لين واستقبال هاش باش .. وأزاح الستار ودفع الباب قائلا :

ـــ أهلا وسهلا حسين بك .. الصالة نوّرت .

ـــ كيف الحال يا أبو خليل ؟

ـــ رضا .. نحمده .

ـــ والست كيف حالها ؟

ـــ الحمد لله .

ـــ هل أتت ؟

ـــ طبعاً .. من الساعة الثامنة .. تجدها فى حجرتها أو فى البار .

واجتاز الثلاثة الباب ، و« على » مأخوذ بمظاهر الألفة التى يستقبل بها أخوه .. من الجرسونات والأرتيستات وبعض الزبائن .

ولم يكن المكان من الداخل بالاتساع الذى يتصوّره « على » بل كان أشبه بقاعة رحبة فى أحد المنازل الكبيرة ، يقوم على يسار الداخل مسرح أسدلت عليه ستارة من القطيفة الحمراء قد طرز عليها بالقصب اسم صاحبة الصالة .. وأمام المسرح عدة صفوف من المقاعد وضعت وراءها بضعة مناضد صفت حولها

الكراسى الخيزران ، وفى الأجناب « ألواج » حجزت عن القاعة بحاجز من الخشب ، وعلى يمين القاعة وضع البار بمرآته الكبيرة التى غطت الجدار والأرفف الزجاجية التى صفت عليها زجاجات الجون هيج والديسوارس ، والهوايت هورس ، وأمام المرآة وضع « البنك » الخشبى المغطى بالرخام والفاصل بين « ستاورو » عامل البار وبضعة الزبائن الذين اعتلوا صهوة المقاعد العالية واتكأوا بمرافقهم على الرخام وأخذوا يسيغون رشفات الويسكى بقطع الخيار والجنبرى وسلطة الطحينة .

وعندما توسط الثلاثة القاعة بدت نعيمة محمد (أو نعمات أو نعايم أو سلسلة أسماء أخرى اشتهرت بها) مقبلة من باب صغير مجاور للبار ومفض إلى ممر ضيق يؤدى إلى حجرات الأرتيستات ومتصل من الناحية الأخرى بالمسرح .

وبدت « نعيمة » فى إقبالها على كثير من الإغراء تعاون فى إظهاره جمال لم تعف آثاره ، ومكياج متقن ، وثوب مشدود على الجسد مبرز للردفين ، مطبق على النهدين ، كاشف لما بينهما من مجرى زاد الإطباق من عمقه فبدا كأنه أخدود فى لحم الصدر .

وأقبلت ربة الصالة تخطر فى مشيتها خطوات أستاذة فى السير وفى الحركة ، تعرف كيف تستفيد من خطرة بهزّة فى الردف أو رجة فى الصدر وبدت عليها بشاشة طبيعية عندما وقع بصرها على حسين ، وافتر ثغرها عن ابتسامة عريضة أبدت أسناناً نصف بيضاء وأزاحت الحسنة الصناعية المرسومة بالكحل على طرف فمها إلى أعلى ، وقالت مرحبة بعد أن جذبت نفساً من سيجارة بين أصابعها وأطلقته ليضيف إلى هواء الصالة مزيداً من دخان :

ـــ أهلا .. أهلا .. ازيك يا سونة . نوّرت الصالة .

ومدّ حسين يده فشدّ على يدها الممدودة مرحباً ، وقال معرّفاً إياها بصاحبيه :

ـــ على أخى .. وصلاح صديقى .. والست نعيمة أشهر من نار على علم طبعاً .

وأجابت « نعيمة » مرحبة فى لهجة لاتخلو من الدهشة :

ـــ أخوك ؟! .. أهلا .. وسهلا .. الشبه واضح جداً .. ولكنه يبدو أهدأ منك كثيراً .. إنك عفريت .

ـــ أنا !!.. ياما فى الحبس مظاليم .. إنى طيب جداً .

ـــ أنت ؟! آه منك ! إن الشقاوة تكاد تقفز من عينيك .

ورنت ببصرها إلى صلاح ، وبدت كأنما تحاول أن تتذكر شيئاً ثم قالت :

ـــ هذا الوجه ليس غريباً علىّ ! لا بد أننا التقينا من قبل .

وضحك صلاح قائلا :

ـــ أجل .. لقد التقينا فعلا .. أما زلت تذكرين ؟

ـــ إن ذاكرتى لا تنسى أبداً .. التقينا مرّة فى القطار الذاهب إلى المنصورة .

ـــ أجل .. ومرّة أخرى .. فى بيت « سنية قشطة » فى الإسكندرية .

ـــ أجل .. أجل .. صحيح .

ثم قلبت البصر بين الثلاثة وقالت مستدركة :

ـــ ولكن مالكم تقفون هكذا ؟

وأجاب حسين :

ـــ سنجلس فى أحد الألواج . إنى قد دعوت صديقىّ .

ـــ بل أنا دعوتكم أنتم الثلاثة .. أنت ضيفى الدائم .. وضيوفك ضيوفى .. تفضلوا .

ثم صفقت بيديها منادية أحد الجرسونات آمرة إياه بقولها :

ـــ سل البهوات عما يطلبون .؟ وابق تحت أمرهم .

ثم وجهت القول إليهم مردفة :

ـــ عن إذنكم لحظة .. حتى أرى البنات .. إن « سنية » مريضة ولا بد أن أجهز غيرها لتشغل نمرتها .

واتجه الثلاثة إلى اللوج الأول .. وبنفس « على » شعور خليط من الحرج

والابتهاج .. الحرج من ذلك الترحيب باعتباره مظهراً مشيناً يحاط به أخوه ويديه أمام الناس كأنه أرتيست أو شريك فى الصالة ، والابتهاج بنفس الترحيب باعتباره مظهراً للتميز على بقية المتفرجين يدفع فى نفسه كبرياء وغروراً لا يستطيع كبشر الترفع عنه ، أو التخلص من الإحساس به .

واستقر بهم المقام فى اللوج .. ومضت فترة قبل أن يستطيع « على » أن يتمالك نفسه .. ويطمئن إلى أن الأضواء لم تعد مسلطة عليهم .. وإن الأنظار التى لفتها دخولهم الثلاثة بملابسهم الرسمية وترحيب « نعيمة » بهم قد تحوّلت عنهم .. وأخذ بدوره يصوّب بصره فى هدوء من مكمنه ليفحص به على مهل وفى تؤدة الخليط الصاخب المحيط به .

ولم تكن النمر قد بدأت .. وكانت تتجاوب فى الصالة ضحكات ونكات ونداءات تتعالى عن طنين الكلام العادى الذى بدا من فرط استمراره وطبيعته كأنه صمت .

وأقبل الجرسون بكأس من الويسكى وزجاجة بيرة وبعض أطباق « المزّة » ، وقال صلاح لعلى وهو يفرغ زجاجة البيرة فى كوبه :

ــ ستشاركنى هذه الزجاجة ؟

ــ لن أشارككما سوى المزّة .

وصاح حسين بالجرسون وهو يقذف فى فمه بقطعتين من الجنبرى .

ــ اسمع يا محمد .. قل « لسفروت » أن يعد لى طبق « سلطة حمص » مخصوص .. وهات طبق جنبرى آخر .

وكان صلاح وحسين ، منذ أن دخلا القاعة ، يتصرفان ويضحكان ويتحدثان ويتبادلان الإشارات والمغازلات فى طرب وفى غير كلفة كأنما يجلسان فى بيتهما وسط أهليهما وعشيرتهما .. وبينما لم يستطع « على » أن يتحرر من إسار الحرج والحياء .. أو يحطم قيد التكلف والإحساس بالغربة ، والضياع فى هذا المجتمع الصاخب الماجن .

واستمر « على » يوجه شعاع البصر المراقب فى جلسته .. وهو يحس بشيء من الراحة ، فقد كان دور المتفرج المراقب يلائم طبيعته أكثر من دور الواقع تحت المراقبة المعرّض للمشاهدة .

وتنقل بصره بين خليط عجيب من الناس لا يذكر أن مكاناً غير هذا يقدر على أن يضم مثله .. كان يرى فى الصف الأول « ثلة » أغلب ظنه أنها من طلبة الجامعة .. قد أخذوا يتبادلون النكات والسخافات بطريقة استعراضية تجعل الناظر إليهم يوقن أنهم يتعمدون لفت الأنظار أكثر مما يبغون الضحك فى حد ذاته ، وأنهم يعتبرون أن دورهم فى الصالة أكثر من مجرد مشاهدين عاديين .. فهم يودون لو استطاعوا مشاركة أصحاب العرض والتمر فى أدوارهم .

وبجوار هؤلاء أستاذ معمم يبدو أنه « عمدة » غليظ الرقبة ، ضخم الرأس قد سلط بصره على ستارة المسرح كأنما يود أن يستشف ما وراءها .. أو كأن هناك شيئاً مخصوصاً يتعجل رؤيته ، وبجواره جلس عجوز أصلع ، أكرش ، مهدل الشوارب ، قد انهمك فى قذف ما بكيس فى يده إلى فتحة فمه ثم الاندفاع فى مضغه بطريقة آلية سريعة كأنما هو مكلف بمضغ كمية معلومة فى وقت محدود .

واستمر الخليط يتتابع على ناظره .. من مشاهدين وأرتيستات ، بوجوههن المصبوغة وأجسادهن شبه العارية ، وقد استشعر نوعاً من التسلية والطرب وهو يسلط شعاع بصره ويستكشف به الناس دون أن يشعر به أحد .. واستمر يتنقل به من المقاعد إلى الألواج المقابلة ، إلى المناضد ، إلى الباعة حتى استقر فجأة على عينين مصوبتين إليه ترقبان بصره المتحرك بين الناس وقد بدت فيهما نظرة بها شيء من التوسل الخفى ، والرجاء المستتر ، وأحس فجأة أن بصره المتحرر قد قيد إلى هاتين العينين وكأنهما فخ قد أعد له وظل فاتحاً فكيه حتى انزلق بينهما .

ولم يشاء الفرار .. واستمر يحدق برهة فى العينين .. وكانتا عينين متسعتين طويلتى الهدب يعلوهما حاجبان أسودان ثقيلان لم تعبث بهما يد التزجيج ولا أعاد رسمهما قلم الخطوط وجبين أسمر ضيق هبطت منابت الشعر فغطت أعلاه ،

وشعر أسود ثقيل قد رفع إلى أعلا وطوى فى حلقة كبيرة فى مؤخرة الرأس ، وأسفل العينين أنف نصف دقيق ونصف مستقيم ، بمنتصف قصبته عقلة صغيرة لا تكاد تبين ، وفى أسفله بعض الفرطحة التى لا تعيبه ، وأسفل طاقتى الأنف فم لا تنطبق عليه الأوصاف المثلى للجمال ولكنه يكوّن مع بقية الوجه شيئاً لطيفاً يستريح الإنسان إلى النظر إليه .

ونقل « على » بصره من العينين المتشبثتين به ، ولكن لم يطل به البعد عنهما حتى عاد مرة أخرى .. وفى هذه المرة مسهما ببصرة مساً سريعاً ثم هبط فاحصاً الجسد .

كان الجسد على خلاف سواه من الأجساد المعروضة فى الصالة .. لم يكن به امتلاء ولا اكتناز .. ولا فتنة صارخة ولا أنوثة متفجرة .. ولم يكن بالجسد عيب ، ولكن العيب كان وجوده فى الصالة مجرداً من وسائل الإغراء بلا صدر نافر ، ولا ردف مكتنز ، ولا ذراع ملفوف أو ساق ممتلىء ، بل قوام ممشوق معتدل فى نحول وضمور لا يلفت النظر العربيد فيه بروز مغر أو نتوء مثير .. وكأنما أدركت صاحبته افتقارها إلى مواهب الإغراء وأدوات الإثارة فكفت نفسها مؤنة العرض .. وقنعت من الثياب المفتوحة الصدر الكاشفة عن الكتفين والذراعين والإبطين ببلوزة بسيطة حمراء مستديرة الياقة يصل كمها إلى المرفق ولا يكشف إلا عن الساعد الأسمر الرقيق ، وجيب أسود فضفاض ذى ثنيات أشبه بثنيات سروال الاسكوتش .

بوجه عام كانت صاحبته بوجهها الأسمر الخالى من الأصباغ وشعرها الأسود المعقوص على قمة رأسها ، وجسدها النحيل الرقيق .. وثيابها البسيطة .. تكون شيئاً غير ذى قيمة ولا موضوع فى الصالة .. شيئاً لا يتلهف عليه روادها أو يجدون به ما يغرى بالإقبال .

والذى جعلها غير ذات موضوع فى الصالة .. هو نفسه ما جعلها ذات موضوع فى نفس « على » .. فقد كان بقلبه الحساس وشعوره المرهف .. نفور من اللحوم المعروضة والأجساد المكشوفة العارية .. كان أكثر إحساساً بقيمة

الإنسان ، وكان يستشعر من نظره إلى الأجساد المعروضة نوعاً من الهوان البشرى والإذلال الآدمى .. وكان يحس غضاضة وحرجاً من كل ما يحيط به .

وفى وسط هذا الجو المشحون بالمجون والفجور .. وجد «على» صاحبتنا أشبه بالناسك بين الفجار .. والعابد بين الكفار ، وأحس أنها لا بد وأن تكون مختلفة فى التفكير والتكوين عن بقية صاحباتها العابثات المبتذلات .. وتساءل فى نفسه عما إذا كانت تستطيع بجسدها الرقيق وسماتها البريئة الطيبة أن تؤدى ما تؤدين وتفعل ما يفعلن .

ولمح « حسين » تحوّل نظر « على » وثباته على ناحية معينة فحوّل بصره ليرى ذلك الشيء الذى جذب اهتمامه .. والتقى بصره بالعينين السوداوين .. فابتسم وأشار محيياً ، فأجابته بابتسامة وإشارة ، ورغب « على » فى أن يستفسر عنها ، ولكن إحساسه بالحرج منعه عن السؤال وكفاه حسين — الذى يستطيع أن يفهم بسهولة ما برأسه — مؤنة السؤال . فقال موضحاً :

— هذه كريمة .. كريمة الولد .

— ولد!!

— أجل .. إنهم يدعونها كذلك لنحولها وضمور جسدها .. إنها بنت غلبانة .. طيبة .. ولكنها — كما تقول الست نعيمة — خمة .. وليست على شيء من « اللحلحة » .. لقد كانت على وشك أن تطردها .. لأنها كعدمها ، لا فائدة منها لا على المسرح ولا فى الصالة ، فليس هناك أمل منها فى أن تكون راقصة لها قيمة ، بجسدها النحيل الذى لا يوجد به شيء يهتز أو يترجرج ، ولا تنفع فى الصالة فى الفتح ، فهى لا تجيد الإثارة والإغراء وقد تمر عليها الليلة بأكملها لا يفتح لها أحد الزبائن زجاجة واحدة ، وقد رأفت الست بحالتها فأبقتها على أن تكتفى بنسبة الفتح .. وأن تساعد فى أدوار الكومبارس نظير استبقائها فى الصالة .

وكان « على » يسمع من أخيه حديث ثقة خبير ، وهو خالى الذهن تماماً من أسرار الصالات بما فيها من فتح ونصب .. ورغم أن حديث حسين عن

« كريمة » ، لم يكن به شيء من المديح أو التقدير ، فقد استراح « على » إليه ؛ وأحس أنه ينطبق كثيراً على الأثر الذى تركته صورتها فى ذهنه ، واغتبط لأنها « لخمة » وأنها « كعدمها » فى المسرح والصالة .

وقبل أن يلقى عليها نظرة أخرى أطفئت الأنوار ورفعت الستارة .

وبدأ العرض بمنولوجست أسمر خفيف الدم أخذ يلقى منولوجاً عن « زوج الاثنين » بمصاحبة البيانو ثم تبعه بآخر عن « الحماة » وثالث عن « عاقبة الصبصبة » واستعاده النظارة عدّة مرات، وهو يختفى ثم يعود مرة أخرى .

وأسدل الستار ومضت فترة قصيرة قبل أن تبدأ الوصلة الغنائية الأولى ثم رفع الستار عن المطربة القديمة « فتحية صبرى » وقد جلست بجسدها السمين تتوسط تختها ، وانساب شعرها المفروق من الجنب المائل على جبينها وأغرقت عينيها بالكحل ، ورسم خال كبير على الأرضية الحمراء التى فرشت فوق خديها وبدت سنة ذهبية تلمع من خلال خطى شفتيها المرسومين بالأحمر وهى تبتسم مجيبة على تحيات الجماهير .

وكان تختها يتكوّن من خليط عجيب متناقض من البشر ، فعلى اليمين جلس « قانونجى » ضرير قد أكل الجدرى وجهه ووضع القانون على ساقيه وأخذ يجرى أصابعه على أسلاكه محاولا ضبطه .. وبجواره عازف « كمان » طويل أعجف نحيل تهدل شعره حتى غطى قفاه ووصل إلى كتفيه ، ذو وجه مضغوط من الجانبين يبدو كأنه قطاع وجه ، وأنفه طويل كالمنقار ، ربط عنقه برباط أسود منفوش ، ورفع « الكمان » مسنداً عليها ذقنه رافعاً معها أحد كتفيه غير ملق بالا إلى شيء مما حوله ، وعلى يمينه عازف « الناى ».. وقد جلس فى استكانة ومذلة كأنه متسوّل يطلب إحساناً .

وعلى اليسار جلس الجناح الآخر من التخت .. مبتدئاً بعازف العود الذى يبدو نشازاً وسط خليط العجائز الذى يتكوّن منه التخت بشعره الأصفر الناعم المسبسب ، ووجهه الأبيض النضر المتورد الخدين ، الأحمر الشفتين ، الذى يتوفر

فيه من الأنوثة أكثر مما بوجه الأنثى التى بجواره ، والمعروف أن الصبى عازف العود يقوم بدور عشيق المطربة إلى جانب عزف العود .. وبجواره « قزم » تدلت ساقاه من مقعده وأخذت فى الاهتزاز والتأرجح دون أن تبلغا الأرض وقد ارتدى ردنجوتاً أسود باعتبار ما كان ، وأخضر زيتى باعتبار ما هو كائن ، واستقر رأسه الصغير الذى اختفى نصفه تحت طربوش فضفاض والنصف الآخر داخل ياقة القميص المتسعة وأمسك « بالطبلة » على « حجره » وأخذ يوزع الطرقات والابتسامات على الجماهير .

وبجوار القزم . وفى أقصى الطرف الأيسر ، استقرت « هيئة » الرق ، وكلمة هيئة ليست فيها مبالغة فى وصف الرجل .. فهو وحده يكوّن هيئة كاملة .. قائمة مميزة مستقلة بذاتها عن بقية التخت .. بفخامتها وضخامتها .. واعتدادها وهيبتها .

هذه الهيئة هى « محمود دنجل » .. وهو ليس أبرز ما فى التخت فحسب ، بل أبرز ما فى الصالة ، بل أبرز ما فى القطر ، إذا كان هناك من يقدر ويفهم .

جلس « دنجل » بجسده الضخم الطويل العريض الممتلىء عابس الوجه ، مقطب الجبين ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة .. ولا ترمش له عين أو تتحرك من وجهه عضلة .. غير ملق بالا إلى الهتافات المتعالية من أرجاء القاعة بتحيته والنداء عليه « دنجل .. ازيك يا دنجل » والرجل يبدو كأن لاصلة له بالتخت أو بالمسرح أو بالصالة بل كأنه تماماً رئيس وزارة أو رئيس دولة .. يفتتح منشأة كبرى أو يشهد احتفالا بمولد النبى .. بجلسته الوقورة وسماته الجادة العابسة ونظراته الرزينة ، وكل ما به .. عدا شيئاً واحداً .. يخرجه عن كل تلك الهيبة والوقار ، ويربطه بالست « فتحية صبرى » وبالتشكيلة العجيبة فى تختها .. وهو « الرق » الذى أمسك به بين كفيه .

وتبدأ الوصلة .. وينهمك الكل فى الأداء .. مترنحة أجسادهم ، مهتزة

أوصالهم .. إلا « دنجل » فهو فى مباشرة عمله لا يخرج عن وقاره ورزانته .. ولا يزيد كل ما يفعله على أن يرفع « الرق » الصغير بيده ويطرقه بأصبعه بضع طرقات .. ويهزه بضع هزات .. بين حين وآخر .. وهذا هو كل ماتفعله الهيئة الضخمة الموقرة الكبرى من جلائل الأعمال .

جلس « على » يرقب الرجل ويستمع إلى الغناء ، وقد سرى عن نفسه وأحس بالكثير من الطرب والمرح .. وبين لحظة وأخرى يحس برغبة خفية تدفعه إلى أن يحول بصره ليطوف به باحثاً فى الظلمة عن وجه أسمر نحيل وعينين سوداوين طويلتى الهدب تتسلل منهما نظرة رجاء خفى .. واستعطاف مستتر .

وقبل أن يجد « على » الوجه الرقيق .. سمع صوتاً أرق يهتف فى شبه همس :

ــ ازيك يا حسين .

وأجاب أخوه وهو يتلفت نحو صاحبة الصوت :

ــ أهلا .. كريمة .. تفضلى .

ثم وقف نصف وقفة وقدّم لها مقعداً خالياً .. وجلست « كريمة » بينه وبين أخيه قائلة :

ــ لا بد وأن يكون هذا أخاك .

ــ كيف عرفت ؟

ــ الشبه واضح .

وضحك حسين وأجاب :

ــ عجيب أن يشعر الناس كلهم بهذا الشبه إلا أنا وهو .

ووجهت الفتاة سؤالها إلى « على » وقد بدت عليها مظاهر الاهتمام به :

ــ أهذه أول مرّة تحضر إلى هنا !

ورد صلاح ضاحكا بالنيابة عن على :

ــ هذه أول وآخر مرّة .

وسألت « كريمة » فى شىء من الدهشة :

ـــ إلى هذا الحد ؟ ألا تعجبك ؟

وأجاب حسين :

ـــ ليس له فى الطيب نصيب .

ونظرت « كريمة » إلى « على » وقد بدت فى عينيها النظرة الرقيقة الذائبة المتوسلة وتساءلت قائلة :

ـــ لماذا لا تتكلم ؟

وردّ « على » ضاحكا :

ـــ إنى لا أجد فرصة للكلام .. أنت تسألين وهما يجيبان . كيف أتكلم ؟

وهمّ حسين بالكلام ممسكاً بذراع « كريمة » ، ولكنها دفعته بمرفقها ناهرة إياه فى مزاح وقالت :

ـــ لقد أتيت للجلوس معه .. إنه ضيفى الليلة .

ومرت فى تلك اللحظة الراقصة « كوكب » بكتفيها العاريتين ، وإبطيها المكشوفين وصدرها يتقدمها ليفتح لها الطريق .. وردفاها اللذان يتبادلان الصعود والهبوط متأرجحان ككفتى ميزان .

« وإذا حضر الماء .. بطل التيمم » .. وإذا كانت « كريمة » فى عرف حسين تيمماً يمكن أن تغنى إذا غاب الماء .. فإن « كوكب » فى نظره بحراً زاخراً رجراجاً يبطل كل تيمم .

وترك حسين التيمم لعلى .. ومدّ يده فأمسك بذراع « كوكب » وجذبها إلى اللوج قائلا :

ـــ ياسيدى .. سلامات .. بنْمَسّى .

ونظرت كوكب إلى حسين وهتفت مرحبة :

ـــ أهلا .. سونه .

ثم استقرت على المقعد الخالى بين صلاح وحسين .

وأحست « كريمة » بشيء من القلق خشية أن يجذب الصيد الجديد « علياً » كما جذب صاحبيه ، ورفعت إلى وجهه عينيها الواسعتين وبهما النظرة الراجية المتوسلة .

ولم يملك « على » إلا أن يجيبها من عينيه برد حنون وابتسامة رقيقة .

---

(٣١)

عد ثانية

انتهت وصلة الغناء ، وبدأ اسكتش راقص تقوم به « كوكب » مع بعض الراقصات المساعدات بينهن «كريمة » وغادرت الاثنتان اللوج قبل انتهاء الغناء لارتداء ملابس الرقص والاستعداد للظهور .

وظهرت « كوكب » وقد تجرّدت من ملابسها إلا غشاء رقيقاً من التل تدلت منه خيوط من الخرز والترتر وأخذت تهتز وتتلوى .. وتنحنى وتنثنى ، محاولة الكشف عن أقصى ما يمكن كشفه .. وجعلت تؤرجح صدرها ورد فيها على نغمات الموسيقى .. معبرة بعينيها وشفتيها وكل سماتها عن أقصى إحساسات غزيرة الأنثى .. ملهبة حواس المشاهدين ، مثيرة دماءهم حارة فى عروقهم ، و« على » يرقبها وبنفسه خليط من الإحساس بالرغبة والإحساس بالرثاء والحرج والضيق حتى ظهرت ثلة من الراقصات المساعدات ، يحطن بها منشدات مهتزات .. بينهن « كريمة » لا يستر جسدها أكثر مما يستر جسد « كوكب » وغيرها من الراقصات .

وزاد إحساسه بالضيق والرثاء عندما أبصر « كريمة » تهز ساقيها ويديها .. وقد بدت نحافتها النسبية بجوار امتلاء أجساد غيرها من الراقصات.. وتمنى لو استطاع أن يحضر ملاءة فيغطى بها جسدها ويحملها من فوق خشبة المسرح ويضعها فى مكان أمين مستور .

وانتهى الاسكتش وأسرعت «كريمة » بإبدال ملابسها .. وقد بدت عليها عجلة ظاهرة وسألتها « كوكب » فى سخرية :

ـــ على مهلك يا ست كريمة .. إن الصيد لن يفر .. لقد جاء نقبك على

شونة .

ـــ ليس لأحد بى شأن .

ـــ أنصحك فقط ، بدل أن تضيعى وقتك مع تلميذ يطلب لك شوب بيرة أو كوب ماء ، ابحثى عن زبون « سقع » يفتح لك شيئاً تأكلين به عيشاً .

ـــ لا أريد نصيحة من أحد .

ـــ أنت وشأنك .. ولكن احذرى من أن تمدّى حبالك إلى حسين .. فأنت تعرفين من اختصاص من هو ؟ وتعرفين أن الست « نعيمة » لا تتسامح كثيراً فى اختصاصاتها .

ـــ ليس لى بحسين شأن .

ـــ إنى أحذرك فقط ، وذنبك على جنبك .. أنت تعرفين جيداً أنها لم تعدك فى المرة الأخير إلا بشق الأنفس .

واندفعت « كريمة » فى الممر المؤدى إلى القاعة نافرة غضبى ، وقد تلاحقت أنفاسها وتوترت أعصابها .. وعندما أوشكت أن تدخل القاعة توقفت برهة ، ولكى تهدىء من روعها .. وتكبت مظاهر الانفعال البادية على وجهها ، ولتحاول إقناع نفسها بنصيحة « كوكب .. وعدم تضييع وقتها مع التلاميذ والانصراف إلى ما هو أجدى وأنفع .

ولكنها لم تكد تدلف من باب القاعة ، حتى صوّبت بصرها ناحية « على » والتقى بصره ببصرها ، كأنما كان يرقب مقدمها ، وعلت وجهها بسمة ، فردّ البسمة ، ووجدت نفسها تسير نحوه بلا إرادة ، وقد تملكها إحساس بنشوة ممتعة ، وفى الطريق إليه اعترضتها دعوة من « عمدة » ريفى منتفخ الأوداج والجيوب ، قد أفرط فى الشراب حتى كاد يتهاوى من فوق مقعده .. و لم تكد تمر به ، حتى جذبها من يدها داعياً إياها إلى الجلوس .. وكانت هذه الدعوة هى خير ما ترجوه « كريمة » من ليلتها .. ولكنها أحست منها فى ذلك الحين ضيقاً شديداً ، وتخلصت من الرجل بسرعة متلفتة حولها خشية أن ترى صاحبة الصالة

فرارها منه ، ولكن لم يكن هناك سوى « كوكب » التى بدت فى الباب ووقفت تضرب كفاً بكف قائلة فى دهشة :

ــ لقد جنّت البنت .. إنها لا تجد ما تأكله ، وترفض النعمة بقدمها . لقد تركت الفرصة تفلت من يديها .. إن الرجل ما كان يدعوها .. لولا إفراطه فى السكر .. وفقدانه الوعى والإدراك .. دبور زن على خراب عشه .. أنا مالى .

وكان المسرح مشغولا فى ذلك الوقت باسكتش فكاهى خليط من الغناء والتهريج .. وجلست « كريمة » بجوار « على » وابتسمت قائلة :

ــ أأعجبك رقصى ؟

ــ بل أعجبتنى أنت بلا رقص .

ــ وماذا لم يعجبك فى رقصى ؟

ــ أنا لا أعجب بالرقص بصفة عامة .. إنه يثير فى نفسى شعوراً بالشفقة والعطف على الراقصات ، وأنت فى نظرى خير من مجرد راقصة . لقد تملكتنى رغبة وأنا أشاهدك عارية على المسرح أن أذهب وألفك بملاءة وأحملك بعيداً .

ــ أحقاً تملكتك هذه الرغبة ؟

ــ أجل .

ــ ولماذا لم تفعلها ؟

ــ لعشرة أسباب .. تماماً كأسباب القائد التركي الذى لم يضرب تحية للأسطول الإنجليزى .. فلما حاكموه وسألوه عن سبب عدم تأدية التحية قال إن لديه عشرة أسباب : أولها أنه لا يوجد لديه « جبه خانة » فلم تحاول المحكمة سماع بقية الأسباب وبرأته .

ــ والسبب الأول عندك ؟

ــ إنه لم يكن لدىّ ملاءة .

ــ براءة .. لا داعى لبقية الأسباب .

وضحك الاثنان ، ومضت برهة استغرق كل منهما فى تفكيره .. ثم قطعت

« كريمة » الصمت قائلة :

— لست أدرى أى شيء جذبنى إليك عندما وقع بصرى عليك تعبر باب الصالة ، لقد أحسست كأن بيننا صداقة قديمة . لم يكن وجهك غريباً علىّ .. وتمنيت لو استطعت أن أجلس إليك وأتحدث معك .. وعندما جلست معك .. أحسست أنى وجدت شيئاً كنت أبحث عنه .

وأحس « على » من حديث الفتاة المخلص الذائب ومن عينيها المتوسلتين المستعطفتين كأن خطراً يوشك أن يحيق به .. إن حديثها ونظراتها تبدو كأنها بداية عشق .. وهو لا يستطيع أن يجزم هل يمكن أن يحدث العشق هكذا من أول لقاء وأول نظرة .. عن نفسه هو لا يحس بأكثر من عطف واستلطاف .. ربما كان مبعثه اختلاف الفتاة عن بيئتها وتميزها بمظهرها الخاص عن الجو الذى رآها فيه .. ولو رآها فى غير هذا المكان لما استطاعت أن تلفت نظره .

أجل .. إن أحساسه لا يمكن أن يزيد عن هذا .. أولا لأن المخلوقة ذاتها لا يمكن أن تثير فى نفسه أكثر من هذا .. وثانياً لأنه هو نفسه لا يملك من مشاعره أكثر من هذا .. ولا يتسع قلبه الملىء المحتل المغتصب لواحد سوى محتلة وغاصبة .. والمقارنة بين الطرفين عبث وسخرية .. بل هى شيء لا يمكن أن يخطر له ببال .. إذ يبدو أن مجرد التفكير فيها إهانة لا يغتفرها لنفسه .. وسلطان الغائب الميئوس من لقائه أقوى فى نفسه من كل سلطان ، وحبه أملأ لقلبه من كل حب .

وهو بهذا الشعور الذى لا يزيد على مجرد عطف واستلطاف لا يستطيع أن يقابل هذا الحديث الذائب الحار ينذر بحب على وشك الانبثاق ، ثم .. أكثر من هذا وذاك .. إنه ليس الشخص الذى يستطيع أن ينشىء علاقات فى مثل هذا الوسط ، والمخلوقة مهما كانت لطيفة ومميزة عن سواها .. لا تزيد عن راقصة ، ويتحتم على كل من له علاقة بها أن يكون أحد زبائن الصالة وروّادها .. لا .. لا .. إن كل هذا يبدو كالكابوس الثقيل يطبق على أنفاسه .

وهمست به تستدعيه من شروده .. ونظر إلى عينيها فوجدها تبتسم فى رقة

وتقول له :

— إنك كثير الشرود .. أين ذهبت ؟

— لم أذهب بعيداً .

— ليتك تبقى معى ؟

— إنى معك الآن .

— الآن وبعد الآن .. ألن تأتى معه ؟

وأشارت بعينيها إلى أخيه الـذى انهمك فى مشاهـدة المسرح ، وتساءل « على » :

— إلى أين ؟ .

— إلى البيت .. إنه يعود بعد كل سهرة مع الست « نعيمة » وسأخلى نفسى من كل موعد وسأعود معكما وأكون لك وحدك .

وإذا كان مجرد التلميح بالحديث الناعم ، والنظرات المتوسلة ، قد أشعرا « عليا » بخطر يوشك أن يحل به .. فقد جعلته الدعوة الصريحة يجفل كأن إنساناً قد دفعه فجأة ليلقى به إلى هاوية .. ولم يملك إلا أن يتراجع بعنف ليتقى خطر الدفعة .. وبدا على وجهه التجهم والشرود ، وأطرق ، وأحست « كريمة » بغريزتها الأثر الذى تركته فى نفسه .. وتملكها الندم على اندفاعها وتمتمت فى أسف :

— إنى آسفة .. إذا كنت قد ضايقتك .. كل ما أرجو هو ألا أفارقك بسرعة .. إنى أريد أن أطيل لقاءك ما استطعت .

وكان « على » أرق من أن يصد الطائر المهيض المتوسل .. وأسمى من أن يجرح مشاعره ، فهمس فى لهجة رقيقة حنون :

— أنا الآسف لأنى قد خدشتك من حيث لا أقصد ، وخذلتك من حيث لا أريد .. إنى فى الواقع شخص لا يلائمك فى شىء .. إنى أختلف كل الاختلاف عما تبغين .. إن مجيىء هنا محض صدفة ، ولا أظن هناك ما يبرر لقاءنا بعد ذلك ،

ولا يمكن أن يكون بين أحدنا والآخر إلا ما بين مسافرين فى قطارين يسيران فى اتجاه مضاد لا يكاد يبصر أحدهما الآخر حتى يختفى .. لقد تركت فى نفسى أثراً طيباً ، وأرجو أن أكون قد تركت فى نفسك مثل هذا الأثر .. حتى بعد أن قلت ما قلت .

ولم تجب « كريمة » فقد ازدردت ريقها كأن فى حلقها غصة وازدردت طبقة لامعة بدت فى الظلمة تترقرق عينيها ، وتحجب النظرات المتوسلة التى تفيض منها .

ومدّ « على » يده فربت ظاهر يدها المستندة على ركبتها .. وتساءل هامساً :

— أقد ضايقك قولى ؟

وكست وجهها ابتسامة رقيقة وهزّت رأسها ببطء وأجابت فى صوت به رنة أسى :

— أنت تضايقنى ؟ .. إنى لا أذكر أنى أحسست منذ عشرات السنين بما أحسست به هذا المساء من سعادة .. ولكننى دائما .. بينى وبين السعادة .. تنافر شديد .. لا تكاد تلم بى إلا كلمح البرق .. ليس الذنب ذنبك إنما هو ذنبى أنا .. هكذا حظى فى الحياة .. دائماً تعرض علىّ ما لا أريد .. وتحرمنى من كل ما أريد .

وضحك « على » فى شىء من المرارة وأجاب :

— كلنا كذلك .. تلك هى طبيعة الحياة .

وانتهى الاسكتش الفكاهى ، ودوّت الأكف بالتصفيق ، وأسدلت الستارة . وأضيئت الأنوار .

وأقبل أحد الجرسونات فهمس فى أذن « كريمة » بضعة كلمات أجابته عليها بقولها :

— حاضر .. قل لها سآتى حالا .

وسأل حسين مستفسراً :

ـــ ماذا يقول ؟

ـــ لا شيء .. إنه يقول إن الست تطلبنى .

ونهض « على » واقفاً فتساءل حسين فى دهشة :

ـــ إلى أين ؟

ـــ سأعود إلى المدرسة .

ـــ تعود !! إن الساعة لم تبلغ الحادية عشرة ، وما زلنا فى أول السهرة ؟

ـــ إنى لا أستطيع السهر بعد الحادية عشرة ، وأشعر بالنوم يثقل أجفانى ، والتعب يدب فى مفاصلى .

ـــ انتظر على الأقل حتى ينتهي البرنامج .

ـــ لا .. لا .. لا بد أن أعود الآن .

وسأل « على » صاحبه :

ـــ أتنوى البقاء يا صلاح ؟

ـــ أجل .. سأبقى حتى أتم السهرة .. لست أرى صبراً للعودة.

ومد «على » يده مصافحاً « كريمة » فاستبقت يده قائلة :

ـــ سأوصلك حتى الباب .

ـــ لا داعى للتعب . اذهبى أنت إلى الست نعيمة حتى لا تتأخرى عليها .

ـــ بل لا بد من توصيلك .. إنك ضيفى الليلة .

ومد يده مودعاً أخاه وصاحبه وسأله حسين :

ـــ ألا تنوى الذهاب إلى البيت غداً ؟! إن أبى يريد أن يراك .

وصمت « على » برهة ثم أجاب :

ـــ سأذهب .. وأنت ؟

ـــ سأذهب أنا أيضاً .

ـــ إذاً نلتقى هناك غداً ؟

ثم مد رأسه وأسر فى أذنه :

— لا تذكر لقاءنا .. فالمفروض أنى لم أخرج من المدرسة إلا يوم الجمعة .

وهزّ « علىّ » رأسه هزة موافقة .. ثم غادر اللوج متجها إلى الباب وقد سارت « كريمة » بجواره وسألته قائلة :

— لماذا انصرفت مبكراً ؟

— أتسمين الحادية عشرة مبكراً ؟

— ألم يمكنك الانتظار أكثر من هذا ؟

— بل لم يكن من الخير الانتظار أكثر من هذا ؟

— خير لمن ؟

— لك ولى .

— لى أنا ؟ لماذا ؟

— إن الست قد طلبتك ؟

— كنت سأذهب إليها ثم أعود ؟

— ولهذا قمت ، لكى لا تعودى .

— ولماذا تريدنى ألا أعود ؟

— لأنى لا أستطيع أن احجزك طول الليلة دون أن أطلب لك شيئاً ، وأدعك تهجرين عملك وزبائنك الذين تحصلين منهم على رزقك .

— لقد كنت أفضل الجلوس معك على كل شيء .

وتصادف مرورهما فى تلك اللحظة على منضدة « العمدة » المخمور الذى لم يكد يراها حتى صاح بها مشيراً إليها بسبابته :

— أنا أريد هذا . أريد هذا الولد « المسلوع » . ياناس مزاجى هكذا . يا حضرة الضابط ، تاخد خلو رجل كام وتتركها ؟! أموت فى عود القصب . يا حلو .. أموت فى « عصاعيص النقارية » .

وأحس « على » أن الدم قد تصاعد إلى وجهه ، وغلى فى عروقه ، وتوقف فى مكانه ، وهمّ بأن يتجه إلى الرجل المخمور ولكن « كريمة » جذبته بلطف من

ذراعه قائلة :

ـــ لا تلق إليه بالا .. إنه سكران لا يعي ما يقول .. هيا بنا .

ووصلا إلى الباب ، ووقف « على » ومدّ يده مصافحاً كريمة :

ـــ تصبحين على خير .

ـــ وأنت من أهله .

ولم تترك يده .. بل استبقتها فى يدها كأنما تكره أن تتركه .. وصمتت مطرقة برهة .. ثم رفعت إليه عينيها المتوسلتين وهمست قائلة :

ـــ عدنى أن تعود ثانية ، ولو مرة واحدة ؟

ـــ سأعود !

ـــ كنت واثقة من ذلك .. فلا أظن ما بيننا يمكن أن ينتهى بمثل هذه السرعة الخاطفة .. إذا كان لقاؤنا اليوم لقاء راكبى قطارين متضادين فى الاتجاه .. فغداً قد يغير أحدنا قطاره ويلحق بالآخر .

ولم يكن قول على « سأعود » إلا مجرد إنهاء حديث .. ولكنه عندما رأى تعلق الفتاة بقوله .. كره أن تأخذ عليه وعداً تقيده به .. وتقيم عليه صلة موهومة ، وبدا عليه تجهم نمّ عن أفكاره ، فابتسمت كريمة وأردفت فى مرارة :

ـــ لا تضق بقولى .. إنه مجرد عزاء أعلل به النفس .. عد أو لا تعد ، فذلك شأنك وحدك . لا يستطيع أحد أن يجبرك عليه .

ومرة أخرى أحس « على » بعطف شديد يتملكه نحو الطير المهيض ، ولم يملك إلا أن يقول جازماً وهو يضغط على يدها :

ـــ بل سأعود .. سأعود لكى أراك .

وغادر « على » المكان ، وسار فى طريق عماد الدين الذى خف ضجيجه وهدأت حركته .. وتضاءلت أنواره ، حتى وصل إلى شارع الملكة نازلى ، ووقف ينتظر أتوبيس (١٠) وهو يرقب أرض الطريق اللامعة .. تجرى فوقها عربات التنظيم برشاشاتها وفرشاتها الكبيرة الزاحفة فى مؤخرتها .. والكناسون

يتبعون العربات بمكانسهم الطويلة ، يزيحون بها المياه والقاذورات إلى جانب الأرصفة ، وبين آونة وأخرى يعبر به تاكسى منطلق أو عربة مارقة .

وركب الأوتوبيس ، وجلس بجوار النافذة ، وأزاح زجاجها واستقبل هواء الليل الرطب ، وأخذ منه أنفاساً طويلة ، كأنما يستعين بها على طرد غبار أثارته فى نفسه دوامة طارئة .

ونام « على » ليلته وبقايا الدوامة تطن فى رأسه وتدور فى صدره . لقد كانت « كريمة » أشبه بطائر شارد اقتحم نافذة حجرته ، وأخذ يطوف بها متخبطاً مصطدماً بزجاج النوافذ والأبواب .

ولم يحاول « على » أن يعترف لها بأى مكان فى نفسه ولا فى تفكيره ، ومع ذلك فقد كان لا يكاد يتناساها ويغفل عنها حتى يوقظه منها ما يشبه لطمة جناح الطائر المتخبط فى زجاج النافذة .. ويفتح عينيه فيبصر العينين السوداوين بهدبهما الطويلة ونظراتهما المستعطفة المتوسلة الراجية .. ويكاد يسمع من حفيف الشجر « لا تضق بقولى .. إنه مجرد عزاء أعلل به نفسى .. عد .. أو لا تعد .. ذلك شأنك أنت وحدك .. لا يستطيع أحد أن يجبرك عليه » .

أجل !! إنه شأنه وحده ، ولن يعود ؛ فليس ثمة سبب واحد يمكن أن يربط بين أحدهما والآخر .

. واستيقظ فى الصباح وقد عزم على الخروج من المدرسة والذهاب إلى البلدة وقد أحس بانطلاق تام من قيود الحزن والضيق واليأس التى كانت تطبق على نفسه ، ووجد نفسه يستقبل نسيم الصباح الرطب وشدو أطياره المزقزقة وحفيف أوراقه المهتزة المترنحة بإحساس مرهف سببه مجرد تفكيره فى أنه عائد إلى ناحية « أنجى » .. وأنه سيمر على أسوار قصرها .. ويعبر مكان اللقيا على الترعة وراء كوم الغاب .. وأن احتمال رؤيتها فى عربة عابرة ، أو على ظهر جواد ، قد بات قريباً ميسوراً

وارتدى ملابسه ، وخرج يهز عصاه فى الطرقة وهو يصفر بفمه ، وفى

منتصف الطرقة التقى بسليمان خارجاً من عنبره ، وقد ارتدى لبس النوبتجية وأمسك بأوراق التمام فى يده ، وهتف به سليمان ضاحكا وهو يراه يسير نشطاً فى ملابس الفنسحة ، وقد انهمك فى الصفير :

ـــ ما شاء الله .. أمن حبس مطبق إلى انطلاق تام ؟! إلى أين تذهب فى هذه الساعة المبكرة ؟! ألم تكفك سهرة الأمس ؟!

ـــ لقد عدت فى الحادية عشرة ومررت فى العنبر فوجدتك نائماً .

ـــ ولماذا عدت مبكراً ؟

ـــ لأنى أكره السهر .. وأكره جوّه .

ـــ وإلى أين أنت ذاهب ؟

ـــ إلى البيت .

ـــ إلى البيت فقط ؟

ـــ أعتقد ذلك .

ـــ ألم يطرأ جديد على المسألة ؟

ـــ أبداً .. ولكننى أجد أن طول الغيبة عن البيت شيء لا مبرر له .. وأنا لن أغيب كثيراً .. سأرى والدىّ وأعود بسرعة .

ـــ حتى إذا لقيتها ؟

ـــ لا أظن اللقاء مستطاعاً .

ـــ ولِمَ لا ؟ .. إن اليوم يبدو من بدايته يوماً مفترجا .. انظره وأشار سليمان إلى شجرتين ضخمتين من البانسيانس قائمتين بجوار المدخل فى فناء المدرسة .

ورد « على » متسائلا :

ـــ أنظر ماذا ؟

ـــ شجر الترق .

ـــ ماذا به ؟

ـــ لقد بدأ فى الازدهار .

وكان الطلبة يسمون الشجرتين « شجر الترقى » فقد كان موسم أزهارهما الحمر الناريه يحل دائماً فى يوليو وهو موعد الترقى ، وكان الطلبة يتفاءلون دائماً بهذه الأزهار ، ويرون فيها بشيراً للترقى ، ويرقبونها فى لهفة خشية ألا تزهر فيكون فألا سيئاً بعدم حدوث الترقية .

وضحك « على » قائلا :

ـــ على أية حال إن الترقى واقع أكيد .. سواء أزهرت الشجرة أم لم تزهر .

ـــ ليس هناك فى هذه الدنيا شىء أكيد (ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) قل إن شاء الله دائماً ، واستبشر خيراً بالشجرة المزدهرة .. إنها فأل طيب .

وغادر « على » المدرسة .. سائراً فى الطريق وعيناه ترنوان إلى كل عربة ، وجلس فى الأوتوبيس بجوار إحدى النوافذ اليمنى المطلة على ناحية المدرسة ، وأحس برجفة فى قلبه وهو يقترب من بنائها ، وأخذ يتطلع بعينيه إلى الفناء متوهماً إياها وراء كل ثوب بنى .

وأخيراً وصل إلى البيت وفى نفسه إحساس بالخيبة من جفوة الصدف والضيق بإصرار الحظ على ألا يهبه لقاء بعد أن تعذر اللقاء إلا عن طريقه .

وأقبل على الباب فطرقه ، وبعد لحظة فتحت « بهية » ووقفت أمامه تلقاه بغير دهشة ولا ابتهاج ولا ترحاب مما كان يتوقع أن تلقاه به ، كأنما كانت تنتظر مجيئه ، أو كأنه لم يغب طوال المدة الماضية ، أو كأنه خرج منذ هنيهة وعاد ثانية ..أو كأن بنفسها منه شيئاً ، أو ....

وراعه منها ومن البيت سكون مريب ، وأدهشه استمرار وقوفها بالباب المفتوح كأنما تنتظر شخصاً آخر .. فلما طال بها الانتظار دون أن يبدو أحد .. سألته :

ـــ ألم يأت حسين ؟

وهز « على » رأسه فى دهشة قائلا :

— وأنّى لى أن أعرف .. لقد أتيت وحدى من المدرسة ، وربما يأتى بعد قليل .

— أتيت وحدك ؟ ألم يمر بك الشيخ معوّض ؟!

— الشيخ معوّض ؟. الشيخ معوّض الفقى ؟! .. يمرّ على أنا ؟! .. لماذا ؟!

— ليستدعيك أنت وحسين .

— لماذا ؟! ماذا حدث ؟!

وأغلقت « بهية » الباب وهمست قائلة :

— لا تصح هكذا ، حتى لا تقلقه .

— أقلق مَنْ ؟

— أباك .

— ماذا به ؟

— لقد أصيب ليلة أمس بغيبوبة ، وسقط فى حجرته بلا وعى .. وقد استدعينا الطبيب فى منتصف الليلة .. فقال إنه مصاب بضغط فى الدم ، و ...

ولم يستمع « على » إلى بقية حديثها واندفع إلى الحجرة وهو يحس كأن يداً قاسية تعصر قلبه ، وفى الحجرة المظلمة ، المغلقة النوافذ أبصر أباه راقداً على فراشه مغمض العينين ، وقد جلست بجواره أمه واضعة رأسها بين كفها . ولم تكد تحس بوقع أقدامه حتى أقبلت عليه تضمه إلى صدرها ، وعيناها تهميان بسيل من الدموع وهى تتمتم :

— الحمد لله .. على كل حال .. نزلت « النقطة » على نصف وجهه وذراعه ، وأكد لنا الطبيب أنها ستشفى بإذن الله .

وأحس المريض الراقد بالحركة والصوت ، ففتح عينيه وأبصر بابنه . فأشار إليه بذراعه السليم وهتف به بلسان ملتو .

وانحنى « على » فوقه يقبله فى لهفة . وضمه الأب بيده القادرة بأقصى ما يستطيع من حنو وحب .

وفى المساء عاد « على » إلى المدرسة .. وعبر الفناء فوقع بصره على الشجرتين المزهرتين اللتين بدت أزهارهما حمراء نارية فى مصباح كهربائى ينعكس عليهما من عمود بالطرقة .

وخيل إليه أنه يسمع فى حفيفهما صوت ساخر يردد : « إنه يوم مفترج .. إنه فأل حسن » .

(٣٢)

ضابط مستجد

مرت بعلى بعد ذلك فترة مظلمة كئيبة أطبق عليه خلالها عبء اليأس أثقل مما كان .. ووجد نفسه يخوض معركة الامتحان بأعصاب منهارة محطمة .. لا تلوح له بارقة أمل أو ومضة رجاء تشد أزره وتقوى ساعده .

وانتهى الامتحان دون أن يعرف كيف بدأ ولا كيف انتهى ، وكأنما كان يعبر خلاله ضباباً ثقيلا معتما لا يريه مما حوله شيئاً ، ولم يكن يغادر المدرسة إلا فترة قصيرة يرى فيها أباه .. ثم يعود أدراجه ليرتدى البنطلون الكاكى القصير ، والقميص الأبيض ، والحذاء الكاوتش ، ويحمل مذكرات الدراسة ليخلو بها إما فى حمام السباحة وإما تحت شجرة الجازورينا المجاورة للسجن .

وكان واثقاً من إخفاقه فى الامتحان .. موقناً أنه فقد الكثير من أقدميته .. وأنه لم يعد له أمل فى أن يكون ضمن بعثة الأربعة الأوائل المسافرة إلى وولتش فى انجلترا لدراسة المدفعية ، ولقد أكدت الشائعات السارية بين الطلبة إحساسه .. وتناقلت الألسن تأخر الشاويش « على عبد الواحد » فى الامتحان تأخراً بيناً .

وتعوّد « على » أن يكسو وجهه سيما التجهم حتى أضحى ملازماً له .. وقلت بسمته وندر مزاحه .. وحاول صلاح وسليمان أن يسريا عنه ويبعدا عنه شبح الكآبة الجاثم عليه .. ولكنهما لم يفلحا إلا للحظات كان يضحك خلالها ضحكة سطحية لا يلبث أن يعود بعدها إلى الاكتئاب الذى تأصل فى نفسه .

ولم يكن زملاؤه وحدهم هم الذين ضايقهم اكتئابه ويأسه ، بل لقد أحس به مدرّسوه من الضباط ، وكان الضابط الأحمر الضخم الذى يعمل أركانحرب المدرسة على صرامته البادية وشدته التى يقاسى منها الطلبة يشعر بعطف شديد على

« على » فقد عرف بحكم مركزه نتيجة الامتحان قبل إذاعتها ، وساءه تأخر « على » ، كما ساءه من قبل سوء الحظ الذى لاقاه فى المباريات الرياضية والامتحانات العملية .. وأحس بما يعانيه من ضيق ، وبدت له مظاهر الكآبة جلية على وجهه عندما كان يراه فى أرض الطابور أو فى العرق أو الميس ، وحدث قبيل ظهور النتيجة أن مرّ به « على » فى الطرقة ، وكان الرجل يقف فى منتصفها يرقب سير الطلبة فى أرض الطابور ، ويصيح بهم ناهراً كعادته ، وعندما اقترب منه « على » رفع يده بالتحية واستمر فى سيره ، ولكنه ناداه بصوته الجهورى ونبراته الممدودة صائحاً به :

ـ شاويش على .

وصاح « على » مجيباً بنفس اللهجة الممدودة والصوت المرتفع الذى كان أحد مظاهر العسكرية الجيدة :

ـ أفندم .

واندفع يعدو إليه بالخطوة السريعة ثم وقف ضارباً عقبيه أحدهما فى الآخر رافعاً يده بتحية شديدة .

وردّ الأركانحرب التحية .. وتحدث على غير عادته ، بصوت لا يسمعه كل من فى المدرسة وبدا كأنه يبذل فى ذلك جهداً خاصاً ، حتى يقتصر سماع الحديث على « على » وحده .

قال وفى لهجته نبرات الإمارة والشخط التى لم يستطع التخلص منها :

ـ اسمع يا شاويش على .. مالك تبدو حزيناً هكذا ؟ ماذا بك ؟

ـ لا شىء يا فندم ؟

ـ بل بك شىء .. أنت تحس أنك قد تأخرت ، ومن أجل هذا أنت حزين .. لقد تأخرت فى ترتيبك فعلا .. وتأثرنا جميعاً لتأخرك .. لأننا نعلم أن ترتيبك كان يجب أن يكون خيراً من هذا . ولكنها مسألة سوء حظ ، كلنا نصاب بسوء الحظ فى بعض مراحل حياتنا .. إذا كان سوء الحظ قد أصابك فى أدق مراحل

حياتك العسكرية التي تتقرر فيها أقدميتك .. فإننا عوّضناك عن الترتيب خيراً ، إذ عينت فى السوارى بإجماع الآراء .. آراء إدارة المدرسة وإدارة السوارى . إنك تتمتع بسمعة طيبة جداً ، وإذا كنت لم تحصل على ترتيب متقدم .. فقد حصلت على المركز الذى لا يفوز به إلا أول الدفعة ، وهذه أول مرة نشذّ فيها عن هذه القاعدة ، ولقد شذذنا عنها لشخصك أنت ، وليس لوساطة أحد من أجلك ، وأرجو أن يكون فى قولى هذا عزاء لك على تأخرك فى الترتيب . اذهب وفك عقدة وجهك . لا أريد أن أراك حزيناً بعد الآن .

ثم صاح به فى لهجة آمرة خشنة وقد تقطب جبينه وتجهم وجه :

ـــ انصراف .. ولا تبح لأحد بما قلت لك لأن النتيجة ما زالت سرية .

ورفع « على » يده بالتحية .. ثم استدار دورة كاملة وانطلق فى سبيله .

ولقد أحس « على » من قول الرجل بكثير عزاء ، عزاء كان مبعثه شيئاً آخر أكثر من ذهابه إلى السوارى وتقدير المدرسة لشخصه ، وهو إحساس الرجل الخشن الغليظ بضيقه وألمه ، ورغبته فى إزالة أحزانه وتخفيف وجيعته .. رغبة كانت من القوة بحيث جعلت الرجل ـــ وهو المفرط فى حرصه ودقته وعسكريته .. التشديد فى ضبطه وربطه ـــ يجازف بإعلان النتيجة وينبئه بالمحل المعين فيه بمنتهى الصراحة رغم أن النتيجة ما زالت سرية لا يجسر على إذاعتها أحد .

وأخيراً حلّ يوم التخرج . ولم يكن « على » يحس فيه بالفرحة التى كان يحسها زملاؤه والتى كان يتوقع هو نفسه أن يحس بها ، وأعلنت النتيجة ، ورغم وثوقه من التأخير بها فقد أحس بمرارة الفشل ، وهو يجد نفسه قد انزلق فى وقفته من الثالث إلى العاشر . وغادر صالة الجمباز بعد إعلان النتيجة فى جمهرة زملائه الذين اختلط بهم أولياء أمورهم فرحين مستبشرين ، وتسلل وحيداً مكتئباً ليحمل حقيبته من العنبر ، ويغادر المدرسة .

وفى الطريق إلى العنبر أقبل عليه سليمان يضمه فى فرح قائلا :

ـــ وراءك إلى النهاية .. يبدو أن القدر قد صمم على ألا يفرق بيننا . أتذكر يوم

قبولنا فى المدرسة سوياً !! لقد كانت أقصى أمنية لى أن أكون معك فى سلاح واحد .. فما بالك وقد أصبح هذا السلاح .. السوارى .

وأجابه « على » بابتسامة باهتة لم يستطع أن يمحو بها الاكتئاب البادى على وجهه .. وسأله سليمان :

— ما بالك ياعلى ؟ أتظل مكتئباً حتى فى يوم تخرجك ؟! إنه أسعد أيامنا .. ماذا يحزنك ؟! ألانك لم تذهب إلى البعثة .. فى ستين داهية البعثة وأصحابها .

— ليست البعثة وحدها يا سليمان .. البعثة وغيرها .. ليس هناك شيء يستحق الفرحة .. مرض أبى .. الإخفاق المتوالى .. والإرهاق المضنى .

— إن أباك تحسنت حالته و لم يعد به ما يزعجك .. والفشل قد انتهى ، والإرهاق قد زال .. ولكننى أعرف جيداً ما يضايقك .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنها هى السبب .. ولكنى حتى من هذه الناحية يبدو لى أن ما صرنا إليه خير مما كنا فيه .. بل خير من أى شىء يمكن أن نكون .

— لست أرى ذلك .

— كيف ؟ .. إنك الآن قد أضحيت ضابطاً ، وأضحى وقتك ملكك وفرصة اللقاء ميسورة سهلة .. أو على الأقل أيسر مما كانت .. وهذه البعثة التى فقدتها قد جاء فقدها فى صالحك .. إنك تعتقد أنك ستعود منها وأنت أهل لها .. ولكنى أعتقد أن غيبة أربع سنوات كانت ستطردك من ذاكرتها .. وتمحوك من قلبها .. إنك حسن الظن بالزمن وبالبعد ، إنهما كفيلان بقطع كل ما بينكما .. أما الآن فأنت أمامها دائماً .. وأنت ضابط سوارى .. يرمقك كل إنسان بعين الإعجاب والحسد .. إن رأسك برأس أى أمير من أقاربها .. ألم يكن أبوها نفسه ضابط سوارى ؟ احمد الله وألق عن كاهلك هذا الاكتئاب الذى تعوّدته بطول الصحبة ومضى المدّة .. أنا لاأفهم فى الحب كثيراً .. ولكنى واثق أن هذا الاكتئاب مبعثه طول الفرقة وفرط الحرمان .. ولست أرى مايبرره الآن وأنت

موشك على لقائها .. فإنك ولا شك ملاقيها قريباً .. فلك عقدة جبينك .. يفرجها الله أمامك .. هيا يا أخي ولا تدعني أندم على تعييني معك فى السوارى .

ولم يملك « على » إلا أن يضحك ، وحمل حقيبته وسار مع سليمان مغادرين المدرسة بعد أن ودعا زملاءهما الذين ارتدى البعض منهم حلة الضابط التى أعدّها منذ الصباح حتى يرتديها بعد إعلان النتيجة ، وحتى لا يخرج من المدرسة إلا ضابطاً .

ووصل « على » إلى البيت واستقبله « حسين » على الباب ووراءه « بهية » ولم يكد يراه حتى هتف به :

ـــ مبروك يا حضرة الضابط .. لقد أضحى لك علىّ حق التعظيم .. فى أى وحدة عينت ؟

ـــ السوارى .

ـــ هائل .. إن شاء الله سأعين أنا أيضاً فى سوارى البوليس .. حتى نأتى إلى هنا سوياً بالخيول وندوس على أعناق من لا يعجبنا .

وصافحته « بهية » وقالت ضاحكة :

ـــ ولكن لماذا ترتدى هذه البدلة ؟! لماذا لا ترتدى البدلة ذات النجوم ؟

ـــ ليس هناك مبرر للعجلة .. ما زال أمامى أسبوع أستعد فيه قبل أن أقدّم نفسى للسوارى .

وصاح حسين :

ـــ يا قلبك .. أتنوى الانتظار أسبوعاً قبل أن ترتدى البدلة ؟

ـــ سأنتظر حتى ينتهى الترزى من صنعها .

ـــ إن برودك يقتلنى .. سأذهب إليه اليوم ولا أتركه حتى يسلمها لى .. إنى أريد اصطحابك للزهو « للعياقة » بك .

واستقبلته الأم مزغردة مهللة وضمته إلى صدرها فى شوق صائحة :

ـــ عقبى لك يا حسين .

ثم رفعت يديها إلى السماء داعية :

ـــ ربنا يحيينى حتى أراكما عريسين وأفرح بزواجكما .

وأجابها « حسين » ضاحكا :

ـــ فال الله ولا فالك .

وبدا الامتعاض على « بهية » وتساءلت مستنكرة :

ـــ أقد أضحى الزواج فألا سيئاً ؟

وربتت الأم ظهرها ضاحكة وقالت :

ـــ لا تصدقى قوله .. إنه يمزح .

وتخلص « على » من أحضان أمه ودلف إلى حجرة أبيه وكان يجلس على الأريكة وقد بدا عليه الهزال وذهبت عنه أعراض الشلل الذى أصيب به وإن كانت قد تركت آثاراً تبدو فى ثقل نطقه وبطء حركته .

وأقبل « على » على أبيه فضمه فى شوق .. ولم يستطع الأب أن يمنع عبراته من الانسياب على تجاعيد خديه .. وتحسس رأس ابنه بحنان وقال بصوت خفيض كأنما يحدث نفسه :

ـــ مبروك يا على .. الحمد لله الذى شفانى .. حتى أراك كما أريد ، وحتى أرى أن تعبى لم يذهب سدى .. إنى أود أن أراك بالبدلة ذات النجوم ؟

وضحك « على » وردد ضحكته حسين الذى وقف بالباب مهنئاً صائحاً :

ـــ قل له ياأبى .. هذا البارد .. إنه يقول إنه ما زالت أمامه فرصة أسبوع .. كأن البدلة عبء ما زال أمامه فرصة للتحرر منه .. سأذهب الآن إلى الترزى وأهدده بالقتل إن لم ينه البدلة ؟

وضحك الأب قائلا :

ـــ لا ضرورة للقتل .. فلست أحب .. لكى أراه ضابطاً .. أن أراك أنت سجيناً .

وقال « على » :

— إن موعدها غداً ، وأعتقد أنه لا بد أن يكون قد أتمها .

وانتهى « على » من « زفة » الاستقبال وضجيجها واستقر فى حجرته ، وبدأ الشوق الكامن واللهفة المكبوتة تتحرك من مكمنها .. وأحس بحنين شديد إلى رؤية « أنجى » أو السماع عنها .. وود لو حدّثه أحد عن أخبارها ، أين هى ؟ وماذا تفعل ؟. ألم تسأل عليه ؟! أقد سلمت بالقطيعة ، واستكانت للفرقة ؟

ولكن سؤال من فى البيت .. بعد كل ما حدث .. كان شيئاً لا يجسر على إتيانه .. وكان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يحدثه عنها أو ينبئه بخبرها هو حسين ، ولكن حسين .. يبدى يأسه الدائم من علاقته بها ، وهو فوق ذلك لا يكاد يدرى عنها شيئاً ، فهو لا يستقر فى الدار لحظة ، وهو مشغول بمغامراته وسهراته عن محاولة تتبع أخبارها .

ولم يكن أمام « على » سوى الاستسلام للواقع .. والاقتناع بالأحلام والأمانى .. والطواف بمواقع الذكريات خفية حتى لا يبصره بها أحد .. والتعلل بصدفة حسنة للقاء يجود به القدر .

ومرّ الأسبوع .. وجدران القصر تقف أمامه كأنها السد القائم بين إبليس والجنة ، لا أمل فى زواله ولا رجاء فى تخطيه ، والأنباء ممنوعة والصلة مقطوعة .

وحلّ يوم تقديم الضباط الجدد أنفسهم إلى وحداتهم .. يوم الرحيل إلى السوارى .. وكان « على » قد علم أنه لا بد له من سكنى الميس لأن ميس السوارى يحتوى على ثمانية حجرات يقطنها أحدث ثمانية ضباط .. وكلما ضم إلى السلاح ضابط حديث احتل إحدى الحجرات وأخرج منها الضابط الأقدم ليقطن فى الخارج ويحصل على بدل السكن .

ولو لم يجبر « على » على سكنى الميس لسكن من تلقاء نفسه ، فقد كانت المسافة بين بيته والسوارى تجعل حضور طابور الصباح المبكر متعذراً .. إلا إذا بات فى الميس بجوار الشكنات والإسطبلات .

واجتمع الضباط فى قسم القاهرة وألقى فيهم قائد القسم النصيحة المعتادة بأن

يكونوا مثالا للجد والاستقامة .. وأوضح لهم العبء الملقى على أكتافهم وحاجة مصر إليهم ، وأوصاهم بالضبط والربط والمحافظة على هيبة الحلة العسكرية التى يرتدونها .

وتفرّق الضباط بعد ذلك كلٍ إلى وحدته ، واصطحب « على » صاحبه « سليمان » إلى إدارة السوارى ، وسار كل منهما يقرع الأرض بكعب حذائه الطويل محدثاً شخللة ورنيناً بتروس المهماز .. وكأن كلا منهما يلبس زوجاً من الخلاخيل وقد وضعا يسراهما على جفير السيف السوارى ذى المقبض الكروى المزركش اللامع حتى لا يتأرجح بجوارهما .

وعبرا بوابة السوارى .. وردّا على تحية عسكرى « القره قول » ، الذى وقف فى الطرقة المشرفة على الشارع ممسكا بمزراقه ذى الفلانديرة الحمراء الخضراء ، وسار فى الطريق الطويل المؤدى إلى الثكنات ، والمحدود يمينه بسور الحملة الميكانيكية (التى أضحت سلاح خدمة الجيش فيما بعد) ، ويساره بأرض فراغ متسعة متربة (أصبحت فيما بعد ثكنات الآلايين الميكانيكيين) وقد بدت فى نهايتها حديقة خضراوات تضم برجاً للحمام وبيتين صغيرين مائلى السقف على الطريقة الإنجليزية (أصبحا فيما بعد رياسة الفرسان) .

ووصل الضابطان المستجدان — كما استمرا يسميان حتى تخرجت الدفعة التالية — إلى مكتب أركان الحرب ، وهو يحتل مع مكتب القومندان ومكتب الكتيبة بناء أرضياً قديماً سميك الجدران يتوسط صف الأبنية التى تتكوّن منها عنابر العساكر ومكاتب الأورطتين السوارى .. وقد أحاط بالبناء سور عال من الدرنتة العجوز الخضراء ، وبدت فى مواجهته أرض فراغ بين صف الإسطبلات المواجه لصف المكاتب والعنابر سوّرت بقوائم خشبية ، وقد علما فيما بعد أنها الزريبة المعدة لتربية الخيول المستجدة .

استقر على وسليمان منكمشين أمام الصاغ أركان الحرب وقد جلس على مكتب يتوسط الحجرة ، وعلى يساره مكتب آخر جلس عليه اليوزباشى

الركبدار الذى يقوم بتعليمهما الركوب فى المدرسة .

وكان أركان الحرب بادى الرقة والتهذيب ، ودق جرساً بجواره فدخل الجندى المراسلة ، فقال له فى صوت منذر :

ـــ هات فنجانين من القهوة ، وابعث الشيخ قرد .

وكان من السهل على « على » أن يدرك أن فنجان القهوة للشرب .. ولكن الشيخ « قرد » لماذا يطلبه ؟! بل لماذا يوجد عندهم أصلا . هذا الشيخ « قرد » بل أكثر من هذا . لماذا يكون القرد شيخاً .. أو الشيخ قرداً ؟!!

وبعد برهة طرق الباب فى رفق ثم دخل بلوكامين وقور هادئ يسترق الخطا حتى وقف بجوار مكتب أركان الحرب دون أن ينبس ببنت شفة .

ورفع الرجل وجهه عن بضع أوراق أمامه ثم قال له :

ـــ اسمع ياشيخ قرد .

ووضح الأمر لعلى واستراح ذهنه وأخذ يتابع حديث الرجل وهو يردف قائلا :

ـــ اكتب فى دفتر الأوامر وصول حضرتى الضابطين وسأذكر لك الأورطة التى سيلحق بها كل منهما فيما بعد .

ـــ حاضر يا فندم .

ـــ واكتب إنه ستجرى غداً تجربة لطابور التتويج سيحضرها قائد القسم فى أرض الطابور ، وراء الأورط المشاة .

ـــ حاضر يا فندم .

ـــ واكتب لحضرات الضباط فى الدور الداير أنه سيقام فطار عمومى يوم الخميس القادم..

وظل أركان الحرب يملى أوامره .. والشيخ « قرد » يجيب بحاضر يا فندم ، حتى انتهت الأوامر ، وانتهى « على » وصاحبه من شرب القهوة ، وهما ما زالا منكمشين فى مقعديهما .

وغادر الرجل المكتب .. فهمّا بالنهوض ولكنه أجلسهما قائلا :

ــ انتظرا قليلا .. حتى أنبئ سعادة القومندان بحضوركما .. حتى تمثلا أمامه .

وبعد لحظة عاد يضرب الأرض بحذائه الطويل قائلا لهما :

ــ تفضلا .

ودخل الاثنان مكتب القومندان .. رجل ربعة ، عريض الأكتاف ، قد اختفى نصفه الأسفل وراء المكتب وعلت رأسه صورة « للملك » تقاطع فوقها مزراقان بالفلانديرات تتوسطهما خوذة مائلة .

وألقى الرجل بضع نصائح خاصة بالاهتمام بالعساكر وبالخيل والعناية بالسروج والإسطبلات ، ثم وجه القول إلى الصاغ الواقف بجواره :

ــ ليذهب كل منهما إلى إحدى الأورطتين .. الأقدم فى برنجى ، والأحدث فى كنجى .. من فيكما الأقدام ؟

وأجاب « على » وقد رفع يده إلى جانبه كأنه ما زال تلميذاً فى المدرسة :

ــ أفندم :

ــ حسن .. أريد منكما أن تكونا مثلا طيباً .. إن مهمة ضابط السوارى ليست بالمهمة الهينة .. إنها ليست مجرد حذاء طويل ، وحصان يركب .. إنها تحتاج إلى مشقة سنين حتى يضحى الواحد منكما ضابط سوارى أصيلا .. تفضلا .

ورفعا أيديهما بالتحية .. ثم استدارا للخلف ، وغادرا الحجرة .

وذهب « على » للأورطة الأولى وهو يحس برهبة الغربة التى تصيبه كلما غيَّر موطنه وبدَّل مُقامه .. كان يشعر بخوف من كل ما حوله ، من الضباط ، وصف الضباط والجنود .. والخيل .. كانت تملأ نفسه وحشة تدفعه إلى الرغبة فى الفرار ، ولم يكن بنفسه أبداً أى إحساس بأنه ضابط محترم ، وأنه سيكون له سلطان على هؤلاء العساكر الذين يمرون به .. وأنه سيكون صاحب إسطبل ملىء

بالخيول والسروج .

وكان للأورطة مكتبان : مكتب للقائد وأركان حربه ،ومكتب آخر للبوكامين .. أما الضباط فلم يكن مفروضاً عليهم أن يبقوا فى المكاتب .. واتجه « على » إلى مكتب البلوكامين .. حيث وجد بعض الضباط واقفين ببابه ، وحياهم تحية عسكرية مضبوطة فرحبوا به وهنأوه ، ودخل أقدمهم لينبئ أركان الحرب بقدومه ، فطلب منه أن يدعه ينتظر حتى ينتهى القائد مما بيده من أعمال .

ووقف « على » ينتظر وقد ضاق بالوقفة وبضغط الحذاء على قدمه .. بعد برهة طلب قومندان الأورطة الضباط ، فدخل « على » فى أعقابهم واصطفوا أمام مكتبه ، ووقف « على » فى طرف الصف وقفة انتباه مضبوطة .. وقد شدّ جسده ، وأبرز صدره ، واتخذ نقطة فى الحائط أمامه لا يحوّل عنها بصره ، إلا بقدر ما يسترق النظر إلى الشخص الجالس أمامه ثم يعيد بصره إلى الأمام مرة أخرى .

ووجد « على » فى قومندانه الجديد رجلا وسيم الوجه .. فارع القامه ، لم يستطع المكتب الموضوع على منصة خشبية (حتى يميز مكتب القومندان من مكتب أركان الحرب الموضوع على الأرض فى مواجهته) أن يخفى إلا قدراً يسيراً من جسده الذى تمددت ساقاه من أسفله وتعالى صدره وكتفاه من أعلاه .

وكان التجهم يبدو على وجهه ، وقد أخذ يقلب أوراقاً فى يده ثم يتحدث دون أن يرفع بصره عنها قائلا فى لهجة زاجرة :

ـــ هذه نتيجة مخزية .. هذا لا يمكن أن يكون تفتيشاً .. إن العناكب تعلو أسقف الإصطبلات .. والخيول كالزفت .. والسروج كالقطران .. كل هذا وأنتم تعلمون أن قائد القسم سيحضر الطابور غداً .. ماذا تنتظرون حتى تنظفوا الخيول والسروج ؟! أتنتظرون أن ينزل ملاك ليفتش عليها ؟! . اسمع يا حضرة اليوزباشى (موجهاً القول إلى اليوزباشى أركان حرب الأورطة) حضرات الضباط لا يغادرون الثكنات حتى يعدوا بلوكاتهم . وسأعيد التفتيش مرة ثانية

بعد الظهر .. مفهوم ؟

وهنا فقط رفع بصره عن المكتب ، وأخذ يسأل الضباط واحداً واحداً .

ـــ مفهوم يا عبد الرحمن افندى ؟

ـــ أيوه يافندم .

ـــ مفهوم يا عثمان أفندى ؟

ـــ أيوه يا فندم .

حتى وصل إلى آخر الصف فوجد وجهاً جديداً لم يره من قبل ، وقد شدّ جسده وأبرز صدره ، وأخذ يحملق فى الحائط .. ونظر إليه فى دهشة . ثم نظر لأركان الحرب وتساءل قائلا :

ـــ ودا يبقى إيه ؟

وأحس « على » فى تساؤل الرجل نوعاً من السخرية والاستخفاف والاحتقار .. وتصاعد الدم إلى وجهه ، ولكنه استمر فى وقفته المصلوبة ينظر أمامه .

وحاول الضباط جهدهم أن يكتموا الضحك الذى يصطخب فى صدورهم وأجاب أركان الحرب منقذاً الموقف :

ـــ إنه الضابط الجديد .

ـــ وماذا أحضره الآن ؟

ـــ لقد دخل مع الضباط .

ودون أن يوجه الرجل إليه كلمة واحدة قال لأركان الحرب :

ـــ دعه ينتظر فى الخارج .. ولا يحضر حتى أطلبه .

وخرج « على » وهو يحمل أول لطمة أصابته فى عزته كضابط .. وما لبث أن لحق به أركان الحرب قائلا فى نوع من التعطف لكى يضيع أثر قلة ذوق القومندان :

ـــ لقد كان جناب البكباشى غاضباً على الضباط لإهمالهم التفتيش .. إنه

سيطلبك حالا .

وبعد برهة طلبه الرجل ، ولم يعتذر إليه .. بل كرر له النصح وطلب منه أن يكون صلباً شديداً .. لأن الطراوة لا تتفق مع ضابط السوارى .. وعليه أن يتحمل كل قسوة لكى يكون ضابطاً جيداً .

وتسلمه أركان الحرب بعد ذلك فأخذ يشرح له ما استطاع فى الأورطة وأنبأه أنه سيلحق ببلوك إبراهيم افندى لأنه ضابط قديم .. شديد الضبط والربط ، وأنه سيستفيد منه كثيراً . ثم أخبره أن العربة البروسيانى ستكون معدّة لنقل مهماته إلى حجرته بالميس فى أى وقت ، وأنه سيطلب من إبراهيم افندى أن يأمر بإعدادها له .

وفى تلك اللحظة أقبل إبراهيم بقامته الطويلة ووجهه الأسمر ، وأنفه الضخم ، ورأسه الذى أخفى صلعته طربوش طويل مائل على أحد الحاجبين ، وقال له أركان الحرب وهو يقدم إليه علياً :

ــ لقد أمر جناب البكباشى بأن يتمرن الضابط الجديد معك ، وهو يريد منك أن تجعله خيراً منك .

ــ حاضر يا فندم .

وفى عصر ذلك اليوم شاهد أهل البلدة أمام بيت « على » عربة يجرها بغلان ويجلس فى مقعدها جنديان من السوارى وقد حملت العربة بفراش ، ودولاب ، وسجادة قديمة ، وشماعة ومقعدين ، وقد وقف « على » يرد تحيتهما وهما يتحركان بالعربة مغادرين الدار ..

وقبيل المغرب شاهد ضباط السوارى القدامى الجالسين فى حديقة الميس العربة البروسيانى تقف بباب الحديقة ، كما شاهدوا الأثاث المتواضع يحمله عساكر الميس ليضعوه فى الحجرة التى خصصت لأحد الضباط الجدد .

وبات « علي » ليلته الأولى فى الميس وملء نفسه وحشة الغربة ومرارة الفرقة وآلام الشوق والحنين .

(٣٣)

من يدريك ؟

كان السوارى كغيره من وحدات الجيش فى تلك الفترة منهمكا فى الاستعداد لطابور التتويج ، ولم يكن لعلى وصاحبه نصيب فى ذلك الطابور باعتبارهما ضابطين مستجدين لا يؤتمنان على الركوب فى مثل هذا الاستعراض الكبير ولذلك اقتصر عملهما فى طابور الصباح على الركوب فى الخانة مع العساكر المستجدين . وأقبل « على » فى الصباح المبكر ليخرج فى أول طابور له ممتطياً حصانه . وكان المفروض أن يعد للضابط المستجد حصان هادئ حتى يتعوّد الركوب بالحذاء الطويل ، وحتى تذهب عنه الرهبة وتشد ركبتاه فوق السرج « على حد تعبير السوارى » .

واقترب « على » من الحصان الذى أعده له إبراهيم أفندى من بلوكه الذى أمر بالتدريب فيه ، وكان « على » يحس بشيء من الرهبة وهو يوشك أن يعتلى حصانه كضابط لأول مرة فى حياته .. وكانت خشيته مبعثها الخوف من احتمال الوقوع وهو ضابط محترم بحذائه الطويل وحلته الأنيقة أمام العساكر المتطلعين إليه بعين فاحصة مترقبة .. محاولين أن يستشفوا من كل حركة من حركاته أى نوع من الضباط يكون ؟ صارماً جاداً .. أم مهزاراً فرحاً .. قاسياً شديداً .. أم ليناً عطوفاً ؟! قوياً أم ضعيفاً ؟. قديراً أم عاجزاً ؟

لقد سبق له الركوب طول العامين الماضيين .. ركب كثيراً .. وتسلخت ركبتاه كثيراً ، ووقع كثيراً . ولكن وقوعه وقتذاك كطالب لم يكن يضيره ، فقد كان فرداً فى الطابور ضمن عشرات الطلبة وكان المفروض فيه أن يقع كما يقع غيره .. أما الآن .. وقد أضحى ضابطاً فإن الوقعة ستسجل عليه .. وستبقى

ملاصقة له مدى حياته كضابط سوارى .. هذا هو ما كان يجول بخاطره ويملؤه رهبة وخشية وهو يقترب من الحصان الذى أمسك بأسراعه العسكرى السائس .

وزاد من رهبة « على » منظر الحصان القلق المتوثب ورأسه المرفوع وحوافره التى لا تفتأ تضرب الأرض بين آونة وأخرى . ولم يكن منظر الحصان المتيقظ الجميل يوحى بالهدوء .. وأحس « على » برهبته تتضاعف وهو يجد السرج الذى شدّ به الحصان سرجاً صغيراً ملتصقاً بظهر الحصان كأنه ورقة التوت أو المايوه البيكينى ، بحيث لا يشعر راكبه بالأمان الذى يحس به وهو يغوص فى بحر السرج النفراتى المقعر بين طرفيه العاليين : المؤخرة .. والمقدمة المسماة القربوص والتى تجد فيها يد الراكب منجاة من الوقوع وملاذاً من « المرمطة والبهدلة » ولا كان كسرج الضباط الذى تعلوه القبوة المشدودة فى مقدمته ، مسند يسند إليه الراكب ركبتيه ويشعر بأمان نسبى وطمأنينة مريحة .

وتذكر « على » وقعته من حصان الأمير وأقبل يختبر الشريحة التى شد بها السرج إلى ظهر الحصان ويختبر كذلك الأسراع المشدودة فى حديد اللجام .. وعندما اطمأن إليها لم الأسراع بيده وأمسك الركاب المعدنى ودس فيه قدمه اليسرى ثانياً ركبته بقدر ما يسمح بنطلون الركوب الجديد والحذاء الصلب الطويل .. ولم تبد على الحصان أية رغبة فى الاستسلام للركوب .. وأخذ يدور حول نفسه ، ويضرب الأرض بقدميه ، و « على » يحاول تقصير الأسراع حتى يوقفه .. والعسكرى السائس يصيح به .. أو بها .. (كما أفصح من صيحته) :

— بس يا بنت الخسيسة ... اتفضل اركب يا حضرة الضابط .

وقفز « على » قفزة قوية وضعته على ظهر الفرس . ولم تكد الفرس تحس بثقله عليها حتى بدت وكأنما قد أصابها مس من جنون أو كأنما ركبها جن .. كان أول ما فعلت الفرس الحمقاء هو أن شبت بقدميها الأماميتين وأرسلت صهيلا طويلا كأنه صيحة طرزان .

وتملك « على » فى أول الأمر خوف شديد .. وأحس كأن قلبه يوشك أن يسقط فى جوفه .. ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ووجد أن سمعته قد باتت معلقة بظهر هذه الفرس الجامحة فألصق ركبتيه وفخذيه بجانبيها ومال إلى الأمام حتى لا يختل توازنه فيسقط .

ويبدو أن الفرس أحست بعدم جدوى حركتها تلك فى إسقاط الراكب فهبطت بقدميها الأماميتين المرفوعتين ولم تكد تستقر بهما على الأرض حتى أطلقت ساقيها الخلفيتين فى الهواء بعدة ضربات سريعة متوالية مقوسة ظهرها عقب كل ضربة حتى أحس « على » أنه يوشك أن ينخلع من فوق ظهرها ليسقط صريعاً تحت أقدامها .. وازدادت ساقاه تشبثاً بالسرج .. واضطر أخيراً إلى أن يحيط عنقها بذراعيه حتى يحفظ توازنه .

وكلت الفرس من الضرب « بالجوز » والبرطعة بساقيها فى الهواء .. وراكبها ما زال مستقراً على ظهرها ويبدو أنها كانت قد أقسمت بأية حال ألا تبقيه .. أو أنها لم تكد تطيق أى ثقل على ظهرها .. فلم تجد بداً لكى تلقيه من فوقها إلا أن تسقط به على الأرض . وفعلا لم تكد تستقر لحظة بعد أن انتهت من الضرب بساقيها فى الهواء حتى انطرحت على جانبها .. ووجد « على » نفسه طريح الأرض معها .. فاقداً آخر أمل فى الاحتفاظ بهيبته واتقاء السقوط بعد أن تهاوت هى نفسها .

وأحس بثقلها يضغط على ساقه اليسرى .. ولكن لم يدم ضغطها طويلا حتى نهضت هى وحدها مندفعة تعدو فى أنحاء القشلاق بين الإسطبلات والمكاتب مخلفة إياه راقداً على الأرض معلنة عن سقوطه بأكبر ضجة ممكنة .

ووقف « على » وهو يحس بكثير من الحيرة والخجل والضيق والغيظ من أن يفعل به سوء الحظ الشيء الوحيد الذى كان يخشى وقوعه .

وفى تلك اللحظة أقبل الصاغ أركان الحرب بحصانه ، وأعد « على » نفسه لسماع اللوم والتأنيب والسخرية من عجزه فى الركوب ، وأعد نفسه كذلك

لسرد الدفاع عن نفسه ، ولكنه وجد الصاغ يهبط من حصانه ويقبل عليه جزعاً سائلا إياه :

ـــ هل أصابك شيء ؟

ـــ لا يافندم .

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ لقد سقطت بى الفرس .

وفى تلك اللحظة أقبل عسكرى يسحب الفرس المنطلقة ، ونظر إليه الصاغ فى دهشة ثم صاح :

ـــ أين إبراهيم أفندى ؟

ـــ فى الإسطبل .

ـــ أرسله إلىّ .

وأقبل إبراهيم أفندى بقامته الطويلة ورأسه المائل ، يضرب الأرض بقدميه ورفع يده بتحية شديدة .. وطرق عقبيه إحداهما بالأخرى قائلا :

ـــ أفندم .

ـــ من أى بلوك هذه الفرس ؟

ـــ من بلوكى أنا .. إنها الفرس المستجدّة .

ـــ من الذى أمر بشدّها ؟

ـــ أنا يا فندم .. لأن كل الخيل القديمة مستعملة فى طابور الاستعراض .

وصرخ الصاغ فى وجهه صائحاً :

ـــ ياإبراهيم أفندى .. تشدّ الفرس المستجدة للضابط المستجد .. وتقول لى إن الخيل القديمة كلها فى الطابور .. بناقص حصان يا إبراهيم أفندى .. أو شد له حصان من بلوك آخر .. أو لا تشد له أصلا .. أى شيء ممكن بدل أن تركبه هذه الفرس المجنونة التى لايقدر على ركوبها إلا ركبدار قديم .. تفضل يا إبراهيم أفندى شد له حصاناً آخر من فضلك .. حصان من خيلك أنت .. مفهوم ؟

ــ مفهوم يافندم .

وهكذا تلقى « على » اللطمة الثانية فى حياته الجديدة كضابط سوارى .

واستمرت بعد ذلك طوابير « التجارب » ، واستمر « على » و « سليمان » يخرجان مع المستجدين ، حتى حلّ يوم الاستعراض .

كان يوماً مشهوداً ، باكرت فيه وحدات الجيش فى الخروج من ثكناتها . وتصاعدت أنغام الموسيقى العسكرية تدوى فى جنبات شارع الخليفة المأمون ، وأخذت القوات تصطف فى الساحة المتسعة المسماه أرض الرصدخانة الواقعة أمام السوارى فى كوبرى القبة .

وانتهى الاصطفاف وبدأت تخفت أصوات النداءات التى أعد بها الضباط وحداتهم من « انتباه » إلى « حذا » إلى « كتفاً سلاح » ، وتولى زمام الطابور قائد قسم القاهرة ، وقد وقف بحصانه فى منتصف الساحة أمام القوات المصطفة ووراءه ضباط أركان الحرب على خيولهم القلقة التى لا تفتأ تهز رأسها الذى تدلت أسفله « شرّابات » حمر خضر ، ووراءهم قد وقف الجاويش الإشارجى يحمل فى يده علماً يخفضه ويرفعه حسب نداءات القائد ليوحّد حركات الطابور . وعندما أعد الطابور أدى قائد قسم القاهرة التحية لرئيس هيئة أركانحرب وسلمه قيادة الطابور .

وبدا الفرسان فى أقصى اليمين فى الجانب الأقرب لبناء القرعة العسكرية وقد اصطفوا بخيولهم ومزاريقهم التى ترفرف عليها « الفلانديرات » الملوّنة ، وبجوارهم اصطف الهجانة بجمالهم الفارعة الأعناق المشرئبة الرءوس وعمائمهم العالية ووجوههم السوداء اللامعة ، وبجوار الهجانة اصطف المدفعية بمدافعها المجرورة والمحملة ، وبدت بعد ذلك « أورط » المشاة وفى أولها المدرسة الحربية .

وفى منتصف الطابور اصطفت الموسيقى متجمعة فى الخلف ، وأمام الطابور استقر سرادق المدعوين ملاصقاً للشارع وقد توسطته منصة عالية .. ورفرف عليه علم أخضر كبير .

وفى السرادق الرئيسى استقر كبار القوم من أمراء ووزراء ، وسفراء ونواب ، وشيوخ وأعيان .. وحول الساحة قد تكأكأ الشعب بمختلف طبقاته يشهد تتويج « ملك » شاب جديد .

وكان « على و « سليمان » قد جلسا يرقبان الطابور مع المشاهدين وبنفسيهما إحساس بالمرارة والخيبة لعدم اشتراكهما فى الطابور ولا سيما أن كل زملائهما فى الوحدات الأخرى قد اشتركوا فى الاستعراض مع وحداتهم .

وأخذ « على » يرى نفسه بعين الوهم وقد امتطى الفرس الشقراء الجميلة التى أوقعته بعد أن روّضها وساسها وهو يقود أحد البلوكات فى الطابور ، ويسير بارز الصدر ، مرفوع الهامة .. فى اعتداد وثقة ، وقد وقفت « أنجى » فى السرادق ترقبه فى فخر واعتزاز ثم تدعوه بعد الطابور للركوب معها فى العربة والجلوس فى الحديقة حيث تعوّدا أن يجلسا .

ويطلق « على » من أنفه نفخة سخرية ، ومن فمه زفرة يأس ، ويزجر نفسه عن الاستمرار فى الأحلام اليائسة ، والآمال العقيمة .

ما الداعى لكل هذه الخيالات ، وهو لن يركب ، وهى لن تحضر ؟!! ولكن لماذا لن تحضر ؟!! إن الأمراء كلهم موجودون ، ومن المحتمل أن تكون قد حضرت مع أبيها .. من يدرى !!

وهز كتفيه فى يأس .

ولكن هبها حضرت .. ما الفائده !؟ أيستطيع أن يقفز إليها وسط هذا الحشد الهائل من الحكام والكبراء والعظماء وهى جالسة مع أبيها وأخيها ليحدثها ويناجيها ويبلغها لهفته عليها وشوقه إليها ؟!

لا .. لا .. لا ضرورة لكل هذا .. يكفى إذن أن يصافحها . بل يكفى أن يلتقى بصراهما من بعيد . إن نظرة واحدة من بُعد يمكن أن يروى بها نفسه الحَرى ، وروحه الظمأى .

وحوّل نظره إلى السرادق الرئيسى ، وحاول أن يفحص من به .

عبث فى عبث .. إن العثور على إبرة فى كومة من القش لأسهل كثيراً من العثور على وجه معين وسط تلك الآلاف المحتشدة من الوجوه التى تبدو من بعيد متشابهة متماثلة .

وأعادته من أفكاره إلى أرض الطابور طلقة مدفع دوت معلنة بداية الطابور ووصول صاحب العرش .. ثم بدت بشائر الموكب ذى الخيول المطهمة والحلل البيض المزركشة بالقصب يتهادى من ناحية مبنى القرعة .. وقد تقدم الموكب بعض ضباط الياوران وفى الوسط أقبل « الملك » على جواد أحمر بادى الاستكانة والهدوء ، وبدا « الملك » من فوقه وسيماً ، جميل القسمات ، حلو السمات ، صلب القوام ، مرفوع الهامة ، وسار وراءه بقية ضباط الياوران .

وضجت الساحة بالتصفيق والهتافات وبدت على وجوه الناس فرحة واستبشار بالوجه السمح الجميل ، وعّبر سليمان لعلى عما يجيش فى صدورهم ويفيض بأفئدتهم قائلا :

ـــ إنى أحب هذا الملك .. فسيماه تبعث على التفاؤل ، وأشعر أنه أقرب إلى قلوب الناس من أبيه .. إن تلك الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين الشعب والتاج والتى تجعل أحدهما فى أخفض قرار والآخر فى أعلى قمة لم تعد قائمة .. منذ أن رأيت صورته وهو مقبل من الخارج ليتولى الملك .. ومنذ أن سمعت صوته وهو يذيع بيانه الأول على الشعب .. أحسست أنى أحبه وأن الشعب سيحبه .. وأدركت أنه يمكن أن يكون معقد آمالنا ومحط رجائنا ، وأن مصر يمكن أن تبدأ على يديه عهداً جديداً وبعثاً قوياً ..أجل ياعلى.. إن هذا « الملك » الشاب الوسيم، يمكن أن يقود مصر إلى قمة المجد ويحقق لها حريتها واستقلالها وله فى نفوس الناس من الحب والولاء .. وحسن الظن .. وطيب الرجاء .. ما يمنحه الأرض الخصبة التى تزهر نبته وتقوى غرسه .. ألا ترى أنت فيه ذلك ؟! انظر إليه .. وإلى ترحيب الشعب به .. إن صله « الملك » بشعبه يجب أن تكون كذلك .

ولم يكن « على » قد تناول المسألة فى ذهنه بمثل هذا العمق ، ولا حاول أن

يربط بين الملك والشعب ، ولا أن يفكر فى قدرته واستطاعته ، ولا فى أن يكون معقد آمال .. ومحط رجاء .. كل هذا لم يدر بخلده .. ولن يدور بخلده .. فهو يجد فيه نوعاً من سفسطة سليمان وهوايته للسياسة والوطنية ، هواية لا يجد « علىّ » لها فى نفسه موضعاً .

إن الملك يبدو وجيهاً أنيقاً وسيما .. هذا هو كل ما كان يراه « على » ، وكان ذهنه بعد ذلك أكثر انهماكاً فى تتبع الطابور فى الساحة واختلاس النظر للبحث عن وجه معين فى السرادق منه فى تتبع صلة « الملك » ، بالشعب .. أو البحث فى قدرته على تحقيق الحرية والاستقلال .

وقف « الملك » فى منتصف الساحة أمام الطابور يتلقى التحية . وعندما انتهى السلام الملكى بدأ التفتيش بصيحة قائد الطابور : « تشكيل مفتوح .. مارش » ثم أخذت الموسيقى تعزف مارش التفتيش بلحنه الطروب العذب ، وبدأ الركب الملكى بخيوله المطهمة وحلله المزركشة مروره على القوات مبتدئاً من الميمنة حيث اصطف السوارى .

وانتهى التفتيش وعاد « الملك » بموكبه إلى منتصف الساحة حيث نقطة المرور التى ارتفع فيها العلم مرفرفاً فوق سارية عالية .

وقف « الملك » ووراءه رئيس هيئة أركانحرب بجسده الطويل ، ورأسه الأشيب ووجهه البادى الطيبة ، البارز عظام الوجنتين والذقن ، وانطلقت صيحة من قائد الطابور : « تشكيل مضموم .. مارش .. الضباط والبيارق تعود إلى مراكزها » .

ثم توالت بعد ذلك سلسلة من النداءات التى تشكل الوحدات للمرور فى الاستعراض ، وبدأ المرور وتحركت القوات فى دائرة كبيرة لتبدأ السير على خط المرور من ناصية مبنى القرعة .. وتقدمت الموسيقى إلى الأمام فى منتصف الساحة لتواجه نقطة الذات الملكية ولتعزف لكل وحدة المارش الخاص بها أثناء المرور .

وبدأ مرور السوارى .. بإدارته فى المقدمة ثم بيرقه الذى طرزت عليه المواقع

الحربية التى خاضتها وحداته .. ومرت أورطتا السوارى فى هيئة طابور بلوكات يتقدمهما قائد الأورطة ، ويتقدم كل ضابط بلوكه .. مشدود الجسد .. بارز الصدر بروزاً يكاد يمزق أضلعه .. مرفوع الرأس .. صارم التقاطيع.. لا يرمش له جفن أو تتحرك له جارحة .. كأنما هو تمثال من صلب ثبت على ظهر الحصان .. فلا يكاد يقبل على نقطة المرور حتى تنطلق من فمه صرخة تكاد تشق لها حنجرته : « بلوك .. لليمين انظر » .. وكأنما لا يأمر بها بلوكه فحسب.. بل يأمر بها القوات المستعرضة كلها .. ومعها كذلك الجماهير المحتشدة .. ولا يكاد ينتهى من ندائه حتى يرفع مقبض السيف بشدة إلى فمه بحيث يكون حدّه عمودياً أمام رأسه ، وبنفس الشدة يخفضة ليركز بقبضة يده على ركبته والسيف ممدود على طول ذراعه وذبابته مصوبه بالميل أسفل .

وكلما مرّ ضابط .. وضع « على » نفسه مكانه .. ثم وضع توءم الروح فى السرادق تشخص ببصرها إليه بين الأعين المتطلعة ، ويشعر بمتعة تعقبها حسرة وهو يجد نفسه لا يمتطى أكثر من مقعد ، ويجد النظرة المختلسة تعود من السرادق بخفى حنين عاجزة عن التعلق بالوجه المنشود بين آلاف الوجوه المرصوصة .

وانتهى مرور السوارى ثم تلاه مرور الهجانة بجنودها السود ذوى العمائم معتلين السنام العالية وكأن رءوسهم أطراف المآذن تعلوها القباب .. ثم بدأت مارشات الأورط تعزف خلال مرورها الواحدة بعد الأخرى .. و « على » يرقب زملاءه السائرين فى الاستعراض ويسميهم لسليمان واحداً بعد واحد شاعرين بغبطة وتسلية لمرآهم ممسكين بسيوفهم وقد تجهمت وجوههم وتصلبت أجسادهم فى القالشين الملتف حول سيقانهم والقوايش المخيطة بخصورهم .

وفى الأورطة الأخيرة علت ثغر « على » ابتسامة واسعة وهو يرقب « محمود عثمان » وقد كوّن مع قائد الأورطة وأركان حربها ثالوثاً أسود بدا عليه التناسق والانسجام .. وضحك سليمان قائلا :

ــ صدفة عجيبة تلك التى وضعت عثمان فى مكانه الملائم بين الضابطين

الأسودين .. يجب أن يطلقوا على هذه الأورطة أورطة السودان .

وعادت القوات بعد المرور إلى أماكنها فى الساحة مرة أخرى . وعلا الهتاف بحياة « الملك » . ثم صدحت الموسيقى بالسلام الملكى ، وانتهى الطابور .

واشتد الهرج والمرج .. وتزاحمت العربات .. واختلطت أصوات « الكلاكسات » بصيحات الحناجر .. وبدأ استعداد الوحدات للعودة إلى ثكناتها .. وتعالت النداءات المختلفة ما بين « صفا » و « انتباه » و « كتفا سلاح » و « جنباً سلاح » .

وأحس « على » بالكثير من الخذلان وهو يرقب جموع المدعوين فى السرادق الرئيسى .. يتفرّقون متجهين إلى العربات المتزاحمة فى الطريق ، دون أن يبصر بينهم بارقة تضىء جوانحه وتشرق فى حناياه .

وسار سليمان وصاحبه يشقان طريقهما عائدين إلى الثكنات واستطاعا أن ينفذا من بين الأجساد المحتشدة حتى وصلا إلى رصيف شارع الخليفة المأمون الذى تدفقت فيه العربات المتزاحمة .. وسنحت فرصة للعبور بعد عربة مرقت لم يكن فى ذيلها عربة أخرى تسد الطريق ، وهمّ « سليمان » بالعبور بسرعة إلى الرصيف الآخر ، ولكن « على » كان يقف مشدوهاً يحملق بعينيه فى المارقة .

لقد كانت عربة الأمير إسماعيل .. إنه يعرفها جيداً .. العربة « الهمبر » السوداء .. ويحفظ رقمها جيداً ، ولقد أبصر من خلال زجاجها الخلفى رأس الأمير بشعره الأبيض الناعم ، الذى يغطى قفاه الأحمر المكتنز وجزءاً من صدغه العريض وأذنه الكبيرة .. وأبصر كذلك جزءاً من شعر أصفر يشع منه سنا أضاء كسنا البرق فى قلبه .. وأبصر .. أم تراه واهماً ؟! وأن هذا الذى أبصره غير كائن إلا فى حدقة عينيه .. يراه فى كل ما يبصر ، وما لا يبصر .. فى الطريق وهو سائر ، وفى الخانات وهو راكب .. فى سقف الحجرة إذا ما أغمض عينيه ، وفى السماء إذا ما فتحهما .. فى النجوم وفى الغمام .. وفى القمر المطل من خلل الغمام .. أتراه قد أبصر الآن ذلك الشىء المرسوم فى حدقته ، أم رآها حقاً ؟

بل رآها .. وتنسم عبيرها .. إنه يكاد يجزم بذلك .. أجل .. أجل .. إنها هى .

وجذبه سليمان من ذراعه فى شدة .. وقد ضاق بوقفته ، والعربات مقبلة تقطع عليهما الطريق وتمنع المرور وصاح به :

ـ ما بالك تستمرت فى مكانك كالصنم ؟

وأجاب « على » بغير وعى وهو يسير بجواره وبصره ما زال مثبتاً فى العربة المتباعدة :

ـ إنها هى .. هى .

ـ من ؟

ـ إنها هى عربتهم .. هذه التى مرّت بنا .. لقد لمحت بها أباها .

ـ وماذا تريد من أبيها ؟

ـ بل لمحتها هى .. أجل .. إنى واثق من ذلك .

ـ أواثق أنت أنك رأيتها ؟

ـ أعتقد ذلك .. لقد خيل إلىّ أنى لمحت جزءاً من شعرها .

ـ ولكن هب أنها هى فعلا . ماذا يمكن عمله الآن ؟! أتحب أن نأخذ أحد بلوكات السوارى لنطارد به العربة ونختطفها منه .. ثم نأخذها أسيرة إلى الميس أ إلى سرجخانة أربعجى بلوك ؟

ولم يكن يبدو على « على » كبير استعداد لتقبل السخرية ، ولا كان من حضور الذهن بحيث يحاول أن يفهم ويجاوب .. كان ذهنه منطلقاً وراء العربة ، ولم يستطع أن يجيب سليمان إلا بقوله :

ـ لو تقدمنا ثانية لاستطعت أن أراها قبل أن تمرق العربة .

أجل .. ثانيه واحدة ، كانت تقوده أمام العربة بدلا من خلفها .. وكان يستطيع ـ بفرض وجودها فى العربة ـ أن يبصر وجهها ، وأن يلمح بسمتها الرقيقة التى تبعث الأمل فى نفسه والقوة فى روحه .

وبدا لسليمان أن يقطع عليه سبيل الندم وأن ينزع من تفكيره حرف الامتناع .. وألا يتركه معلقاً « بلو » تقدم ثانية .. لحدث كذا ، وكذا .. فقال فى لهجة ثقة :

ـــ لو تقدمنا ثانية لما فزت بأكثر من وجه الأمير ، ومن قفا الأمير لوجهه .. ياقلبى لا تحزن !

وأجاب « على » فى إصرار وضيق :

ـــ لو تقدمنا ثانية لرأيتها .

ـــ أنت واهم .. إنى لم أبصر بالعربة سواه .

ـــ ولكننى أبصرت جزءاً من شعرها .

ـــ أنت أحياناً تبصر ما تحب أن تبصر ، لا ماتبصر فعلا .

وكانا قد دلفا من باب السوارى ، وقرع جندى القره قول عقبيه إحداهما بالأخرى ورفع يده بالتحية إلى أعلى المزراق متخذاً وضع « عمودى سلاح » .

ولم تستطع طرقة الكعبين أن توقظ « علياً » من شروده فنبهه سليمان بقوله :

ـــ رد التحية ، وإلا أرد أنا .

ورفع « على » يده مجيباً التحية بحركة آلية .

ولم يجد « على مبرراً لا ستمرار الجدل فى وجودها وعدم وجودها ، ورؤيتها ، وعدم رؤيتها .. لقد كان الأمر فى الحالتين مؤدياً إلى نتيجة واحدة ، وهو ازدياد الإحساس بالخذلان واليأس وتضاعف الشعور باللهفة والحنين .

وعادا إلى الميس ، وجلسا فى البهو ، وارتمى « على » على أحد المقاعد الفوتيل الكبيرة المحيطة بالمدفأة المبنية فى بروز يتوسط البهو الطويل المتسع وأغمض عينيه فى استرخاء واستغرق فى التفكير ، بينما تشاغل سليمان فى إدارة جهاز الراديو محركا مؤشر المحطات يميناً ويساراً محدثاً أقصى ما يمكن من القرقعة والأصوات السريعة المختلطة حتى استطاع الحصول على إحدى المحطات الشرقية التى كانت تذيع أغنية لوردكاش الشائعة : « بتريد أبقى بالأوده .. وضرورى تمشى ع الموده » .

وترك سليمان الراديو يلعلع بالأغنية ، ثم عاد إلى « على » فارتمى على مقعد آخر بجواره ، وصاح بعلى :

ـــ هاى .. وحدوه .

و لم يجبه « على » فانتقل بصره منه إلى صورة فى أعلى المدفأة « للملك فؤاد » كتب عليها إمضاء « الملك » . وقال :

ـــ لماذا يبقون على هذه الصورة حتى الآن ؟

وفتح « على » عينيه متسائلا عن الصورة التى يعنيها ، وأردف سليمان :

ـــ هذه الصورة يجب أن تزال ، وتذهب مع صاحبها إلى حيث ألقت . يجب أن توضع صورة « الملك » الجديد .. يجب أن يوضع الأمل محل اليأس .. سأرفعها الآن .

وقفز فوق المقعد لينزل الصورة فصاح به « على » :

ـــ لا تكن أحمق يا سليمان .. هذا ليس من شأنك .. إنه من شأن ضابط الميس وأركان الحرب والقومندان .. ثم إنى لست أرى مبرراً لهذا التحمس الشديد الذى تبديه « للملك » الجديد .. والحنق الذى تحنقه على الملك القديم .. كأنما هو قد قتل أباك ؟!

ـــ لقد قتل أمتى .

ـــ وحتى بفرض صحة قولك .. من يدريك أن الابن يختلف فى جوهره عن أبيه ؟! من يدريك أن هذه العصا لن تكون من تلك العصية ؟ من يدريك أن العرق الدساس لا يجعل من الحمل ذئباً ؟! من يدريك أن ..

ـــ لا .. لا .. إنى أحس بأنه شىء آخر غير أسرته .. إنى أرجو لمصر على يديه شيئاً كثيراً .

(٣٤)

خلسة المختلس

بدأ« على » بعد ذلك يشعر بمشقة العمل وإرهاقه المفرط .. فقد انتهى طابور التسويج الذى كان يستحوذ على كل اهتمام إدارة السوارى والذى شغلها مؤقتا عن الالتفات إلى الضابطين المستجدين .. ومرمطتهما وعكننة مزاجهما .

و لم يشعر « على » فى حياته الجديدة بفارق كبير عن حياته فى « المدرسة » .. القيض .. لقد وجد فيها مشقة أكبر وإنهاكاً أشد . إذ أضحى أشق ما فى المدرسة وهو طابور الركوب الذى لم يكن يزيد فى القسم النهائى على ثلاث مرات .. أضحى واجباً يومياً لا بد من أدائه .. وزادت مشقته وطالت مدته .. و لم يكن «على » يشعر فى أى وقت من أوقات عمله بالسوارى أنه ضابط .. فقد كان فى الطابور يعامل كأنه عسكرى .. كان يركب بسرج نفراتى .. ويدخل فى الخانة ويخضع لأوامر التعليمجى كأى عسكرى ، ويرفع الركاب كلما أمر حكمدار الطابور يرفعه ، وكان شر ما فى الأمر أنه يشعر أنه بحكم كونه ضابطاً يجب أن يكون خيراً من أى عسكرى فى الطابور فكان عليه أن يبذل أقصى جهده وأن يتحمل ويصبر ويتجلد حتى لا يبدو منه ما يخجله أمام العساكر الذين قد يتولى قيادتهم بعد انتهاء التعليم .

وكان يعرف أن هذا التعليم الذى يرهقه الآن لم يكن سوى مقدمة لتعليم أكثر إرهاقاً وأشد قسوة ، وهو فرقة «الركبداريه » التى لا بد أن يحضرها كل ضابط جديد لكى يصبح « ضابط سوارى » وبغيرها لن يزيد فى نظر أهل السوارى عن مشاة راكب .

وكان يستيقظ فى الخامسة أو الخامسة والنصف كعادته فى المدرسة ليكون فى

الإسطبل فى السادسة أو السادسة والنصف حيث يجد إبراهيم أفندى فى انتظاره يغدو ويروح بين الخيل والعساكر كأنما قضى ليلته فى الإسطبل .فإذا انتهى الطابور لا يستطيع العودة لإراحة جسده قبل أن يقف على « حوض السّقية » حتى تنتهى الخيول من الشرب ، ولا بد له أن يشترك مع العساكر والضباط فى الصفير لها حتى تنعم بشربة هنيئة مريئة ، وتنطلق خلال ذلك مئات النوبات من البروجى لا يستطيع أن يميز إحداها عن الأخرى .. فقد كانت نوبات السوارى تختلف تماماً عن النوبات التى حفظتها أذناه وهو فى المدرسة .. ولم تكن النوبات تقتصر على نوبات الأعمال المحددة بمواعيد .. بل كانت هناك نوبات أشخاص .. فللجاويش نوبة ، ولأومباشى العيادة نوبة ،وللباشجاويش نوبة ؛ ولا ينفك البروجى ، ينادى عليهم ببوريه كلماطلبهم أحد .. ويغرق « على » فى الحيرة غير مدرك سر تلك النوبات الحمقاء المتتالية ، التى لا يكاد يميز منها سوى ثلاث نوبات ، نوبتى سقية وعليق لأنه كان يعرفهما من الخيل نفسها إذ كانت تحس بهما قبل أن يحس بهما هو ، وكانت لا تفتأ تصهل وتضرب الأرض بحوافرها فى قلق حتى يقدم الشراب والطعام .. أما النوبة الثالثة فهى نوبة طومار لأنه كان يعرف أية كارثه يمكن أن تحل به إذا تغيب عن الطومار .

وعندما ينتهى السقى والعليق يعود إلى الميس لتناول الإفطار أو يكتفى «بشطير » فول أو طعمية من الكانتين ، ويطفىء حرقته بكوب من شراب المانجة ، إذا تعذر الذهاب إلى الميس ، ثم يواصل بعد ذلك طابور السوارى الثانى وهو طابور تعليم سيف ومزراق .

ويبدأ بعد ذلك الطومار .. ثم التفتيش على الخيل والإسطبلات .. ثم سقية وعليق الظهر ، ثم أعمال المكاتب التى لا تنتهى إلا وقد حلت الثانية ظهراً .

ولا يكاد ينتهى من الغداء حتى يحل موعد طابور بعد الظهر .. وعند انتهاء الطابور يشعر « على » أن قدميه لم تعودا تقويان على حمله فيلجأ إلى الراحة فى حجرته حتى وقت النوم .

ومرت بضعة أيام بعد طابور التتويج و « على » منهمك فى عمله لا يكاد يجد من وقته فسحة للتفكير إلا قبيل النوم وقد استلقى على فراشه قبل أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه تماماً كما كان يفعل فى أيام المستجدين فى المدرسة .

وفى ذات يوم كان عليه أن يقوم بأعمال النوبتجية . وكانت أول نوبتجية يقوم بها وحده بعد أن قام ببضعة نوبتجيات « يدك » وهى نوبتجيات تمرين يصحب فيها الضابط الجديد ضابطاً قديماً فى نوبتجيته حتى يعلمه مادق من أمر النوبتجية وما خفى .

وذهب « على » بعد انصراف الضباط ليصطحب الجاويش النوبتجى لصرف اليمك (طعام العساكر) وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ، وشمس يوليو تصوّب سياطها المحرقة على الرءوس والأجساد ، و « على » قد أمسك بخيزرانة رفيعة قصيرة وسار يضرب الأرض بحذائه الطويل المعفر القدمين ، الملوث باطن العنق بزغاء أبيض جاف هو خليط من صابون السرج وعرق الحصان وشعيراته ، وبنطلون الركوب الثقيل قد ضغط على ركبتيه وشمّر إلى أعلى وبدت فى رقعتى فخذه آثار بنّية حمراءنضح بها ورنيش السرج وصبغته ، وثبت البنطلون إلى وسطه قايش الجلد العريض الذى يشد خصره ويجذب بحمالته كتفه اليسرى .. وفى داخل البنطلون حشر ذيل القميص الكاكى الذى أحالت الشمس والغسيل لونه فى بضعة أسابيع وأضاعت صبغته فجعلته أشد ميلا إلى الصفار والبياض ، ومن فتحة القميص ــ الذى استقرعلى كل كتف من أكتافه اسبلايط يحمل نجمة وحيدة ــ برز عنق « على » صلباً رفيعاً معروقاً ، استقر عليه وجه بادى الهزال والنحافة قد كسته صرامة أعياها الجهد ، فأضفى عليها خيوطاً من ضيق وكلال واستكانة .

وتوقف « على » أمام باب المطبخ وراء الإسطبلات فى صف الأبنية القصيرة الموازية للبوابة الخلفية والمطلة على الصحراء والخانات ، ورمق صفوف القراوانات النحاسية المصفوفة على الأرض أمام المطبخ . ثم سأل الأومباشى

الواقف أمامها والذى طرق مهموزيه المقوسين طرقة أشبه بطرقعة الصاجات ، ورفع يمناه بالتحية ممسكا بيساره خيزرانة تبدو كأنها فى السوارى من لوازم النوبتجية وصف الضابط .

وتبين فيه « على » أحد صف ضباط الأورطة الأولى التى هو فيها فتساءل :

ـــ أين قروان الأورطة الثانية ؟

ـــ ما زال الأومباشي عبيد يجمع النوبتجية .

وأحس « على » بالضيق والحنق .. إنه يكاد يقف على قدميه ، وهذا الحيوان النوبتجى لم يجمع القروان بعد ، ولا بد له أن يلطع فى الشمس حتى تحضر قروانه .

وصاح « على » فى حنق :

ـــ قل للبروجى يضرب أومباشى نوبتجى كنجى أورطة .

وكان « على » قد بدأ يتأقلم ويستعمل البروجى فى كل روحة وغدوة .

وانطلق البروجى يضرب نوبة لم يستطع « على » بالطبع أن يمير كنهها و لا أن يعرف ما إذا كان للأومباشي النوبتجى أم لأركان حرب السوارى .. المهم أنه بعد لحظات أقبل الأومباشى عبيد يسوق أمامه بالخيزرانة بضعة عساكر يحملون القروان ويعدون أمامه وهو يصيح بهم على مسمع من « على » :

ـــ اجرى يا ابن الحصان منك له .. فى المرة القادمة إذا تأخرتم سأجلدكم فى عواميد الإسطبل .

وأحس « على » بالحرج والأومباشى يسب العساكر ويهددهم بالجلد وعلى مسمع منه ، و لم يدر كيف يتصرف ، ولكن لسعة الشمس وفرط الجهد جعلته يفضل « الصهينة » ويصم أذنيه كأن لم يسمع ، وصاح بالأومباشى :

ـــ بسرعة يا أومباشى .

وصاح الأومباشى بطابوره المساق :

ـــ قف .. تمام يا فندم .

وأخذ العساكر يرصون القروان فى الجانب المقابل لصفوف القروان الأخرى . وبدا فى تلك اللحظة الأومباشى الطباخ يحمل القزان الضخم بمساعدة عسكرى آخر ثم وضعه بجوار القروان ، وغاب فى المطبخ برهة ثم عاد يحمل « حلة » صغيرة بها سائل أحمر شبيه بالصلصة ، ورفع غطاء القروان وسكب فيه ما بالحلة .

وبدت الدهشة على وجه « على » وهو يرى ما بالحلة وسأل الطباخ :

— إيه ده ؟

— بهارات .. نضعها فوق العدس ،

— ولكن أين الخضار واللحمة ؟

— ستوزع فى المساء .

— ولماذا ؟

— لأن التعيين يأتى متأخراً من النزل ولا نجد وقتاً لإعداده إلا فى العشاء .

— ولكن فى المرة السابقة صرفناه فى الغداء ؟

— لا بد أنه كان تعييناً .. جافاً .. فاصوليا ناشفة .

ودخل « على » إلى المطبخ فوجد كومة من قشر « الكوسة » ملقاة فى أحد أركانه ووجد على الفرن قزانين يئزان من الغليان .. ورفع الطباخ غطاء أحدهما قائلا :

— هذه هى الكوسة والأرز .

ثم رفع الآخر بعد أن غطى الأول مردفاً :

— وهذه هى اللحمة .

واقتنع « على » وخرج ، ثم طلب منه « كبشة » لكى يتذوق العدس ، منفذاً التعليمات التى وضحها له إبراهيم أفندى عندما علمه أصول النوبتجية .

ورشف من « الكبشة » رشفة طويلة استطعمها فى غير تكلف ولا ادعاء وقال للطباخ :

— اصرف .

وانتهى الطباخ من الصرف وانتهت بذلك آخر مهمة من مهمات النوبتجية قبل الظهر ، وأحس « على » أنه يستطيع أن يلجأ إلى الميس لينعم ببعض الأكل والراحة والظل . ونظر إلى الساعة فوجدها الثانية والنصف فقال للجاويش النوبتجى .. ساعده الأيمن فى النوبتجية :

— سأذهب إلى الميس .. وأظن لم يعد لدينا ما نعمله حتى طابور العصر ؟

— لا يا فندم .. تستطيع حضرتك أن تذهب لتستريح .. وسأعد أنا العليقة لتكون جاهزة بعد الطابور .

— سآتى إليك فى الساعة الرابعة .. وإذا حدث أى شىء احضر إلىّ فى الميس .

وسار « على » مغادراً المطبخ متجهاً إلى الميس .. ولم يكد يبلغ طريق الميس ، حتى أبصر بلوكامين الأورطة يقبل عليه مسرعاً من ناحية المكاتب فتوقع مشكلة جديدة وتوقف حتى وصل إليه ، وقد أحس بضيقه يتزايد وصبره يكاد يفقد .. وقبل أن ينطق البلوكامين بكلمة صاح به :

— ماذا أيضاً ؟! إنى سأحضر فى الرابعة .. ألا يمكن الانتظار حتى أعود ؟

ومدّ البلوكامين يده بمظروف أزرق قائلا :

— إنها رسالة لحضرتك أحضرها مندوب البريد فى بريد اليوم .

وتناول « على » الرسالة وهو يتساءل فى دهشة :

— رسالة لى أنا ؟

— أجل .. مكتوب عليها اسم حضرتك .

وقرأ عليها اسمه مكتوباً بالخط العربى الركيك ، ولم يجد هناك مبرراً لاستمرار مناقشته مع البلوكامين أو إشراكه فى دهشته .. فقال له فى لهجة يشوبها الاعتذار :

— إنى فى الواقع لم أكن أتوقع رسائل ، ولذا دهشت من إقبالك علىّ مسرعاً .. وخشيت أن يكون قد حدث شىء .

ـــ إنى لم أنتظر عودتك بعد الظهر خشية أن يكون بها شيء عاجل .

ـــ متشكر يا محمود .. إذا حدث أى شيء .. أنا موجود فى الميس .

ـــ حاضر يا فندم .

وحياه البلوكامين تحية لينة ليس فيها شيء من طرق الكعوب أو رجفة الأيدى .. وعاود « على » سيره إلى الميس ، وهو يقلب الرسالة فى دهشة شديدة دون أن يحاول فضها .

من الذى يمكن أن يرسل إليه مثل هذه الرسالة على السوارى ؟ وأحس بذهنه يحاول أن يدفعه فى عنف إلى اتجاه معين .. اتجاه ممتع لذيذ .. ولكنه ما لبث أن قاوم المحاولة مقاومة شديدة .. و لم يرد أن يترك نفسه ألعوبة فى يد الأمانى الحلوة تدفعه دفعة هوجاء عابثة .. إلى متعة أسرع فى الزوال من وميض البرق .. لا تلبث حتى تتركه فى بهمة من اليأس حالكة مدلهمة .

لا .. لا .. لن يذهب به السخف إلى محاولة إيهام نفسه احتمال كتابتها إليه .. لن يترك نفسه تتعلل بوهم كاذب .. يمسك بين يديه الدليل الأول على كذبه .. الرسالة نفسها ؟ التى لا يمكن أن تكون منها .

ولكن لِمَ لا ؟! أية استحالة هناك فى أن تكتب إليه ؟

ولكن لِمَ تكتب ؟! ولماذا لم تكتب من قبل .. إذا كانت كتابتها إليه فى حيز المستطاع ؟

أيها الغبى كفى خداعاً لنفسك ، إنها لا يمكن أن تكون صاحبة الرسالة ، قد تكون من أخيك أو أبيك أو بهية . أو أى صديق .. إنها قد تكون من أى إنسان عداها .. ولكن ليس هناك ما يدعو أحداً من هؤلاء إلى الكتابة إليك .

وكذلك ليس هناك من سبب يدعوها إلى الكتابة .

ولكن لماذا لا يريح نفسه فيفتح الرسالة ويقطع الشك باليقين ؟ ألأنه يخشى اليقين ويستعذب الشك ؟! ألأنه يرغب فى التمتع ببضع لحظات باحتمال كونها صاحبة الرسالة ؟

وكان قد قطع طريق الميس الذى قام على جانبيه جداران عاليان من شجر الدرنتة وتوسطته أحواض تكاثفت فيها زهور الجارونيا الحمراء .. وعبر بوابة الحديقة القائمة على طراز فرعونى مبسط واتجه إلى النافورة المستديرة التى تتوسط الحديقة والتى أخذت مياهها تتدفق من رأس حصان حجرى فى منتصفها .

وبالأفكار المتزاحمة فى رأسه والرسالة غير مفضوضة قد أطبقت عليها يده فى جيبه ، دخل قاعة المبس فوجد سليمان متشاغلا كعادته بإدارة مفتاح الراديو ووجد بعض الزملاء القدامى الذين يقطنون فى الميس قد جلسوا فى انتظار إعداد الغداء ، وترك سليمان الراديو وأقبل على « على » يسأله :

— ما بالك تأخرت هكذا ؟!

— كنت أصرف اليمك .

— تصرفه فقط أم جلست مع العساكر حتى اطمأننت إلى أنهم أكلوه ؟

— أرجوك يا سليمان .. ليس عندى مزاج للتريقة .

ولم تكن بعلى رغبة فى المناقشة .. كان يود الاختلاء إلى الرسالة ، والتفكير فيها .. والشك فى مرسلها .. ثم .. الإقدام على فتحها .. وارتمى على أحد المقاعد فى ركن قصى ويده ما زالت فى جيبه مطبقة على الرسالة ، وذهنه ما زال يدفعه بين الأمل .. واليأس .. والشك فى أن تكون هى .. واليقين بأنها لا يمكن أن تكون .

وأخيراً .. وفى لحظة إقدام ، وفى غفلة من الرفاق المنهمكين فى الحديث وسماع الراديو .. أخرج الرسالة من جيبه وفض الغلاف وسحب الخطاب من داخله وألقى عليه نظرة خاطفة فإذا به مكتوب بالإنجليزية وبقلم رصاص .

وأدهشته لغته فى بادىء الأمر .. ولكنه ما لبث أن مر بذهنه خاطر جعل قلبه يوشك أن يثب من بين أضلعه ووجد أصابعه المرتجفة تفرد الورقة فى حرص وخشية ، ووقفت عيناه على كلمة عزيزى « على » بالإنجليزية .. وقبل أن يقرأ كلمة أخرى قلب الورقة واندفعت عيناه تنقبان عن الإمضاء ، فإذابه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« الخلصة أنجى » .

ودون أن يقرأ الرسالة ، أطبقت يده عليها كأنما يخشى أن يختطفها أحد ودسها فى جيبه وهو يتلفت يمنة ويسرة وبنفسه إحساس يخفى خلسته عن أعين الرقباء .

ومضت فترة سكون حاول خلالها أن يهدئ الأنفاس المتلاحقة فى الصدر ، ويسكن القلب فى الحنايا .. الهاتف بين الضلوع ، ويفكر فى المنة الجلى والهبة العظمى الهابطة من السماء المنطوية فى الجيب .

إنه لا يريد أن ينتهبها فى نظرات خاطفة وقراءة عجلى ، ولا يريد أن يلقى صاحبتها بعد طول فرقة ولهفة على ملأ من الصحاب وبين ضجيج الراديو وهتافات الزملاء ، بل يريد أن يختلى وإياها فى هدوء وسكينة ولقاء طويل متمهل .

إن خير ما يفعل هو أن يحتفظ بها فى جيبه حتى ينتهى من الغداء ، ثم يأوى إلى حجرته ويغلق الباب عليه ويخلو إليها لينصت بين الكلمات إلى همساتها ويتنسم من السطور عبيرها ، ويتذوق ما بها حرفاً حرفاً ونقطة نقطة .

وكان الضباط قد خلعوا ملابسهم واستبدلوا بالحذاء الطويل وبنطلون الركوب بنطلوناً طويلا يريح سيقانهم من ضغط الحذاء الطويل وثقله .. ويبدو أن أحدهم وهو عبد الرحمن ، وكان أشدهم مرحاً وأكثرهم استهتاراً ، قد بالغ فى طلب الراحة فارتدى البيجامة وجلس على إحدى الأرائك ماداً ساقيه على مسندها فى ضجعة مريحة وأخذ ينثر النكات والضحكات ذات اليمين وذات اليسار .

وعندما أبصر علياً منطوياً فى ركنه ، شارد الذهن ، بادى التفكير ، وهو ما زال يرزح تحت ثقل « الفيلدبوت » موثق القيد ببنطلون الركوب والقايش صاح به :

— هاى .. أنت يا ضابط يا مستجد .. ما لك تجلس هكذا بالشدة الكاملة !! أتنوى الطعام أم القتال ؟! أم تراك فرحاناً بالفيلدبوت !! قم وحل عن نفسك ،

ورحرح .

وكان « على » يعرف سلاطة لسانه .. وقدرته على السخرية .. ولم يكن لديه فى تلك اللحظة من حضور الذهن ما يدفعه إلى الدخول معه فى حديث ومزاح فأجابة إجابة مقتضبة وذهنه ما زال معلقاً بالرسالة الزرقاء المطوية فى جيبه :

ـــ إنى نوبتجى .

ـــ نوبتجى ! .. أظن إبراهيم افندى أفهمك أن النوبتجى لا بد أن يبقى طول اليوم بالفيلدبوت ؟

وكان ذلك هو ما أكده فعلا إبراهيم افندى . وماضرب له المثل عليه بنفسه طوال مدة النوبتجية إذ لم يفارق الحذاء الطويل قدمه حتى الثانية عشرة بعد انتهائه من المرور على دوريات العنابر والإسطبلات والقره قول .

وأجاب « على » نفس اللهجة المقتضبة :

ـــ أجل .. لقد أكد لى ذلك .

ـــ الله يخرب بيتك يا إبراهيم افندى .. كما أفسدت الضابط المستجد .. إياك أن تسمع كلام إبراهيم افندى .. و إياك أن تقلده فى شىء .. لا ترفع يدك بالتحية لكل إنسان كما يفعل . لا تعدو وتثب ولاتجرى « كالمكوك » بلا مناسبة بين الإسطبل والعنبر .. لكى تكون ضابطاً محترماً .. لا تفعل أبداً ما يفعله إبراهيم أفندى .. إن ما يفعله إبراهيم أفندى .. اسمه عندنا « الهنكره » .. فيجب ألا تكون « هنكاراً » كابراهيم أفندى .

ـــ ولكن ما يفعله إبراهيم أفندى هو ما تنص عليه الأوامر .

ـــ أيها الغبى .. ليس كل ما فى الأوامر يجب فعله .. يكفيك جداً لكى تؤدى واجبك وترضى ضميرك أن تفعل نصف ما فى الأوامر .. أما الباقى فليس عليك إلا أن تكتب فى تقرير النوبتجية أنك فعلته ، دون أن تفعل منه شيئاً .. كلنا نفعل ذلك .. حتى إبراهيم أفندى .. أتظنه يفعل فى نوبتجيته العادية كل ما فعله

أمامك ؟! لقد علَّمك خطأ .. علَّمك ما يجب أن يفعل ، لا ما يفعل .. أتظن أنه حقاً أمضى طيلة يومه بالفيلدبوت ؟

— أجل .

— لقد ضحك عليك .. إنه تركك فى فترة الظهيرة مدعياً أنه سيذهب وحده للتفتيش على السروج حتى لا يتعبك معه وطلب منك أن تنتظره فى البهو .. أتدرى أين ذهب ؟

— إلى السرجخانة ؟

— بل إلى الفراش .. لقد خلع بنطلون الركوب والحذاء وتمدد « بالبيجامة » أربعة وعشرين قيراطاً ، وتركك مقيداً فى ملابسك .

— وكيف عرفت ؟

— لقد دخلت حجرته صدفة فظنني أنت ، وقفز من فوق الفراش وهبط أسفله خوفاً من أن يفتضح أمره .

— غير معقول .

— بل هو ما حدث فعلا .. لا تظن أن كل ما هو واجب يفعل ،ولا كل ما هو ممنوع يجتنب ، وإلا أضعت عمرك سدى . قم وارتد البيجامة كما أفعل أنا . ولا يهمك أحد .

وفى تلك اللحظة أقبل إبراهيم أفندى ، ونظر إلى عبد الرحمن وهو يدعو « على » للبس البيجامة وقال له مستنكراً :

— ما هذا يا عبد الرحمن ؟! أتجلس فى البهو بالبيجامة ؟

— ليس هذا من شأنك .

— لو رآك حضرة الصاغ .

— حضرة الصاغ لن يرانى لأنه لا بد وأن يكون الآن فى بيته .

وألقى إبراهيم نظرة من النافذة وقال فى دهشة وتحذير .

— إن حضرة الصاغ مقبل فى الحديقة .

وأجاب عبد الرحمن يا ستخفاف :

— ولو .. قديمة .

ولكن ملامح إبراهيم كانت جادة وتحرك بسرعة تجاه الباب منذراً بقية الضباط :

— يا جماعة .. حضرة الصاغ آت على دراجته فى طريق الميس .. أنزلوا أقدامكم عن مساند المقاعد وكفوا عن الصياح .

وأسرع الضباط فى الاعتدال فى جلستهم .. وأحس عبد الرحمن أن الصاغ آت حقاً .. فوثب وثبة وضعته أمام إحدى النوافذ الخلفية بجوار المدفأة ووثبة أخرى هبط بها إلى الطريق الخلفى المؤدى إلى المطابخ .

واندفع إبراهيم مقهقهاً .. وصاح بعبد الرحمن :

— هذه هى الشجاعة وإلا فلا .. عد أيها الأرنب .

— لا يا عم . سأرتدى القميص والبنطلون . هذه المرة أتت سليمة .. المرة القادمة سيأتى هو .

وأقبل سفرجى الميس يعلن الضباط بإعداد الطعام فنهضوا إلى الشرفة الخارجية المشرفة على الحديقة حيث تعد المائدة طول الصيف .

والتف الضباط حول المائدة وبدأت النكت وانطلقت الضحكات .. وصاح عبد الرحمن وهو يمد عنقه وينظر فى صينية بطاطس صغيرة أمام إبراهيم أفندى أرسلتها له والدته وقال ساخطاً :

— طبعاً ليس بها لحمة .. قل لو الدتك يا إبراهيم أفندى إن هناك شيئاً يسمى اللحمة .. يضعه الناس الطيبون فى صوانى البطاطس .

— إن اللحمة توضع وحدها .

— ولماذا توضع وحدها ؟ ما رأيك فى أن تعطينى ثلاث قطع بطاطس وملعقة سلطة طحينة .. وأعطيك قطعة لحمة ؟

— قطعة لحمة .. ليس بها عضم ؟

ـــ مرافق .

ـــ ومعها خيارة ؟

ـــ لا تكن طماعاً ، قطعة اللحم تساوى خمس قطع بطاطس .

واستمرت المناقشات والتسويات والنكات والضحكات و « على » شارد الذهن غائبه .. لا يكاد يعى مما حوله شيئاً . ولم يكد ينتهى من تناول قطعة البطيخ ، حتى انسحب من المائدة متسللا إلى حجرته .. وأغلق الباب وجلس على « فوتيل » ومدد ساقيه وأخرج الرسالة .

---

(٣٥)

دعوة

عزيزى « على »

أبدأ رسالتى إليك بالاعتذار عن لغتها .. فأنا أعرف أنك تحب مصريتك .. وحبى لها — من أجلها ومن أجلك — لا يقل عن حبك .. ومع ذلك أرانى مضطرة لأن أكتب بالإنجليزية .. لا لأنى لا أعرف العربية ، بل لأن قدرتى على التعبير بالأولى خير من قدرتى على التعبير بالثانية .. ولو كنت أكتب رسالة عادية لمخلوق عادى .. لما شعرت بحاجة إلى القدرة على التعبير ، ولكان سواء لدىّ أكتبتها بالعربية أم بالإنجليزية ولكنها رسالة لك أنت .. أشعر وأنا أهمّ بكتابتها بفرط حاجتى إلى هذه القدرة .. وبأن ما بى من مشاعر أعمق وأكبر من أن تنقله إلى الورق تلك الكلمات العادية التى تعوّدنا أن نستخدمها للتعبير عما بأنفسنا .. وإننى — بلا جدال — فى أشد الحاجة إلى ابتكار وسائل جديدة تستطيع أن تفى بحاجتى .

هذه هى المرة الأولى التى أكتب إليك .. ولست أدرى لِمَ لم أكتب إليك قبل هذا ! لعلّى لأنى لم أتعود المبادأة بشىء ، وأن طبيعتى هى الانتظار .وفى حنينى إليك .. ولهفتى على لقائك .. كنت أجلس وأنتظر .. أنتظر أن تأتى إلىّ ذات ليلة وأنا أجلس تحت الشجرة الكبيرة .. أو تخرج إلىّ ذات فجر من وراء كومة الغاب عند الترعة وأنا أسير على الطريق وحيدة بجوادى .. بل كنت أترك الترولل ينزلق بى من المنحدر .. علك تخرج من وراء السوبة .. لا لتنقذ جسدى هذه المرة .. بل لتنقذ روحى من طول وحشة .. وفرط حنين .

كنت أنتظر .. وأنتظر .. وكنت آمل من القدر أن يفعل شيئاً .. مادمت

لا تفعل أنت .. كنت آمل منه أن يلقى بك فى طريقى ، كما سبق أن فعل وأن يدبر لى ولو صدفة حسنة واحدة ، ولكنه فيما يبدو لى قد تخلى عنى وأغفلنى من حسابه .

ولست أدرى إلى متى كنت أنوى الاستمرار فى الانتظار والاستسلام والتعلق بأوهام هبوطك إلىّ من السماء .. أو منحك لى لقمة سائغة بوساطة الحظ والصدف .

ولقد تعذّرت علىّ أخبارك .. بعد أن انقطع أبوك عن الحضور إلى الحديقة .. وبعد أن ثار والدى وهددنى بأشد العقاب .. إذا عرف أنى رأيتك أو أن هناك أقل صلة بينى وبينك .

ومع ذلك لم أعدم وسيلة لكى أعرف بها أنك تخرجت فى المدرسة والتحقت بالسوارى .. وعندما أنبأنى أبى أنه قد دعى لمشاهدة العرض العسكرى ، الذى سيقام احتفالا بالتتويج ، أحسست برجفة بين جوانحى ، وتمنيت لو استطعت مشاهدة العرض إذ بدا لى أنك لا بد ستشترك فيه .. بل خيل إلىّ من فرط الحنين إليك أنك أنت العرض كله ، وليس بالعرض سواك .

و لم أرد أن أبين لأبى لهفتى على الذهاب معه .. حتى لا يساوره الشك ويدرك سبب رغبتى فى الذهاب ، بل لقد خشيت أن يكون قد أدرك من ملامحى ما طاف بذهنى .. ويكاد المريب يقول خذونى .

و لم أعلق على قوله بشىء .. وكأن الأمر لا يهمنى قليلا ولا كثيراً .. بل كأنى لم أسمع من قوله شيئاً .. ولكن .. عندما جلست للغداء سألته ببساطة عما يفعلونه فى الاحتفال بالتتويج ، فسألنى بدوره ضاحكاً :

— ألم تشاهدى عرضاً عسكرياً من قبل ؟

— وأنّى لى أن أشاهده ؟

— إذاً تعالى معى لتشاهديه .

— أهو شىء يستحق المشاهدة ؟

ـ طبعاً يستحق .. إن البلد لا تحتفل بطابور التتويج كل يوم .. إنه احتفال لا يحدث إلا عند كل تغيير ملكى .. أى عندما يموت « الملك » ويعتلى العرش « ملك » آخر .. وأظن البلد لا يموت فيها كل يوم « ملك » .

وهكذا اصطحبنى فى يسر إلى الاحتفال .

وهناك جلست أرقب .. لا أرقب الطابور كله بالطبع .. ولكن أرقب شيئاً معيناً .. خلته قائماً على ظهر أحد الخيول ، التى تبدو عن بعد فى أول الطابور .

والبصر ـ كالسمع ـ خداع .. يبدى لنا بسهولة ما نود أن نراه حتى ولو لم يكن له وجود .. وهكذا أخذت تبدو لى كالسراب .. على كل جواد وفى كل فارس يروح أو يغدو .. فإذا ما دققت البصر وجدته غيرك وتبدد السراب .

وعللت نفسى بأنى سأراك حتما عندما يبدأ الاستعراض ويمر الطابور أمامنا .. ولكن الطابور مرّ وأنا لا أراك إلا رؤية سرابية .. يبددها التحقيق .

ولا أظنك تدرك مدى الخيبة التى أحسست بها وأنا أرى العرض ينتهى دون أن أجد لك أثراً .. وأنا التى لم آت إلا لرؤيتك ولم أكن أتوهم بالطابور سواك .

وأخيراً .. وأخيراً .. جداً ..

حدثت المعجزة .. حدثت .. وذهبت .. فى مثل ومض البرق .

لقد لمحتك لمحة خاطفة .. والعربة تمرق بنا .. وأنت تحاول عبور الطريق مع زميل لك .

* * *

وترك « على » يده تسقط بالرسالة فى حجره .. وطار بذهنه إلى العربة المارقة وخصلة الشعر الذهبية المهدلة التى تبدو من الزجاج الخلفى .

إذاً فقد كانت هى .. لم يكن واهماً ولا متمنياً .

أجل . أجل .. إنه لا يخطئها قط . إنه يراها حتى ولو لم يبصرها .. إن له قدرة على الإحساس بها .

وتملكته نشوة شديدة وهو يحس أنها قد رأته كما رآها ، وأن اللقاء قد حدث

رغم أنه لم يدركه حين حدوثه .

ورفع يده بالرسالة وعاود القراءة .

* * *

« وكدت أصيح بالسائق أن يقف ، وأصيح بك أن تأتى لتركب معى ، ولكننى تذكرت أبى .. ولم أملك سوى الصمت والشرود .. والانطلاق بالذهن وراءك .. واستدعائك بالوهم والتخيّل .

وعدت إلى البيت وبنفسى حنين جارف إلى رؤيتك وشوق لا يقاوم إلى لقائك ، وكأنما كانت تلك اللمحة الخاطفة ، وميض الشرر الذى يسبب انطلاق قذيفة الشوق لتدك حصن الصبر والمقاومة وتهد قلاع الاستسلام والانتظار .

لقد أحسست أن لنفسى علىّ حقاً .. حقاً فى الحياة .. وأن ذلك الوقت الذى أضعته فى الانتظار لم يكن من الحياة فى شىء .. بل هو زمن سلب من الحياة ليلقى به فى غمار العدم .

ورأيت خير وسيلة للخروج من هذه السلبية التى فرضتها على نفسى هو أن أتصل بك اتصالا مباشراً دون حاجة إلى وسيط أو رسول .. فأمسكت القلم لأكتب لك .. وساءلت نفسى فى دهشة .. لماذا لم أكتب من قبل ؟

عجباً !! إن الإنسان ليضيع عمره وهو مستسلم عاجز ، ثم يكتشف فجأة أن وسيلته للوصول إلى ما يرجو فى متناول يده ، وأنه ليس عليه إلا أن يكف عن الاستسلام والانتظار ويمد يده ليأخذ ما يريد .

وأنا أمد يدى إليك وبى حيرة وقلق ، والوساوس تدفعنى إلى أن أسائل نفسى وأنا أمد يدى .. أما زلت أنت كما أنت ؟ أما زلت أنا فى نفسك كما أنا ؟ أما زلت الحلم الجميل .. والأمنية العذبة ؟ أم قد بددت الفرقة الحلم وبدّل الزمن الأمنية !

عن نفسى أنا .. إن كان للزمن والفرقة أثر .. فهو زيادة الإحساس بك .. وبموقعك فى نفسى ، وضرورتك فى حياتى .

لا شك أن الزمن يُنْسى .. ولكن معك أنت .. لم يكن له إلا تأثير مضاد

للنسيان .. يعلم الله .. لِمَ !! فذكراك لا يزيدها الزمن إلا جدّة .. وصورتك لا يزيدها طول الفرقة إلا وضوحاً وعمقاً .

والآن .. لست أدرى ماذا أكتب . إنى أرى الكلمات تملأ الصفحات ، ولكنى مع ذلك أحس أنى لم أقل شيئاً .. فالأفكار تموج فى ذهنى مختلطة متشابكة ، وإن كانت كلها تتركز فى النهاية فى جملتين : شوق إليك ، ورغبة جارفة فى رؤيتك .

ولست أدرى ما إذا كنت قد قلت ذلك فى كل ما سطرته إليك .. أم لم أقله بعد .

لقد انتهيت خلال هذه الفرقه إلى تفكير جازم أكيد .. إلى أننا ما يسمونه النصفين المتمم أحدهما للآخر .. وأن الطبيعة قد خلقتنا ليتمم كل منا صاحبه .. وأنه إذا كانت تقاليد الحياة وأوضاعها قد فرضت علينا نوعاً من الفرقة فى فترة من حياتنا .. فلا بد أن الطبيعة وهى العامل الأعظم قوة .. والأشد غلبة ، لا بد أن تعيد إصلاح ما أخطأته العوامل الأخرى ، وأننا إذا صممنا على أن يكون أحدنا للآخر .. فلسنا إلا معاونين للطبيعة فى أداء واجبها .

وبهذا التفكير عزمت أن أكف عن انتظارى وأخرج عن سلبيتى .. وألا أدع رغبات الغير فى المحافظة على المظاهر التافهة تغلب رغباتنا فى المحافظة على حقنا فى الحياة .

وبهذا العزم أمسكت القلم لأكتب إليك ، وأقول كل ما بنفسى .

إنى سأسافر إلى الإسكندرية غداً ويخيل إلىّ أن فرصة اللقاء هناك — لو استطعت الحضور — ستكون أكثر سنوحاً .. لأننا سننزل هذا العام فى فندق « سان استفانو » حتى تتم الإصلاحات التى يقوم بها أبى فى بيت الإسكندرية .. والفندق غالباً ما يعج بروّاده فى المساء مما يجعل اللقاء فى ساحته أو حديقة السينما أمراً مستطاعاً .

إنى أسمع صوت أبى ينادينى للنزول معه إلى البلد لابتياع بعض المشتريات .

ولست أريد أن أؤجل رسالتى ، ولذلك فسأختمها الآن حتى أقذف بها فى أقرب صندوق بريد أستطيع إلقاءها به .

وددت لو أراك قبل السفر ، ولكننى لا أظن القدر سيتكرم ويمنحنى هذه الفرصة بعد طول انتظار .

على أية حال.. لن أحاول انتظار منحته بعد أن قررت أن أمد يدى لأخذ ما أراه حقاً لى فى الحياة .. سأكتب لك من الإسكندرية مرة أخرى بعد أن نستقر فى الفندق وأعرف كيف تجرى حياتنا هناك .

كل ما أرجوه أن تدبر أنت وسيلة للحضور ولو لبضعة أيام .

وإلى أن أكتب لك ثانية أرجو لك أطيب التمنيات .

المخلصة دائمـــــاً

« أنجى »

* * *

ومرة أخرى ترك يده تسقط بالرسالة فى حجره ومدد ساقيه وأغمض عينيه .. وحلق بذهنه بعيداً .. بعيداً .. وكأن الرسالة أجنحة تطير به إلى عالم هنىء ملىء بالنشوة والمتعة .

كانت الرسالة بما فيها .. شيئاً غير مصدق .. كان يحتاج إلى جهد لإقناع العقل به وبصحة وقوعه ، وأخذ يتحسسها بأصابعه بين لحظة وأخرى ليتأكد من وجودها .. ثم يستعيد لذهنه ما بها .. ويرفعها إلى بصره ليتأكد من أنها موجودة حقاً .

ووجد نفسه ينهض من مقعده ويغادر الحجرة ويسير فى حديقة الميس متجهاً إلى الثكنات .. وهو يشعر بمتعة من كل ما حوله .

لقد أضفت عليه الرسالة رونقاً وبهاء .. حتى لكأن كل شىء قد تغير فى غمضة عين .. وبدت الأحواض المليئة بالجارونيا وقد أينعت أوراقها وتفتحت أزهارها وبدت الأشجار تترنح أغصانها وتترنم طيورها ، والشمس قد خفت

سعيرها وهدأ لهيبها .

ووصل إلى الإسطبلات فبدت لأول مرة حبيبة إلى نفسه بجدرانها الضخمة وأسقفها المنحدرة ، ووصلت إلى أذنيه أصوات النهنهة والصهيل .. وطرقات الحوافر وشخشخة الجنازير ، وصيحات السباب من أفواه نوبتجية الإسطبلات وكأنها تكوّن أوركسترا ، رائعة النغم حلوة اللحن .

لقد أحس لأول مرة أنه يحب الثكنات بما فيها من أبنية وخيل وجنود ، وزال عنها كل ما يسبب النفور والضيق .. وجلس على طرف أحد أحواض « السقية » يرقب المياه المتدفقة إليها ، ثم رفع عينيه إلى الأكوام المرصوصة فى التبانات من بالات السبلة والتبن والدريس .. وأخذ يرقب أومباشى العليق وهو يخلط الشعير بالتبن والنخالة والملح معدًّا وجبة دسمة للخيول .

ووسط هذا الجو الحبيب إلى نفسه أخرج من حيبه منبع السعادة ومبعث النشوة ، وأخذ يلتقط منها فقرات ليقرأها مثنى وثلاث ورباع كأنما يوشك أن يؤدى فيها امتحاناً .

ومرّ اليوم .. يوم النوبتجية المفروض أنه من أثقل وأشق أيام العمل ، و « على » منطلق فى الثكنات يتمم على السلاح ويشمم السرجاخانات ويصرف اليمك ، ويدب بقدميه فى ثقة واعتداد دون أن يحس بمشقة ولا ملل . وفى كل فترة راحة يخرج من جيبه الزاد ليتزوّد منه بفقرة يقرؤها أو جملة يلمحها .. ثم يجيب فى ذهنه عما يقرأ ، ويعلق على ما يلمح .

« يخيل إلىّ أن فرصة اللقاء ــ لو استطعت الحضور ــ ستكون أكثر سنوحاً » .

ولكن كيف يستطيع الذهاب ؟! أيمكنه الحصول على إجازة ؟! أم يسافر ظهر الخميس ويحضر مساء الجمعة ؟! ولكن ماذا يقول لوالديه اللذين ينتظران يومى العطلة ليتمتعا بلقائه ؟ يقول إن لديه نوبتجية .. أو يقول إنه مسافر إلى الإسكندرية فى عمل ؟!

« كل ما أرجوه هو أن تدبر أنت وسيلة للحضور ولو لبضعة أيام » .

إنها ترجوه .. كأنما هو لا يود .. ولو أدى الأمر إلى الفرار من الشكنات لأقدم عليه .

« وإلى أن أكتب إليك ثانية .. أرجو لك أطيب التمنيات » .

وكان عليه بعد ذلك أن يرقب جندى البريد . الذى لم يكن يشعر من قبل أن له وجوداً ، ولم يطل به الانتظار ، إذ لم يصبح اليوم التالى حتى أقبل عليه الجندى وهو يرقب الطومار ، وسلمه الرسالة الثانية ، ذات المظروف الأزرق .

وقال إبراهيم افندى ضاحكا ، وهو يرى الجندى يسلمه الرسالة :

ـــ ما شاء الله يا على افندى ، بدأت الرسائل الزرقاء . حلال عليك ، إنى لم يصلنى خطاب أزرق إلا بعد سنتين خدمة .

وأجاب عبد الرحمن الذى كان قد ضاق بالوقوف فى إسطبله وأقبل على إسطبلهما يتسلى بمشاغبة إبراهيم افندى :

ـــ أجل .. إنى أذكره .. لقد وصلك على يد محضر .

وصاح به إبراهيم منذراً :

ـــ عد إلى إسطبلك يا عبد الرحمن .. إن قومندان الأورطة يمر الآن .

ـــ أنا لا يهمنى حتى قومندان السوارى نفسه .

وارتفعت صيحة طويلة من ناحية إسطبل عبد الرحمن « انتباه » .. وانطلق عبد الرحمن يعدو إلى إسطبله قائلا :

ـــ يا نهار اسود .. إنه يمر حقاً .

وضحك إبراهيم وقال معلقاً :

ـــ اجر يا رعديد .

وأمسك « على » بالرسالة ، ودسها فى جيبه بسرعة دون أن يفضها أو يقرأ عنوانها كأنما يخشى أن يختطفها منه أحد ، أو كأنه يخشى عليها من شر حاسد إذا حسد .

وتعجب إبراهيم من وضعه إياها فى جيبه دون قراءة .. وتساءل فى دهشة :
ــ ولماذا لا تقرؤها ؟

وخيل إلى « على » أن كل من فى الإسطبل من جنود وخيل قد كشف أمره وهتك ستره ، وأنه لو أخرج الرسالة وفضها فسيمدون أعناقهم لقراءة ما بها . وأجاب فى ارتباك شديد :

ــ ليس بها شيء مهم ، والقومندان على وشك الوصول .

ــ ما زالت أمامك فسحة حتى ينهى مروره فى « تشنجى بلوك » ، وهو بلا شك واجد من الأقذار والملحوظات فى بلوك عبد الرحمن ما يضيع فيه نصف يومه .

ومع ذلك فلم يجسر على فض الرسالة أو قراءتها ، كأنما خشى أن تراق منها قطرة ، أو تطير منها كلمة .. كان يشعر أنه لا يستطيع قراءتها إلا فى خلوة وقد أغلق عليه الأبواب والنوافذ وتحصن ضد الرقباء والمتطلعين .

وانتهى الطومار والسقية والعليق وضربت بضع عشرة نوبة من نوبات البورى لم يميز منها « على » كعادته شيئاً . وبدأت فترة المكاتب ، وأحس أنه لا يستطيع أن يصبر حتى تنتهى المكاتب ثم يذهب إلى الميس لقراءة الرسالة ، ولم يجد خيراً بعد أن نفد صبره من أن يلجأ إلى السرجخانة (حجرة السروج الملحقة بالإسطبل) لينهب فيها زاده دون أن يشعر به أحد .

وتسلل إلى الإسطبل بعد أن خلا من الجنود ، عدا النوبتجى الذى لم يكد يراه حتى صرخ « انتباه » رغم أنه لم يكن هناك من يتلقى نداءه غير الخيل التى لم تعره أدنى التفات ، بل استمرت فى العبث والحركة برءوسها وأرجلها .

وأمر « على » النوبتجى بأن يستمر فى عمله ، ودخل إحدى حجرتى السرجخانة ، وكان لأربعجى بلوك (وهو البلوك الذى يتمرن به مع إبراهيم افندى) حجرتان ضيقتان بدل الحجرة الواسعة والملحقة بكل إسطبل ، ويبدو أن الإسطبل نفسه قد بنى أخيراً فى مؤخرة القشلاق بين البوابة الخلفية والقسم البيطرى .

وجلس « على » على صندوق خشبي كبير ، وضعت به مهمات الإسطبل وبعض الحدايد والعهد الزائدة ، ومهمات السرج الملكى ، وأدوات البولو الخاصة بإبراهيم الذى كان متعلقاً بكل أهداب الأرستقراطية .. من بولو ، وجولف ، وصداقة كل من استطاع من الأجنبيات الشقراوات ذوات العيون الزرق مهما قبح شكلهن .

وفض « على » الرسالة ، وأحس بشيء من الضيق والخذلان وهو يجد الكتابة لا تشغل سوى صحيفة واحدة لا تشبع نهمه ولا تروى ظمأه .

وأخذ فى قراءتها على مهل بعد أن قلبها جيداً علّه يجد بها كتابة أخرى مختبئة فى أحد الأركان :

عزيزى على :

أكتب إليك من الإسكندرية فى أول فرصة استطعت أن أخلو بها إلى نفسى .. إنى أجلس فى حجرتى التى أستطيع أن أبصر من نافذتها أمواج البحر الزرقاء تلتقى بالأفق فى تجعدات رقيقة وأسمع هديرها ليناً ناعماً .. حتى ليكاد ينطبق عليه لفظ (خرير) أكثر من (هدير).

كل ما حولى يدفعنى إلى الحنين إليك .. هذا السكون السائد ، والبحر الساجى ، والزرقة المترامية ، تملؤنى رغبة فى أن أراك لنتشارك المتعة بها والنظر إليها .. إن إحساسى بالمتعة أضحى ناقصاً ، لأنى لا أكاد أحس بمتعة حتى أذكرك ، وأتلهف على أن تشاركنى الإحساس بها ، حتى لكأنك بت وسيلتى للإحساس وبغيرك لا أحس بشيء إحساساً كاملاً .

أرجو أن تكون قد دبرت وسيلة للحضور ، فالفرصة للقاء أكثر سنوحاً مما كنت أظن .. إن أبى سيعود فى الغد إلى القاهرة وسيقضى بضعة أيام لحضور بعض المؤتمرات والجمعيات التى يشترك فى رياستها ، و « علاء » مشغول بحيث لا أكاد أرى له وجهاً ، والفندق فى المساء ملىء بالروّاد ، بحيث لا يكاد يحس فيه أحد بأحد وليس أسهل من اللقاء فيه ، ولا آمن عاقبة .

لن أطيل عليك فى الكتابة لأنى أود أن أرسلها بسرعة لأؤكد لك رغبتى الشديدة فى حضورك ولأؤكد لك سهولة اللقاء .

سأنتظر مساء الخميس فى الساحة أو القاعة الخارجية . ولن يصعب عليك العثور علىّ .. وإذا حضرت فى غير الموعد فتستطيع أن تتصل بى فى تليفون الفندق على ألا تجيب إلا إذا رددت عليك أنا .

وتقبل أطيب تمنياتى ؟ المخلصة دائمـــــاً

« أنجى »

* * *

وكانت الدعوة حارة ممتعة .. ولكن التفكير فى تنفيذها ، كان مربكاً .. معقداً .. شاقاً .. عسيراً .

إنه لم يذهب إلى الإسكندرية إلا مرة واحدة .. فى صغره ، وهو لا يكاد يذكر منها إلا سيدى جابر بمحطته وشاطئه والشارع الموصل بين هذا وذاك الذى يمر بجوار ثكنات الجيش الإنجليزى .

ومع ذلك فهى تسأله ببساطة أن يذهب ليلقاها فى « سان استفانو » ، ويبحث عنها فى القاعة الخارجية أو فى الساحة ، وهو لن يجد مشقة فى العثور عليها .

عفا الله عنها .. وغفر لها حسن ظنها به .

إنه لن يجد مشقة فى العثور عليها فحسب .. بل سيجد مشقة فى العثور على الفندق نفسه .. فهو يهاب كل جديد ، ويخشى من كل ما لم يعتد عليه . إن مواهبه وقدرته وشخصيته لا تظهر إلا فى النطاق الذى ألفه وتعوّد عليه ، أما أن تلقى به فى بلدة لم يزرها فى عمره إلا مرة واحدة .. ثم تطلب منه أن يذهب إلى أكبر فنادقها .. ليلقى ابنة أحد الأمراء ، فإن فى ذلك التهلكة الكبرى .

إنه حقاً قد أضحى « ضابط سوارى » ، وهو فى مركزه مخلوق محترم تتطلع إليه الأعين بالإعجاب والتقدير ، وهو فى مظهره لا يقل أناقة ولا وسامة عن أبناء

الطبقة الأرستقراطية الرفيعة ، ومع ذلك فهو ما زال فى باطنه يشعر بأنه هو هو .. ابن الريس عبد الواحد ، ربيب الطبلية والحصير والعيش الجاف والبنطلون ذى الرقعة ، وهو لا يأنف من ذلك ولا يشعر منه بحرج حتى يحاول انتزاع نفسه منه ، وقطع ما بينهما من صلة وطيّه فى زوايا الإنكار والنسيان .. بل كان يحس بالحنين إليه والاعتزاز به ، ويشعر عندما يعود إلى البلدة والبيت براحة ممتعة وسكينة لذيذة ، وهو يقبل على جيرانهم من الفلاحين ومعارفهم من العمال إقبال مرحب مشتاق فى غير تصنع ولا كلفة ويكاد يضمهم إلى صدره غير عابئ بأن تلوّث أتربتهم حلته . كان إحساسه بهم وبقربهم منه إحساساً قوياً ، وعلى النقيض منه كان إحساسه بالطبقة الأخرى .. كان يشعر بأنه بينها غريب ضال .

وبتلك الرهبة .. وذلك الشعور .. أحس بمدى المشقة التى لا بد أن يلاقيها من أجل اللقاء المنتظر ، وبمدى التهلكة التى يوشك أن يلقى بنفسه فيها ، وهو يذهب إلى الإسكندرية ، ويقتحم الفندق الكبير .. ويضل فى متاهاته باحثاً عنها .

ومع ذلك فلم يكن هناك بد من أن يقدم عليها .. بل لو كان عليه أن يخوض فى سبيل اللقاء معارك يراق فيها دمه لما تردد .. فقد كان الحنين لا يقاوم واللهفة لا ترد .

وفى صباح الخميس كان قد أعد العدة للسفر ، وأجرى كل ترتيب لازم ، وأنبأ سليمان بما نوى عليه ، ورغم أن سليمان لم يرتح لرغبته فى السفر إلا أنه لم يملك أمام عزمه الأكيد إلا أن يسلم له به ، وذهب ليوصله إلى قطار الظهر الذاهب إلى الإسكندرية .

ووقف سليمان على الرصيف بجوار شباك القطار يقطعان الوقت بالحديث حتى يتحرك القطار ، وقال سليمان :

— أعلمت أنهم ينوون نقلنا إلى الآلايين الجديدين الميكانيكيين اللذين أنشئوهما ؟

ـــ من قال لك هذا ؟

ـــ سمعت من صالح افندى مساعد أركان الحرب ، لقد قال إنك ستنقل إلى آلاى السيارات الخفيفة ، وأنا سأنقل إلى الدبابات الخفيفة .

ـــ أين هى هذه السيارات والدبابات ؟! إن كل ذلك لا يزيد على أسماء هيكلية لا نرى منها فى الواقع غير بضعة المدافع الخفيفة التى يمرن عليها الجاويش الإنجليزى بعض الضباط .

ـــ إن الدبابات والعربات توشك أن تصل ، والآلايات قد شكلت فعلا .

ـــ على أية حال أنا أفضل البقاء فى الخيالة .

ـــ لا تكن غبياً .. إن الآلايات الميكانيكية هى وحدات المستقبل .. إنها الوحدات المدرعة المقاتلة .. إن البعثة العسكرية تعمل جادة فى تدريبنا وإتمام تسليحنا ، ومن الغباء أن نربط أنفسنا بالخيل فى زمن التطور .

ـــ إنى لا أشعر بالغبطة والنشوة إلا بين الخيل .

ـــ لأنك حصان ابن حصان .

وتحرك القطار . وضحك « على » وهو يلوّح بيده لسليمان ويقول له :

ـــ متشكر .

تم الجـــزء الأول

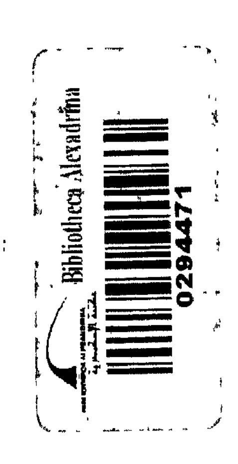
ويليه الجزء الثـانى

فهرس الجزء الأول





مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه